

مجموعتنا
الدكتور
أسد رستم
٢١

كنيسة فلانين الله انظر كتاب العظمى

للكتور اسد رستم
مؤرخ الكرسي الانطاكي



الحزب الساني

٦٣٤ - ١٤٥٣ م

منشورات المكتبة البولسية

طبعة ١٩٨٨

*

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة البولسية والمؤلف
(لبنان)

*

منشورات المكتبة البولسية
شعار لبنان - بيروت - ص.ب. ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شعار القديس بولس - بيروت - ص.ب. ١٢٥١ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢



صاحب الغبطة البطريرك اغناطيوس الرابع بطريرك انطاكية وسائر المشرق

محتويات
الجزء الثاني

الباب الثالث : النصرانية والإسلام

٣ الفصل التاسع والعشرون : محمد والإسلام والنصارى

إنتشار النصرانية في جزيرة العرب ٣ ، وصولها الى مكة ٤ ، الراهب بحيرة ٦ ، خطبة النصارى ٦ ، الراهب نسطور ٦ ، محمد وأول الوحي ٧ ، التجاشي ٨ ، جبر النصارى ٨ ، عداس النصارى ٩ ، ابراهيم وموسى وعيسى ٩ ، الهجرة الى المدينة ١٠ ، اليهود أمة مع المؤمنين ١١ ، مخاوف يهود المدينة ١١ ، محمد ويهود المدينة ١٢ ، محمد ونصارى نجران ١٣ ، سليمان الفارسي ١٤ ، محمد والقتال ١٥ ، إجلاء اليهود ١٦ ، الرسائل الى الملوك والأمراء ٢٠ ، قتال النصارى في مؤتة ٢١ ، سقوط مكة ٢٢ ، الأسقف ضغاطر ٢٢ ، تبوك ٢٣ ، الجزيرة ٢٤

٢٥ الفصل الثلاثون : وصول الإسلام الى أبرشيات أنطاكية

تعاليم الإسلام ٢٥ ، توجيه الجيوش الى الشام ٢٥ ، وادي عربة ٢٦ ، خالد بن الوليد ٢٧ ، أجنادين وفحل ٢٧ ، تطوّر في الهدف والخطة ٢٨ ، دمشق ٢٩ ، بعلبك وحمص ٣٠ ، بيروت ٣٠ ، حجة والمعرة واللاذقية ٣١ ، يوم اليرموق ٣١ ، أنطاكية وحلب ٣٢ ، الجراجمة ٣٣ ، المدينة المقدسة ٣٣ ، قيصرية وطرابلس ٣٤ ، يوم الجابية ٣٤ ، قضية الجزية ٣٥ ، عهدة عمر ٣٦ ، الكنائس والأديار ٣٧ ، خروج النصارى ٣٨ ، اليعاقبة والمسلمون ٣٩ ، البطريرك مقدونيوس ٣٩ ، البطريرك جاورجيوس الأول ٤٠ ، مجمع اللاتران ٤٠ ، مرتينوس وأنطاكية وأورشليم ٤٢ ، استشهاد مرتينوس ومكسيموس ٤٢ ، تقارب ومهادنة ٤٣

الفصل الحادي والثلاثون: المجمع المسكوني السادس

٤٤

قسطنطين الرابع ٤٤، التوسع الإسلامي ٤٤، المجمع المسكوني السادس ٤٦،
يوستينيانوس الثاني ٥١، المجمع الخامس السادس ٥١، رومة تحتج ٥٢، خلع
يوستينيانوس وعودته ٥٢، يوستينيانوس والبابا قسطنطين ٥٣، ظهور الكنيسة المارونية
٥٣، يوحنا مارون ٥٦، الموارد والمشيئة الواحدة ٥٦، كتاب الهدى ٥٧، المقالات
العشر ٦٠، موقف علماء الموارد ٦٢

الفصل الثاني والثلاثون: يوحنا الدمشقي دقاق الذهب

٦٣

شقاء «الملكيين» ٦٣، الأمويون والنصارى ٦٣، أسرة يوحنا الدمشقي ٦٦، مولد
القديس ونشأته ٦٨، يوحنا والدولة الأموية ٧٠، يوحنا الراهب ٧١، يوحنا الكاهن
والواعظ ٧٢، يوحنا دقاق الذهب ٧٣، الدمشقي والآداب العربية ٧٧، الوفاة
والتكريم ٧٧

الفصل الثالث والثلاثون: الأيقونات

٧٩

لاوون الثالث الإسوري ٧٩، الأيقونات ٧٩، لاوون والأيقونات ٨٢، يزيد
والأيقونات ٨٢، أساقفة آسيا الصغرى ٨٣، بسر السوروي ولاوون ٨٤، بركان
ستورينة ٨٤، إيقونة خالكة ٨٥، البطريك والبابا ٨٥، تحريم الأيقونات ٨٦،
موقف كنيسة أنطاكية ٨٧، البابا غريغوريوس الثالث ٨٨، قسطنطين الزبلي ٨٩،
قسطنطين والصلب ٨٩، هيرارخية أنطاكية ٩٠، مجمع هيريرة ٩١، تصنيق
واضطهاد ٩٢، موقف رومة ٩٣، المجمع المسكوني السابع ٩٤، إمبراطورية غربية ٩٦

الفصل الرابع والثلاثون: نظم الكنيسة وقوانينها وطقوسها

٩٨

في القرنين السابع والثامن

إرتباك وانحطاط ٩٨، ترفع وتصور ٩٨، قوانين الرسل ٩٩، وصايا الرسل ١٠٠،
الكتب المقدسة ١٠٠، الأباطرة والكنيسة ١٠١، البطريك المسكوني ١٠١، النظام
والانضباط ١٠٢، ممارسة الأسرار ١٠٥، الصوم ١٠٦، الليتورجية ١٠٦، ولا نجفو
بركينا ١١٠، الترتيل والمرتلون ١١٠، العلم والتعليم ١١١

الفصل الخامس والثلاثون: العباسيون والكنيسة

١١٣

الثورة العباسية ١١٣، السياسة العباسية ١١٤، العباسيون والنصارى ١١٤، تحاسد

النصارى ١١٧، الشرع والنصارى ١١٨، القضاء بين النصارى ١٢١، الخلفاء
والبطاركة ١٢٢، هيرارخية أنطاكية ١٢٤

الفصل السادس والثلاثون: فوطيوس العظيم

١٢٨

لاوون الخامس والأيقونات ١٢٨، ميخائيل الثاني والأيقونات ١٢٩، ثيوفيلوس
الأول ١٣٠، يوم استقامة الرأي ١٣١، الأحزاب والكنيسة ١٣٢، إغناطيوس
وبرداس ١٣٣، فوطيوس رئيس الكنيسة ١٣٥، رسائل الجلوس ١٣٨، البابا
نقولاوس الأول ١٣٩، المجمع الأول الثاني ١٤٠، نقولاوس وفوطيوس ١٤٢،
إبثاق الروح القدس ١٤٥، دعوة الى مجمع مسكوني ١٤٥، نقولاوس ١٤٧،
إنقلاب في القصر ١٤٧، المجمع القسطنطيني التاسع ١٤٨، اضطهاد فوطيوس
والإفراج عنه ١٥٠، المجمع القسطنطيني العاشر ١٥١، يوحنا الثامن والمجمع ١٥٨،
سنو فوطيوس الأخيرة ١٥٩، تطوييه ١٦٠

الفصل السابع والثلاثون: عصر الروم الذهبي (٨٤٣ - ١٠٢٥)

١٦١

ضعف الدولة العباسية ١٦١، فتوحات باسيلوس الأول ١٦١، لاوون السادس
١٦٢، قسطنطين السابع ورومانوس الأول ١٦٣، دولة الحمدانيين ١٦٤، خرشنة
والمصيبة ١٦٦، يوحنا جيمسكي ١٦٦، احتلال اقريطش ١٦٧، مغارة الكحل
١٦٧، عين زربا وحلب ١٦٧، نيقيفوروس فوقاس ١٦٨، فتوحات الروم في سورية
١٦٨، يوحنا جيمسكي ١٧٠، ثيودوروس بطريك أنطاكية ١٧٠، دمشق تعترف
بسيادة الروم ١٧٠، أورشليم ١٧١، أغابوس بطريك أنطاكية ١٧٢، حروب
باسيلوس الثاني ١٧٦، يوحنا الخامس بطريك أنطاكية ١٧٧، باسيلوس والحاكم
١٧٧، المسيح هو الملك ١٧٨، الفسيلفس نائب المسيح ١٧٩، الفسيلفس والكنيسة
١٨١، الانجيل دستور الدولة ١٨٣، البطريك ١٨٤، الشرطة ١٨٥، التنصيب
والتولية ١٨٦، الانتقاء ١٨٦، صلاحيات البطريك ١٧١، البطريكية ١٨٨،
الأساقفة ١٩١، واجبات الأساقفة وامتيازاتهم ١٩٣، الكهنة ١٩٤، الرهبان ١٩٥،
القديس ثيودوروس الاستودي ١٩٧

الفصل الثامن والثلاثون: الفاطميون والكنيسة (٩٦٩ - ١٠٥٤)

٢٠١

الشعبة ٢٠١، الإسماعيلية ٢٠٢، القرامطة والالفة ٢٠٢، الفاطميون ٢٠٣، العزيز
والنصارى ٢٠٥، السياسة الفاطمية الدينية ٢٠٥، الحاكم بأمره ٢٠٧، حمزة ابن

علي ٢٠٨، الدروز في أبرشيات أنطاكية ٢٠٩، إسم الكنيسة ولقبها ٢٠٩، أنطاكية والقسطنطينية ورومة ٢١١، لغة كنيسة أنطاكية ٢١٢، الطقوس البيزنطية ٢١٣، البطارقة ٢١٥، يوحنا الخامس ٢١٦، الحاكم وسر الإيفخارستية ٢١٧، الاعتراف بطريكية نيقيفوروس ٢١٧، نقولا ووس الثالث ٢١٨، أيجر والمسيح ٢١٩، الياس الثاني ٢٢٠، ثيودوروس الثاني ٢٢٠، باسيليوس الثاني ٢٢١، بطرس الثالث ٢٢١، الشماس عبدالله ابن الفضل الأنطاكي ٢٢٢، أنطاكية والبندقية ٢٢٣، أنطاكية والقسطنطينية ٢٢٤

٢٢٥ الفصل التاسع والثلاثون: بدء الانشقاق العظيم (١٠٥٤)

نفوذ الألمان في رومة ٢٢٥، تدعيم سلطة البابا ٢٢٥، مشكلة الانشقاق ٢٢٦، اتصال واحتكاك ٢٢٨، البطريرك افستاثيوس والبابا يوحنا التاسع عشر ٢٢٨، أزمة سياسية في إيطاليا ٢٣٠، رومة تتحدى القسطنطينية ٢٣٠، موقف القسطنطينية ٢٣١، البطريرك ميخائيل الأول ٢٣١، الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ٢٣٣، رسالة لاوون اخريدة ٢٣٣، رد لاوون التاسع ٢٣٤، توسط السنكلوس ٢٣٥، الكردينال هومبرتو ٢٣٦، الوفد البابوي المفاوض ٢٣٦، هومبرتو في القسطنطينية ٢٣٧، حرم هومبرتو ٢٣٩، البطريرك والفيلسوف ٢٤٠، السيمومة ٢٤١، البطريرك المسكوني وسائر البطارقة ٢٤٣، أنطاكية تذكر بالحجة ٢٤٤، أهمية الحرم والسيمومة ٢٤٦

٢٤٩ الفصل الأربعون: صدى الانشقاق (١٠٥٤ - ١٠٩٨)

في أنطاكية ٢٤٩، في أورشليم ٢٥٠، في الإسكندرية ٢٥١، يوحنا متروبوليت كيف ٢٥١، ثيوفيلكتوس متروبوليت اخريدة ٢٥٢، نهاية ميخائيل الأول ٢٥٣، رومة تدعو إلى الوثام ٢٥٤، البابا غريغوريوس السابع ٢٥٥، أوربانوس وألكسيوس ٢٥٩

٢٦١ الفصل الحادي والأربعون: الحروب الصليبية (١٠٩٨ - ١٣٠٤)

الخطر التركي ٢٦١، مجمع بياتشرا (١٠٩٥) ٢٦٢، مجمع كليرمون (١٠٩٥) ٢٦٤، جيوش خمسة ٢٦٥، موقف الروم ٢٦٦، أنطاكية ٢٦٨، القبر المقدس ٢٧٤، الصليبيون وكنيسة أنطاكية ٢٧٥، الصليبيون وكنيسة أورشليم ٢٧٨، المملكة اللاتينية والإمارات الصليبية ٢٧٩، الرهبان الفرسان ٢٨٤، الهيرارخية اللاتينية ٢٨٥، الهيرارخية اليونانية الأرثوذكسية ٢٨٨، أثناسيوس الثاني ٢٨٩، بلسامون ثيودوروس ٢٩٢، جمهور المؤمنين ٢٩٣، اللاتين والأرمن ٢٩٣، اللاتين واليعاقبة ٢٩٤، اللاتين والموارنة ٢٩٥

٣٠٢ الفصل الثاني والأربعون: رومة والقسطنطينية في أثناء الحروب الصليبية

رومة تجهل الوضع الراهن ٣٠٢، خوف الروم وحذرهم ٣٠٢، داء الضرائر ٣٠٣، ألكسيوس وباسكال ٣٠٣، بطرس غروسولانوس ٣٠٥، أفتيميوس زيفايينوس ٣٠٥، حنة كومنينوس ٣٠٦، بطرس المحترم ٣٠٦، أنسلموس ونيقيطاس ٣٠٧، الفيلسوف عمانوئيل ٣٠٨، أنسلموس وباسيليوس ٣٠٨، عمانوئيل وألكسندروس ٣٠٩، إغبرار الجور وانفصام العرى ٣١٠، إسحق وصلاح الدين ٣١٢، موقف البطريرك الأنطاكي ٣١٢، الصليبيون وكنيسة قبرص ٣١٣، ألكسيوس الثالث وإنوشتيوس الثالث ٣١٤، البطريرك يوحنا العاشر ٣١٥، الحملة الصليبية الرابعة ٣١٦، إنوشتيوس وكنيسة القسطنطينية ٣١٩، سمعان الثاني البطريرك الأنطاكي ٣٢١، الهيرارخية الأنطاكية ٣٢٣، مجمع نغية (١٢٣٤) ٣٢٣، البطريرك الأنطاكي داود ٣٢٤، مشروع إنوشتيوس الرابع ٣٢٤، نيقية تفاوض رومة ٣٢٥، مجمع ليون (١٢٧٤) ٣٢٥، رومة تفصم العرى ٣٢٨

٣٢٩ الفصل الثالث والأربعون: هولاء وكنيسة

الإمبراطورية المغولية ٣٢٩، الأرمن والمغول ٣٢٩، اللاتين والمغول ٣٢٩، هاتون يفوز بالمعونة ٣٣٠، سقوط بغداد ٣٣٠، حلب والجزيرة ٣٣١، أفتيميوس البطريرك الأنطاكي ٣٣٢، دمشق ٣٣٢، ما لم يكن بالحسبان ٣٣٣، عين جالوت ٣٣٣

٣٣٥ الفصل الرابع والأربعون: عهد الممالك

الممالك ٣٣٥، الممالك البحرّيون ٣٣٥، الملك الظاهر بيبس ٣٣٦، بيبس والروم ٣٣٦، بيبس والصليبيون ٣٣٧، سقوط أنطاكية ٣٣٨، ثيودوسيوس الرابع ٣٣٩، ثيودوسيوس الخامس ٣٤٠، أرسانيوس الأول ٣٤٠، ديونيسيوس الأول ٣٤٠، عودة المغول ٣٤٠، الشيعة والدروز والنصارى ٣٤١، الغيورون والمعتدلون ٣٤٣، الصامتون ٣٤٣، إغناطيوس الثاني ٣٤٤، باخوميوس الأول ٣٤٥، ميخائيل الثاني ٣٤٥، الممالك البرجيون ٣٤٦، تيمورلنك ٣٤٦، الجراد والبدو ٣٤٧، ميخائيل الثالث ٣٤٧، دوروثيوس الثاني ٣٤٧، ميخائيل الرابع ٣٤٨، الشماس موسى الجبيلي ٣٤٨، الممالك والكنيسة ٣٤٩، إيمان النصارى ٣٥٠، توقيع البطارقة ٣٥١، قضية الباب (البابا) ٣٥٤

٣٥٨ الفصل الخامس والأربعون: المجمع الفلورنسي

(١٤٣٩ - ١٤٣٨)

الأتراك العثمانيون ٣٥٨، يوحنا الثامن ومراد الثاني ٣٥٩، قرب الثرى وبعد النبط

٣٦٠، مجمع بازل (١٤٣١-١٤٤٨) ٣٦٠، مجمع فرايري (١٤٣٨) ٣٦١، تشاور
الروم ٣٦٢، الوفد الأرثوذكسي ٣٦٣، جلسات فرايري ٣٦٣، جلسات فلورنسة
٣٦٤، إعلان الاتحاد ٣٦٥، إفجانيوس الأسقف خادم خدام الله ٣٦٦، مجمع
القسطنطينية والاتحاد ٣٦٨، الاتحاد في روسية ٣٦٩، مجمع أورشليم ٣٧٠، مجمع
كنيسة الحكمة ٣٧٠، المرسوم الصادر إلى الأرمن ٣٧١، الأقباط والأحباش ٣٧١، المانونيون
البشناق ٣٧١، السريان ٣٧٢، نساطرة قبرص وموارنتها ٣٧٢، المجمع
والأدب الكنسي ٣٧٣، مجمع القسطنطينية ٣٧٥

الباب الثالث النصرانية والإسلام

٦٣٤ - ١٤٥٣

محمد والاسلام والنصارى

٦١٠ - ٦٣٢

انتشار النصرانية في قلب الجزيرة : بحثنا في الفصل السادس والعشرين في انتشار النصرانية في بادية الشام شرقاً وغرباً . وآثرنا ان نرجيء الكلام في انتشارها في قلب الجزيرة نفسها الى ان يتسنى لنا البحث في ظهور الاسلام في مكة والمدينة وذبووعه شمالاً وشرقاً .

ويستدل من أقدم المراجع العربية الاسلامية ان افراداً وجماعات من قبائل هذيم وعذرة وجذام وجهينة وبلي وبهرا وطى وحنيفة دخلوا في النصرانية قبل الاسلام وان بعض هؤلاء لم يُسلم الا بعد وفاة النبي (١) . وأقرب هذه القبائل للمدينة بنو هذيم وكانوا فقراء ضعفاء . اما بنو عذرة فانهم نزلوا وادي إضم في شمالي الحجاز وعرفوا برقة عواطفهم وطهارة عشقهم . وقد جاء في كتاب الطبقات لابن سعد ان امهات بعض الانصار كنَّ من بني عذرة (٢) . وكانت منازل جهينة بين المدينة والعقبة وفي سيناء حتى القوما . وجاءت منازل بلي بين المدينة وتبوك (٣) . ومن نصارى قضاعة بهرا وكانت منازلهم بين بلي وبين مشارف الشام . وتاخمت لحم حدود الشام . اما منازل بني طى وبني حنيفة فانها كانت في قلب الجزيرة والى شرق المدينة (٤) .

والانصار في القرآن هم نصراء النبي : « والسابقون الاولون من المهاجرين

(١) عشية الاسلام للاب هنري لامنس ص ٢٥٧ و ٢٦٤

(٢) الطبقات ج ٣ ص ١١١ و ج ٨ ص ٢٧١

(٣) الحماني ص ١٣٠

(٤) Watt, W. M., Muhammad at Medina, (Oxford, 1956), 87 - 117.

والانصار الذين اتبعوهم» (١). والانصار في القرآن أيضاً هم الرسل أصحاب عيسى استنصر بهم من اليهود: «فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله امنّا بالله وأشهد بأننا مسلمون» (٢).

وقال ابن اسحق: «وكان من بعث عيسى بن مريم من الحواريين والاتباع الذين كانوا بعدهم في الارض بطرس الحواري ومعه بولس، وكان بولس من الاتباع ولم يكن من الحواريين، الى رومية، واندرائس ومنّا الى الارض التي يأكل اهلها الناس، وتوماس الى ارض بابل من ارض الشرق وفيلبس الى قرطاجة وهي افريقية، ويوحنا الى افسوس قرية الفتية أصحاب الكهف، ويعقوبس الى اورشليم وهي ايلياء قرية بيت المقدس، وابن ثلثاء الى الاعرابية وهي ارض الحجاز، وسيمون الى ارض البربر، ويهوذا ولم يكن من الحواريين جعل مكان يودس» (٣).

وهكذا فيكون النصراني عند العرب آتخذ هم انصار عيسى وأنصار أنصاره ويكون احدهم نصراني. ومن هنا الاية: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى» وتكون النصرانية بالتسالي دين النصراني.

وتمر العصور ويبقى حس هذا العهد مسموعاً في ما تبقى من أدب. فهذا حنظلة الطائي يفارق قومه وينسك ويبي ديراً بالقرب من ضفة الفرات. وفيه يترهب حتى يموت. وذلك قس ابن ساعدة يتقفر القفار ولا تكنه دار يتحسنى بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام. وينظم بعضهم الشعر فيزهد في الدنيا ويدعو الى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه (٤).

وصول النصرانية الى مكة: وليس لنا ان نقول مع صديقنا المرحوم الاب لويس شيخو ان النصرانية توطدت في مكة وان الدليل على ذلك ان الكعبة

خضعت لاسقف عليها. فالازرقى قال ان الكعبة كانت مكشوفة لا «سقف» عليها ولم يقل انها كانت «لاسقف» عليها!

ولكن لا يختلف اثنان فيما نعلم في وصول النصراني من الاحباش الى مكة واقامتهم فيها لاغراض يقضونها. واذا كان هؤلاء من «طبقة العبيد» وكانت منازلهم بعيدة عن الكعبة متاخمة للصحراء وكان ما يتحدثون به من قصص دينية لا يتصل بسمع اجداد قريش واشراف أهل البلد الحرام فهاذا نقول بأمية ابن ابي الصلت الذي كان ينظر في الكتب ويقرأها ويلبس المسوح تعبداً وبورقة ابن نوفل الذي عرف الانجيل ونقل بعضه الى العربية (١)! وماذا نقول في القريشيين الاربعة ورقة ابن نوفل وعبيد الله ابن جحش وعثمان ابن الحويرث وزيد ابن نفيل الذين «خلصوا نجياً» (٢) فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد اخطئوا دين ابيهم ابراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! فاما ورقة ابن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من اهلها حتى علم علماً من اهل الكتاب. واما ابن جحش فانه هاجر مع المسلمين الى الحبشة ثم تنصر ومات نصرانياً. وكذلك ابن الحويرث فانه لجأ الى قيصر وتنصر. وابن نفيل لم يدخل في يهودية ولا نصرانية ولكنه فارق دين قومه واعتزل الاوثان (٣).

ومن اخبار النصرانية والنصارى في مكة قبل ظهور الاسلام فيها ان حليلة السعدية ام النبي بالرضاعة عادت بالنبي الى مكة فرآه نفر من الحبشة نصارى فنظروا اليه وسألوهما عنه وقلّبوه وارادوا ان يأخذوه الى ملكهم في الحبشة. وأضل محمد الولد امه في الرضاعة فوجده ورقة ابن نوفل وأتى به عبد المطلب وقال له هذا ابنك وجدته بأعلى مكة (٤).

(١) أسد الغابة لابن الاثير ج ٥ ص ٨٨ والاصابة لابن حجر ج ٦ ص ٣١٧ والاغانى للاصفهاني ج ٣ ص ١٤ - ١٥.

(٢) الجماعة يتحدثون سراً يتمون حديثهم عن غيرهم. وهو لفظ يستوي فيه الواحد والاثنان والجماعة: «فلما استأسوا منه خلصوا نجياً».

(٣) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

(٤) السيرة لابن هشام أيضاً ج ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ والطبعة نفسها.

(١) سورة التوبة ٩٩

(٢) سورة آل عمران ٥١

(٣) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٢٨٠

(٤) فجر الاسلام لاحد امين ص ٢٧

الراهب بحيرة : وأحب أبو طالب محمداً حتى كان يقدمه على ابنائه . وأراد أن يخرج يوماً في تجارة له إلى الشام . وكان محمد لا يزال في الثانية عشرة . فأبدى رغبة في مصاحبة عمه . فصحب الغلام القافلة . ووصل الركب إلى بصرى فنزل بالقرب من صومعة بحيرة الراهب . فرأى بحيرة محمداً « وغمامة تظله » . فأرسل إلى الركب يقول : اني قد صنعت لكم طعاماً فاحضروا كلكم كبيركم وصغيركم . فاجتمعوا إليه وتحلف محمد لحدائته سنه . فأصر الراهب على حضوره فحضر : فجعل بحيرة يلحظه لحظةً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرة وسأله عن أشياء من حاله . فأخبره الرسول فوافق كلامه ما كان عند الراهب من صفاته . ثم نظر الراهب إلى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه : وكان مثل أثر المحجم . فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب وقال : « ارجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه من اليهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغضه شراً » (١) .

خطباء النصارى : ولم يفد أبو طالب مالا كثيراً من رحلته إلى الشام فأقام في مكة . وأقام محمد معه قانعاً بنصيبه . فاذا جاءت الأشهر الحرم ظل بمكة مع أهله أو خرج وإياهم إلى الأسواق المجاورة بمكاف ومجبة وذو الحجاز يستمع لأنشاد اصحاب المذاهب والمعلقات ويصغي إلى خطب الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على اخوانهم العرب وثبتهم ويحدثونهم عن الانجيل والتوراة ويدعونهم إلى الحق . وكان محمد يزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله (٢) .

الراهب نسطور : ورعى الغنم غنم أهله وغنم أهل مكة . وذكر ذلك مغتبطاً . وأحب عمه أبو طالب أن يجد له سبباً للرزق أوسع . فبلغه أن خديجة المثرية تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم . واذ علم أنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام نادى إليه ابن أخيه محمداً ، وكان يومئذ في الخامسة والعشرين من

(١) المصدر نفسه أيضاً ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٧

(٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٧٧

سنه ، وأخبره بما كان من أمر خديجة ، وسأله ما اذا كان يكلمها فقال محمد « ما أحببت » . ووافقت خديجة على استخدام محمد . فخرج مع ميسرة غلامها . وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادي القرى ومدين وديار ثمود . فلما بلغت بصرى اتصل محمد بنصارى الشام وتحدث إلى رهبانها . وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه . ولعله جادله (١) .

محمد وأول الوحي : وتزوج محمد من خديجة ابنة عم ورقصة ابن نوفل وتيسر له التفكير والتأمل . وكان يلجأ في شهر رمضان إلى غار حراء للتأمل والعبادة . وفيما هو نائم في الغار جاء ملاك وفي يده صحيفة وقال اقرأ . فقال محمد ماذا اقرأ . فقال الملاك : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » . وتنبه محمد فرعاً ودخل على خديجة وقال زمّلوني . فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى . فلما ذهب عنه الروح نظر إلى خديجة وحدها بالذي رأى . فانطلقت إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل وأخبرته بما رأى محمد . فأطرق ورقة ، وكان نصرانياً كما أوضحنا ، ثم قال : « قدوس قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى . وانه لنبي هذه الامة . فقولي له فليثبت » (٢) .

وخرج محمد للطواف بالكعبة . فلقبه ورقة . فلما أخبره محمد بما رأى قال ورقة : « والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى . ولتكدّن ولتؤدّن ولتخرجن ولتقتلن » . ولئن أنا أدركت ذلك اليسوم لانصرن الله نصرأ يعلمه . ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه » (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٨٣

راجع في موقف المستشرقين من بحيرة ونسطور : Andrae , T. , Mahomet: sa Vie et sa Doctrine, Trad., Gaudetroy - Demombynes, (Paris, 1945), 35 - 39; Blachère, R. , Le Problème de Mahomet, (Paris, 1952), 30 - 31.

(٢) السيرة لابن هشام الطبعة نفسها ج ١ ص ٢٥٦

(٣) المصدر نفسه .

النجاشي مسيحي لا يُظلم عنده أحد : ونزلت سورة الضحى . وعلم الله محمداً الصلاة وصلت خديجة معه وأسلم علي ابن ابي طالب وابو بكر وعثمان ابن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة وسعد والزبير . وتحدث الناس عن محمد وظنوا ان حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قس وأمية وورقة وان الناس عائدون لا محالة الى دين آبائهم . وبعد ثلاث سنين أُنذر النبي عشيرته وقال انه النذير المبين فأعرضوا عنه وانصرفوا مستهزئين . ثم انتقل محمد الى اهل مكة جميعاً وصعد على الصفا ونادى . فنهض ابو لهب وقال : تباً لك . فجاءت الآية تبّت يدا ابي لهب ! فحارب أشراف قريش محمداً بالخط من شأنه ويتكذبه فيما جاء به . فبادأهم محمد بذكر الهتهم وعابها فعظم ذلك عليهم وحزّ في صدورهم . ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها . فاعتصم محمد بقومه . ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين الوضعاء يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ثم حاول عتبة ابن ربيعة ان يفاوض محمداً وان يعرض عليه اموراً لعله يكف . وعرض عليه مالا وزعامة فتلا محمد سورة السجدة ! فزاد ما كان ينزل بالمسلمين من الأذى وبلغ منهم القتل .

فأشار محمد على جمهور المسلمين أن يتفرقوا في الأرض . فسألوه أين نذهب فنصح اليهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة المسيحية لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق ! وخرج المسلمون الى الحبشة المسيحية في هجرتين . ونقل جعفر ابن ابي طالب الى النجاشي بعض ما جاء في سورة مريم : « فأشارت اليه قال كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم وُلدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعث حياً » (١) .

جبر النصراني : وفي اثناء الهجرة الى الحبشة أسلم عمر ابن الخطاب فظن المسلمون في الحبشة ان قريشاً رجعت عن أذاها فعادوا الى مكة . فعادت قريش

الى الأذى فعاد المهاجرون مرة ثانية الى الحبشة . وهددت قريش محمداً وهددت أهله وتهكمت به وسخرت منه .

وكان محمد يكثر من الجلوس عند المروّة الى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لابن الحضرمي . وكانوا يقولون : والله ما يُعلم محمداً كثيراً ما يأتي به الا جبر النصراني غلام ابن الحضرمي . فجاءت الآية : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر . لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١) . عدّ أس النصراني : وفرّ المسلمون من مكة الى شعاب الجبل وحضروا فيها . ثم مات ابو طالب وماتت خديجة . وازداد اذى قريش فخرج محمد الى الطائف وحيداً منفرداً واحتفى الى حائط لعُتْبة وشيبة ابني ربيعة . وجنس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه . فلما اطمأن رفع رأسه الى السماء ضارعاً وقال : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى متى تكفني » .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمتها فدعوا غلاماً لها نصرانياً يقال له عدّاس وقالوا له : خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل . ففعل عدّاس . وقال كل . فلما وضع الرسول يده فيه قال باسم الله ثم أكل . فقال عدّاس : والله ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد . فقال محمد : ومن اهل اي البلاد أنت وما دينك . قال نصراني وأنا رجل من اهل نينوي . فقال له محمد : من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . فقال عدّاس وما يدريك ما يونس ابن متى . فقال محمد : ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي . فقبل عدّاس رأسه ويديه وقدميه . فقال ابنا ربيعة ويلك يا عدّاس ما لك تقبل . فقال لقد اخبرني بأمر ما يعلمه الا نبي . فقالا ويحك ! لا يصرفك عن دينك فان دينك خير من دينه (٢) .

ابراهيم وموسى وعيسى : ثم عرض محمد نفسه على القبائل في اثناء المواسم

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٠ . سورة النحل ١٠٣ .

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٢٨ - ٣١ .

ولكن عمه عبد العزى ابن عبد المطلب كان يتبعه ويحترض الناس على الا يستمعوا له . وقصد كندة في منازلها وذهب الى بني كلب في منازلهم وأتى بني جنيفة وبني عامر فردوه جميعاً رداً غير جميل .

وفي هذه الفترة اي حوالي السنة ٦٢١ بعد الميلاد كان الاسراء والمعراج . وأطل جبريل وفي يده دابة عجيبة هي البراق لها اجنحة كأجنحة النسر انحنت امام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة الى الشمال . فوقف الملاك به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى . ثم وقف به في بيت لحم حيث ولد عيسى . ثم انطلق بعد ذلك في الهواء فبلغ بيت المقدس . فقيّد محمد دابته وصلى على اطلال هيكل سليمان ومعه « ابراهيم وموسى وعيسى » . ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعاً الى السموات (١) .

ونقل الزهري عن سعيد ابن المسيّب ان محمداً وصف لاصحابه ابراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة فقال : « اما ابراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . واما موسى فرجل ادم طويل ضرب جعد أفنى كأنه من رجال شنوءة . واما عيسى ابن مريم فرجل أحر بين القصير والطويل سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس تحال رأسه يقطر ماء وليس به ماء أشبه رجالكم به عروة ابن مسعود الثقفي » (٢) .

الهجرة الى المدينة : (٦٢٢) وقبل الدعوة عدد من أهل يثرب وازدادوا ولم يجدوا فيها من اذى اليهود والمشرّكين عبدة الاوثان ما وجده اخوانهم في مكة من اذى قريش . والعيش في يثرب آتئذ أرخى منه في مكة . وما أحب محمد ان يرد على قريش اساءتها لانه كان لا يزال أضعف منها وقد لا ينصره أهله عليها . وكانت دعوته لا تزال ترتكز الى الرفق والافتناع والجلد بالتي هي أحسن . فأمر

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١٥٣ - ١٦١

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٧ . والخيلان بكسر الخاء جمع خال وهو هنا شامة سوداء . والديماس هو الحمام .

اصحابه ان يلحقوا بالانصار في يثرب . وبدأوا يهاجرون ففطنت قريش للامر فاعترضت السبيل وامانت وعذّبت ونكّلت . وحسبت لهجرة النبي نفسه الف حساب وخشيت أن تؤدي الهجرة الى قطع طريق الشام او الى الاجاعة . واجتمعت قريش في دار الندوة وتشاورت على قتل محمد . وعلم محمد بما بيتت قريش فظل في مكة حتى لم يبق من المسلمين بها الا القليل . وفي ليلة الهجرة أسرّ الى علي ابن ابي طالب ان يتسجى برده الاخضر وان ينام في فراشه وان يبقى بعده في مكة حتى يوزع الودائع التي كانت عنده للناس .

وأخبر محمد أبا بكر بأن الله اذن له في الهجرة . فطلب الصديق ان يصحبه فأجابه الى ذلك . فانطلقا الى غار ثور أولاً واقاما به . وفي اليوم الثالث امتطى كل منهما بعيره وأخذوا طريقاً غير الذي ألف الناس .

وترامت أخبار هذه الهجرة الى يثرب . وبينما كان مسلموها ينتظرون يوماً كعادتهم صاح بهم يهودي : « هذا صاحبكم قد جاء ! » وخرجت يثرب لاستقباله رجالا ونساء مؤمنين ويهوداً ومشرّكين .

اليهود أمة مع المؤمنين : ودخل محمد في دور جديد من رسالته . واضطر ان يعالج مشا كل جديدة لم تظهر من قبل . نراه في اوائل عهده في المدينة منهمكاً في تنظيم العلاقات بين المهاجرين والانصار وفي علاقة هؤلاء جميعاً باليهود والمشرّكين . ويتضح من نص « الصحيفة » الواردة في تاريخ ابن هشام عن ابن اسحق التي اعتاد المستشرقون المستعربون ان يسموها « دستور المدينة » ان النبي اعتبر المؤمنين « امة واحدة » وانه اعتبر اليهود ايضاً « امة مع المؤمنين » . وان « للمسلمين دينهم ولليهود دينهم » وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس وان قريشاً لا تُجار ولا تناصر (١) .

مخاوف يهود المدينة : وأقبل اليربيون على الاسلام وازداد المسلمون شوكة وقوة . فخشي اليهود ان تمتد الدعوة الى صفوفهم وان تفشو في عامتهم .

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٣ . وقد بحث هذه الوثيقة عدد من المستشرقين اهمهم : Wellhausen, J., Skizzen, IV, 65 - 83 ; Wensinck, A. J., Mohammed en de Joden, 74 - 81 ; Caetani, L., Annali dell Islam, I, 391 - 408.

وأسلم عبد الله ابن سلام أحد كبار أحبارهم فازدادوا خوفاً وغيظاً واجمعوا على ان يكيدوا لمحمد .

محمد ويهود المدينة : وبدأ اليهود بالجدل واستعانوا بالدسيسة والنفاق فنزل صدر سورة البقرة وما يزيد على ثلثها ونزل قسم كبير من سورة النساء وفيها تأنيب لليهود على ما أنكروا من كتابهم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين » (١) .

ثم حاول اليهود فتنة محمد نفسه فذهبوا اليه وقالوا : « انك قد عرفت أمراً ومنزلتنا وإنا وان اتبعناك أتبعك اليهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتقضي لنا فتنبعك ونؤمن بك » (٢) . فجاءت الآية : « وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » (٣) . ثم حاولوا اقناعه بالجلاء عن المدينة فذكروا له ان الرسل اتخذوا من بيت المقدس مقاماً لهم وانه يحذر به ان يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الاقصى . فرد محمد على هذا بأن جعل قبلته الى المسجد الحرام « بيت ابراهيم واسماعيل » . فأنكر اليهود عليه هذا التغيير وقالوا انهم يتبعونه اذا هو رجع الى ما كان عليه من قبل الى جعل قبلته الى المسجد الاقصى . وجاءت الآية : « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » (٤) . وجاء سلام ابن مشيكم وثمان بن أوفى ومحمود بن دحية وشاس ابن قيس ومالك ابن الضيف فقالوا للنبي : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا

(١) سورة البقرة ٨٦ - ٩٠

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧

(٣) سورة المائدة ٤٨

(٤) سورة البقرة ١٤١

ترعم ان عزيراً ابن الله . فانزل الله في ذلك من قولهم : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أننى يؤفكون » (١) .

محمد ونصارى نجران : ووفد على محمد في إبان هذا الجدل العنيف ستون راكباً من نصارى نجران بينهم العاقب وهو اميرهم واسمه عبد المسيح والسيد وهو تاملهم واسمه الأيهم وابو حارثة بن علقمة احد بني بكر ابن وائل وهو اسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم . وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم فشرفه ملوك الروم ومولوه وبنوا له الكنائس . فلما وصلوا المدينة دخلوا على النبي في مسجده حين صلى صلاة العصر . وجانت صلاتهم فقاموا في هذا المسجد نفسه يصلون . فقال الرسول « دعوهم » . فصلوا الى المشرق . ثم كلموا الرسول . فلما كلمه الخبران قال لما أسلما قالاً قد أسلمنا قال انكما لم تسلما قالاً بل قد أسلمنا قبلك قال كذبتما بمنعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير . قالاً فن أبوه يا محمد . فصمت عنهما ولم يجبهما . فنزل صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية (٢) :

« الله لا اله الا هو الحي القيوم اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت ربني أننى يكون لي ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ان مثلاً عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فن حاجتك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ... ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٢٠٠ وسورة التوبة ٢٩

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢١٢

كونوا عباداً لي من دون الله... ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أياً أمركم بالكفر بعد اذ اتممتم مسلمون » .

سلمان الفارسي : وكان محمد قد وجد في يثرب بين أرقاء اليهود رجلاً فارسياً نصرانياً ذكي الفؤاد كثير الخبرة واسع الاطلاع دقيق التصرف فأحبه وعاونته على عتق نفسه ثم جعله من صحبه وأخصائه . وهو سلمان الفارسي ذلك الذي قال عنه النبي فيما بعد : « سلمان منا أهل البيت » (١) .

وقال ابن اسحق ان سلمان الفارسي قال : « كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان وكان أبي دهقان قريته . وأمرني يوماً بالذهاب الى ضيعته لقضاء بعض ما أراد . فخرجت اريد ضيعته . فررت بكيسة من كنائس النصارى . فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون . فدخلت فأعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه . ثم قلت لهم أين اصل هذا الدين قالوا بالشام . فرجعت الى أبي فقال ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . فقلت له كلا انه خير من ديننا . فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته . وبعثت الى النصارى فقلت لهم : اذا قدم عليكم ركب من الشام فاخبروني بهم . فقدم عليهم ركب من تجار النصارى فخرجت معهم حتى قدمت الشام . فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً . قالوا الاسقف في الكنيسة . فجئته وقلت له اني قد رغبت في هذا الدين فأحببت ان أكون معك . وأخدمك فأتعلم منك واصلي معك . قال ادخل فدخلت معه . وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فاذا جمعوا اليه شيئاً منها اكنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق . فأبغضته بغضاً شديداً . ثم مات فاجتمعت اليه النصارى ليدفنه فأريتهم موضع الكنز . وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . وما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة

(١) الطبقات لابن سعد ج ٤ ص ٥٣ - ٥٧ ومسنّد ابن حنبل ج ٥ ص ٤٤١ - ٤٤٤ وأسد الغابة لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٣٢ ; Caetani, L., Annali, V, 399 - 419 ; Huari, C., Selman du Fars, Mélanges Derenbourg, 297 - 310 ; Massignon, L., Salman Pak, (Tours, 1934).

ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه . فأحببته حباً لم احبه شيئاً قبله مثله . فأقت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له اني قد كنت معك وأحببتك حباً لم احبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصي بي وعسا تأمرني . فقال والله ما أعلم اليوم احداً على ما كنت عليه . فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلاً بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل . فأقت عنده فوجدته خيراً رجلاً على أمر صاحبه . فلم يلبث ان مات فألحقني برجل بنصيبين . فالتحقت به واخبرته خبري فقال اقم عندي . فأقت عنده فوجدته على أمر صاحبيه . فأقت مع خير رجل . فوالله ما لبث ان نزل به الموت فأوصى بي الى رجل في عمورية . فأقت عند خير رجل على هدي اصحابه وامرهم . واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة . ثم نزل به أمر الله . فسألته الى من توصي بي قال والله ما أعلمه اصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه . ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرة الى ارض بين هرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . وبين كفيه خاتم النبوة . فان استطعت فافعل » (١) .

محمد والقتال : وهكذا فان محمداً لم يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة وانما كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبع رسالته وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم . وهذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد منذ الهجرة وهي التي جعلته جنوحاً للسلم راعياً عن القتال مقتصداً طول حياته اشد القصد فيه غير لاجئ اليه الا لضرورة تقتضيه دفاعاً عن الحرية والدين والعقيدة . ألم يقل له اهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المنتجس عليهم يصيح بقريش ينهبها لأمرهم : « والله الذي بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا » فكان جوابه « لم تؤمر بذلك » .

(١) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٧

ثم ألم تكن أول آية في القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » والآية بعدها : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ! » فتفكير محمد إذاً إنما كان متجهاً لغاية واحدة عليها هي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها أحل القتال ودفاعاً عنها أبيح دفع المعتدي حتى لا يفتن أحد عن دينه ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه ! (١) .

ولم تكن السرايا الأولى التي أنفذت لقتال قريش إلا محاولة لفهم قريش أن مصلحتهم تقضي بالتفاهم مع المسلمين تفاهماً يكفل حرية الدعوة إلى الدين وحرية التجارة للمشركين . ولعل محمداً رمى من وراء هذه السرايا إلى غرض آخر هو تخويف اليهود الذين بدأوا يقلبون له ظهر الحجن وعملوا لاثارة البغضاء وإيقاظ الاحقاد في المدينة .

ولم ينكر محمد الدفاع عن النفس ولكنه أنكر حرب الاعتداء . ومن هنا الآية : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ومن هنا القول في الآية : « الفتنة أشد من القتل » . والجهاد في سبيل الله معناه قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدونه عن سبيل الله .

اجلاء اليهود : وحاولت قريش إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد واصحابه فأيقن محمد أنه لم يبق في الاتفاق معهم أي رجاء . وخرج أبو سفيان في خريف السنة ٦٢٣ في تجارة إلى الشام . فتحين محمد موعد عودته منها وأرسل إلى طريق الشام من ينتظر خبر هذه العودة . وخشي أن تفوته العير في عودتها إلى مكة فندب المسلمين قائلاً : « هذه قريش فاخرجوا إليها لعل الله يكفيكموها » . وأراد بعض من لم يسلم أن ينضم طمعاً بالغنيمة فأبى محمد « أو يؤمنوا بالله ورسوله » . واستقر ضمهم قريشاً إلى أموالهم فخرجت مكة كلها للدفاع عن تجارتها . وعدل أبو سفيان بالسير مساحلاً وفات المسلمين خبره فنجأ . وكانت موقعة بدر في آذار السنة ٦٢٤ وانتصر المؤمنون على المشركين .

ووصل رسول محمد إلى المدينة يبشر بالفوز . وسر المسلمون . أما

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١٨٦ - ١٨٧

الذين بقوا على الشرك واليهود فقد كتبوا لهذا النبأ فقالوا إن محمداً قتل وإن اصحابه هزموا . ثم دخل محمد المدينة منتصراً . وازداد قوة ونفوذاً . ولكنسه ما كاد يعود من بدر حتى بدأت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتآمر وتغري بالمسلمين وتحرض عليهم .

وقدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ فهم بها . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى . فجاء يهودي من خلفها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها . فلما قامت انكشفت سواها فضحكوا بها . فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله . وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فوقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع . وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفوا وأن يحفظوا العهد . فاستخفوا به . فحاصروهم المسلمون في دورهم خمسة عشر يوماً . فلما سلموا أخرجوا من المدينة . فساروا حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا فيها زمناً ثم ساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام (١) .

وعاهد محمد قبائل الشاطيء عبر طريق الشام فنصح الاسود ابن المطلب قريشاً بأخذ طريق العراق ودلهم على فرات ابن حيان من بني بكر بن وائل يدلهم على الطريق . وقال فرات : طريق العراق ليس يبطؤها أحد من اصحاب محمد فانما هي ارض نجد وفياف . فعلم محمد بذلك فأنفذ مئة راكب اعترضوا تجارة قريش فغنموا وعادوا إلى المدينة . فثار ثائر قريش وجهازوا للثأر فكانت موقعة أحد في ربيع السنة ٦٢٥ . وظفر المسلمون ثم دارت الدائرة عليهم فاستأنوا في الدفاع عن الرسول . وتخرج موقف محمد في المدينة وبين القبائل المحيطة بها . وقام بنو أسد يدعون إلى مهاجمة المدينة والسير إلى محمد فيها . فسير النبي مئة وخمسين راكباً فاجأوا بني أسد وعادوا غانمين . وتكررت هذه الحوادث بين

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤٢٧ والمغازي للواقدي طبعة اوروبية ٩٢ - ٩٤ والرسول والملوك

للطبري ج ١ ص ١٣٦٠ - ١٣٦٢

المسلمين وبين القبائل المجاورة فجاءت بجبالا (١).

ووجد اليهود وغيرهم من أهل المدينة في ما أصاب المسلمين ما ذكرهم بأحد . فخشي النبي أمرهم وشاء أن يستدرجهم ليستوضح نياتهم . فذهب إلى اليهود من بني النضير في محلّتهم في ضواحي المدينة في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلي . فراهبهم أمرهم وانسحب تاركاً أصحابه عندهم . وقام هؤلاء في طلبه فوجدوه في المسجد فذكر لهم ما رآه . ثم بعث إلى بني النضير من قال : « إن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلادي . لقد نقضتم العهد بما همتم به من الغدر بي . لقد أجأتكم عشراً . فن رثي بعد ذلك ضربت عنقه » . وحاصر المسلمون بني النضير عشرين ليلة . فاستأمنوا فصالحهم فخرجوا ونزلوا خيبراً وسار بعضهم إلى أذرعاء في الشام (٢) .

وخرج نفر من بني النضير وقدم مكة . فسألهم أهلها عن قومهم فقالوا تركناهم بين خيبر والمدينة ينتظرونكم لتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . وسألوهم عن بني قريظة فقالوا هم في يثرب متى أتيتهم مالوا معكم . وقالت قريش لليهود : أنكم أهل الكتاب الأول وتعرفون ما تختلف فيه ومحمد فهل ديننا خير أم دينه . فقالت اليهود بل دينكم خير من دينه . وخرج اليهود إلى عرب غطفان وبني مرة وبني فزارة وأشجع وسليم وسعد وأسد فحرضوهم على الأخذ بالثأر . وخرجت هذه الأحزاب كلها متجهة نحو يثرب فبلغوها في أواخر آذار السنة ٦٢٧ . واتصل خبر هذا السير بمحمد وجماعته فحفروا الخندق أمام المدينة بإرشاد سلمان الفارسي فعرفت هذه الحرب بحرب الخندق . وأقبلت قريش وأحزابها ففاجأها الخندق فحاصرت المدينة واكتفت بتبادل الترامي بالنبال . وتحركت في بني قريظة يهوديتهم فنقضوا عهدهم مع محمد ! وتراجعت قريش وتراجع أحزابها فأمر محمد مؤذناً

(١) المغازي للواقدي ص ١٠١ - ١٤٨ والطبري ج ١ ص ١٣٨٢ - ١٤٢٧

(٢) Caetani, L., *Annali*, I, 540 - 566; Hamidullah, *Battlefields of Mohammad* 18 - 24; Watt, W. M., *Mohammed at Medina*, 21 - 39.

(٣) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ١٩١ - ١٩٤ والمغازي للواقدي ص ١٦٠ - ١٦٧ والرسائل والملك للطبري ج ١ ص ١٤٤٨ - ١٤٥٣ .

فأذن في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة » ! فقتلت المقاتلة وقسمت الأموال وسبيت الذرية والنساء (١) .

وقل متجر قريش وخف دخلها ولم تأت الحرب بفائدة وجعل محمد قبلته إلى المسجد الحرام فسبغت قريش الحرب وباتت أكثر استعداداً للتفاهم والمسالمة . وكان محمد على صلة مستمرة بعمه العباس وغيره فلم يهبط التطور النفساني فأذن في الناس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام من السنة السادسة للهجرة أي في آذار السنة ٦٢٨ . وخرج إلى مكة بمن معه من المهاجرين والانصار وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً . وفاوض محمد قريشاً فتهاذنا فعرفت المهادنة بعهد الحديبية . وعاد المسلمون إلى المدينة وفي نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء فنزلت سورة الفتح وهم في الطريق وتلاها محمد عليهم (٢) .

وفكر محمد في هذا الأمر ملياً فأنتهى به تفكيره إلى ضرورة القضاء على شوكة اليهود وإلى إرسال رسله إلى هرقل وكسرى وغيرها . ولم يقم في المدينة إلا شهراً واحداً ثم جهز لغزو خيبر . وانطلق المسلمون في ألف وست مئة وفاجأوا خيبراً وحاصروها . فاستقتل اليهود ثم دب اليأس إلى قلوبهم فصالحوا على نصف انتاجهم وذلك في حزيران السنة ٦٢٨ (٣) . وجرى كل هذا مع يهود فندك ووادي القرى . وكانت جزية خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها وكانت جزية فندك للنبي لأن المسلمين لم يجلبوا عليها . وقبل يهود تباء الجزية بدون حرب . وأوصى النبي بالآلاف يفتن اليهود عن يهوديتهم ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وإن ظلوا على دينهم . وصالح بني غازية وبني عريض بالدمية والجزية .

(١) المغازي للواقدي : ١٩٠ - ٢١٠ والرسائل والملك للطبري ج ١ ص ١٤٦٣ - ١٤٨٥

(٢) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ - ٣٧٧ والمغازي للواقدي ص ٢٤١ - ٢٦٤ والطبقات لابن سعد ج ٢ ص ٦٩ - ٧٢ والرسائل والملك للطبري ج ١ ص ١٥٢٨ - ١٥٥١ .

(٣) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨ - ٣٨٩ والمغازي للواقدي ص ٢٦٤ - ٢٩٦ والرسائل والملك للطبري ج ١ ص ١٥٧٥ - ١٥٩٠ .

الرسائل إلى الملوك والأمراء : وجاءت رسالة محمد سمحاء فلم يُكره أهل الكتاب من اليهود والنصارى على قبولها ولكنه اعتبرها عالميسة فرغب في تعميمها قدر المستطاع . وخرج يوماً على أصحابه فقال : « أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة » . ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري والنجاشي يدعوهم إلى الإسلام . فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » وبعث بكتبه إلى هؤلاء الملوك والأمراء في أيار السنة ٦٢٨ . وجاء في كتابه إلى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد ابن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فانما عليك اثم الاريسيين » . وكتب مثل هذا إلى كسرى والنجاشي والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري . وحمل رسالته إلى هرقل دحية ابن خليفة الكلبي وإلى كسرى عبد الله ابن حذافة السهمي وإلى النجاشي عمرو ابن أمية الضمري وإلى المقوقس حاطب ابن أبي بلتعة وإلى الحارث الغساني شجاع ابن وهب الأسدي وإلى الحارث الحميري المهاجر ابن أمية الخزومي (١) . ويشك بعض علماء الفرنجة في صحة هذه الرسائل ولكنهم ينظرون (٢) .

وتمة ما جاء في المصادر العربية أن دحية التقى بهرقل في حصص وان هرقل لم يغضب ولم تثر ثائرته وأنه رد على الرسالة رداً حسناً . وجاء أيضاً أن الحارث الغساني بعث إلى هرقل يخبره أن رسولا جاءه من محمد بكتاب يدعو فيه إلى الإسلام وأن الحارث استأذن بأن يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة وأن هرقل أجاب الحارث بأن يوافيه إلى المدينة المقدسة . ومما جاء في المصادر العربية أيضاً أن شرحبيل ابن عمرو الغساني صاحب بصرى في حوران قتل الحارث ابن عمير الأزدي رسول النبي إلى صاحب بصرى في حوران . ومما

(١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ١٥ - ٨٦ .

(٢) Noldeke, Th., Wiener Zeit fur de Kunde des Morgenlandes, XXI, 307 ; Goldziher, I., Vorlesungen uber den Islam, 25 ; Lammens, H., Etudes sur le Règne du Calife Moawia, I, 422 ; Caetani, L., Annali, I, 725 - 739, Studi, III, 236, 257 ; Grimme, H., Mohammed, I, 123.

تشتمل عليه المصادر أيضاً أن المقوقس حاكم مصر بعث إلى النبي في الرد على رسالته يقول : أنه يعتقد أن نبياً سيظهر ولكنه في الشام . وتضيف هذه المصادر أن المقوقس بعث إلى محمد جاريتين وبغلا وحماراً وكية من المال وبعض خيرات مصر وأن النبي قبل هذه الهدية وتزوج من إحدى الجاريتين ماريًا فولدت له إبراهيم وأهدى شيرين الجارية الثانية إلى شاعره حسان ابن ثابت وأنه اسمي البغلة الفريدة في بياضها دلل والحمار عُفيراً أو يعفوراً .

قتال النصارى في مؤتة : (٦٢٩) ومضى عام بعد الحديبية وخرج النبي إلى عمرة القضاء وجلت قريش عن مكة وصعدت في التلال المجاورة وأم المسلمون البيت الحرام وطافوا بالكعبة . ثم نحر النبي الهدى عند المروة وحلق رأسه وأقام ثلاثة أيام ثم خرج إلى المدينة .

وأقام محمد بضعة أشهر في المدينة لم تقع في خلالها سوى بعض المناوشات والمناورات الصغيرة . وكان بين هذه ارسال خمسة عشر رجلاً إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام . فقتلوا كما قتل الحارث ابن عمير الأزدي ولم ينج منهم الا زعيمهم . فجهز محمد ثلاثة الاف من خيرة رجاله وأمر عليهم زيد ابن حارثة وأنقلهم إلى حدود الروم في خريف السنة ٦٢٩ . وسار المسلمون حتى بلغوا معان . وسبقهم نبأهم فجمع شرحبيل عامل هرقل جموعاً من قبائل الحدود من نصارى لحم وجذام والقين وبهراء وبلي . وبلغ المسلمين وهم في معان خبر هذه الجموع فترددوا أولاً ثم قالوا مع عبد الله ابن رواحة : « انما هي إحدى الحسينين فأما ظهور وأما شهادة » ، ومضوا فالتقوا بأعدائهم في مشارف عند تخوم البلقاء . فلما اقترب حلفاء الروم انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ليتحصنوا بها . فدارت معركة أسفرت عن مقتل عدد من المسلمين بينهم زيد ابن حارثة ربيب النبي نفسه وجعفر ابن أبي طالب . فدافع خالد ابن الوليد بالقوم وحاشى ثم انحاز وتمحيز حتى انصرف بالناس . وعاد المسلمون إلى المدينة فاذا بنوهم يصيحون في وجوههم : « يا فرار فررتم في سبيل الله ! وإذا بقريش تعتبر تراجع المسلمين هزيمة قاضية (١) .

(١) الطبقات لابن سعد ج ٢ ص ٩٢ والرسائل والملوك للطبري ج ١ ص ١٦١٠

سقوط مكة : (٦٣٠) وقضى صلح الحديبية بحرية التحالف أي ان يدخل في عهد محمد من شاء وان يدخل في عقد قريش من شاء . ودخلت خزاعة في عهد محمد ودخل بنو بكر في عهد قريش . وكانت بين هاتين القبيلتين ثارات قديمة . فلما انكسر المسلمون في مؤتة ظن بنو بكر انه قضى عليهم ونُحِّل إلى بعضهم أن يأخذوا بثأر قديم . ففاجأوا خزاعة وقتلوا منهم . فلجأ هؤلاء إلى حليفهم محمد . وكان البعض من قريش وفي طليعتهم عكرمة قد حرضوا بني بكر فرأى محمد ان لا مفر من فتح مكة فتحاً .

وبعثت القبائل من سليم ومزينة وغطفان وغيرها من انضم إلى المسلمين من المهاجرين والأنصار . وسار النبي هؤلاء جميعاً فلقبهم بالجبقة العباس عمه وجماعة من اهله فأسلموا . وتابع محمد السير حتى طوى ورأى ان مكة لا تقاوم فاستوقف الناس وانحى يشكر الله . وعلى الرغم من هذا فانه ظل متحذراً ففرق جيشه أربع فرق ودخل مكة في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ٦٣٠ فلم يلق منها مقاومة الا جيش خالد بن الوليد (١) .

الاسقف ضُغاطير : وعاد النبي إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وبعد حصار الطائف والقضاء على مقاومة المشركين فيها فعظم شأنه في الجزيرة وقبل دعوته عدد كبير من ابنائها . وظل النصراني في شمال الجزيرة على دينهم ولا سيما وان هرقل كان قد استعاد هيبة الروم وكرامتهم بعد انتصاره على الفرس .

فكتب النبي في هذه الاونة إلى اسقف من اساقفة البادية اسمه ضغاطير يقول : « إلى ضغاطير الاسقف . سلام على من آمن . اما على اثر ذلك فان عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية . واني اؤمن بالله وما أنزل اليها وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون .

والسلام على من اتبع الهدى » (١) . لا ندري بالضبط ماذا كان اثر هذه الرسالة في نفس ضغاطير وبين قومه ورعيته . وليس لدينا ما ينبيء بقبولها وبدخول هؤلاء في الاسلام .

تبوك : وراقب الغساسنة محمداً ولعلمهم دسوا في صفوفه فحشي أمرهم (٢) وذكر يوم مؤتة وما جره من هزء واستخفاف فأمر بالتهيب لغزو الروم وذلك في اواخر صيف السنة ٦٣٠ « في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم . وكان قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها وأخبر انه يريد غير الوجه الذي يصمد له » . اما غزو تبوك فانه بيته للناس لبعث المسير ولينأهبوا . فأمرهم بالجهاز وأخبرهم انه يريد الروم . فقال ليجد ابن قيس : « هل لك العام في جلاد بني الاصفر اي الروم ؟ فقال جده : ما من رجل اشد عجباً بالنساء مني واني اخشى ان رأيت نساء بني الاصفر ان لا أضرب . فأعرض عنه رسول الله وقال قد اذنت لك . وحض محمد اهل الغنى على النفقة فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان وحده الف دينار . وبلغ محمداً ان ناساً من « المنافقين » يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس عن غزوة تبوك فأمر باحراق البيت (٣) . وسار الجيش حتى بلغ الحجر وبها اطلال ثمود . ثم انطلق قاصداً تبوك . فبلغ الروم أمر هذا الجيش وقوته فأثرت الانسحاب بجيشها .

فأقام محمد عند الحدود . ووجه رسالة إلى يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة عند خليج العقبة ان يدعن او يغزوه . فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقندم الهدايا وصالح محمداً على جزية يدفعها في كل عام . فأمنه محمد بكتاب وجهه اليه (٤) . وخشي محمد انتفاض أكيدر ابن عبد الملك الكندي النصراني امير دومة الجندل (الجوف) فأنفذ خالد بن الوليد اليه على رأس قوة . ففاجأه

(١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٢٨

(٢) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ١٩١

(٣) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ١٧٠ - ١٧١

(٤) السيرة لابن هشام أيضاً ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨١

خالد وهو يطارد بقر الوحش وأخذه اسيراً وقدم به على محمد فحقن له دمه وصالحه على الجزية (١).

الجزية على يد : وتبرم بعض من اشترك في الحملة على تبوك وتأفقوا من أنهم يحملوا وعادوا ما تحملوه ولم يغنموا (٢). وكان بعض المسلمين قد تخلفوا عن مؤازرة النبي في الحملة على تبوك فعاد النبي وتلا من سورة التوبة : «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم».

ثم خرج ابو بكر حاجاً في ثلاث مئة مسلم . ولحق به علي ابن ابي طالب فوقف في الناس وهم يؤدون مناسك الحج في منى فثلا عليهم آيات من سورة التوبة : «برآءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين» . ولما أتم تلاوتها صاح : «ايها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته» ثم أجعل الناس أربعة أشهر ليرجع كل الى مأمته وبلاده (٣).

ثم أمر الرسول بجهاد أهل الشرك بعد الاربعة الاشهر فجاءت الآيات : «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول» . ثم ذكر قول قريش لتقطع عنا الاسواق فتهلكن التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق فجاءت الآية : «وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» اي عوض ما تخوفتم من قطع الاسواق . ودلت الآيات التالية على ان الإشارة بالعبرة «الذين أوتوا الكتاب» هي الى اليهود والى النصراني (٤).

ومن هنا خروج القبائل العربية المسلمة الى الشام والعراق .

(١) المرجع نفسه ص ١٨٢

(٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٤٣٠

(٣) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥ - ٢٠٦

الفصل الثلاثون

وصول الاسلام الى ابرشيات انطاكية

٦٣٢ - ٦٥٦

تعاليم الاسلام : هو الله لا إله الا هو رب العالمين خلق السموات والارض وما بينهما . وقد اختار افراداً من خلقه واتصل بهم بالوحي . ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى . ومحمد رسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وعلى المسلم ان يقيم الصلاة ويأتي الزكاة وعليه ان يتعد عن الفحشاء والمنكر . وعليه ان يعدل ويعفو عند المقدرة وان يفي بالوعد ويصبر عند الشدائد كما عليه ان يرد التحية بأحسن منها وان يستأنس قبل الدخول الى بيوت الغير وان يسلم على اهلها . والمؤمنون اخوة اكرمهم عند الله اتقاهم . وعليهم طاعة الله وطاعة الرسول واولى الامر منهم . ولا طاعة لخلق في معصية الخالق . الاسلام والانجيل : والانجيل بموجب القرآن منزل تنزيلاً . وعلى المؤمنين ان يؤمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله «والكتاب الذي أنزل من قبل» (١) . وعليهم ايضاً ان يروا في الانجيل والتوراة تصديقاً لما جاء في القرآن نفسه : «يا ايها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم» (٢) . وعلى النصراني ان يحكموا بما جاء في الانجيل : «وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فيه فأولئك هم الفاسقون» (٣).

توجيه الجيوش الى الشام : (٦٣٣ - ٦٣٤) وجاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة ومنع النار وفرض الدية . وأوجب دفع الزكاة في اوانها . فتأثر

(١) سورة النساء ١٣٥

(٢) سورة النساء ٤٧

(٣) سورة المائدة ٤٧

به البعض وهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار . واستثقله آخرون وهم الاعراب . وعدّ هؤلاء دفع الزكاة ضريبة ومذلة واعتبروها اثارة تدفع من قبيلة الى اخرى تتسلط عليها . ومن هنا قول قرّة ابن هبيرة لعمر بن العاص : « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاثارة . فان اغفتموها من أخذ اموالها فتسمع لكم وتطيع وان ايتم فلا تجتمع عليكم » (١) . والواقع ان عدداً من القبائل رفض دفع الزكاة بعد محمد . وكانت قريش لا تزال تتأفف من تكسير الاصنام وتحشى ان تخسر مغائهم الحج . وكان المهاجرون من اليهود اليرببيين لا يزالون على حدود الروم يدسون ويفسدون . وكان الروم انفسهم قد دخلوا في حرب مع النبي لم تأت نتائجها في صالح المسلمين (٢) .

فلما فرغ ابو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام . فكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه « فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع » واتوا المدينة من كل أوب . فعقد ثلاثة الوية لثلاثة رجال خالد بن العاص ابن سعيد ابن أمية وشرحبيل ابن حسنة وعمر بن العاص ابن وائل السهمي . واعترض عمر ابن الخطاب على تعيين خالد ابن سعيد لانه كان رجلاً فخوراً متغصباً فعزله ابو بكر ودفع لواءه الى يزيد ابن ابي سفيان فسار به ومعاوية اخوه يحمله بين يديه . وكان العقد لكل من هؤلاء في بادىء الامر على ثلاثة الاف مقاتل . فزال ابو بكر يمدّهم بالرجال حتى صار مع كل امير سبعة الاف وخمس مئة . وأمر الامراء ان يعقدوا لكل قبيلة لواء وان يسلك عمرو ابن العاص طريق أيلة (العقبة) عامداً لفلسطين وأمر يزيد وشرحبيل ان يسلكا طريق تبوك (٣) .

وادي عوبة : وفي أوائل السنة ٦٣٤ وصلت جموع المسلمين العرب الى شرق بحر الميت وغربه فظن سرجيوس بطريق قيصرية فلسطين انه أمام غزوة عادية من غزوات البدو فقام بنفسه على رأس ما تيسر لديه من الرجال واتجه نحو

الجنوب فاشتد القتال في وادي عربة وتكاثر المسلمون فني سرجيوس بالفشل . ثم كان قتال في قرية دائن بالقرب من غزة وكان انتصار للمسلمين . ولقي سرجيوس حتفه . فانفتحت أبواب فلسطين على مصراعيها أمام المسلمين . « وحدثت شيوخ الشام فيما بعد ان الفاتحين لم يقاتلوا قبل عربة ولم يمروا بشيء من الأرض مذ فصلوا من الحجاز الا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم » (١) .

خالد ابن الوليد : ولما صار عمرو ابن العاص الى اول فلسطين كتب الى ابي بكر يعلمه بكثرة العدو وسعة أرضه . فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير الى الشام . فأتى خالد عين النمر ففتحها عنوة ثم صندوداء فقاتله أهلها فظفر بهم . ثم قاتل جمعاً لبني تغلب ابن وائل في المضيق والحصيد فهزمهم وسبى . ثم أغار على قراقر وهو ماء لكلب . ثم فوز منه الى سوى وهو ماء لكلب ومعهم فيه قوم من بهرا فقاتلوه . ثم أتى أركة ففتحها صلحاً ثم دومة الجندل ففتحها ايضاً . ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا ثم طلبوا الأمان فأمنهم « على ان يرضخوا للمسلمين ويكونوا ذمة » (٢) . ثم صمد أهل القريتين في وجهه وأهل حوارين فظفر وغنم وسبى . ثم وصل الى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم فسبى وقتل . وقدم خالد على المسلمين في حوران فحاصروا بصرى عاصمتها وحاربوا بطريقها فصالحهم أهلها اما على طعام وزبيب وخل او على جزية يؤدونها . ثم دخل خالد موآب صلحاً (٣) .

اجنادين وفعل : ونشط هرقل وجيش « فسرّب بعضاً من جماعته وتجمع الباقي من النواحي » وعقد اللواء لاختيه ثيودوروس القيقلاق (٤) . وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصمه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة . وتقدم ثيودوروس ببطء

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩

(٢) المصدر نفسه ص ١١١ - ١١٢

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٢ - ١١٣ و ١٥٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٣ والطبري ج ١ ص ٢٣٤٧ ولعل الإشارة الى اللقب Curopalates ومعناه قائد القوات جميعها .

(١) فجر الاسلام لاحد امين ص ٧٤ - ٨٣ Watt, W. M., op. cit., 142 - 150

(٢) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اوروبية ص ١٠٧

(٣) فتوح البلدان ص ١٠٨ - ١٠٩

فرايط في جلق (١) اولاً ليحمي دمشق ويهدد القبائل الغازية : ثم اتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدمة فصمد في اجنادين بين القدس وعزة . قترفع خالد ولم يحفل بإمكانات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرق الاردن وجمع الجموع في وادي عربة . ثم دفع بها الى اجنادين . فنشبت معركة حامية في الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ كتب النصر فيها للعرب فجلا الروم عن الارياض في جنوب فلسطين وهدموا وراء مستنقعات بيسان *Scythopolis* فغلبوا فيها فقاموا الى فحل *Pella* فتوتلوا اشد قتال وأبرحه . وقتل بطريقهم وتفرق الباقون في مدن الشام وذلك في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ . وتحصن اهل فحل فحصرهم المسلمون حتى سألوا الامان على اداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن ارضهم . فأمنوا على انفسهم واموالهم ولم تهدم اسوارهم . ولم يبق للروم في فلسطين سوى مدنها المحصنة المنيع (٢) .

تطور في الهدف والخطوة : وحدث ابو حفص الدمشقي عن سعيد ابن عبد العزيز التنوخي عن «عدة» منهم ابو بشر مؤذن مسجد دمشق ان «المسلمين» لما قدموا الشام كان كل امير منهم يقصد الى ناحية ليغزوها وييث غاراته فيها . فكان عمرو ابن العاص يقصد لفلسطين وكان شرحبيل يقصد للأردن وكان يزيد ابن ابي سفيان يقصد «لأرض» دمشق (٣) . وتوفي ابو بكر في الثالث والعشرين من آب سنة ٦٣٤ وتولى الخلافة بعده عمر ابن الخطاب . وبان عيب الروم وضعفهم وعيب الفرس وانتهاء أمرهم . فتحول الغزو والسلب والسبي الى فتح وأصبح رائد المسلمين السيطرة على الشام والبقاء فيها (٤) . واتخذوا من السامريين واليهود «عيوناً وأدلاء لهم» (٥) : وكان امير الغزاة في عهد ابي بكر عمرو بن العاص يقودهم عند الاقتضاء . ثم تزعم غاراتهم خالد ابن الوليد . فلما تطور

(١) في جنوب حوران الشرقي

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٥

Becker, K., *Expansion of Saracens Cam. Med. Hist.*, II, 341 - 342.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦

(٤) Lammens, H., *La Syrie*, I, 55.

(٥) البلاذري أيضاً ص ١٥٨

الهدف وجاء عمر : ولتي ابا عبيدة ابن الجراح امر الشام كله وأمره الامراء في الحرب والسلم . ففتح شرحبيل ابن حسنة طبرية صلحاً على ان يؤمن اهلها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ومنازلهم الا ما چلوا عنه وخلوه . وفتح جميع مدن الاردن على هذا الصلح فتحاً يسيراً ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راسن وقدس والجولان وعكة وصور وصفورية (١) .

دمشق : (٦٣٥) وتوجه المسلمون الى دمشق فالتقوا بالروم في مرج الصفر فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً «جرت في اثنايه الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة» وجرح من المسلمين اربعة الاف . ثم ولتي الكفرة منهزمين مغلولين لا يلوون على شيء حتى اتوا دمشق وبيت المقدس . وأقام المسلمون خمس عشرة ليلة ثم زحفوا على دمشق فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة وتحصن اهل المدينة وأغلقت أبوابها في أوائل اذار السنة ٦٣٥ (٢) . وحاصر المسلمون دمشق ستة أشهر وأهل أمرها هرقل ولم يرسل النجديات . فوقف اسقفها على السور في ايلول . فدعي له خالد . فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له : يا با سليمان ان أمركم مقبل ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة . فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها أعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية» . ولما رأى الاسقف ان ابا عبيدة قد قارب دخول المدينة من باب الجابية بدر الى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي فدخل والاسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له . فقال بعض المسلمين والله ما خالد بأمر فكيف يجوز صلحه فقال ابو عبيدة انه يجيز على المسلمين ادانهم وأجاز صلحه وامضاه ولم يلتفت الى ما فتح عنوة . فصارت دمشق صلحاً كلها (٣) .

« وزعم الهيثم بن عدي ان اهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦ أيضاً

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨ - ١٢٠

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٠ - ١٢٢

وكنائسهم . وقال محمد ابن سعد : قال عبدالله الواقدي قرأت كتاب خالد ابن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس . ولا أدري من اين جاء به من رواه . ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو في انطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون « (١) » .

وروي عن الازاعي انه قال : كانت الجزية في الشام في بدء الامر جريباً وديناراً على كل جمجمة . ثم وضعها عمر ابن الخطاب على اهل الذهب اربعة دنانير وعلى اهل الورق اربعين درهماً وجعلهم طبقات . وروي ان اليهود كانوا كالذمة للنصارى يؤدون اليهم الخراج فدخلوا معهم في الصلح « (٢) » .

بعلبك وحمص : ولما فرغ ابو عبيدة من أمر مدينة دمشق سار الى حمص فربيع بعلبك . فطلب اهلها الامان والصلح فصالحهم وأمنهم على انفسهم واموالهم وكنائسهم وكتب لهم : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب امان لاهل بعلبك رومها وفرسها « وعربها » على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم . وللروم ان يرعوا سرحتهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً . ولا ينزلوا قرية عامرة . فاذا مضى شهر ربيع وبجادي الاولى ساروا الى حيث شاؤوا . ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم ان يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها . وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً « (٣) » .

ثم نهض ابو عبيدة الى حمص فنزل في باب الرستن فصالحه اهل حمص على تأمين انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم . واستثنى عليهم من هذه ربع كنيسة يوحنا للمسيح . واشترط الخراج على من أقام منهم « (٤) » .

بيروت : « (٦٣٦) » وأتى يزيد ابن ابي سفيان بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرة وجبيل وبيروت « وعلى مقدمته اخوه معاوية « ففتحها فتحاً يسيراً وجلا

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣

(٢) البلاذري ايضاً ص ١٢٤

(٣) البلاذري ص ١٢٩ - ١٣٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٠ - ١٣١

كثيراً من أهلها . وتولى فتح عرقة معاوية نفسه « (١) » . أما طرابلس فانها ظلت صامدة حتى أوائل ولاية معاوية « (٦٣٩) » .

حماة والمعرة واللاذقية : « (٦٣٦) » ومضى ابو عبيدة بعد حمص الى حماة فلتقاه أهلها مدعين فصالحهم على « الجزية في رؤوسهم والخراج في ارضهم » . فغضب نحو شيزر « فخرجوا يكفرون ومعهم المقلسون » ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة . وبلغت خيل ابي عبيدة الزراعة والقسطل . ومر بمعرة حمص فخرجوا يقدسون بين يديه . ثم أتى قامية ففعل أهلها مثل ذلك وأذعنوا بالجزية والخراج . ووصل الى اللاذقية فقاتله أهلها ودخل عبادة الحصن وعلا حائطه « فكبر عليه » . وهرب قوم من نصارى اللاذقية الى اليسيد ثم طلبوا الامان . فقوطعوا على خراج يؤدونه قلو او كثروا وترك لهم كنائسهم . وبني المسلمون مسجداً جامعاً . ثم فتحوا بلدة على فرسخين من جبلة . ثم فتح عبادة أنططوس ومريقية وبلنثاس « (٢) » .

يوم اليرموق : « (٦٣٦) » وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجيش قوة كبيرة يتمكن بها من صد المسلمين وانقاذ سورية الجنوبية وفلسطين والساحل . ورغم خسارته الكبيرة في الرجال أبان الحرب الفارسية وبرغم قلة المال في الخزينة فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم والارمن والعرب بين الثلاثين والخمسين ألفاً . وأمر عليهم ثيودوروس تريثوريوس وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى الجنوب . وكان خالد انتد في حمص . فلما علم بقدوم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق وسائر المدن المجاورة وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين ألفاً وانتقى الجابية فصمد فيها فادركه الروم وضربوه فسادفح وانسحب الى اليرموق احد روافد الاردن الشرقية .

ووصل الروم الى اليرموق في تموز السنة ٦٣٦ وتناوش الفريقان وتناول

(١) المصدر نفسه ايضاً ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) البلاذري ص ١٢٢ - ١٢٣

بعضهم بعضاً في معارك صغيرة روحاً من الزمن . وفيما خالد ينتظر وصول المدد كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد وقلة الانضباط . فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات فنادى الجند ببائس فيلسفياً فأدى هذا الفساد الى انسحاب القبائل العربية المسيحية من معسكر الروم وامتناعهم عن القتال . فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين . واغتنم خالد هذه الفرصة السانحة فقام بحركة التفاف حول الروم من الشرق . ثم احتل الجسر فوق وادي الرقاد فحرم خصمه امكان التراجع غرباً . وفي الثاني والعشرين من آب سنة ٦٣٦ انقضّ عليهم بفرسانه المجريين فقتل من قتل وشرّد من شرّد (١) .

انطاكية وحلب : (٦٣٨) وسار ابو عبيدة الى حمص . ثم أتى قنسرين وعلى مقدمته خالد ابن الوليد فقاتله أهلها ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابو عبيدة على مثل صلح حمص . وكان حاضر قنسرين لتنوخ « منذ اول ما تنخوا بالشام » فدعاهم ابو عبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية وبقي بنو سليح على النصرانية . وكان بالقرب من حلب حاضر يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم ابو عبيدة على الجزية . ورحل الى حلب وعلى مقدمته عياض القهري . فوجد أهلها قد تحصنوا . فنزل عليها فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها . ثم سار الى انطاكية وقد تحصن بها خلق من جند قنسرين . فلما وصل الى مهربة لقيه جمع للعدو ففضهم والجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع ابوابها . وكان معظم الجيش على باب فارس وباب البحر . ثم صالحوه على الجزية والجلاء . فجلا بعضهم وأقام بعضهم . وكانت انطاكية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان . فلما فتحت كتب عمر الى ابي عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين « أهل نيات وحسبة » واجعلهم بها مرابطة « ولا تحبس عنهم العطاء » ! (٢) .

(١) الرسل والملكوك للطبري ج ١ ص ٢٣٤٧ وما يليها وفتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٥ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٤ - ١٤٨ .

وبلغ ابا عبيدة ان جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب فلقبهم وقتل عدة بطارقة وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب . وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة . وفتح ابو عبيدة جميع ارض قنسرين وانطاكية . ثم سار يريد قروش فتلقيه راهب من رهبانها فصالحه فعقد لاهلها عهداً مثل الذي اعطى أهل انطاكية . واتى ابو عبيدة حلب المأجور ودلوك ومنيح فصالحهم مثل صلح انطاكية . وبعث جيشاً عليه حبيب ابن مسلمة الى بالس وقاصرين فصالحهم على الجزية والجلاء فجلا اكثرهم الى ارض الروم وارض الجزيرة . وبلغ ابو عبيدة القرات ثم رجع الى فلسطين (١) .

الجواجة : (٦٣٨) وغزا حبيب ابن مسلمة الجرجومة في جبل اللكام بين حلب والاسكندرونة « عند معدن الزاج » فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح . فصالحوه « على ان لا يؤخذوا بالجزية وان يتفلا اسلاب من يقتلون من اعداء المسلمين » . ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم في هذا الصلح (٢) .

المدينة المقدسة : (٦٣٨) وكان لا يزال يعلو السدة البطريركية في اورشليم الشيخ الورع التقي الامين صفرونيوس . وقد سبق الكلام عنه في الفصل الاخير من المجلد الاول . فلما شعر بالخطر المداهم أبعد الصليب المقدس واثمن ما لديه من الاواني الكنسية الى ساحل البحر فالقسطنطينية (٣) .

وعاد ابو عبيدة الى فلسطين بعد فتح الشمال فأمر بتشديد الحصار على المدينة المقدسة فطلب أهلها الامان « على ان يكون المتولي للعقد لهم عمر نفسه » . فكتب ابو عبيدة الى عمر فقدم فنزل الجابية ثم سار الى « ايلياء » . فاستقبله صفرونيوس على جبل الزيتون وفاوضه في صلح « على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام » فقبل عمر وكتب بذلك . ثم نزل الكبيران الى المدينة لزيارتها ففصل

(١) المصدر نفسه ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩ .

3) Sebeos, 98.

الخليفة عند اطلال هيكل سليمان عند الصخرة التي قام فوقها فيما بعد مسجد عبد الملك ابن مروان . وجاء في رواية عربية ثانية ان الخليفة اعطى سكان بيت المقدس على ما أحاط به حصنهم « شيئاً » يؤدونه ويكون للمسلمين ما كان خارجاً . (١)

قيصرية وطرابلس: (٦٤٠-٦٤٤) وتوفي ابو عبيدة فولى الخليفة عمر ابن الخطاب يزيد ابن ابي سفيان الاردن وفلسطين وأمره ان يغزو قيصرية فلسطين . فنهض اليها في سبعة عشر ألفاً . فقاتله اهلها فحاصروهم . « وكان سبب فتحها ان يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلاً فدلهم على طريق في سرب لقاء تأمينه على اهلها . فدخلها المسلمون في الليل وكبروا فيها . فأراد الروم ان يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه . وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية . وكان قد تسلم القيادة بعد وفاة اخيه ، فسبى اربعة الاف وارسلهم الى عمر . وحوصرت قيصرية سبع سنين وكان بها خلق من العرب (٢) .

ولما استخلف عثمان وولى معاوية الشام وجّه معاوية سفيان ابن مجيب الازدي الى « أطرا بلس » وهي ثلاث مدن مجتمعة فبنى في مرج على اميال منها حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصروهم . فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في احد الحصون الثلاثة وكتبوا الى ملك الروم يسألونه أن يمدهم او يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها . فوجه اليهم مراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا . فأسكنها معاوية جماعة كبيرة من اليهود (٣) .

يوم الجابية : وغزا المسلمون وغنموا . ثم غلبوا الروم في الميادين الطلقة فحاصروا المدن المحصنة فصالحت . واتسعت رقة الدولة ودخل فيها الوف مؤلفة من النصارى والمشركن واليهود . وتدقت الاموال على بيت المال وكثر طلابها

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٨ - ١٣٩

Theophanes, Chron., a 6129; Michel le Syrien, II, 425-426; Eutichius, Annales, P.G., Vol.111, Col. 1099; Vincent et Abel, Jerusalem Nouvelle, II, 930 - 932.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٠ - ١٤٢

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٧

واختلفوا في ما أصابهم منها . وكان لا بد من الدفاع عن هذه الدولة والنظر في امور اهلها وسكانها . فقام عمر الى الجابية عاصمة الغساسنة في الجولان يصحبه عدد من الصحابة . فاستدعى كبار القادة والوجهاء وشاور فقرر اتخاذ بعض الاجراءات الحربية والمالية والادارية . وكان ذلك في اثناء السنة ٦٣٨ .

قضية الجزية : وذكر المسلمون الآية : « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ففرضوا جزية على رؤوس النصارى وخراجاً على املاكهم .

وقدّر للمسلمين النصر على الروم في اليرموق . فأتى جبلة ابن الايهم ملك غسان عمر ابن الخطاب وهو على نصرانيته . فعرض عمر عليه الاسلام واداء الصدقة فأبى ذلك وقال أقيم على ديني واؤدي الصدقة . فقال عمر ان اقت على دينك فأد الجزية . فأنف منها . فقال عمر ما عندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما اداء الجزية واما الذهاب الى حيث شئت . فدخل جبلة بلاد الروم في ثلاثين ألفاً . فلما بلغ ذلك عمر ندم . وعاتبه عبادة ابن الصامت فقال لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم . فوجه عمر عمير ابن سعد الانصاري الى بلاد الروم وأمره ان يتلطف لجبلة ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على ان يؤدي ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه . فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى الا المقام في بلاد الروم (١) .

وكتب عمير ابن سعد الى عمر انه أتى شق القرات الشامي وأراد من هناك من بني تغلب على الاسلام فأبوا وهموا بالحق بأرض الروم . فكتب اليه عمر يأمره ان يضعف عليهم « الصدقة » التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وارض (٢) .

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٨١ - ١٨٢

وتقدم ابو عبيدة في شمال سورية ووصل الى جبال اللكام . وغزا حبيب ابن مسلمة الجرجومة فبدر أهلها في طلب الأمان « على ان لا يؤخذوا بالجزية وان ينفكوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين » . فوافق حبيب ودخل الجرجومة في دولة الاسلام ولم يدفعوا الجزية (١) .

وصالحت حلب على جزية تؤديها كسائر مدن الشام ولكنها احتفظت بحصنها . وقد مرّ بنا كيف تنص رواية من الروايات على ان المسلمين صالحوا سكان بيت المقدس على « شيء » يؤدونه وأعطوهم ما أحاط به حصنهم على ان يكون للمسلمين ما كان خارجاً . وقوطع اهل اللاذقية على « خراج » يؤدونه قلوباً او كثرها ! .

ولما فتح عياض ابن غم الرها أعطاهم أماناً لانفسهم واموالهم وكنائسهم « على ان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليبا » (٢) .

عهدة عمرو : ونظر عمر ابن الخطاب نظرة فاتح مؤسس فأمّن وعادل وأنصف واعتبر الدولة الفتية دولة اسلامية تحمي الاسلام والمسلمين اولا كما كانت دولة الروم دولة مسيحية تحمي المسيحية والمسيحيين اولا . ومن هنا قوله الى عمرو ابن العاص عندما حل القحط في المدينة : « أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها » (٣) .

وروى عبد الرحمن ابن غم الاشعري الذي توفي سنة ٧٨ للهجرة : « كتبنا لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : هذا كتاب لعبدالله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لانفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٣

(٣) الرجل والملوك للطبري ج ١ ص ٢٥٧٧

في مدائننا ولا فيها حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه احداً ولا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان أراد . وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس . ولا نشتبسهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكثي بكنائهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر . وان نجزّ مقام رؤوسنا ونلزم زيتنا حينما كنا . وان نشد الزنابير على اوساطننا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين . ولا نخرج شعائبتنا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا . ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم . ولا نجاورهم بموتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم .

وأتى الاشعري خليفة الخليفة وأطلعه على هذا النص فزاد فيه : « ولا نضرب احداً من المسلمين . شرطنا ذلك على انفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان . فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمننا على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق » (١) .

الكنائس والاديار : واحترم المسلمون حق النصارى في استعمال الكنائس القائمة في اكثر المدن والقرى . وأخذوا بعضها عنوة ككنائس الغوطة

(١) سراج الملوك للطبري ص ٢٨٣

وطبرية (١). أما كندراية دمشق فإن نصفها أصبح مسجداً منذ اللحظة الأولى. وأراد معاوية أن يزيد النصف الآخر في المسجد « فأبى النصارى ذلك فأمسك ». وما فتئ يبدعهم حتى عهد الوليد بن عبد الملك (٢). وأمن أبو عبيدة نصارى حمص على كنائسهم ولكنه استثنى ريع كنيسة يوحنا للمسجد (٣).

خروج النصارى : وجاء في المراجع العربية في كتاب فتوح البلدان للبلاذري أنه لما فتحت دمشق « لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو في انطاكية فكثرت فضول منازلها ». وجاء أيضاً أن يزيد بن أبي سفيان وأخاه معاوية « أجلبا كثيراً من أهالي صيدا ويبروت وجبيل وعرة » لدى فتحها وأن أهالي طرابلس « هربوا » بمراكب قبيل سقوط بلدتهم . وجاء أيضاً أن جبلة بن الأيهم الغساني دخل بلاد الروم بعد اليرموك « في ثلاثين ألفاً » وأن أهل انطاكية صالحوها على الجزية والجلاء « فجلا بعضهم وأقام بعضهم » وأن أكثر أهالي بالس وقاصرين جلوا إلى بلاد الروم وكذلك سكان الثغور الشامية بين الاسكندرونة وطرطوس فانهم « هربوا إلى بلاد الروم خوفاً » وقيل أن هرقل أدخلهم معه عند انتقاله من انطاكية . ووجه أبو عبيدة ميسرة ابن مسروق إلى درب بفراس ليقطعها « فلقى جمعاً للروم معهم مستعربة من غسان وتنوخ وإياد يريدون الحاقق بهرقل » (٤).

ولم يرض هرقل عن هذا النزوح الكبير فإنه أعلم المخلصين من النصارى في جميع أنحاء سورية وفلسطين أنه عائد لا محالة وأوجب عليهم البقاء في أماكنهم استعداداً لجولة ثانية في ميدان القتال (٥).

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦ و ١٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥

Jalabert, L., Damas, Dict. Arch. Chrét., IV, Col. 125 - 126.

(٣) المصدر نفسه أيضاً ص ١٣١

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٣ و ١٣٢ و ١٤٧ و ١٥٠ و ١٦٤

(٥) Dolger, Reg., 210; Agapius de Maboug, Patr. Or., VIII, Fasc. 3, 471.

اليعاقة والمسلمون : ويرى عدد من المستشرقين المستعربين ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم أن اختلاف النصارى في كنيسة انطاكية حول الطبيعة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في الطبيعتين حمل اليعاقة على الترحيب بالدولة الإسلامية الجديدة . ويغيب عن بال هؤلاء أن معظم من وقف إلى جانب هرقل من قبائل النصارى العرب كان ممن قال بالطبيعة الواحدة وأن من نزع من هؤلاء إلى بلاد الروم كان من المونوفيسيين أيضاً وأن هرقل كان قد ثبت (٦٣١) في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريرك اليعاقة أنفسهم اثناسيوس الجمال وأن بابا رومة كان قد سكت عن القول بالمشيئة الواحدة أو قاله وأن بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وأرمينية كانوا قد اتفقوا على هذه العقيدة الجديدة وحدها . فلا يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة وإزاء الأعمال الجريئة التي قام بها اليعاقة أنفسهم ضد المسلمين أن نقول مع افتيخيوس أن أبناء حمص رأوا في هرقل امبراطوراً مارونياً عدواً للدين القويم لأنه قال بالمشيئة الواحدة (١). وأما قول المستشرق المستعرب ده غويه أن حروب الفتح استهدفت تحرير العرب في سورية من نير الروم فإنه مجرد خيال لا تؤيده النصوص .

البطريرك مقدونيوس : (٦٢٨ - ٦٤٠) وكاد اليهود لانسطاسيوس الثاني خليفة الرسولين وأمسكوه وعذبوه وجروهم في شوارع انطاكية جراً فقتل نخبه شهيداً في السنة ٦٠٩ . ثم كان ما كان من أمر الفرس وزحفهم فتولى السدة الرسولية الانطاكية غريغوريوس الثاني . وكان آنئذ في القسطنطينية فبات ينتظر نهاية الحرب الفارسية لينهض إلى انطاكية ويدير دفة الرئاسة بنفسه . وطالت الحرب فطال انتظاره وتوفي في القسطنطينية بعيداً عن انطاكية في السنة ٦٢٠ . وخلفه في الرئاسة انسطاسيوس الثالث وبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٢٨ (٢) .

وكان سرجيوس البطريرك المسكوني قد بدأ يقول بالمشيئة الواحدة . ورغب في تعميم رأيه وتدعيمه فسعى لمقدونيوس أحد اصدقائه برئاسة كنيسة

1) Patr. Graeca, Vol. 111, Col. 1088.

2) Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, J.M., op. cit., 167.

انطاكية . وتسلم مقدونيوس عكاز الرعاية في القسطنطينية وبقي فيها (١) . وقضت ظروف التقارب وتوحيد الصفوف بالاعتراف ببطريرك اليعاقبة اثناسيوس الجبال بطريركاً على انطاكية مقابل اعترافه بالطبعيتين والمشيئة الواحدة فأصبح هو رئيس كنيسة انطاكية المسؤول . ثم توفي اثناسيوس بعد هذا بقليل (٦٣١) فعادت السلطة الى يد مقدونيوس . ووافق مقدونيوس صديقه سرجيوس فأعلن قوله بالمشيئة الواحدة وسعى لتعميمه في أبرشيات انطاكية . فقال هذا القول عدد كبير من الاساقفة والرهبان وبين هؤلاء رهبان القديس مارون كما سبق وأشرنا (٢) . وظهر الاكثيسيس وقد سبق الكلام عنه ، فأيده مقدونيوس وحث المؤمنين على قبوله .

البطوريك جاورجيوس الاول : (٦٤٠ - ٦٥٥) واستمر العداء بين الروم والمسلمين . وأنفذ الروم حملة على مصر وحملتها غيرها على انطاكية (٦٤٦) وركب المسلمون البحر وهجموا على قبرص (٦٤٩) واحتلوا جزيرة ارواد (٦٥٠) وانتصروا على اسطول الروم في « ذات الصواري » (٦٥٥) فلم يتمكن جاورجيوس الاول خلف مقدونيوس من الوصول الى انطاكية والاقامة فيها . فبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٥٥ .

جمع اللاتران : (٦٤٩) وتوفي هرقل في السنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون على ان يحكما باشراف الفلسيلة مرتينة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون . وتوفي قسطنطين الثاني في السنة ٦٤١ مسموماً فاتهم مرتينة بقتل ابن صرتها وتمرد الجند واكرهوا مرتينة على اشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم . ثم قطع لسان مرتينة وجدد انف ابنها ونفيسا الى رودوس . وتولى الحكم قسطنطين الثالث (٦٤١ - ٦٦٨) .

وكان هرقل قد اصدر في سنة ٦٣٨ الاكثيسيس الذي اوجب به القول بالمشيئة الواحدة . وكان ييوس قد خلف سرجيوس على السدة المسكونية

1) Hefelè - Leclercq, op. cit., III, 390 - 391.

2) Bréhier, L., Schisme Monothélite, Fliche et Martin, op. cit., V, 169.

(٦٣٨) واضطر ان يتنازل على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد مرتينة ربيسته فهاجر الى افريقية . وكان قد قام بينه وبين مكسيموس المعترف جدال علني (٦٤٥) انتهى باقتناع ييوس ورجوعه عن بدعة القول بالمشيئة الواحدة .

فكتب ييوس الى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكثيسيس عن ابواب الكنائس . ورحل ييوس ومكسيموس معاً الى رومة فأيدهما البابا ثيودوروس الاول (٦٤٢ - ٦٤٩) فألغى قسطنطين الثالث الاكثيسيس وأصدر التيبوس *Thypos* القانون (٦٤٨) محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئين (١) .

وتوفي غريغوريوس برايفيكتوس افريقية وصديق ييوس وحاميه فخشي ييوس الا يتمكن من العودة الى عرش القسطنطينية فالتجأ الى افلاطون اكسرخوس رابينه وعاد الى القول بالمشيئة الواحدة . فغضب البابا ثيودوروس ودعا مجمعاً محلياً ثم زار قبر الرسول مستجيراً وغمس « قلامسه *Calamus* » قلمه في الدم المقدس ووقع حارماً ييوس (٢) .

وانقضى أجل ثيودوروس الاول في الثالث عشر من ايار سنة ٦٤٩ فخلفه على السدة الرومانية مرتينوس الاول (٦٤٩ - ٦٥٣) . وكان مرتينوس قد مثل السدة الرومانية في القسطنطينية مدة من الزمن وخبر رجالها . فلم ير فائدة في المفاوضة . فلما تسلم عكاز الرعاية دعا الى اللاتران عدداً كبيراً من الاساقفة للنظر في أمر البدعة الجديدة . ولتبي هذه الدعوة مئة وخمسة اساقفة معظمهم من ايطالية وبعضهم من افريقية . ووصل اسطفانوس اسقف دورة في فلسطين فاشترك في أعمال هذا المجمع . وحضر الجلسات عدداً من القساوسة والرهبان اليونانيين المقيمين في رومة آنذ . وكان بين هؤلاء يوحنا رئيس دير القديس سابا الفلسطيني وجاورجيوس رئيس دير قيليق في رومة .

وأجمع الاعضاء على شجب التعاليم الجديدة واعتبارها خروجاً وهرطقة

1) Mansi, X, 1029 - 1032 ; Hefelè - Leclercq, III, 432 - 434.

2) Theophanes, Chron., a. 6121; Hefelè-Leclercq, III, 430; Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 332.

فكانت جلسات خمس استمع فيها الآباء الى قراءة جميع ما صنف في المشيئة الواحدة والى الاوامر الامبراطورية الصادرة في صددتها فاعتبروها جميعها من صنع سرجيوس ويروس وبولس بطاركة القسطنطينية وكيروس بطريرك الاسكندرية وثيودوروس اسقف فارانة . ثم نبذوها وقطعوا هؤلاء البطاركة . وكرروا الاعتراف بالايمان النيقاوي واقترحوا اضافة بند ينص على القول بالمشيئين (١) .

مرتنيوس وانطاكية واورشليم : وساء الآباء المجتمعين انتشار القول بالمشيئة الواحدة في ابرشيات انطاكية واورشليم وعلموا بشغور الكرسي الاوروشليمي وبابتعاد بطاركة انطاكية عن حقل عملهم وقولهم بالمشيئة الواحدة فأقام مرتنيوس اسقف فيلادلفية (عمان) وكيلا بطريركياً على ابرشيات الكنيستين الانطاكية والاوروشليمية وحضه على خلع كل اسقف يصير على القول بالمشيئة الواحدة (٢) . ووجه مرتنيوس رسالة رعائية الى المؤمنين في انطاكية واورشليم كما كتب الى بعض الشخصيات الكبيرة من الشعب والاكليروس . ومما جاء في هذه الرسائل : ان مقدونيوس انتحل الاسقفية لنفسه وان الكنيسة الجامعة لا تعرفه اسقفاً لانه يوافق الهرطقة (٣) .

ويلاحظ هنا ان هذه الرسائل التي صدرت في السنة ٦٤٩ اعتبرت مقدونيوس مستمراً في رئاسة الكنيسة الانطاكية . وهو أمر ذو بال يوجب بحثاً دقيقاً في تعيين السنوات التي ترأس فيها كل من مقدونيوس وجاورجيوس ومكاربيوس كنيسة انطاكية .

استشهاد مرتنيوس ومكسيموس : واستعظم قسطنطين الثالث موقف مرتنيوس ومكسيموس فأمر بالقضاء القبض عليهما وبمحاكمتها امام المجلس الاكليريكي الاعلى في القسطنطينية . فجاء القديسان الى العاصمة واتهما بالمؤامرة على سلامة الدولة وعذبا تعذيباً . ثم نفي مرتنيوس الى الخرسونة في ربيع السنة ٦٥٥

- 1) Mansi, X, Col. 863 - 1170 ; Hefelè - Leclercq, III, 434 - 451 ; Theophanes, Chron., a. 6121, 6141.
- 2) Mansi, X, Col. 806 - 822.
- 3) Hefelè - Leclercq, III, 452-453 ; Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle, 443.

فتوفي فيها . ثم نقل جثثانه الى رومة في الثاني عشر من تشرين الثاني فأحييت الكنيسة الجامعة بقرعها اليوناني واللاتيني ذكر هذا الشهيد البار (١) .

وما كاد المركب الذي أقل مكسيموس وتلميذه انسطاسيوس وانسطاسيوس يرسو في ميناء العاصمة حتى هجم الجند على مكسيموس وعروته من ثيابه الرهبانية وجروه جراً في شوارع القسطنطينية . ثم ساقوه أمام ديوان الامبراطور وحققوا معه في تهمة الخيانة والتآمر على سلامة الدولة . فلم يثبت عليه شيء منها فأعادوه الى السجن وأرسلوا من يقنعه بالخضوع للامبراطور والقول بالتنبؤ . فقال كيف أطيع الملك وأغضب الله . فنفته مع تلميذه . ثم حاولوا اقناعه مرة ثانية فلم يفلحوا . فلما أعتيهم الحيل رشقه المجلس الاكليريكي بالحرم . ثم صدرت الأوامر بقطع لسانه ويده اليمنى ليمتنع عن الكلام والكتابة . وحل بتلميذه مثلاً حل به . وتني مكسيموس ورفيقاه الى لازقة . وتوفي القديس فيها في الرابعة والثمانين من عمره وفي الثالث عشر من آب سنة ٦٦٢ (٢) .

« لنكرم ايها المؤمنون بالتساوي الواجبة بحب الثالث مكسيموس العظيم الذي علم بالايمان علانية بأن يمجّد المسيح بطيئتين ومشيتين وفتحين السلام عليك يا كاروز الايمان » . اورولويون - ٢١ كانون الثاني .

تقارب ومهادنة : وسئم الطرفان الروماني والقسطنطيني هذا التناظر وهذه القساوة . وتزايد الضغط الاسلامي وتعاظم الخطر . وتوفي البابا اوجانيوس الأول (٦٥٤ - ٦٥٧) وخلفه فيتاليانوس (٦٥٧ - ٦٧٢) فأعلم هذا قسطنطين الثالث بارتقائه السدة الرومانية وكتب الى زميله في القسطنطينية الرسالة السلامية . فاعترف الامبراطور بقانونية الانتخاب البابوي وقدم الهدايا الملكية وبينها انجيل مذهب مرصع (٣) . ويستدل من أعمال المجمع السادس ان فيتاليانوس امتنع عن نبذ التيبوس وان الامبراطور أكد تعلقه بالتعاليم الارثوذكسية فتمت مهادنة عاد على أثرها اسم البابا الى ذبيخة الكنيسة القسطنطينية (٤) .

- 1) Diehl, C., L'Exarcate de Ravenne, 406 - 408 ; Leclercq, H., Les Martyrs, IV, 234 - 246.
- 2) Acta Sancti Maximi, Pat. Gr., Vol. 90, Col. 109-170 ; Bréhier, L., Schisme Monothélite, V, 173 - 175 ; Assaf, M., Synaxarion, I, 91 - 98.
- 3) Liber Pontificalis, (Duchesne) I, 343.
- 4) Mansi, IX, Col 199.

وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقين ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنته . وقد اغتتم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فهدس الى جبال العلويين فلبنان بضعة الاف من المردة يغزرون منها على الحواضر والارياف فيهددون سيادة المسلمين في الشام ويعيثون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة (١) .

واغتيل قسطنطين الثالث في السنة ٦٦٨ واعتلى اريكة الملك بعده قتي يافع هو قسطنطين الرابع . وتمرد الجند مطالبين بحق اخوي هذا الملك القتي . وثار مزريوس في صقلية وسابوريوس في ارمينية . واستنجد سابوريوس بالعرب . فرأى معاوية ان الفرصة سانحة . وكان قد احتاط لأمر المردة فاستقدم عدداً من الفرس وأسكنهم مدن الساحل اللبناني واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق (٢) . ثم غني بترميم الحصون الساحلية . وفي السنة ٦٦٩ قام بمناورة عسكرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه . ولكنه في الوقت نفسه سبر غور الدفاع البيزنطي في آسية الصغرى فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية . وكان زعيم هذه الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثنائها فدفن خارج اسوار عاصمة الروم !

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية تحاصر عاصمة الروم وتحاول ازالة الجنود . فصدمتها مراكب الروم . وفي الخريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة كيزيكوس لتمضي فصل الشتاء وتلقى المؤن والذخائر من قواعدها في الساحل اللبناني السوري . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية . فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة . واستعمل الروم في هذا الحصار النار الاغريقية فنشروا الذعر في صفوف المسلمين . وجاءت السنة ٦٧٧ فاذا بالمسلمين يعودون

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩

(٢) الاعلاق النفيسة لابن رسته ص ٣٢٧ والبلاذري ايضاً

الفصل الحادي والثلاثون

المجمع المسكوني السادس

٦٦٨ - ٧١٥

قسطنطين الرابع : (٦٦٨ - ٦٨٥) وأساء قسطنطين الثالث الظن بأخيه ثيودوسيوس فألبسه ثوب الرهينة ثم أمر به قتل . فثار به ضميره وأصبح اخوه يتراءى له حاملاً كأساً من دمه ويقول له : اشرب يا أخي ! فكره قسطنطين الاقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزع عنها . وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا فيتاليانوس بالحفاوة والاکرام . اما الشعب في القسطنطينية فانه لم يرض عن تغيب قسطنطين ومنع التحاق زوجته واولاده به . ثم بعد ست سنوات دخل قسطنطين حماماً في سرقوسة فضر به خادم الحمام بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

وفي اثناء غياب هذا الامبراطور كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو بعد قتي . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض اليها فاخذ بالنار ثم عاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالألحي Pogonatos .

التوسع الاسلامي : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبعياً ان يدركوا مبلغ الخسارة التي حلت بأبناء الساحل اللبناني السوري المصري من جراء ما سبب لهم الفتح الاسلامي من انقطاع عن أسواقهم في آسية الصغرى والبلقان وايطالية واوروبة الغربية . وهكذا فانهم لم يروا بداً من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة (١) .

1) Lewis, A. R., Naval Power and Trade in the Mediterranean, 54 - 55.

الى الحصار . فانطلقت لصددهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب المسلمين فاضطر ما بقي الى العودة الى قواعده في الشام . وهبت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر وطارد الروم البقية الباقية فغنموا معظمها (١) . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه عليه لثلاثين سنة شرط ان يدفع في كل سنة ثلاثة الاف قطعة من الذهب وخمسين جواداً عربياً وخمسين عبداً (٢) .

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ فتولى الخلافة بعده معاوية الثاني . ورأى هذا انه ليس بأهل للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة . فعادت الامور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية الاول . وتبوأ العرش مروان ابن الحكم وكان رجلاً طاعناً في السن . فاستغل قسطنطين الرابع مشاكل يزيد فاكرهه على الخروج من قبرص . وجاءت مشا كل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت المسلمين عن مرعش . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مالا سنوياً أكثر مما كان غيره يدفع من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥ (٣) .

المجمع المسكوني السادس : (٦٨٠ - ٦٨١) ولم يقو زوان سرجيوس

و كيروس واونوريوس على حنطة صفرونيوس ومكسيموس . وأثر التقارب الذي تم بين الامبراطور قسطنطين الرابع وبين البابا فيتاليانوس فرقي السدة القسطنطينية بطاركة ثلاثة عرفوا بالحبّة والمسألة وهم توما (٦٦٧ - ٦٦٩) ويوحنا (٦٦٩ - ٦٧٥) وقسطنطين (٦٧٥ - ٦٧٧) . ثم جاء ثيودوروس في صيف السنة ٦٧٧ ، وكان ضعيف الرأي شديد الاصغاء الى زميله مكاريوس بطريرك انطاكية ، فالتبس عليه وجه الصواب وطالب بحذف اسم فيتاليانوس بابا رومة من الديتيخة . وكان قسطنطين الرابع قد نجح في صد المسلمين ورغب

1) Canard, M., *Expéditions des Arabes contre Constantinople*, Journ. Asiat., 1925 - 1926, 77 - 80.

2) Theophanes, Chron., a. 6169 ; Nicephore, 32 - 33, 42 ; Dolger, Reg., 239.

3) Brooks, E. W., *Successors of Heraclius*, Cam. Med. Hist., II, 400 - 406.

في اخاد الفتن الداخلية وتوحيد الصفوف فلم يكتف برد طلب ثيودوروس بل انه عمد الى عقد مؤتمر شرقي غربي تبحث فيه أهم نقاط الخلاف الديني (١) . فكتب في صيف هذه السنة نفسها الى دونوس بابا رومة وطلب اليه ان يوفد اثني عشر اسقفاً ايطالياً الى مؤتمر ينظر في الخلاف القائم في العقيدة . وكتب الامبراطور الى اكسرخوس راينسة يأمر بتسهيل سفر هؤلاء الاساقفة وابعادهم الى القسطنطينية (٢) . وكان دونوس قد توفي في نيسان السنة ٦٧٩ فخلفه اغاثون . فاتصل البابا الجديد بأساقفة الغرب مستمراً . فتأخر جوابه فانهز ثيودوروس القسطنطيني هذه الفرصة فحذف اسم فيتاليانوس من الديتيخة . فرد عليه الامبراطور بأن أمر به فخلع واستعاض عنه بجاورجيوس . وكان هذا أقل تمسكاً بالمونوثيلية من سلفه (٣) .

وفي اوائل ايلول السنة ٦٨٠ وصل الوفد الروماني الى القسطنطينية . وكان مؤلفاً من اساقفة ثلاثة وقسيسين وشماس وايبيدياكون . وحمل هذا الوفد رسالة من اغاثون الى قسطنطين تنبئ بتأليف الوفد وباستعداد اعضائه لتأييد قرارات المجمع المسكونية السابقة (٤) . وحمل الوفد ايضاً بياناً بالايمان موقعاً من البابا ومئة وخمسة وعشرين اسقفاً غربياً يؤكدون فيه نبل التعليم بالمشيئة الواحدة (٥) . ولدى وصول هذا الوفد طلب الامبراطور الى كل من جاورجيوس بطريرك القسطنطينية ومكاريوس بطريرك انطاكية ان يدعوا الاساقفة الخاضعين لسلطتهما الى القسطنطينية للاجتماع بزملائهم الغربيين (٦) . فلبى الدعوة بادىء ذي بدء ثلاثة واربعون اسقفاً ثم تكاثروا حتى أصبح مجموع الموقعين مئة واربعة وسبعين . ومثل كنيسة الاسكندرية القس بطرس وكنيسة اورشليم القس جاورجيوس . وبدأت أعمال المجمع في السابع من تشرين الثاني سنة ٦٨٠ وانتهت في السادس عشر من ايلول سنة ٦٨١ . وبلغ عدد الجلسات الرسمية ثمان عشرة جلسة .

1) Mansi, XI, Col. 617 - 620.

2) Dolger, Reg., 242 ; Liber Pontificalis, I, 350.

3) Theophanes, Chron., a. 6168, 6169, 6170.

4) Mansi, XI, Col. 234 - 286.

5) Mansi, XI, Col. 286 - 315 ; Hefelè - Leclercq, III, 477 - 483.

6) Dolger, Reg., 244 ; Mansi XI, 201 - 204 ; Hefelè - Leclercq, III, 483 - 484.

وعقد المجمع جلساته في قاعة القبة « الاطروالتوس » *In Trullo* . وجلس قسطنطين الرابع في حفلة الافتتاح في صدر المجلس وعن جانبيه قضاة الدولة . ثم جلس عن يساره نواب البابا ونائب بطريرك اوروشليم . وجلس عن يمين الامبراطور جاورجيوس بطريرك القسطنطينية ثم مكاريوس بطريرك انطاكية ثم نائب بطريرك الاسكندرية فسائر الاساقفة بعضهم عن اليمين والبعض عن اليسار . وجعل الانجيل المقدس في الوسط .

وطلب نواب البابا في الجلسة الاولى الى اكليروس القسطنطينية ان يشرحوا القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة . فطلب الامبراطور الى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس ان يجيبا . فقال بطريرك انطاكية : انه موجود في مجامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية ومعتقدات كيروس الاسكندري واونوريوس بابا رومة . فطلب القصر البيعة على ذلك . فاحضرت اعمال المجامع وقرئت في الجلسات الاربعة التالية . وتبين ان الرسالة التي نسبها سرجيوس بطريرك القسطنطينية الى سلفه في الكرسي ميناس لم تتفق في الخط والترقيم وما قبلها وما بعدها من اعمال المجمع الخامس . ولدى التفتيش في محفوظات بطريركية القسطنطينية وجدت نسخة اخرى من اعمال هذا المجمع نفسه وتبين انها خالية من نص الرسالة موضوع البحث (١) .

وفي الجلستين الخامسة والسادسة في السابع من كانون الاول سنة ٦٨٠ والثاني عشر من شباط سنة ٦٨١ قدم مكاريوس البطريرك الانطاكي ثلاثة مجلدات ضمنها نصوصاً ادعى انها تؤيد القول بالمشيئة الواحدة . وفي الجلسة السابعة في الثالث عشر من شباط قدم الوفد الروماني مقتطفات من اقوال الآباء في تأييد القول بالمشيئتين .

وفي الجلسة الثامنة في السابع من اذار سنة ٦٨١ طلب الامبراطور الى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس ان يبديا رأيهما في بيان البابا اغاثون . فعاد جاورجيوس الى نصوص الآباء ودرسها على ضوء ما جاء في بيان زميله الروماني

1) Hefelè - Leclercq, III, 487 - 490, 504 - 506.

فتبين له وجه الصواب . وقال بالمشيئتين ووافق في ذلك جميع الاساقفة الخاضعين لسلطته . وطلب هذا البطريرك اعادة اسم البابا فيثاليانوس الى الذبيحة فأعيد . ثم سئل مكاريوس والاساقفة الانطاكيون عن رأيهم . فوافق هؤلاء الاساقفة على القول بالمشيئتين ولكن مكاريوس أبى مدعيّاً ان القول بالمشيئتين يعرضها الى الاختلاف والتناقض . فأعاد الامبراطور الطلب فأنكر البطريرك مفضلاً الموت مقطعاً على القول بالفعلين والمشيئتين .

وانصرف الآباء في الجلسة التاسعة الى التدقيق في المجلدات الثلاثة التي وضعها مكاريوس لتأييد القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة . وقابلوا بعض ما أخذه عن الآباء بالاصول فظهر التبديل والتجريف . فاقترح الآباء قطع مكاريوس وتلميذه اسطفانوس . وخصصت الجلسة العاشرة للتدقيق في ما قدمه الوفد الروماني ومقابلته بالاصول .

واجتمع الآباء للمرة الحادية عشرة والثانية عشرة في العشرين والثاني والعشرين من اذار للدرس جميع ما صنف مكاريوس . فقلبت جميعها وسئل مكاريوس عنها فاعترف بصحة نسبتها اليه . فسأل القضاة المجمع ماذا يكون مصير مكاريوس بعد الندامة والتوبة وهل يظل بطريركاً على انطاكية : فلم يرض الآباء الاعضاء . فخلع مكاريوس ونوه بثيوفانس خلفاً له (١) .

وفي الجلسة الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس وبيرس وبطرس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطريرك الاسكندرية وعلى اونوريوس بابا رومة وثيودوروس اسقف فارانة سيناء .

ودخل على الآباء في الجلسة الخامسة عشرة في السادس والعشرين من نيسان قس متوحد من اتباع مكاريوس اسمه بوليخرونيوس . وادعى هذا القس انه رأى في حلم ملائكة سماويين وفيهم رجل عظيم الجلال أوصاه ان يذهب الى الامبراطور وينذره الا يقول الا بالمشيئة واحدة . وأدعى القس ايضاً انه يستطيع اقامة الاموات تصديقاً لرسالته . فخرج الاساقفة والرؤساء الى ساحة الحمام

1) Hefelè - Leclercq, III, 499 - 504.

ووضعوا أمام القس ميتاً على نعش وطلبوا اليه ان يقيمه . فوضع القس على صدر الميت اعترافه بالمشيئة الواحدة وانحنى عليه يثبت فلم يستطع ان يفعل شيئاً فقطعه المجمع وحرمه (١) .

وفي الجلسة السابعة عشرة صدق المجمع جميع أعماله السابقة وحرّم المعتقدين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد . وفي الثامنة عشرة في السادس عشر من ايلول سنة ٦٨١ تلي اعتراف المجمع هكذا : « بمسيح وابن ورب وحيد هو نفسه بطبعيتين واقنوم وشخص واحد وبمشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيتين بلا انقسام ولا تغير ولا تيزؤ ولا اختلاط ... وليست المشيئتان متضادتين . حاشى ! بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة ولا مناكفة وتخضع لمشيئته الالهية القادرة على كل شيء » (٢) .

وجاء حرم البابا اونوريوس هكذا : « واننا نحرم اونوريوس الذي قام بابا على رومة القديمة لاننا وجدناه في تحاريره الى سرجيوس تابعاً في كل شيء لرأيه وموافقاً على عقائده الفكرية » . ووافق نواب البابا على هذا الحرم وأيده البابا لاوون الثاني لان اغاثون توفي في مطلع السنة ٦٨١ .

واعتبر المجمع رسالة صفرونيوس الى سرجيوس من اعمال المجمع . ودعا آباء المجمع للرؤساء فقالوا : « اننا ندعو بالسنين الكثيرة لاغاثون بابا رومة وجاورجيوس وثيوفانس بطريركي القسطنطينية وانطاكية والمجمع والسينودوس » . ودعوا ايضاً لقسطنطين الرابع « نصير الارثوذكسية وعمود الكنيسة وحارس الايمان » . ووافق الامبراطور على جميع اعمال هذا المجمع وأوجب القول والعمل بها بارادتين امبراطوريتين الاولى بتاريخ السادس عشر من ايلول والثانية بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الاول سنة ٦٨١ (٣) .

1) Mansi, XI, Col. 602 - 611.

2) Mansi, XI, Col. 611 - 622. Hefelè - Leclercq, III, 515 - 538 : Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle, 472 - 473 ; Bréhier, L., La Paix Religieuse, Fliche et Martin, op. cit., V, 189 - 190.

3) Dolger, Reg., 248 ; Mansi, XI, Col. 727 - 729.

يوستنيانوس الثاني : (٦٨٥ - ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع في اول ايلول سنة ٦٨٥ فتولى العرش بعده ابنه يوستنيانوس الاشرم Rhinometos وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان طموحاً مشبعاً بحب العظمة والمجد فأراد ان يحتدي مثال سميه يوستنيانوس الاول . ولكنه كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان فتطور سوء ظنه بالناس وحبسه للعنف الى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء . اما في امور العقيدة فانه كان ارثوذكسياً مخلصاً متمسكاً بقرارات المجمع المسكونية (١) .

المجمع الخامس السادس : (٦٩٢) وأدت حروب القرن السابع وفتنه الى اهمال القوانين الكنسية وقلّة الاكتراث بها (٢) . وحصر آباء المجمع الخامس والسادس أبحاثهم في امور العقيدة ولم يعالجوا مشا كل الكنيسة الادارية فدعا يوستنيانوس الثاني الى مجمع يكمل اعمال هذين المجمعين فيعني بالادارة وال ضبط . ومن هنا تسميته بالمجمع البنيكتي Penthektos اي الخامس والسادس . واسمه في الآداب الكنسية الغربية Quinesextum .

واشترك في اعمال هذا المجمع مثنان وسبعة وعشرون اسقفاً او مثنان واربعون . وأبرزهم بولس بطريرك القسطنطينية وبطرس بطريرك الاسكندرية وجاورجيوس بطريرك انطاكية وانسطاسيوس بطريرك اوروشليم واسقف غورتيني واسقف رابينة نائباً بابا رومة . واجتمع الاعضاء وعقدوا جلساتهم في القسطنطينية وفي قاعة القبة ايضاً .

وسن المجمع البنيكتي مئة قانون وقانونين . واثبت الالباء في اول هذه القوانين تمسكهم بالعقيدة الارثوذكسية كما جاءت في اعمال المجمع الستة وكرروا شجب الهرطقة وحرّم القائلين بها بما فيهم البابا اونوريوس (٣) . واكد الالباء في القانون الثاني تأييدهم للقوانين التي سنّها سلفاؤهم اعضاء المجمع السابقة . وبحثوا في المئة الباقية علاقات الشمامسة بالقساوسة وزواج هؤلاء واولئك . وعينوا السن

1) Bréhier, L., La Paix Relig., op. cit., V, 191 - 192 ; Diehl, C., L'Empereur au Nez Coupé, Choses et Gens de Byzance, 174 - 177.

2) Diehl, C., Le Monde Oriental, 211 - 235.

3) Bréhier, L., op. cit., V, 195.

التي يجب ان يبلغها الاكليريكي قبل سيامته . وحرّموا الدين بالربا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب الكنائسية . وبحثوا الكتب المقدسة وكيفية استعمالها والحفاظ عليها والتعليم بها كما بحثوا في امور الرهبانية والاديار والجمعيات السرية وعنى الرقيق والتصاوير البديئة والسحر والكهانة وأمر اليهود (١) .

رومة تحنج : ودونت اعمال هذا المجمع في نسخ ست واحدة لكل من الامبراطور والبطاركة الخمسة وارسلت جميعها الى رومة ليوقعها البابا . وكان البابا كونون قد توفي في السنة ٦٨٧ فخلفه سرجيوس الانطاكي (٦٨٧ - ٧٠١) فأبى سرجيوس ان يوقع محتجاً ببعض محتوياتها كتحريم الصوم ايام السبت والاذن للكهنة بالزواج . فأراد يوستنيانوس ان يكرهه على ذلك ولكن جيشه في ايطالية وقف الى جانب البابا (٢) .

خلع يوستنيانوس وعودته : واستنزفت حروب يوستنيانوس كل ما في الخزانة فجمع وزيره الاموال عن طريق الاغتصاب فجرا عليه كراهية الشعب . واراد هو في السنة ٦٩٤ ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقم في مكانها بناء له . وكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها . فأجابه البطريرك : اما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول ! فأجبره يوستنيانوس ان يصلي للهدم . فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً : الحمد لله الطويل الناة كل حين وكل اوان والى دهر الداهرين .

وطغى يوستنيانوس وتجرّسار القائد لاونديوس الى القصر وقبض على يوستنيانوس وجذع انفيه ونفاه الى الخرسون . ثم اخفق لاونديوس في افريقية فنادى الجند بطياريوس امبراطوراً . ووفق طياريوس هذا الثالث في حروبه ضد المسلمين ولكن الشعب والجيش كانوا قد أصبحوا لا يخضعون لسيطرة احد فبات عرش طياريوس متداعياً . وفرّ يوستنيانوس الثاني من منفاه وزل في بلغاريا واستنصر تربيل ملك البلغار فزحفا معاً على القسطنطينية وعاد يوستنيانوس

1) Mansi, XI, Col. 921 - 936 ; Liber Pontificalis (Duchesne), I, 372 - 373 ; Hefelè - Leclercq, III, 560 - 561, 575 - 576.
2) Gorres, F., Justinian II und das Romische Papsttum, Byz. Zeit., 1908, 440 - 450.

الى العرش (٧٠٥) . وفي السنة ٧١١ ثار فيليبديكوس البردائي فدخل العاصمة ثم قتل يوستنيانوس وابنه طياريوس فانهى امر الهرقلين بعد مئة سنة وستة .

يوستنيانوس والبابا قسطنطين : (٧١١) ورغب يوستنيانوس بعقد عودته الى الحكم في موافقة رومة على اعمال المجمع البنشيكى فدعا البابا قسطنطين الى زيارة القسطنطينية . فأما في السنة ٧١١ واستقبل فيها بحفاوة واکرام واختلى يوستنيانوس بقسطنطين في نيوميدية فخرجاً متفقين . وأقام البابا قداساً حافلاً في القسطنطينية وتناول يوستنيانوس من يد البابا . وعاد البابا الى رومة مكرماً وبني أمر هذا الاتفاق غامضاً تنقصه التفاصيل (١) .

ظهور الكنيسة المارونية : واستولى الفرس على ابرشيات انطاكية فرحب اليعاقبة بقدومهم وتعاونوا معهم . وطالت الحرب الفارسية (٦٠٩-٦٢٨) فلمس هرقل أهمية ولاء اليعاقبة والارمن لقربهم من حدود فارس ولكثرة عددهم فرغب في تسوية الخلاف القائم بين هؤلاء وبين الكنيسة الجامعة . فأعد سرجيوس البطريرك المسكوني حلاً للمشكلة فقال بطييعتين مع الكنيسة الجامعة بفعل واحد لاسترضاء اليعاقبة والارمن والاقباط . ووضعت الحرب أوزارها فأخذ هرقل يطوف في الولايات الاسيوية ويحرض النصارى على التفاهم وتوحيد الصفوف بالشكل الذي اقترحه سرجيوس بطريرك القسطنطينية . ووصل هرقل الى الجزيرة في صيف السنة ٦٣١ وزاره فيها ازر كاثوليكيوس الارمن فقبل الحل الجديد . ثم اتصل هرقل بأجبار اليعاقبة في منبج فقالوا بالمشيئة الواحدة والطبيعتين واعترف هرقل ببطريركهم اثناسيوس الجبال بطريركاً قانونياً على كنيسة انطاكية . ثم اتجه الامبراطور شطر سورية الشمالية مقرباً موحداً فلقى ترحيباً كبيراً .

ووصل هرقل الى حمص في هذه السنة عينها (٦٣١) فخفف رهبان بيت مارون الى استقباله فيها ورحبوا به ترحيباً « فأقطعهم اراضي واسعة » (٢) وأبقى في أيديهم ما كانوا قد أخذوه من الكنائس والأديار التي كانت

1) Bréhier, L., La Paix Relig., op. cit., V, 199 - 200.
2) Eutychius, Annales, P. G., Vol 111, Col. 1039, Ed. Cheikho, II, 26.

للعاقبة (١). فازدادوا عزة ومناعة ونفوذاً وتعاونوا معه (٢).

وأطل المسلمون على سورية وانتشروا في سهولها واستولوا على مغامها وتراجع هرقل وأوصى أعوانه وانصاره، وبين هؤلاء رهبان بيت مارون واتباعهم، بالتيقظ والتربص مؤكداً عودته بعد حين فاشتد ضغط المسلمين على هؤلاء الاعوان والانصار. وأكد اليعاقبة للمسلمين انهم ليسوا من انصار الملك فأطلق المسلمون يدهم فاضطهدوا رهبان بيت مارون واتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من اديار وكنائس (٣). وكان اليعاقبة لا يزالون كثيراً في أبامية ونواحيها ولهم دير عظيم بالقرب منها على اسم مار باسوس بلغ عدد رهبانه ستة آلاف وثلاث مئة (٤). فطلب الموارنة لهم ملاجئ حصينة يعيشون فيها أحراراً طلقاء ويمتنعون بها الى ان يعيد الروم الكرة ويجولوا جولة ثانية في الحرب القائمة بين النصارى والمسلمين. واغتنم معاوية نشوب الثورات في أوائل عهد قسطنطين الرابع فأنفذ حملاته الشهيرة ووصل الى اسوار القسطنطينية (٦٧٣ - ٦٧٧) فأنفذ الروم المردة والجراجمة الى جبال لبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام تعرقل اعمال تموين العدو وتهدد عاصمته. فاحتجى هؤلاء كثيرون من أهل البلاد (٥) وضوى اليهم « جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط » (٦). وهؤلاء الانباط هم في عرف رجال البحث والاختصاص العناصر الآرامية المعاصرة (٧) ومنها الموارنة. ولم تأت هذه الهجرة دفعة واحدة وانما حدثت في أزمنة متتالية فجاء الموارنة الى لبنان على موجات صغيرة واستقروا بطبيعة الحال في اعاليه الشمالية في منطقة الجبة القريبة من وادي العاصي وفي بلاد العاقورة التي كانت لا تزال قليلة السكان كثيرة الغابات (٨).

1) Barhebraeus, *Chronicon Eccl.*, I, 270 - 274.

2) Michel le Syrien, II, 412; Bréhier, L., *Crise Relig.*, op. cit., V, 116; La Vie de l'Eglise Byz., op. cit., V, 481.

3) Barhebraeus, op. cit., 270 - 274.

4) Chabot, *La Légende de Mar Bassus*, 55, 60, 63.

5) Theophanes, *Chron.*, a., 6169.

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٦٠

7) ZDMG, 1871, 124 - 125.

(٨) تنزيح الأبصار للاب لانس ج ٢ ص ٥٢

وسار موكب المشيئة الواحدة في البلدان التي لم تكن قد فتحها المسلمون سيراً موقفاً فقال بها بطاركة القسطنطينية وأرمينية ومصر وأيدهم أونوريوس بابا رومة فصدر الاكثيسيس بالمشيئة الواحدة في السنة ٦٣٨. وتولى السدة القسطنطينية بعد سرجيوس من قال بالمشيئة الواحدة وبث الدعاية لها وناصر من ناصرها. وتعاقب على الكرسي الانطاكي من قال هذا القول منذ السنة ٦٣١ حتى السنة ٦٨١. وأشهر هؤلاء مقدونيوس صديق سرجيوس ومكاروريوس صاحب المصنفات في المشيئة الواحدة. وكان القول بالمشيئة الواحدة على ما دعا اليه هرقل قد شاع في أبرشيات انطاكية واوروشليم وتفشي بين طبقات الشعب والاكليروس من الملكيين الموارنة منهم وسواهم. ومن هنا اهتمام البابا مريتنوس وتفويضه الى يوحنا اسقف عمان امر رعاية من تبقى من المؤمنين الارثوذكسين وتخويله خلع الاساقفة في أبرشيات انطاكية واوروشليم الذين ضلوا فضللوا (١). - وقد نغالي كثيراً اذا اعتبرنا البطاركة الانطاكيين المونوثيليين المقيمين في القسطنطينية آنسذ شرفيين *In Partibus Infidelium* بكل ما في هذا الاصطلاح من سلطة وهمية وفقير في النفوذ. فوقف الامبراطور من مكاروريوس قبيل انعقاد المجمع المسكوني السادس يدل على صلة بين البطريرك الانطاكي وبين الاساقفة الخاضعين لسلطته (٢).

وكان ما كان من أمر المجمع المسكوني السادس (٦٨١). وحرّم القول بالمشيئة الواحدة. وأصر بطريرك انطاكية مكاروريوس على غيبه وأمن في تبهه فوسم بطابع الهرطقة وحرّم هو واتباعه. وآثر مكاروريوس الاتصال بابا رومة على البقاء في القسطنطينية فاذن له بذلك. فأقنع الى ايطالية مع اعضاء الوفد الروماني ووصل الى رومة والتبست عليه وجوه الرشد فغلا في هرطقته فدخل ديراً وأقام فيه. واعتبر اليعاقبة عمل المجمع المسكوني السادس غلوآ في ما ذهب اليه المجمع الخلقيدوني فاشأزوا واتهموا قسطنطين الرابع بالخيانة وادعوا انه باع

1) Mansi, X, Col. 806 - 822; Duchesne, L., *L'Eglise au VI Siècle*, 443.

2) Dolger, *Reg.*, 244; Mansi, XI, Col. 201 - 204; Hefelè - Leclercq, III, 483 - 484; Bréhier, L., *La Paix Relig.*, op. cit., V, 186.

ضميره لقاء مئة وسبعين قنطاراً من الذهب دفعها اليه البابا اغاثون !! (١) وأصبح من نكبت من الملكيين عن طاعة المجمع السادس بلا رأس فاجتمع رهبان بيت مارون ورسوموا على قول المؤرخ اليعقوبي ، بطريركاً وأساقفة من ديرهم . وهكذا تأسست كنيسة مارونية مستقلة بين اواخر القرن السابع واولائل الثامن .

يوحنا مارون : (٦٢٧ - ٧٠٧) واثبت ما يستنتج من تقاليد الموارنة ان رهبان دير مارون واتباعهم اثناء شغور الكرسي الانطاكي نادوا بيوحنا احسد رهبانهم الأفاضل بطريركاً على انطاكية وانه هو اول بطاركتهم . ومما جاء في التقليد انه رقد في جبل لبنان وتوالى بعده بطاركة الموارنة (٢) .

الموارنة والمشيئة الواحدة : ويذكر القديس جرمانوس البطريرك المسكوني (٧١٥ - ٧٢٩) الموارنة في كتابه المجامع والمهرطقات فيقول انهم لم يعترفوا بالجمعين الخامس والسادس (٣) . ويعد القديس يوحنا الدمشقي رسالة في العقيدة الارثوذكسية قبل السنة ٧٢٦ ليتبينها الياس اسقف يبرود امام رئيسه بطرس متروبوليت دمشق فيجيب في القسم في آخرها ان الاسقف لا يقول الا بها وانه لا علاقة له بأي دستور ايمان آخر ولا سيما دستور ايمان الموارنة (٤) . ويوجه ثيودوروس ابو قرة اسقف حران (٧٤٠ - ٨٢٠) رسالة الى صديق له كان يعقوبياً فاهتدى (٥) فيقول بالعربية : « ولا نرى ان القوى التي كانت في التركيب الانسي بطلت لان الكلمة هو كان المدبر والمحرك لها وان كان قد يرى ذلك جند الموارنة » . ولعله ينسب للموارنة رأي غلاة المونوثيلية المتأخرين .

1) Michel le Syrien, II, 447 - 448, 457.

2) لباب البراهين من حقيقة الطائفة المارونية للمطران يوسف دريان ص ١٢١ . راجع أيضاً الجامع المفصل في تاريخ الموارنة للمطران يوسف الدريس ٦٣ - ٦٩ و

Chabot, J.B., Les Origines de la Légende de Saint Jean Maron, Mem. Acad. Insc. Bel. Let., 1935, 1 - 9.

3) Patr. Gr., Vol. 98, Col. 82.

4) Patr. Gr. Vol. 94, Col. 1432.

5) Die Arabischen Schriften des Theodor Abu Qurra von Harran, Forschungen zur Christlichen Literatur, X ; Cheikho - Malouf - Bacha, Vingt Traités Théol. d'Auteurs Arabes Chrétiens, 75 - 107.

وقام سعيد ابن البطريق بطريرك الاسكندرية (٩٣٣ - ٩٤٠) يؤرخ منذ الخليفة حتى ايامه فقال ان مارون علم بالطبيعتين والمشيئة الواحدة والفعل الواحد والاقنوم الواحد . واضافة انه علم في عصر موريقيوس وان اكثر من تبعه تلاميذه اهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم فسميوا المارونية (١) . وسعيد ابن البطريق هو افتيخيوس المشار اليه آنفاً وهو يخلط بين القديس مارون ويوحنا مارون البطريرك الماروني الاول فيضعف روايته (٢) .

ويتصدى للبحث في هذا الموضوع في القرن العاشر مؤرخ مسلم هو ابو الحسن علي المسعودي المتوفي في السنة ٩٥٧ للميلاد . وقد اشتهر بحب الاستطلاع والبحث في المواضيع الاسلامية وغيرها . وصنف كتباً عديدة اشهرها مروج الذهب . ويبحث في كتاب التنبيه والاشراف في الموارنة فقال :

« وظهر في ايام موريقي رجل من اهل مدينة حماة من اعمال حمص يعرف بمارون واليه تنسب المارونية الى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا . وأمرهم مشهور في الشام وغيرها وأكثرهم بجبل لبنان وسنبر وحص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان . وكان لهم دير عظيم يعرف شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاث مئة صومعة فيها الزهبان . وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم . فخرّب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الاغراب وجور السلطان . وهو يقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية . وكان مارون قد أحدث آراء أبان بها عن تقدمه من النصارى في المشيئة وغيرها . وكثر متبعوه . وقد أتينا على شرح مذهبه وموافقة الملكية والنسطورية واليعاقبة في الثالث ومخالفته أياهم في ما يذهب اليه من ان المسيح جوهران اقنوم واحد مشيئة واحدة . وهذا القول متوسط بين قول النسطورية والملكية » (٣) .

كتاب الهدى : وقد سطت نحن الدهر وعوادي الزمن على آثار الموارنة الاولين فلم يبق منها شيء يذكر . وأقدم ما عنده الموارنة كتاب الهدى والمقالات العشر (٤) .

1) Edit. Cheikho, Corpus Script. Christ. Orient., I, 210.

2) Vailhé, P., Origine Relig. des Maronites, Echos d'Orient, 1906, 266.

٣) التنبيه والاشراف للمسعودي طبعة باريز ص ١٥٤

٤) « كتاب الهدى وهو دستور الطائفة المارونية في الاجيال الوسطى عني بنشره الاخ بطرس تامر العشقوتي - حلب ١٩٣٥ - »

وكتاب الهدى أو كتاب الناموس أو كتاب الكمال الذي ينسب إلى المطران داود الماروني هو في الحقيقة مجهول المؤلف لأن المطران داود لم يؤلفه وإنما نقله من السريانية إلى العربية في نحو السنة ١٠٥٨ وذلك إجابة لطلب راهب فاضل اسمه يوسف. والمطران داود مجهول أيضاً وكذلك صديقه الراهب يوسف. وليس في متن كتاب الهدى ما يدل على واضعه سوى العبارة « وقال الاب القديس » أو ما يشابهها. ولا تعلم من هو هذا الاب القديس. ولعله مار يوحنا مارون أو أحد خلفائه البطارقة الأولين أو غيرهم وقد يكون هذا الكتاب من كتب الطائفة المارونية بدليل ما جاء في الباب الثالث عشر منه عند ذكر آراء النصارى في أخذ القربان. فقد جاء ما نصه بالحرف: « فرأت الروم أن تقريبه في كل يوم واجب ولكنها قالت أن ترك أخذه في أكثر الاوقات أولى من أخذه دائماً. أم الأرمن فانهم لا يرون تقريبه بالجملة الا في اوقات مخصوصة مثل الخميس الكبير والفصح وما أشبه ذلك من الاعياد الكبار. فأما أكثر السريان وهم اهل مذهبنا وأكثر اليعاقبة وسريان المشرق والنساطرة فرأيهم في المواظبة على أخذه في أكثر الاوقات أولى من تركه ». ويتضح من هذا أن السريان اهل مذهبهم هم غير الروم والأرمن واليعاقبة والنساطرة وسريان الشرق (١). نقول قد يكون هذا الكتاب من كتب الموارنة بدليل ما اقتبسنا وقد لا يكون. وقد يكون لبعض الموارنة لا لجميعهم.

والذي يهمنا من كتاب الهدى جاء في القانون الاول منه وفيه كلام صريح في أمر المشيئة الواحدة. واليك نصه:

« فنقول انه هكذا نعتقد وهكذا نؤمن أن أحد الاقانيم الثلاثة الشريفة وهو الابن الكلمة المولود من الآب ليس في الزمان والابتداء وليس كتواله الاجسام بعضها من بعض بل هو نور من نور له حق من له حق في آخر الزمان من أجل كثرة رحمته قد صنع خلاص الجنس الآدمي بمشيئة الآب وروح القدس هبط من السماء من غير أن يفارق ذات الاب ومن غير تغير ولا فساد تجسد من روح القدس والظاهرة ابنة يواقيم وحنة وأخذ منها جسداً موازياً لنا في طبيعتنا وموازياً لنا في

(١) لباب البراهين المطران يوسف دريان ص ٢١٤ - ٢٣٦.

جوهراً الانساني جسداً ذا نفس ناطقة عالمة وشاهنا في كل شيء سوى الخطيئة وولد منها ابناً واحداً ورباً واحداً يسوع المسيح اقنوماً واحداً وشخصاً واحداً ذا جوهرين معقولين من جوهر الآب الازلي بلاهوت ومن جوهراً بتناوته محسوس بالجمع الانساني وغير محسوس باللاهوت محدود بالجمع الزماني الانساني وغير محدود باللاهوت الازلي الأبدى.

« وأذ قد اعتقدنا فيه هذا الاعتقاد الذي ذكرناه فاننا لا نعتقد فيه ايضاً اثنين ولا مسيحين ولا فعلين حاشا من ذلك بل هو واحد يسوع المسيح ابن الله الذي من أجلنا تأنس اقنوم واحد وشخص واحد وهو يعقل بجوهرين ومشيئة واحدة وفعل واحد إله ازلي ليس له ابتداء وانسان آدمي زماني ذو جسم نفساني حساس زماني. وهو إله تام باللاهوت وانسان تام بالجمع الانساني.

« وهذه الأوصاف قد آمنت البيعة المقدسة وبها أقرت واعترفت هي وجميع اولادها. وعمل ذلك اتفق رأي النصارى المؤمنين وآمنوا بالرب يسوع المسيح ابن الله الحي الازلي الذي هذه اوصافه. وكانت أرواحهم متفقة في جميع ما قدمنا ذكره إلى هذا الذي انتهينا إليه من أوصاف الابن الازلي يسوع المسيح. ثم اختلفوا فيه كيف كان بعد الاتحاد واقتربوا فرقا كثيرة.

« فأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة الفرقة المنسوبة إلى آريوس وهي التي تدمي الآريوسية ثم النسطورية وهي المنسوبة إلى نسطور ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى بردعاء ولذلك يقال له البرادعي ثم الملكية وهي المنسوبة إلى قسطنطين ابن قسطنطين ابن هرقل الملك ثم المارونية وهي المنسوبة إلى مارون يوحنا بطريرك انطاكية العظمى (١).

« وثبتت هذه الفرق الأربع على أن الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما إنما هما فرقة واحدة ورأيهما في الاتحاد والجوهر والاقتومية رأي واحد وإنما اختلفتا في المشيئة فقالت الملكية بمشيتين وقالت المارونية بمشيئة واحدة. واحتجت كل واحدة منهما بحجج. فقالت الملكية في المسيح انه ذو مشيتين للجوهرين مشيئة الهية للجوهر الالهي ومشيئة انسانية للجوهر الانساني. وقالت المارونية بل هو ذو مشيئة واحدة للجوهرين الالهي والانساني. ومن بعض ما احتجت به الملكية انه لما كان المسيح ذا جوهرين جوهر الهي وجوهر انساني وجب أن يكون ذا مشيتين مشيئة الهية للجوهر الالهي ومشيئة انسانية للجوهر الانساني إلا أن الجوهر الالهي يختص به مشيئة التفضل والأنعام واظهار المعجزات مثل شفاء المرضى وفتح اعين العمي وانهاض الزمنى واحياء الموتى وما أشبه ذلك. والجوهر الانساني يختص به العالميات مثل الأكل والشرب. ولو كان المسيح ذا مشيئة واحدة لوجب أن يكون جوهرأ واحداً وعاد الأمر إلى ما قالت اليعقوبية. واستدلت على ذلك بقوله في

(١) ويعلق هنا المطران دريان فيقول: « وفي النسخة الكرمية يوجد بعض التشويش في هذه العبارة خاصة فقد وردت فيها كما يلي: ثم المارونية المنسوبة إلى مارون وإلى قسطنطين ابن قسطنطين ابن قسطنطين ابن هرقل ». لباب البراهين ص ٢٣٩.

الانجيل : أما النفس فخاترة مستعدة وأما الجسم فوجوع ضعيف . ويقول : ما أثبت لاصنع مشيقي بل مشيئة الآب الذي أرسلني . وقالت طائفة المارونية هاتان المشيئتان اللتان ادعيتوهما لا تخلوان من أن تكونا أما متساويتين أو متضادتين . فإن كانتا متساويتين في جميع حالهما هاد الأمر إلى مشيئة واحدة . وإن كانتا متضادتين جاء من ذلك أن يكون الجوهر الإلهي يشاء ما لا يشاء الجوهر الإنساني . وكذلك الجوهر الإنساني يشاء ما لا يشاء الجوهر الإلهي . وإذا حصل ذلك وقع التباين والقضاء وحصول اثنين وبطل حكم الاتحاد وصار الثالث رابعاً وآل الأمر إلى رأي نسطور وما أدهاه في المسيح (١) .

المقالات العشر : وكتاب المقالات العشر في المشيئة الواحدة للاستقف توما الكفرطابي يقول مع كتاب الهدى بالطبيعتين والمشيئة الواحدة ويستدل من مقدمة هذا الكتاب أن صاحبه توما كان اسقفاً على موارنة كفرطاب وكورة حلب (٢) في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وأنه كتب في المشيئة الواحدة ليرد على يوحنا السابع بطريرك انطاكية الارثوذكسي وذلك في السنة ١٠٨٩ . ومن أهم ما جاء في هذه المقالات قوله :

« ونحن واقفون دوماً ثابتين على ذلك زمان كثير إلى زمان مكسياس خاصكم الذي من تحقيق ولد زنا لأن أمه كانت امرأة عجمية زلت مع رجل يهودي من ملة السامرة . فلما ولد منها هذا المذكور ونشأ ثم أنه تدرب بكل أموراً منشقة عن العدل بكل مكر وافعال ردية لأنه تربى في طبرية وانتقل من هناك إلى مدينة قسطنطينية . وعند ذلك الحين كان في مدينة قسطنطينية ملكين اخوة مرقيان واخيه تسلاً مقاليد سياسة مملكة الروم . حينئذ تقدم مكسياس المذكور وطلق يشير عليها بأن يوجب اننا نزيد مشيئة اخرى ويكونا مشيئتين لذو الطبعين . وهذا الاعتقاد يلزم افتراق الطبيعتين من الاتحاد الشريف . ثم أن الملكين امثلاً قوله لأن قال كما انتما ملكين يصير لكما شعب يسمى ملكين باعتقاد مشيئتين وطبعين وفعلين ومذبحين ويصلب باصبعين . فلما حسن ذلك عند الملكين كي يظهر لهم سمعة جديدة في العالم أمرهم مكسياس يكتبوا منشائر إلى بلد الشام كي انهم يعتقدوا مقالة المشيئتين التي قالها مكسياس . فلما انتهت كتبهم إلى بلاد سورية الشام وبلد حلب ودمشق وجبل لبنان : حينئذ قالوا أهل الشام اننا نحن واجمعين إلى حكم دير ماران سرياني تفسيرها عربي دير ربنا . لأن صفة هذا الدير كان على شط العاصمة خارج مدينة حماة . وكانت بجلة وعباته ثمانية راهب كلهم قديسين . ثم وصلت لهم كتب الملكين مرقيان واخيه إلى دير ماران . فلما وقفوا على قرائتها وتأملوا مضمون اشارتها لحين نفروا منها غاية الانقار . ثم أن الرهبان ردوا جواب كتب

(١) لباب البراهين للمطران دريان ص ٢٣٧ - ٢٤٢

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٣ هامش رقم ٢ . وفيه بحث دقيق في انتساب هذا الاسقف إلى الموارنة ورد على ابن القلاحي والدويهي وغيرهما ممن أنكروا توما مارونيت .

الملكين قائلين لهم هكذا : انتم تعلمون لأن نحن بايدينا امانة الثلاثماية وثمانية عشر اباً بمدينة نقيه وقامت عليها خمس مجامع وثبتتها لنا واحرموا لكل من يغيرها أو يميل عنها . وتأمرونا نقيم مذهب مكسياس بيد غالبية وسيف . ومذهب حق لم يكون بقوة حرب . وهذا الشقاق اختاره مكسياس من تلقين قلبه بأغراض مفسدة مائلة عن عدل المجامع . فإن كان مكسياس قوله حق يجبي ويجمع نحن وأبنا بمدينة الله انطاكية . فإن رأينا نعمة روح القدس حل عليه علمنا أن قوله عدل . وإذا لم يكون كذلك والا لم يكرهنا أحد على اتباع مقالته غصباً بغير شهادة برهان من كتب الكنيسة المقدسة الرسولية وتثبيت قوانين المجامع المقدسة المهذبة بنعمة الروح القدس .

« ثم أن أولئك الرهبان القديسين كتبوا جواب مراسلة الملكين . وتسلم رسل الملوك وانصرفوا من عندهم . فلم يشعروا الا وقد ظهرت جيوش الاسلام وقطعت البلد وتغلبوا على دمشق ومصر وايضاً بيت المقدس وجميع الشام فلم عادوا الملكين كاتبوا دير مارون . عند ذلك ثبتوا أهل الشام وجبل لبنان على تلك المقالة المقدسة المفوضة من الرسل والمجامع المقدم ذكرها . فلما عاد توفوا الملكين مرقيان واخيه .

« حينئذ تقلد سياسة مملكة الروم بعد هولاي هرقل الملك المنصور الذي رفع مجد دين النصرانية وأباد أعاديها واهلك أضدادها من الفرس وغيرهم . واهلك بلدانهم واخرب حضراتهم وأحى ذكرهم ورفع منارة الصليب الكريم على جميع الاعالي وكسر معبودات الجوس هباد الأوثان وأقام بحق الملك نظير قسطنطين الكبير الملك القديس الذي ثبت مقالة الثلاثماية والثمانية عشر في مدينة نيقية .

« وأن الملك هرقل القديس نكر على مقالة مكسياس ثم كتب عرف اليونان لاونون بطريرك رومية بفساد تلك المقالة الذي زادها مكسياس بغير شهادة حق . فلما بلغ كتاب الملك هرقل إلى لاونون حينئذ تأمله وفهم مضمون صحة ايمانه عند ذلك أرسل جوابه رسالة يبارك له بملكه ويدهي له بالنصر قائلاً له أن الذي ابتدع هذا الشقاق مستحق تأديب قطع لسانه ويده . فلما وصل كتاب البطريرك قبله هرقل قبل الوقوف عليه . حينئذ اشخص بين يديه مكسياس وأمر بعض غلمانه أحد اسمه قسطا قطع لسان مكسياس ويده وانفاه إلى جزيرة تسمى الزيكية . وهذا المقال مؤرخ عندنا وعندكم بكتاب سعيد ابن بطريق . وهناك مات مكسياس منفياً وبطلت مقالة المشيئتين ومحا ذكرها في ملك هرقل وابنه قسطنطين وابن قسطنطين كان اسمه قسطاس مقدار سبعين سنة .

« وبعد هولاي تقدموا تلاميذ مكسياس إلى أهل المراتب وقدموا لهم البرطيل والرشوات الجزيلة وردوا المقالة المنشقة كما كانت من مكسياس . وانشقوا أولئك إلى تلك المقالة . وثبتنا نحن أهل حلب وحماة وحمص في الشرق وجبل لبنان بمقالة الخمس مجامع . وثبتوا تلاميذ مكسياس منشقين وحودهم لا يجالبطهم أحداً . وأكثروا المقال والعيب واللعنات بغضة منهم ورقاعة إلى جميع صفوف النصراني المؤمنين اخوتنا المسيحيين .

« وانتم تلاميذ مكسياس أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها جميع المسيحيين ظلماً وبغضة بغير شهادة عدل وما سمعتم ما قال الانجيل المقدس صلوا على من يلعنكم ظلماً افرحوا وابتهجوا لأن اجركم كثير في السماء وباركوا على من لعنكم ومن صغركم ميل مر معه ميلين . وانتم أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها النساطرة والافرنج والارمن والقبط والحشب واليعاقبة والموارنة .

الفصل الثاني والثلاثون يُوحنا الدمشقي وفاق الذهب

٦٥٥ - ٧٤٩

شقاء «الملكيين»: واستغل اليعاقبة الحروب بين الروم والامويين واكدوا لهؤلاء وللاء ابناء الكنيسة الجامعة لدين ملك الروم ودعوه «ملكيين» واتهموهم بالتجنس للروم فضيق الامويون على هؤلاء «الملكيين» ومنعوا قيام بطاركة لهم في انطاكية واورشليم والاسكندرية. وقدم بنا ان البطاركة الانطاكيين مقدونيوس وجاورجيوس الاول ومكاريوس ظلوا يعيدين عن انطاكية مقيمين في القسطنطينية. وشمل هذا المنع ثيوفانس الاول (٦٨١ - ٦٨٧) واسطفانوس الثالث (٦٨٧ - ٦٩٠) ولعل جاورجيوس الثاني (٦٩٠ - ٦٩٥) وخلفه الكسندروس الثاني (٦٩٥ - ٧٠٢) عادا الى انطاكية وأقاما فيها (١). ولكن بطاركة اليعاقبة ظلوا هم ايضاً يعيدين عن انطاكية مقيمين في جهات ديار بكر وملاطية. وعلى الرغم من ان أحدهم الياس نال حظوة لدى الامويين فنجح حق انشاء كنيسة في انطاكية فانه لم يسمح له بالاقامة في هذه المدينة (٢).

الامويون والنصارى: ورغب الامويون في المال لاصطناع الأحزاب وللتمتع بأسباب الدنيا وللتابعة الحرب فزادوا الجزية وانخراج وشددوا في تحصيلها وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية في بعض الأحيان ممن دخل في الاسلام. ورأى بعض النصارى ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية والعنف فعمدوا الى لبس الاسكيم فأدرك عمال بني امية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان وأراد بعضهم اقتضاءها من الأموات فجعلوا جزية الموتى على الأحياء (٣).

«ولا تعتبوا علينا ولا تلمونا لأننا أوريناكم الصواب ولكم بروتكم ولربنا المحمّد . ونحن سمينا موارنة من دير ماران تفسيره دير ربنا . وانتم انشقيتم وحوذكم وسميتم ملكيين على اسم الملكين مابدين مشيئين وارادتبن وفعلين وغرضين ومذبحين وتصلبوا باصبعين وافرقتم السيد المسيح مسيحين . عرفتك ذلك بعد اكرامك يا ابي القديس وصلي علي منشان الله له السبح آمين آمين» (١).

موقف علماء الموارنة: وأحكم ما صنف في هذا الموضوع على يد الموارنة كتاب لياب البراهين عن حقيقة أمر الطائفة المارونية للمطران يوسف دريان . فانه جاء والحق يقال غزير المادة جزيل المباحث واضح التعبير . وظهر بعده بثمانية عشر عاماً كتاب آخر بالافرنسية لصديقنا سيادة الخير العلامة المطران بطرس ديب وقد أسماه «الكنيسة المارونية حتى نهاية العصور الوسطى» (٢). وقد استوعب سيادته اصول هذا الموضوع وأحاط به بالطريقة العلمية الحديثة فجاء كتابه مرجعاً لا يستغنى عنه وتلخص نظرية المطران يوسف دريان والمطران بطرس ديب بما يلي:

اولاً: ان القول بالمشيئة الواحدة لم يصل الى ابرشيات انطاكية في عهد سرجيوس واونوريوس وهرقل وان القول بالمشيئتين تسرب الى هذه الابشيات بواسطة بعض الاسرى في أوائل القرن الثامن .

ثانياً: ان الموارنة ولو قالوا بالمشيئة الواحدة لا يصح ان يقال بصواب انهم مونوثليون بمعنى لأن المشيئة الواحدة في عرفهم «واحدة معنوياً أي في مفعولها وتنجبتها لا في قوتها ومبدئها» (٣).

ثالثاً: انه لا يجوز عد الموارنة الاولين هراطقة لانه لا يصح فيهم تحديد الهراطقة وشروطها ولا سيما وانه لم يكن في عملهم اي عناد او جسارة او مكابرة او عصيان على سلطة الكنيسة كما برهنوا على ذلك عند اول اتصالهم بالكرسي الرسولي الروماني بعد تحديد المجمع المسكوني السادس.

ويرى صديقنا العلامة سيادة المطران محائيل ضومط ان التعبير «مشيئتان طبيعيتان وفعلان طبيعيتان» الذي أقره المجمع المسكوني لم يظهر في المناقشات الاولى التي رافقت قضية المشيئة الواحدة. وقد أخذها بعضهم بمعنى ادبي يقصد به «الامر المراد» وبالفعل «الامر المفعول». وفي عدم التمييز التباس ادى الى جدال هو أشبه شيء بما قام حول تعبير الطبيعة الواحدة الموروس عن كيرلس الاسكندري.

(١) لياب البراهين للمطران دريان ص ٢٦٣ - ٢٦٧

(٢) Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite jusqu'à la Fin du Moyen Age, Paris, 1930.

(٣) لياب البراهين ص ٢٤٧

1) Mansi, XI, Col. 988.

2) Barhebraeus, Chron., I, 298.

(٣) للمقريزي ج ١ ص ٥٠ و ٢٩٥

ولا يجوز التعميم في شيء من هذا فان الامويين عاطفوا ايضاً على بعض المسيحيين من ابناء الكنيسة الجامعة نفسها وأشهر هؤلاء منصور ابن سرجون والد دفاق الذهب . وعطف الامويون على بعض الاطباء وعلى الاخطل ايضاً . وكان هذا يدخل على عبد الملك ابن مروان بغير اذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار (١) . وأجاد في مديح بني امية في مناظرة جرت بينه وبين جرير فقال قوله المشهور :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس احلاماً اذا قدروا
فصاح عبد الملك الخليفة الذي جرت المناظر في حضوره : « لا فض فوك انتك محامينا وشاعرنا اصعد على ظهر مناظرك » . فخلع الاخطل برده وشعر رداءه وقبض بيده على عنق جرير . فصرخ هذا يستنجد : « يا امير المؤمنين ان مسيحياً لا يحق له ان يسوم مسلماً هذه الاهانة » . فأيسده الحاضرون وقالوا : الحق في جهانبه يا امير المؤمنين ! ولكن عبد الملك لم يبد أي اهتمام لهذا الكلام حتى اذ وطئ النصراني بقدمه عنق غريمه قال عبد الملك : هذا حسبك (٢) .

ومما يروى عن عبد الملك ان طبيبه كان مسيحياً نسطورياً اسمه سرجون وانه عين اثناسيوس الرهاوي مريباً لاختيه عبد العزيز .

ويروى عن عبد الملك نفسه ايضاً انه كان يدعو المسيحيين للدخول في الاسلام ولكن بدون ضغط او اجبار (٣) . ويروى عنه ايضاً انه نشأ في اوساط المدينة وزغب في الدين فلما بلغه ان أباه أضحى اميراً للمؤمنين أغلق القرآن وهو يقول : « ليس بعد بنينا من جامع » (٤) . وينقل البلاذري بالاسناد ان عبد الملك طلب كندرائية دمشق « للزيادة في المسجد » وبذل للنصارى مالا لهذه الغاية فأبوا ان يسلموها اليه فامتنع (٥) .

(١) الأغاني للأصبهاني ج ٧ ص ٧٤ و ١٧٨

(٢) ديوان جرير ص ٢٤ - ٢٥

(٣) Lammens, H., Les Chantres des Omiades, 116.

(٤) Ibid., 230.

(٥) فتوح البلدان للطبعة الأوروبية ص ١٢٥

واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافه وفيهم عبدالله ابن الزبير في مكة والخثار ابن ابي العبيد في العراق وغيرهما فوكل ذلك الى الحجاج وامثاله فاستخدموا العنف وحصلوا الاموال بحق وبغير حق . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك يستأذنه في أخذ بقية من الاموال من أهل الدمة فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » (١) .

ونقض يوستنيانوس الثاني معاهدة السنة ٦٨٥ . وكان عبد الملك مشغولاً في توطيد دعائم ملكه فاشتري الصلح مع الروم وزاد المال السنوي الذي كان يدفعه معاوية (٦٨٩) . ثم استتب له الأمر في الداخل فنشأت مشادة بين عبد الملك ويوستنيانوس حول ما كتب او نقش على القراطيس والدنانير . فان الروم كانوا لا يزالون يستوردون الورق من مصر . وكانت قد جرت عادة الأقباط على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث على أعلى الطوامير . فأمر عبد الملك باستبدال هذه العبارة « قل هو الله أحد » . وكتب في صدور كتبه الى الروم : « قل هو الله أحد » . وذكر النبي مع التاريخ . فكتب اليه يوستنيانوس : انكم قد أحدثتم كذا وكذا فتركوه والا أناكم في دنائيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون . وكانت العملة الرائجة في البلدان الاسلامية لا تزال دنانير روميه ودراهم فارسية . فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه هذا التهديد من أثر سيء في نفوس المسلمين . فأشار خالد ابن يزيد على عبد الملك بالتمسك بما أحدثه في القراطيس وقال : يا امير المؤمنين حرّم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سككاً ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير (٢) . فسك عبد الملك دنانيره الاولى في السنة ٦٩٢ وارسل المبلغ السنوي المفروض عليه لملك الروم من هذه الدنانير الجديدة . فغضب يوستنيانوس لخلو هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولحملها عبارات لم تخل من التحدي : « أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » فرفض

(١) الأحكام السلطانية للباوردي ص ١٤٣

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٩ والكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٣

اللاماني ان هذه الاسرة برنطية الاصل (١) وليس لنا ان نقول مع الاب اسحق الارملي ان هذه الاسرة كانت عربية او آرامية جارت اليعاقبة وقالت قولهم . فالقديس الدمشقي ابتعد عن اديار اليعاقبة ونسك هو واقاربه في دير ارثوذكسي في فلسطين هو دير القديس سابا . وشهادة ابن البطريق افتيخيوس ان أبا يوحنا طلب الى خالد ان يعطي الامان « له ولاهله ولمن معه ولاهل دمشق سوى الروم » لا تعني ان منصوراً كان سريانياً يعقوبياً (٢) . فاللفظ « الروم » الوارد في هذه الشهادة قد يشير الى العنصر لا المذهب (٣) . والتلمحوري المتوفي في السنة ٨٤٥ يرى في سرجيوس ابن منصور الكاتب الدمشقي رجلاً خلقيدونياً لا يعقوبياً (٤) . وتوطنت اسرة منصور دمشق ونعمت في ايام موريقيوس (٥٨٢ - ٦٠٢) بالنفوذ والاحترام . فنصور في عرف افتيخيوس شغل منصباً مالياً هاماً وكاد يكون عامل موريقيوس في ولاية فينيقية اللبنانية . ودمشق آنئذ كانت من أهم مدن هذه الولاية . وأبقى هرقل منصوراً في منصبه بعد دخول الفرس الى سورية (٥) . ومنصور هذا هو الذي فاوض المسلمين باسم سكان دمشق بعد تخلي الروم عنها وهو الذي حظي بعطف اولئك بعد دخولهم اليها وتسلمهم ازمة الحكم فيها فبقي في المنصب الذي شغله في ايام الروم ولم يدخل سرجيوس ابن المنصور في الاسلام كما زعم ابن عساكر وابن شاعر فكلامهما في هذا الموضوع مصنوع وحديثهما مُحسن مُزلف (٦) . وثيوفانس الراهب الذي دوّن بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤ يؤكد تعلق سرجيوس بالدين المسيحي وينعته بما تعريبه . « كان مسيحياً كاملاً » (٧) .

وتقوى معاوية بعد ان نودي بعتان خليفة سنة ٦٤٤ . ونوى الاستئثار

1) Kremer, A. Von, *Culturgeschichte des Orients*, II, 408.

(٢) الملكيون لاسحق الارملي ص ٣٢

(٣) اسرة يوحنا الدمشقي للاب يوسف نصر الله ص ٣٨ - ٣٩ (الذكرى المثوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي) .

(٤) آداب اللغة اليونانية للاب ارمني نفسه في المسرة ١٩٢١ ص ٤٠٩

5) Eutychius, *Annales*, 26.

(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٦ ص ٧١ وعبون التواريخ لابن شاعر ص ٣٧٦ - ٣٧٧

7) Theophanes *Chron.* a. 6182.

يوسفانيوس قبول هذه الدنانير وتحرك يبيوشه الى الحدود الاسلامية ٦٩٣ (١) . وأنزل عبد الملك الصليبان (٢) واستشهد البطريك الانطاكي الكسندروس الثاني وجاعة من المؤمنين . وترمل الكرسي الانطاكي اربعين سنة (٣) .

وتوفي عيسد الملك في خريف السنة ٧٠٥ وتولى بعده ابنه الوليد (٧٠٥ - ٧١٥) . « وكان جباراً عنيداً » (٤) فأمر بجميع اسرى الروم فقتلوا . ثم ضغط على النصارى ولاسيما التغالبة للدخول في الاسلام (٥) .

طمع الوليد في كندرائية دمشق « فجمع النصارى وبذل لهم مالا عظيماً على ان يعطوه اباها فأبوا وأدخلها في المسجد » (٦) وسار سليمان (٧١٥ - ٧١٧) اخو الوليد على هذه الخطة عينها .

اما عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) فانه أوجب البر بالعهود واعطاء كل ذي حق حقه فأمر عامله في دمشق ان يرد الى النصارى كنيستهم . فكره ذلك أهل دمشق وقالوا نهلم مسجدنا بعد ان أذنا وصلينا ! ثم أقبلوا على النصارى فسألوهم ان يعطوا جميع كنائس الغوطة التي اخذت عنوة على ان يصفحوا عن كنيسة يوحنا فرضوا بذلك (٧) . ثم شدد عمر في تنفيذ عهدة عمر ابن الخطاب جد امه .

اسرة يوحنا الدمشقي : ولا نعلم شيئاً عن اصل الاسرة التي تحدر منها دفاق الذهب . ولا نجد شيئاً في المراجع الاولية يؤيد قول فون كريبير العلامة

1) Cedrenus, *Historiarum Compendium*, I, 772 ; Zonaras, XIV, 229-231 ; Theophanes, *Chron.* a., 6186.

2) Theophanes, *Chron.*, a. 6186.

3) Canstantius, *Patriarchs of Antioch*, Neale, J.M., op. cit., 168.

(٤) مروج الذهب للمسعودي الطبعة الاوروبية ج ٥ ص ٣٦١ والفضول المختارة للمباحظ ص ١٩٢

5) Barhebraeus, *Chron. Syr.*, 121 ; Michel le Syrien, II, 481 - 482 ; Zagat, H., *Les Martyrs Chrétiens dans l'Islam*, Machriq, 1938, 463-465

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٥

Lammens, H., *Le Calife Walid et le Partage de la Mosquée des Omiades à Damas*, Bull. Inst. Fr. Arch. Or., 1925 : *Etudes sur le Siècle des Omiades*, 269 - 304.

(٧) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٥

بالسلطة في سورية . ثم صار خليفة اموياً في دمشق فاستعان بالنصارى في الحرب والسلم وكلف ابن آثال بخراج حمص وأبقى أفراد اسرة المنصور في مراكزهم في دمشق (١) . ولعل السبب في ذلك خدمات منصور ايام الفتح واحتياج الفاتحين الى موظفين اداريين من ذوي الخبرة والامانة وان معاوية كان يخشى طمع اشرف الفاتحين ولجوءهم الى المساومة عند دفع الاموال (٢) .

وأخلص سرجيوس لمعاوية النصيح واجتهد له في المشورة فاستعت صلاحياته وشملت ديوان المقاتلة بالاضافة الى المالية فكلفه معاوية وهو على سرير الموت ان يسير الامور بعد موته حتى يعود ابنه يزيد من الحملة التي كان يقودها في آسية الصغرى (٣) . وأبقى يزيد سرجيوس على ما كان عليه . وهكذا فعل معاوية الثاني (٤) .

وأحب عبد الملك ان يستبدل اليونانية بالعربية في الدواوين المالية وما تبعها وان يغير بعض النظم في هذه الدواوين فلم يرض سرجيوس عن ذلك فولى عبد الملك سليمان ابن سعد وهو «اول مسلم ولي الدواوين» (٥) . وتوفي سرجيوس بين السنة ٧٠٣ والسنة ٧٠٥ .

وخلف سرجيوس ابنين أحدهما يوحنا دفاق الذهب ، وهو منصور المؤرخين المسلمين ، والآخر والد اسطفانوس السبثي ولا نعرف اسمه . وترهب اسطفانوس في دير القديس سابا ايضاً . وتبعه ابن عم له اسمه غريغوريوس وقد اشتهر بنظم الترايم . وفي القرن التاسع اعتلى السدة البطركية الاورشليمية بطريركان من أفراد هذه الاسرة نفسها هما سرجيوس (٨٤٢ - ٨٥٨) وإيليا الثالث (٨٧٩ - ٩٠٧) (٦) .

مولد القديس ونشأته : ولد قديسنا في دمشق واليهما نسب . ومن هنا

(١) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٤ واسرة يوحنا الدمشقي للاب نصر الله ص ٤٧

(٢) Lammens, H., Etudes Sur le Règne de Moawia, 11 - 12.

(٣) Lammens, H., Le Califat de Yazid, 108.

(٤) التنبيه والاشراف للمعزودي ص ٣٩٧

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (الظاهريه) رقم ٢١ ص ٢٤٦

(٦) اسرة يوحنا الدمشقي للاب يوسف نصر الله ص ٦٢

القول انه يوحنا الدمشقي . ومن هنا ايضاً لقبه الآخر دفاق الذهب . فالتعبير اليوناني *Chrysorroas* « دفاق الذهب » أطلق اولاً على نهر دمشق ومنعش غوطتها وأول من اطلقه على يوحنا الدمشقي هو المؤرخ ثيوفانس الذي دون بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤ . (١) وهو يوحنا في المراجع اليونانية ويوحنا ابن منصور في المراجع القبطية وقوريني ابن منصور في تاريخ ابن العبري وابن سرجون في كتاب الاغاني . (٢) اما سنة ولادته فانها مجهولة . وقد حصرها اصحاب سير القديسين بين السنتين ٦٧٠ و ٦٨٠ . ويرى الاب نصر الله ان قديسنا ولد حوالي السنة ٦٥٥ . وقد جاء اجتهاده في محله (٣) .

ونشأ يوحنا في بيت غني ووجاهة وعلم . ولا بد ان تكون دمشق قد نعمت بمدرسة عالية كغيرها من مدن ذلك العصر . فخاري ابن سليمان يقول ان الاساقفة حذوا حذو فوطيون كاثوليكوس النساطرة فأنشأوا المدارس في مراكز ابرشياتهم (٤) . ولكن سرجيوس آثر التهذيب الخصوصي ففتش عن مذهب لائق يعنى بتعليم ولده يوحنا وولده بالتبني قوزما وتهذيبها . ووافق هذا وقوع راهب صقلي في يد القرصان المسلمين اسمه قوزما ايضاً . فلما جاء القرصان بهذا الراهب وبغيره من ركاب السفينة المأسورة الى دمشق رأى سرجيوس هذا الراهب ورأى البعض من رفاقه يبحثون امامه طالبين البركة . فرثى لحاله واقترب وتحدث اليه فلمس فيه ضالته المنشودة . فثل أمام الخليفة واستوهبه الراهب فأعطاه اياه . فأخذه سرجيوس وأقامه على تربية ابنه يوحنا وابنه بالتبني قوزما . وكان هذا الراهب يدعى قوزما ايضاً وكان ماهراً في العلوم والآداب والفنون فأخذ يلقن الولدين اللغة اليونانية وآدابها والعلوم والفلسفة والموسيقى . ثم لمس في الولدين ميلا الى الاهليات فلقنها مبادئ علم اللاهوت . ولما أتم الولدان علومهما استأذن الراهب ولجأ الى دير القديس سابا فدعي الى الدرجة الاسقفية وسيم اسقفاً على ميثومة ميناء غزة (٥) .

1) Theophanes, Chron., a. 6221.

2) Graf, G., Gesch. der Christ. Arab. Lit., I 377, 378.

3) Nasrallah, J., Saint Jean de Damas, 58 - 59.

(٤) اخبار بطاركة المشرق ص ٦٦

(٥) سيرة يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل (طبعة الخوري قسطنطين الباشا) ص ١٢ - ١٥

وقد اعترض الاب جوجي الافرنسي (١) على صحة هذه الرواية فجاء اعتراضه ضرباً من الخدلة الفارغة . ونحن نرى مع الاب نصر الله انه ليس في هذه الروايات القديمة ما لا ينسجم وظروف القرن السابع والثامن واخباره المدونة (٢) .

يوحنا والدولة الاموية : وعوّلت السلطات الاسلامية على تعريب الدواوين في دمشق العاصمة وفي الولايات كما سبق وأشرنا ولكن الولاة ألحوا بوجوب الاحتفاظ بالكتابة والموظفين النصارى (٣) ومن هنا قول سليمان ابن عبد الملك : « لم نستغن عنهم ساعة ولم يحتاجوا الينا ساعة واحدة في سياستهم » (٤) . فخلّف يوحنا آباءه في الادارة « وصار كاتباً لامير البلد متقدماً عنده صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه » (٥) . اما قول البطريرك يوحنا ان قديسنا أصبح « مستشار الخليفة الاول » فانه لا شك مبالغ فيه (٦) .

وقام يوحنا باعباء منصبه احسن قيام مسخراً لذلك مواهبه وعلمه ومبادئه المسيحية السامية . ثم خير هو بين البقاء في مركزه وبين المحافظة على ايمانه فهجر العالم غير آسف (٧) .

ويقول الراهب ميخائيل في سيرة يوحنا الدمشقي انه لما رأى يوحنا ما صارت اليه الكنيسة من الاضطهاد والاضطراب في اثناء حرب الايقونات هب يدافع عن الايمان القويم فألف في ذلك ودعم رأيه بالبراهين اللاهوتية والمنطقية وذلك بلغة يونانية فصحي . فراع الامبراطور ما رآه من هذا الخصم العنيد ففكر في اهلاكه بالحيلة . فأمر بتزوير رسالة تنسب الى يوحنا وتوجه الى الامبراطور ويحيي فيها وصف ما يلاقيه النصارى على يد المسلمين من الذل والهوان ويبين فيها مواقع الضعف في الدولة الاموية . ثم تظاهر الامبراطور لاوون بصدّاقه

1) *Echos d'orient*, 1925, 140.

2) *Nasrallah, J., op. cit.*, 61.

٣) مناقب عمر ابن عبد العزيز طبعة بكر الألمانية ص ٦٤

٤) الموقيات - زبير ابن بكار رقم ٢٧ وتاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٢٧

٥) سيرته للراهب ميخائيل ص ١٥

6) *Patr. Gr.*, XCIV, Col. 449 ; *Lammens, H., Califat de Yazid*, 106, n 1.

7) *Mansi, XIII*, Col. 356.

الخليفة عمر ابن عبد العزيز وكتب اليه يطلبه على خيانة يوحنا . فانخدع الخليفة واستشاط غضباً فأمر بيوحنا فقطعت يده وطُرد من الخدمة . ويضيف الراهب ميخائيل ان يوحنا عاد الى بيته يجر اذيال العار والدم يقطر من يده البريئة الطاهرة . فانطرح أمام أيقونة العذراء وبكى كثيراً وصلى وتضرع وزام . فترأت له البتول واقتربت اليه وأعادت له يده المقطوعة . وكان هو قد تسلم يده المقطوعة ليدفنها . فلما أفاق وشاهد يديه كاملتين ذهب الى عمر وأراه يده كاملة . فدهش الخليفة وطلب اليه ان يعود الى وظيفته . لكن يوحنا باع ما عنده ووزع ثمنه على الفقراء والاديار والكنائس وقصد دير القديس سابا وتضرع الى الآباء ان يقبلوه في عداد صغار المبتدئين (١) . ويلاحظ هنا ان اعمال المجمع السابع خالية من اية اشارة الى قطع اليد والعجوبة وان المؤرخين قدرينوس وافراميموس وزوناراس ونيقيفورس ساكتون عن هذا الخبر بكامله (٢) .

يوحنا الراهب : واعتزل يوحنا قومه وابتعد عن ضوضاء العالم وأكاذيبه فانتقل من القصور والرياض الى الصوامع والقفار . وكان اسمه قد ملأ الدنيا رغم حدائثه فخشي رهبان القديس سابا ان يكون شوقه للحياة الرهبانية ربحاً عاصفة فيعود بعد مدة الى بيته وسابق عهده . فامتنحوه فأقاموا عليه مرشداً طاعناً في السن شديداً على نفسه وعلى غيره . فأمره الا يسير بموجب ارادته في امر من الامور والا يفتّر في البكاء عن ذنوبه الماضية والا يستعلي بسبب ما عنده من العلوم . « والا يعمل عملاً دون رأيه ومشورته . ولا يكتب رسالة الى أحد » (٣) . فلبّي يوحنا وخضع ولم يخالف لمُرشدته امراً فكان كبيراً في نسكه وتواضعه بقدر ما كان في مكانته الاجتماعية ومنصبه الحكومي . وعلم يوحنا ان أحد رفقاته الرهبان فقسد والده فرثي لحاله وحادثه معزياً وذكر قول شاعر من شعراء اليونان فنقله اليه :

وهذه الارض لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

(١) سيرة القديس يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل ص ١٥ - ٢٠

Jean, Patr., Vita, P. G., XCIV, Col. 457 - 461.

2) *Cedrenus, G., Synopsis Historion*, I, 799 ; *Ephraemus, Corp. Script. Hist. Byz.*, XII, 82 ; *Zonaras, C. S. H. B.*, XXXI, 270 ; *Nicéphore, Breviarum*, 74 ; *Nasrallah, Jean de Damas*, 75 - 81.

(٣) سيرة يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل ص ٢٠

فويحه مرشده على اظهار معارفه الادبية وعاقبه بالسجن في غرفته فأصغى للقول وقبله وأذعن (١).

ثم رغب الرؤساء في ترقية يوحنا فلم يرص المرشد واستمهلهم الى ان ثبت فضيلته . فأمر يوحنا ان يحمل كمية من السلال التي كان يحوكها الرهبان ويذهب بها الى دمشق بلد يوحنا لبيعها في أسواقها ! وزاد المرشد ثمن السلال واوصاه الا يعود حتى يبيعها جميعاً . فشدد يوحنا على جمار الدير وحمله جبلا من السلال وساقه في طريق دمشق . ووصل الى مسقط رأسه وتجوّل في عاصمة الامويين عارضاً سلاله فلم يجد من يشتريها لارتفاع سعرها . وما لبث ان عرفه الناس .

فتألبوا حوله لينظروا ذلك الوجه الكبير الذي امسى راهباً حقيراً بائع سلال . وامطروه الاستلّة وتغامزوا واستكروا أسعاره فسخروا منه . اما هو فحافظ على هدوئه ولم يقابل ما سمع الا بالصمت والاطراق . ثم أطل عليه احد خدمه القدماء فابتاع السلال كلها وأنهى عذابه ومحتته . وعاد يوحنا الى الدير منتصراً على شيطان الكبرياء والظهور (٢).

لقد وقفت امام ابواب هيكلك ولم أقص الافكار المنكرة . لكن انت ايها المسيح الاله يا من برر العشار وزحم الكنعانية وفتح للص ابواب الفردوس افتح لي احشاء محبتك البشر واقبلني وانا ادنو اليك والمسك كما قبلت الزانية ونازفة الدم . « متالوبي ليوحنا الدمشقي » .

يوحنا الكاهن والواعظ: وانقطع قديسنا الى الدرس وتعمق في اللاهوت على يد يوحنا الرابع البطريك الاوروشيليمي (٧٠٦ - ٧٣٤) وسمي كاهناً واعظاً فكان يصعد من الدير الى المدينة المقدسة ليعلم ويعظ في كنيسة القيامة وغيرها (٣). وتجلت مواهبه في هذه الفترة من حياته فجاءت عظامه ومصنفاته بليغة العبارة لطيفة الكناية قوية الحجّة .

وأمر يزيد الثاني الخليفة الاموي بتحطيم جميع الايقونات في كنائس النصارى في السنة ٧٢٣ (٤) وتبعه في ذلك زميله ومعاصره لاوون الثالث

(١) السنكسار للمطران ميخائيل عساف : ٤ كانون الاول

(٢) السنكسار نفسه والسيرة نفسها ص ٢٠ - ٢١

(٣) السيرة للراهب ميخائيل ص ٢٤ . Nasrallah, J., Jean de Damas, 100 - 103.

(٤) Denis de Tell - Mahré (Chabot), II.

امبراطور الروم كما سنرى في حينه ، فانبرى قديسنا للدفاع عن الدين القويم فوعظ وصنف وهدد باللعة والقطع (٧٢٦ - ٧٣٠). ولدى تنازل جرمانوس عن الكرسي القسطنطيني (٧٣٠) اشترك يوحنا في اعمال المجمع الاوروشيليمي وحض الاساقفة على المناداة بهرطقة الامبراطور وقطعه (١). وجاء في بعض المراجع ان يوحنا طاف في مدن فلسطين وسوريه وبلغ القسطنطينية نفسها مناقشاً مدافعاً (٢). ولكنه قول ضعيف لا يقبله رجال الاختصاص . والراجح عند هؤلاء ان يوحنا قضى هذا الدور من حياته بين دير القديس سابا والمدينة المقدسة (٣) وانه لم يبرح هذه المنطقة الا مرة واحدة في السنة ٧٣٤ عندما زار دمشق ليعالج الضربة التي وجهها الخليفة هشام الاموي الى اخيه والد اسطفانوس السبثيقي (٤).

يوحنا دفاق الذهب : وتأليف يوحنا الدمشقي عديدة بعضها لاهوتي فلسفي وبعضها جدلي وبعضها زهدي رهباني وبعضها تفسيري والبعض الآخر تسيحي طقسي . ولكن الدمشقي لاهوتي في الدرجة الاولى « فما نثر ولا نظم ولا ناظر ولا علم الا اثباتاً للحقيقة المنزلة او تمهيداً لها او دفاعاً عنها او نبأناً لاسرارها » (٥). وأشهر ما صنف في اللاهوت ينبوع المعرفة (٦) والمقدمة في العقائد (٧) والايمان الحق (٨) والثالوث الاقدس (٩) وايضاح الايمان (١٠). وأشهر هذه المصنفات وأكملها كتاب ينبوع المعرفة وقد جاء في اجزاء ثلاثة الفصول الفلسفية وكتاب الهرطقة وتفصيل الايمان الارثوذكسي . وقال الدمشقي في الطريقة التي اتبعها في عرض ينبوع المعرفة : سأبين اولاً أحسن ما عند الحكماء لأنه هبة من الله للبشر وسأورد هديان الهرطقة لنعرف ضلالهم فنزداد تعلقاً بالحقيقة ثم أشرح بعون الله الحقيقة التي تقوض الضلال وتطرد البهتان» وأضاف محدداً علاقة الفلسفة بالايمان

1) Theophan, Chron., a. 6221.

2) Gordillo, M., Damascenica, Orient. Christ. Analecta, 1926, 64 ; Monologio di Basilio II, 213 ; Graf, G., Gesch. der Christ. Lit., I, 379.

3) Nasrallah, J., op. cit. 115 - 116.

4) Léonce de Damas, Acta SS., III, 184.

٥) الدمشقي اللاهوتي للاب خريسوستموس حلاق (الذكرى المئوية) ص ٩٤

6) Patr. Gr., XCIV, Col. 525 - 1228.

7) P. G., XCIV, Col. 99 - 112.

8) P. G., XCIV, Col. 1421 - 1432.

9) P. G., XCV, 8 - 18

10) P. G., XCV, Col. 417 - 436.

فقال : « وبما ان الرسول يقول امتحنوا كل شيء وتمسكوا بما هو حسن فسندرس تعاليم الحكماء الوثنيين لعلنا نجد عندهم ما يحسن اتخاذ ونجني للنفس ثمرة تفيدنا . هذا وكل صانع يحتاج الى ادوات لصناعته ولا بد للملكة من خادومات . فلنجمع التعاليم التي نخدم الحقيقة بعد ان ننزعها من طغيان الكفر ولا نسيء استخدام الخير ولا نستخدم فن الجدل لاغواء البسطاء . ولو كانت الحقيقة لا تحتاج الى براهين مختلفة فلنستخدم المنطق ايضاً لدحض البهتان وتحطيم أعداء الايمان . أجل يجب ان نكتفي بما أوحى الله الينا بواسطة ابنه وأتبيائه ورسله ويجب ان نثبت فيه غير ناقلين حدوده الابدية ولا خارجين عنها (١) .

وأساس الايمان عند دفاق الذهب هو الوحي الالهي لا براعة العقل البشري فالنفس بحاجة دائمة الى معلم والمعلم المتزه عن الضلال هو المسيح . ولنسمع صوته في الكتاب المقدس فان النفس التي تفرع بنشاط وثبات باب روضة الكتاب المقدس الغناء لكالشجر المغروس عند مجاري المياه (٢) . والدمشقي شديد التمسك بالتقليد الرسولي لأن الكتاب المقدس نفسه يوجب هذا التمسك (٣) .

وحاول المهرطقة الدفاع عن أعضائهم بفلسفة ارسطو . فصرخ الدمشقي بهم : « اتجعلون ارسطو قديساً وثالث عشر الرسل ! ام تعتبرون الوثني أكثر من الكتبة الملهمين ! » (٤) ثم انبرى يحارب هؤلاء بسلاحهم بفلسفة ارسطو . ولم يكن عمله هذا امراً يسيراً فوقف ارسطو من القوى فوق الطبيعة مناقض لعقائدها المنزلة ولا سيما سر الثالوث الاقدس والتجسد الالهي . ولكن الدمشقي وفق الى اصلاح بعض نظريات ارسطو ولا سيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعي وعلم الاخلاق وخلود النفس . وأخذ عن ارسطو كثيراً من التحديدات ولكنه أضاف اليها أشياء وأشياء كالفرق بين الطبيعة والجوهر والاقنوم واستعان بها على انشاء تعابير خاصة بعلم اللاهوت مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة دقيقة خالية من الالتباس الذي أدى فيما مضى الى الجدل والخصام والشقاق . وهكذا فان قديسنا أدرك قوة

1) P. G., XCIV, Col. 532. Trad. P. Chrysostomos Hallac.

2) P. G., XCIV, Col. 529.

3) P. G., XCIV, Col. 1173, 1256, 1301.

4) P. G., XCIV, Col. 1441.

فلسفة ارسطو فانتزعها من أيدي أعداء الايمان وسخرها فنصرها ووضعها في خدمة رجال اللاهوت الذين أتوا بعده كبطرس اللومباردي وتوما الاكوييني فأصبح بحق مؤسس اللاهوت السكولاستيكي (١) .

ويعتبر الدمشقي في تاريخ الفكر المسيحي لاهوتي سر التجسد الالهي . فقد عاجل هذا السر العجيب في أكثر مؤلفاته اللاهوتية فوق كل التوفيق الى الاستخراج من عقيدة الاتحاد الاقنوي جميع ما نقول به في الايمان واللاهوت . ودعم استنتاجاته المنطقية بنصوص الكتاب المقدس وشهادات الاباء فلم يترك مجالاً للشك في صحة ما ذهب اليه .

وصنّف الدمشقي في الجدل فجاءت رسائله متينة الحجّة صحيحة الاستدلال فردت أهل البدع صاغرين قيثيين . وأشهر ما كتب في الجدل رسائله الثلاث في الدفاع عن الايقونات (٢) . وقد سطرها فيما يظهر بين السنة ٧٢٦ والسنة ٧٣٠ فحوت وجه الصواب في اكرام القديسين وحددت المسائل المتعلقة بهذا الموضوع ولا زال حتى يومنا هذا نعتمد كلام هذا القديس العظيم في موقفنا من الايقونات .

ولم تبك قرارات المجمع الخامس من قال بالطبيعة الواحدة فجاء الدمشقي يكمل عمل افلوجيوس الانطاكي وتيموثاوس القسطنطيني وانسطاسيوس الانطاكي وانسطاسيوس السينائي فكتب رسالته الشهيرة في التريصاغيون ووجهها الى الارشمندريت جوردانس فأيد فيها الموقف التقليدي من ان آغيوس الثلاثة موجهة الى الاقانيم الثلاثة لا الى الابن فقط وانه بالتالي لا يجوز ان يضاف اليها قول بطرس القصار « انت الذي صُلبت من أجلنا » (٣) . وكتب الدمشقي رسالة ثانية باسم بطرس متروبوليت دمشق الى اسقف دارا اليعقوبي مفنداً موقف اليعاقبة مثبتاً رأيه بالمنطق وبأقوال الآباء (٤) . وعاصر الدمشقي ايليا الاول بطريرك اليعاقبة (+ ٧٢٣) . وكان هذا ارثوذكسياً فلما طالع مؤلفات سويروس الانطاكي

(١) الدمشقي اللاهوتي للاب خريستوس حلاق ص ٩٥ - ١٠٥

2) P. G., XCIV, 1231 - 1420.

3) P. G., XCV, Col. 21 - 62.

4) P. G., XCV, Col. 111 - 126.

جنح الى القول بالطبيعة الواحدة فسقّفه اليعاقبة على كرسي اوفيمية ثم رقوه بطريركاً عليهم . فوجه اليه لاوون اسقف حرّان الارثوذكسي رسالة في موضوع جنوحه عن العقيدة الارثوذكسية فأجابه البطريرك الجانح برسالة يحتج فيها عن نفسه وأشار فيها الى رسالتين وضعهما الدمشقي في موضوع الجدل لا نعرف لهما نصاً (١) .

ومن آثار قديسنا رسالتان في الرد على النساطرة يثبت فيها الوهية السيد المخلص ووحدة شخصيته (٢) وردّ أيضاً على من قال بالمشيئة الواحدة ناسجاً على منوال القديسين صفرونيوس ومكسيموس (٣) .

وكانت المانوية قد عادت الى الظهور في منتصف القرن السابع متخذة ثوباً جديداً فعرفت بالبولسية . واضطربت بها الالسة وتفتتت في أرمينية والجزيرة وسورية . وتدرّع اصحابها بالآية : « حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الآب بالروح والحق » فرفعوا الايقونات ومنعوا السجود للصليب المقدس واستغنوا عن اكرام العذراء والقديسين (٤) . فأمسك قديسنا يراعه وجال جولة موفقة في ميدان العقيدة ولا سيما الخريستولوجية منها وصنف رسالتين في الرد على المانويين البولسيين (٥) .

ثم أطلّ المسلمون حاملين القرآن حافظين الحديث فاضطر الدمشقي ان يدافع عن الاسرار واحداً واحداً . فجاء الفصل المئة والواحد رداً صريحاً على العقيدة الاسلامية (٦) . وثبت تلاميذه في الايمان بطريقة السؤال والجواب فظهر حواراه الاول والثاني مع المسلمين (٧) . ولم يخل كتابه ينبوع المعرفة من الرد على المسلمين ففصله في الواحد الاحد والثالث الاقدس والتجسد الالهي جميعها ردود على اهل الجدل من المسلمين (٨) .

(١) اللؤلؤ المنشور للبطريرك اغناطيوس برصوم ص ٣٠٧ - ٣٥٨

2) P. G., XCV, Col. 187 - 224.

3) P. G., XCV, Col. 127 - 186.

4) Pargoire, L., L'Eglise Byzantine, 181

5) P. G., XCVI, Col. 1319 - 1336, XCIV, Col. 1505 - 1584.

6) P. G., XCIV, Col. 763 - 773.

7) P. G., XCIV, Col. 1585 - 1595 XCIV, Col. 1335 - 1348.

8) Becker, K., Islamstudien, 432 - 449.

وعني الدمشقي ايضاً بالزهد والترهب . وأشهر ما صنف في هذا الموضوع كتاب التوازي Paralllyla . وقد جاء هذا الكتاب في ابواب ثلاثة فبحث الاول منها في الثالث والتوحيد وضم الثاني رأي الدمشقي في الانسان ومشاغله وجاء الثالث بحثاً مستفيضاً في الفضائل والرذائل . فقابل المؤلف كل رذيلة بفضيلة معينة . ومن هنا اللفظ التوازي في عنوان الكتاب كله .

وجاء في التقليد ان قديسنا وضع كتاب المعزي الاوكتونخوس اليوناني Octoichos ولعله نسقه ونظمه وأضاف اليه . وجاء ايضاً انه نظم عدداً كبيراً من قوانين الخدمة وانه لعب دوراً هاماً في تنظيم تبييكون القديس سابا وانه لحن معظم الاوكتونخوس كما لحن عدداً كبيراً من القوانين والطروباريات وانه أدخل تحسيناً ملموساً في الموسيقى البيزنطية الكنسية (١) . وجاء ايضاً انه هو اول من نظم السنكسار الرومي .

الدمشقي والآداب العربية : ولا نعلم ما اذا كان قديسنا كتب شيئاً في لغتنا العربية . ولكنه خلف أثراً ملموساً في علم الكلام وفن الجدل الاسلاميين العربيين . فالخطبة التي رسمها لتأليف كتابه ينبوع المعرفة هي الخطبة عينها التي اتبعها علماء الكلام فيما بعد . فهم يبدأون مثله بمقدمة فلسفية ثم ينتقلون مثله ايضاً الى بحث في الملل والنحل قبل الخوض في صلب الموضوع : ولا يقف الكلاميون عند هذا الحد في الاخذ عن يوحنا الدمشقي فانهم ينسجون على منواله في تنسيق الكلام عن العقيدة فيعالجون موضوع الله وصفاته اولاً ثم ينتقلون مثل الدمشقي الى الكلام في الله وأعماله ثم يحلون البحث في النبوة محل البحث في المسيح (٢) .

الوفاة والتكريم : وتختلف المراجع في تعيين السنة التي توفي فيها يوحنا الدمشقي اختلافاً كبيراً . فقد تكون السنة ٧٥٠ وقد تكون السنة ٧٨٠ . ولكن الاب فايهي يرى العبارة الواردة في اعمال مجمع هييرية Hieria سنة ٧٥٤ دليلاً قاطعاً على ان يوحنا الدمشقي توفي قبل هذا التاريخ . وهذه العبارة تنص على

1) Lailly, A., L'Influence Liturgique et Musicale de Saint Jean de Damas (Centenaire, Harissa, 1950), 84 - 93 ; Nasrallah, J., op. cit., 150 - 157 ; Emereau, Hymnographi Byzantini, Echos d'Orient, 1923.

2) Anawati, M. M., Theologie Musulmane, 200 - 207.

الفصل الثالث والثلاثون

الأيقونات

٧٨٧ - ٧١٧

لاوون الثالث الاسوري : (٧١٧ - ٧٤٠) وأنجب الروم في إبان محنتهم لاوون الاسوري فأنزل بالمسلمين هزيمة بالغة وردهم عن القسطنطينية . فكانت محاولتهم هذه الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين .

وعني لاوون بالتشريع فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عهد يوستنيانوس الكبير قد أصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . رأى الناس يؤثرون العرف حتى على بعض شرائع يوستنيانوس كما رأى ، بعد تقلص الامبراطورية من جراء الحروب الاسلامية وتغلب الصقالبة والبلغار على جزء كبير من البلقان، ان اليونانية قد أصبحت اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان وبالتالي لا بد من تشريع باليونانية خلاف تشريع يوستنيانوس الموضوع باللاتينية . فانتقى في السنة ٧٢٦ لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر فظهرت الاكلوغة *Ecloga* ومعنى هذا اللفظ المنتخبات . وتضمنت الاكلوغة في اقسامها الثمانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال الشخصية . ولم تبحث في الجزاء الا قليلا . وجاءت الاكلوغة مسيحية اكثر من الديجستا .

وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود الى عهد الاسوريين ايضاً واشهرها قانون المزارعين . ويرى العالم الروسي بنشنكو ان هذا القانون مستمد من العرف الذي ساد الأوساط الريفية والذي لم تشمله الاكلوغة . ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية ملاحق تتضمن قانونين آخرين احدهما بحري والآخر عسكري .

الايقونات : والايقونة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف

ان الثالوث الاقدس كان قد «أمات» الثلاثة جرمانوس القسطنطيني وجاورجيوس القبرصي ويوحنا الدمشقي . ثم يرى هذا الاب العالم في كلام لاوندوس الدمشقي عن استفانوس السبثي ما يعين على تعيين سنة وفاة يوحنا الدمشقي وجعلها السنة ٧٤٩ . فاستفانوس التحق بعمه يوحنا في دير القديس سابا وهو في التاسعة من عمره . وبقي معه في الدير خمسة عشر عاماً وتوفي في التاسعة والستين من العمر في السنة ٧٩٤ . فلو طرحنا ٦٩ من ٧٩٤ عرفنا سنة ولادة اسطفانوس وجعلناها السنة ٧٢٥ . ثم لو اضعنا تسع سنوات الى هذه السنة عرفنا السنة التي دخل فيها اسطفانوس الدير (٧٣٤) ولو اضعنا الى هذه السنة (٧٣٤) الخمسة عشرة عاماً التي قضاها اسطفانوس في جوار عمه يوحنا بلغنا السنة ٧٤٩ سنة وفاة قديسنا (١) .

وفاضت روح قديسنا في السنة ٧٤٩ في دير القديس سابا ودفن فيه . ثم نقلت عظامه في اواخر القرن الثاني عشر او أوائل القرن الثالث عشر الى القسطنطينية الى كنيسة جميع القديسين في جوار كنيسة الرسل . ثم نهب الصليبيون هذين المقامين . وجاء الاتراك بعدهم فهدموهما لانشاء جامع السلطان محمد الثاني (٢) .

وملاً يوحنا الدمشقي الكنيسة بعبير فضائله وعلمه فأكرمه المؤمنون في حياته وبعد وفاته . وردد المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) صدى هذا الاكرام فأعلن قداسة يوحنا الدمشقي في جلسته السابعة وهتف : « ليكن ذكره خالداً » . ثم نظم اسطفانوس المرتل مديحاً ليوحنا في اواخر القرن الثامن فأتحفنا بما لا تزال نردد ونرتل في الرابع من كانون الاول من كل عام :

ماذا ندعوك ايها القديس . أيوحنا المتكلم باللاهوت ام داود المترنم .
أكثرارة ملهمة من الله . ام نايأ رعائياً . فانك تحل السبع والعقل وتبجح
محافل الكنيسة . وباقوالك المفضية عسلا تزين الاقطار . فابتهل في خلاص
نفوسنا .

1) Vailhé, S., *Date de la Mort de Saint Jean de Damas, Echos d'Orient*, 1906, 28 - 30; Nasrallah, J., *op. cit.*, 127 - 128.
2) Nasrallah, J., *op. cit.*, 128 - 129; Ebersoll, J., *Sanctuaires de Byzance*, 31 - 43.

الكنيسة نوعان : منها العادي ومنها العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مدتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وهي سنة انعقاد المجمع المسكوني السابع والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب حرب الايقونات لا تزال غير واضحة ولا ثابتة لان ما نعلمه عنها مأخوذ في معظمه من اقوال احد الخصمين . فقد ضاعت مصنفات الذين حاربوا الايقونات . وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها الخصوم . وهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لما ينقصه من العدالة . وما يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات المجمعين اللذين بحثا امر اكرام الايقونات فمقررات مجمع السنة ٧٥٤ قد وردت في قرارات المجمع المسكوني السابع .

وبالاحثون في أسباب هذا النزاع يختلفون في الرأي . فبعضهم يرى اسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية . فالمؤرخ اليوناني الحديث بابا ريغوبولو يرى في كتابه تاريخ الحضارة اليونانية ان حرب الايقونات كانت في اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من اسرته اراد ان يحرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليريوس وان العناصر المستتيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد أيدوا هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر الجاهلة من النساء والرهبان بكل قديم (١) . ويرى المؤرخ الافرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس (٢) ان حرب الايقونات كانت حركة اصلاحية دينية ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية وانها جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات اخرى للاصلاح . ويرى لويس براهيه الافرنسي ايضا ان محاربة الايقونات ذات وجهين فتمسة مشادة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح

1) Pappariopoulo, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188 — 191.

2) Lombard, A., Constantin V, 105, 124 — 128.

الرمز الى ما فوق الطبيعة بالرسم والتصوير (١) . ويرى اوسبنيكي الروسي ان السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم . فالمشادة كانت زمينة سياسية في مستهل أمرها فجعلها الرهبان دينية ليوغروا صدور المؤمنين ويحضوهم على مقاومة سياسة الحكومة (٢) .

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ساعته ففي بدء القرن الرابع حرم مجمع ألفيرة Elvira المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس . (٣) ورأى افسابيوس مؤرخ الكنيسة ان اكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من « عادات الامم » (٤) وفي القرن الرابع نفسه ايضا مزق ابيفانيوس القبرصي ستاراً في احدى كنائس فلسطين لأنه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين (٥) وفي القرن الخامس اعترض خيناثياس اسقف منبج (٤٨٨) على الايقونات قبل سيامته . (٦) وفي القرن السادس جاهد اغاثياس (+ ٥٨٢) في حماية ايقونة مار ميخائيل ضد المعترضين (٧) وقبيل نهاية هذا القرن نفسه في السنة ٥٩٩ حرم سيرينوس اسقف مرسيلية اقامة الايقونات في الكنائس فكتب اليه القديس غريغوريوس بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر ويذكر في الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين السذي لا يقرأون ولا يكتبون وبضرووة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . (٨) ويجب ألا يغيب عن البال ان اليهود لم يرضوا قط عن شيء من هذا وأن القرآن علّم بان الانصباب رجس من عمل الشيطان (سورة المائدة) وان المانوية بثوبها البولسي استنكرت اكرام الايقونات كما سبق وأشرنا .

1) Brehier, L., La Querelle des Images, 3 - 4.

2) Uspensky, Th. J., Byz. Emp., II, 22 - 53, 89 - 109, 157 - 174.

3) Mansi, Sac. Conc. Nov., Constitum Liberitanum, Par. XXXVI.

4) Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 18.

5) Patr. Gr. XLIII, Col. 390., Acad. Inscr. Belles Lettres, 1904, 361 - 363, Baynes, N. H., Idolatry and the Early Church, Byz. Studies, 127 - 128.

6) Theophanes, Chron., a. 5982.

7) Anthologie Grecque, Epigrammes Chrétiennes, I, 34, Trad. Waltz, I, 34 - 36.

8) Reg. IX, 208, XI, 10.

لاوون والايقونات : وأخلص لاوون للدين والدولة وتوخى مناهج الرشد فأصلح القضاء والادارة والمال . ولم يُغفل حدوده الجنوبية طرفة عين فراقب المسلمين واستقرى احوالهم . وترصد البولسيين المنتشرين في ولاياته الجنوبية وفي الجزيرة وسورية الشمالية وقيليقية وذكر موقفهم من الصليب المقدس والسجود له (١) . ولم ينس اليهود وأحقادهم وما قالوه في الايقونات فرأى ان مصلحة الدولة تقضي بمعالجة هذه القضية معالجة جديدة .

ويرى شارل دبل ان لاوون نشأ في جور عاثلي آسيوي بمقت الايقونات ويرى في اكرامها خروجاً على العقيدة القويمة وانه رغب في الاصلاح السياسي الاجتماعي الاقتصادي فرأى انه اذا حارب الايقونات يضرب الرهبان ضربة مكينة فيصيب عصفورين بحجر واحد (٢) . ويلمس كارل شينك في شخص لاوون الثالث ورعاً وتصوفاً شديدين جعلاه يعتبر بما حل بالدولة من ويلات فيعزي ذلك الى اكرام الايقونات (٣) . ويقول كارل شفارتز لوزي بشيء من هذا ويضيف ان لاوون كان جندياً خشناً لا يتذوق الفن وان تربيته العائلية واحتكاكه باليهود والمسلمين دفعاه الى تحطيم الايقونات ولا سيما وانه كان يعتبر نفسه رئيساً زمنياً وروحياً في آن واحد (٤) .

يزيد والايقونات : (٧٢٣) ويرى بعض رجال الاختصاص ان القرآن حرم الاصنام والانصاب ولكنه سكت عن الصور والرسوم وان تحريم هذه جاء في الحديث فقط . ويرون ايضاً ان الامويين زينوا بعض قصورهم بما مثل الكائنات الحية (٥) وانهم لم يتورعوا عن التداول بالعملة البيزنطية التي كانت تحمل رسوم الاباطرة وان محاربة رسوم الكائنات الحية بدأت في عهد عبد

- 1) Grégoire, H., *Les Pauliciens et l'Iconoclisme, Congrès des Etudes Byzantines, 1936.*
- 2) Diehl, C., *Leo III and the Isaurian Dynasty, Cam. Med. Hist., IV, 1 - 26.*
- 3) Schenk, K., *Leos III Wallen im Innern, Byz. Zeit. 1896, 257 - 301.*
- 4) Schwazlose, K., *Der Bildersreit, ein Kampf der Griechischen Kirche um ihre Eigenart und ihre Freiheit, Gotha, 1890. Improtant.*
- 5) Marçais, G., *La Question des Images dans l'Art Musulman, Byzantion, 1932, 161 - 183 ; Lammens, H., l'Attitude de l'Islam Primitif en face des Arts Figurés, Journ. Asiat, 1915, 239 ff.*

الملك ابن مروان . وهم يرون ايضاً في خلو فسيفساء الجامع الاموي من رسوم الاحياء دليلاً على بدء محاربة الرسوم في اوائل القرن الثامن (١) .

وشملت محاربة الايقونات الكنائس والمعابد والبيوت فأمر عبد الملك ابن مروان بتحطيم جميع الصلبان . ثم جاء يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) فقرب يهودياً من طبرية وأصغى اليه . فأشار عليه هذا بتحطيم جميع الصور والصلبان حيثما وجدت وذلك ليطول عمر الخليفة وعهده . فأمر يزيد بذلك فتوفي في السنة التالية (٢) . وجاء في كتاب الخطط للمقريري (ج ٢ ص ٤٩٢ - ٤٩٣) انه لما تولى يزيد كان اسامة ابن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى في مصر . فاشتد عليهم وأوقع بهم . ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكُسرت الاصنام جميعها . وجاء ايضاً في تاريخ ابي فرج الملطي ان يزيداً « أمر ان تنزع صورة كل حي من الهياكل والجدران والاشباب والحجارة والكتب » وأن لاوون ماثله في ذلك (٣) .

اساقفة آسية الصغرى : وخاض الناس في خبر يزيد وانتشر بريده في آسية الصغرى فتلقاه قسطنطين اسقف نقولية *Nocolia* برحب صدره فأطلق لسانه في هذا الموضوع (٤) : فاعترضه في ذلك رئيسه متروبوليت سينادة *Sgnnada* فقام قسطنطين الى القسطنطينية يبحث موضوع الخلاف مع جرمانوس البطريرك المسكوني مستنداً في اعتراضه على الايقونات بما جاء في الفصل العشرين من سفر الخروج : « لا يكن لك آلهة اخرى تجاهي . لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ولا مما في الارض من أسفل ولا مما في المياه من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدن لاني انا الرب الهك اله غيور » . وكان المتروبوليت قد كتب الى البطريرك في ذلك ايضاً . فأسكت البطريرك الاسقف وكتب الى المتروبوليت

- 1) Eustache de Lorey, *Les Mosaïques de la Mosquée des Omeyyades à Damas, Cahiers d'Art, 1929, 206 ff.*
- 2) Theophanes, *Chron. a. 6125 ; Nicephore, Antirrheticus, III, Mansi, XII, Col. 197 ; Denis de Tell - Mahré, (Chabot), 17.*
- 3) تاريخ ابي فرج الملطي - المشرق ١٩٤٩ ص ٤٨٤
- 4) Nicephore, *Antirrheticus, III ; Germain, De Haeresibus et Sgnodis, P.G., XC VIII, Col. 77.*

ودفع برده هذا الى الاسقف طالباً اليه ان يوصله الى رئيسه . فعاد الاسقف الى نقولية واحتفظ برسالة البطريرك . فاغتاز المتروبوليت . وعلم البطريرك بذلك فكتب الى الاسقف يهدده بالقطع (١) . وجارى قسطنطين كل من توما اسقف كلوديا بوليس وثيودوسيوس رئيس اساقفة افسس . فكانت مشادة وكان انطلاق في سبيل تحطيم الايقونات (٢) .

بسر السوري ولاوون : (٧٢٣) . وجاء في حوليات ثيوفانس ان لاوون أحب مارقاً سورياً اسمه بسر وان بسرأ هذا كان بطلاً مغواراً فأحبه لاوون وعطف عليه . ووقع بسر اسيراً في يد العرب فدخل في الاسلام ونال حظوة عند يهودي طبري كان يزيد الخليفة الاموي قد قربه من شخصه . وجاء ايضاً ان بسرأ عاد الى القسطنطينية في السنة ٧٢٣ واتصل بلاوون فجعله بطريقاً فقتل في ثورة الارنفزة في السنة ٧٤٠ (٣) .

ويعلق بعض رجال البحث اهمية على اتصال بسر بلاوون فيشيرون الى ان لاوون أعلن موقفه من الايقونات في السنة نفسها التي اتصل بها ببسر . وهو في نظرنا استنتاج ضعيف لا يركن اليه . فمجرد وقوع الحادثين في سنة واحدة لا يبرر الاستنتاج بأن احد الحادثين سبب الآخر . وعلق هؤلاء اهمية ايضاً على اللقب « الشرقي » الذي ألصق بلاوون فيما بعد فيربطون بين هذا اللقب وبين اثر المسلمين في سياسته الدينية (٤) . ويسهو عن بال هؤلاء ان عدالة الرواة الذين الصقوا هذا اللقب غير ثابتة !

بركان سنتورينة : (٧٢٦) وثار بركان جزيرة سنتورينة في السنة ٧٢٦ وغارت جزيرة صغيرة بالقرب منها وظهرت جزيرة جديدة فوق سطح المياه فرأى لاوون في هذا كله غضباً ربانياً فدعا الناس في العاصمة وخطب فيهم منذراً

1) P. G., XC VIII, Col. 156 - 164.

2) P. G. XC VIII, Col. 164 - 188 ; Ostrogorsky, G., *Les Débuts de la Querelle des Images*, 238, *Hist. of the Byz. State*, (1956), 143 - 144.

3) Theophanes, Chron., a. 6215 ; Brehier, L., *Beser, Dict. Hist. Géog. Ecc.*, VIII, Col. 1171 - 1172.

4) Ostrogorsky, G., *Byz. State*, op. Cit., 142 - 143.

موجباً التبعيد لله وحده والتندم على ما فرط منهم في اكرام الايقونات . (١) فدمدم الحضور وهمموا فأكد الامبراطور انه لا يقصد التهاون بالايقونات ولا الاستهانة بها وانما يرغب في رفعها الى محلات عالية في الكنائس كي لا يؤدي لمسها وتقبيلها الى اتلافها . (٢) .

ايقونة خالكة : (٧٢٧) ثم أطلق لاوون لنفسه عنان هواه فأمر في مطلع السنة ٧٢٧ بانزال ايقونة السيد المخلص من مكانها فوق احد مداخل قصر خالكة . فاضطرب سكان العاصمة وهجم بعضهم بمنع انزال الايقونة . فصدهم رجال الامن فاصطدم الفريقان ووقعت بعض الضحايا . فألقي القبض على المتظاهرين وُجلد بعضهم وشوه البعض الآخر ونفي غيرهم (٣) .

ولم تلق دعاية لاوون آذاناً صاغية بين اساتذة جامعة القسطنطينية فغضب لكرامته وشوش عليهم . ولعله أقفل هذه المؤسسة . ولا صحة فيما يظهر لما جاء في بعض المراجع المتأخرة من ان لاوون أمر باحراق مكتبة الجامعة (٤) .

واستوقدت دعاية لاوون في هذه السنة نفسها غضب الجندي ثيمة هيلاذيكي في بلاد اليونان نفسها فركبوا البحر واقلعوا الى القسطنطينية فوصلوا الى مياهها في الثامن عشر من نيسان السنة ٧٢٧ . ولكنهم لم يقووا على النار الاغريقية فأخفقوا فأمر الامبراطور برؤسائهم فلبجوا ذبحاً (٥) .

البطريرك والبابا : وكان لاوون يقظ القواد لا يغفل عن النظر فيما أهمه . فظل حتى السنة ٧٣٠ يتحين الفرص ويفاوض . ففي السنة ٧٢٨ فاوض جرمانس البطريرك المسكوني في أمر الايقونات وزعم ان جميع البطارقة والاباطرة ضلوا سواء السبيل بما قاموا به من اكرام واحترام للايقونات . ثم هول وأقزع فصصفحه جرمانوس وخيب أمله (٦) .

1) Baronijs, *Annales Ecclesiastici*, IX, 55 - 56.

2) Brehier, L., *Querelle des Images*, Fliche et Martin, op. Cit. V, 449 - 450.

3) Theophanes, Chron. a. 6218 ; Vita Stephani Junioris P. G., C., Col. 1085.

4) Theophanes, Chron., a. 6221 ; Georges le Moine, II, 742 ; Fuchs, F., *Die Hohern Schulen von Konstantinopel*, 9 - 13.

5) Theophanes, Chron., 6218 ; Nicephore, *Breviarum*, 57 - 58.

6) Theophanes, Chron., a. 6218.

وكتب لاوون في هذه الاثناء الى بابا رومسة غريغوريوس الثاني واعدأ وعدأ كريماً في حال الموافقة على تحريم الايقونات متوعداً بالخلع ان هو خالف الرغبة الملكية . فأنذر غريغوريوس المؤمنين بطغيان الامبراطور وتيهه وحرزهم منه (١) .

ويستدل مما تبقى من نصوص هذه الرسائل ان لاوون تذرع بالتوراة لتحريم الايقونات فاستشهد الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الرابع فذكر « كيف ازال حزقيال المشارف وحطم الانصاب وسحق حية النحاس التي كان موسى صنعها لان بني اسرائيل كانوا الى تلك الايام يقترون لها وسموها نحوشتان » وادعى انه انما يقتضي اثر هذا الملك الصالح . وما احتج به لاوون في هذه الرسالة انه اعتبر نفسه كاهناً وامبراطوراً . اما غريغوريوس فانه عاب على لاوون اقدمه على ما فعل بدون مشاورة السلطات المختصة وأكد له ان ما ورد في التوراة انما جاء ليردع اليهود عن التعبد للآوثان .

ويلاحظ هنا ان اعتراض الثقة على صحة هذه الرسائل واصالتها (٢) قد تلاشى بعد ظهور البحث الدقيق الذي قام به العلامة جورج اوستروغورسكي استاذ تاريخ الروم في جامعة بلغراد (٣) .

وفي اواخر السنة ٧٢٩ اعاد لاوون الكرة فبحث موضوع الايقونات مرة ثانية مع جرمانوس وتصنع له في المودة وتملقه ولكن جرمانوس أصر على الالباء . فأصغى اليه الامبراطور ولكنه حال عن مودته وسُم ألفته (٤) .

تحريم الايقونات : (٧٣٠) وتوثق لاوون من أمره فدعا السيلنتيون الى جلسة قانونية في قصر دفنة في البهو ذي التسعة عشر سريراً في السابع عشر من كانون الثاني سنة ٧٣٠ . والسيلنتيون مجلس أعلى كان يضم اعضاء مجلس

الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة (١) . وكان لاوون قد أمر باعداد بيان رسمي بتحريم الايقونات (٢) . فلما اكتمل الحضور طلب الامبراطور الى البطريرك جرمانوس ان يوقع هذا البيان . فرفض البطريرك ورفع الاوموفوريون وقال الى الامبراطور : « انا يونان اطرحوني في البحر . لا يمكنني ان اعترف الا بالدستور الذي أقره المجمع المسكوني » وخرج الى بيت ابيه وأكمل ايامه فيه (٣) . وجاء انه طرد من البطريركية طرداً وأجبر على الاقامة في احد الاديبار ولكنه قول ضعيف (٤) .

واعتبر لاوون الكرسي القسطنطيني شاغراً فأوعز بارتقاء انسطاسيوس السنكلوس . فانتخب هذا بطريركاً مسكونياً في الثاني والعشرين من الشهر نفسه ودعا المجمع القسطنطيني الى الانعقاد وخرم استعمال الايقونات . وأرسل الرسائل السلامية ووجه احداها الى غريغوريوس الثاني بابا رومة وأعلمه بما فعل . فاعترض اسقف رومة وألح عليه بوجوب العودة الى الارثوذكسية (٥) .

وضيق الامبراطور والبطريرك الجديد على من أيد الايقونات وعذبوا عدداً كبيراً من المؤمنين وشووا وأعدما . ولكن المراجع الاولى لا تمكننا من تعيين شهداء هذه الفترة . وجاء في سيرة اسطفانوس الاصغر ان سكان العاصمة فروا زرافات زرافات وان والدي اسطفانوس الاصغر أودعا ابنها هذا ناسكاً فنشأ راهباً (٦) .

موقف كنيسة انطاكية : وكانت كنيسة انطاكية لا تزال ميممة لا راعي لها كما سبق وأشرنا . ولكن ابنها البار يوحنا الدمشقي هب للدفاع عن الدين القويم فصنف رسائل ثلاثاً رد بها على لاوون واتباعه فاتخف الكنيسة الجامعة بحجج لاهوتية منطقية دامغة أصبحت فيما بعد حجة الكنيسة الرئيسية (٧) . ويعتبر بعض

1) Theophanes, Chron., a. 6221 ; Ebersolt, Le Grand Palais de Constantinople, 58 f.

2) Bréhier, L., Querelle des Images, op. cit., V, 454, n. 2.

3) Nicephore, Breviarum.

4) Theophanes, Chron., a. 6177 ; Bréhier, L., op. cit., 454, n. 3.

5) Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 408 - 409.

6) Vita Stephani, P. G., C. Col. 1088.

7) Menges, H., Die Bilderlehre des Johannes von Damaskus, Munster, 1938.

1) Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 404 ; Theophanes, Chron: a. 6221.

2) Guérard, L., Lettres de Grégoire II, à Léon l'Isaurien ; Schwarzlose, K., op. cit., 113 ff.

3) Ostrogorsky, G., Debuts de la Querelle des Images, Mélanges Charles Diehl, (1930), I, 244 - 254.

4) Theophanes, Chron. a. 6221 ; Vita Stephani, P. G., C. Col. 1084 - 1085.

الثقات رسائله هذه أفضل ما صنف لانه اثبت فيها مقدرة في الاجتهاد فاق بها جميع اقرانه من علماء القرن الثامن (١). ولم يكتف قديسنا بقول بولس الرسول : « تمسكوا بالتقاليد التي تعلمتموها اما بكلامنا واما برسالتنا » بل ذهب الى ابعاد من هذا فاعتبر الايقونة رمزاً ووسيطاً بالمعنى الافلاطوني الجديد ثم ربط تكريمها بسر التجسد الالهي وسر الخلاص مؤكداً ان من يحارب الايقونات ينكر حرمة شكل الاله المنظور ويهدد سر التجسد بالانهيار (٢).

ويرى بعض رجال الاختصاص ان يوحنا الدمشقي تكلم في هذا الموضوع باسم يوحنا الخامس بطريرك اوروشليم وزعيم كنيسة اوروشليم وانطاكية آنثذ وان هذا ما جعله يهدد لاوون باللعنة والقطع . ومما يذكر لهذه المناسبة ان قديسنا اعترض على تدخل لاوون في امور العقيدة واعتبر البحث فيها من خصائص الكنيسة الجامعة وجدها (٣).

وادی اهتمام لاوون بالدين الى سلخ ابرشيات اسورية عن كنيسة انطاكية وضمتها الى كنيسة القسطنطينية . فخسرت كنيستنا اربعة وعشرين اسقفاً ومتروبوليتاً . ولعل الظرف السياسي الحربي قضى بهذه التجزئة . فان اسورية أصبحت بعد الفتح الاسلامي بعيدة عن انطاكية خاضعة لامبراطور الروم (٤).

البابا غريغوريوس الثالث : (٧٣١-٧٤١) ودعا غريغوريوس الثالث الى مجمع محلي في رومة في اول تشرين الثاني من السنة ٧٣١ . فحرم هذا المجمع كل من قاوم احترام الايقونات واکرامها . (٥) فحرم لاوون بدوره اسقف رومة من دخل اوقافه في كلابرية وصقلية ورفع سلطته الروحية عن كنائس البرية وكلابرية وسر دينية وألحقها كلها بالبطريركية المسكونية (٦) . فبذر بعمله هذا

- 1) Ostrogorsky, G., Byz. State, 145.
- 2) Schwarzlose, K., Bilderstreit, 187 ff. Ostrogorsky, G., The Holy Icons and Their Connection, with Christological Doctrine, 35 ff.
- 3) Nasrallah, J., Jean de Damas, 110 - 112.
- 4) Parthey, G., Hieroclis Synecdemus, 74.
- 5) Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 416.
- 6) Mansi, XIII, Col. 808, XV, Col. 167 ; Hefelé - Lectercq. III, 680 - 681 ; Bury, J. B., Hist. of the Eastern Roman Empire, 194 ; Duchesne, L., Eglises Séparées, 214 - 215.

شقاقاً في الكنيسة أدى فيما بعد الى عواقب وخيمة .

قسطنطين الزبلي : (٧٤٠ - ٧٧٥) وتوفي لاوون في السنة ٧٤٠ فتسلم قسطنطين الخامس أزمة الحكم في القسطنطينية . وهو الذي أطلق عليه لقب الزبلي *Kopronymos* لانه افرز في جرن العباد حين المعمودية (١) . ويروي ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يحب الخيل (٢) . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرنافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنيه ونفى الثلاثة معاً .

وتبنى قسطنطين مقاومة الايقونات وقال قول رجال هذه المقاومة فأكد استحالة تمثيل الله بواسطة المادة لان المادة زائلة والله دائم . وقال ان ما يصح عن الله ينطبق على العذراء والقديسين لانهم أصبحوا عند الله . فاذا ما مثلوا بالمادة نزع عنهم شرف وجودهم امام الله . وأضاف ان المسيح هو صورة الآب فاذا ما مثلناه بالمادة نزعنا عنه طبيعته الالهية واصبحنا من النساورة . ويقول البطريرك نيقوفوروس ان قسطنطين صنف رسالة في هذا الموضوع أكد فيها استحالة تمثيل طبيعتي المسيح الاله وأوجب اعتبار الافخارستية صورة السيد الوحيدة . وهام قسطنطين في ضلاله فاستبدل اللفظ « ايوستاسيس » الذي أقره الآباء في المجامع باللفظ « بروسيتون » فجارى بذلك من قال بالطبيعة الواحدة (٣) . ومن هنا قول ميخائيل السرياني اليعقوبي ان الخلقيدونيين نبدوا قسطنطين واقواله لانه استصوب بملاء ارادته التحديدات التي اقرها الارثوذكسيون اي اليعاقبة (٤) .

قسطنطين والصليب : ثم شرع الزبلي في اضطهاد الكنيسة فسخر بكل قديس وبالاحتفال به . ومنع الاعياد والاصوام . وحطم الايقونات وطلّى جدران الكنائس بما يطمس الصور والرسوم . ولكنه احترم الصليب فزين به كل حنية

- 1) Theophanes, Chron., a. 6211.
- 2) Lombard, A., Etudes, Constantin V, 10 - 21.
- 3) Ostrogorsky, G., Studien zur Gesch. des Byz. Bilderstreites, 19, 25 - 26.
- 4) Michel le Syrien, II, 523.

ورسمه مكبراً على سقوف الكنائس وحفره في المسكوكات والاختام (١).

وجاء صليب هؤلاء المخطمين عريض الأطراف شبيهاً إلى حد معين بصليب فرسان مالطة . وظهر في بعض الأحيان في المسكوكات والاختام قائماً فوق مدرج صغير . وبدا أحياناً أخرى في مجموع من الأغصان المورقة متأثراً بشكل صليب النصر القسطنطيني . ولعل علاقة الصليب بالنصر كانت هي الدافع لاستمساك المخطمين بالصليب وابقائهم عليه (٢).

هيراوخية انطاكية : وأنكر الأرثوذكسيون الانطاكيون على لاوون وابنه بدعتها وقبحوا عملها وكتب يوحنا الدمشقي رسائله في نقض هذه البدعة وتحريمها وأيده في ذلك البطريك الأورشليمي يوحنا الخامس كما سبق وأشرنا فكان خلاف ظاهر ملموس بين امبراطور الروم وبين كبار رجال الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية في بطريكرات انطاكية وأورشليم والاسكندرية . فشفع هذا كله عند هشام ابن عبد الملك وضعفت ريبته في رعيته من الأرثوذكسين فرخص لهم بالرجوع إلى حقوقهم القديمة بأقامة بطاركة لهم من أبحارهم البلديين . فانتخبوا راهباً أعزه هشام وأجله فرقي السدة الانطاكية في السنة ٧٤٢ باسم اسطفانوس الرابع (٣).

واشتد الجدل في هذه الآونة بين علماء المسلمين وبين الآباء المسيحيين فتخاصموا وتغالبا في المناظرة يربد كل واحد اقحام خصمه . وتدخل بطرس متروبوليت دمشق في هذا الجدل وأيده اسطفانوس الرابع البطريك الانطاكي الجديد فغضب الوليد الثاني خليفة هشام (٧٤٣-٧٤٤) لكرامة الاسلام والمسلمين فأمر باسطفانوس فقطع لسانه وتوفي في السنة ٧٤٤ . ثم أمر ببطرس فقطع لسانه

1) Millet, G., *Les Iconoclast et la Croix*, Bull. Corresp. Hellen., 1910, 96-109; Ebersoll, J., *Sceaux Byzantins*, Rev. Numis., 1914, no. 139; Lihacev, *Sceaux de Leon III, Byzantion*, 1936, 469 - 482; Jerphanion, G., *Eglises Rupestres de Cappadoce*, I, II, Planche 144, 154 - 158.

2) Gage, *La Théologie de la Victoire Impériale*, Rev. Hist., 1933, et la Vict. Imp. dans l'Empire Chrétien, Rev. Hist. Philol. Relig., 1933, 370 - 400.

3) Theophanes, Chron., a 6234.

ايضاً ونفي إلى « العربية السعيدة » (١). ونجا ثيودوروس ابو قرة اسقف حران ولعل السبب في ذلك انه جادل النصارى من اصحاب المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة (٢).

وفي السنة ٧٤٥ رضي مروان الثاني عن الكاهن الأرثوذكسي ثيوفيلكتوس ابن قنبرة الصائغ الرهاوي فأوعز بانتخابه بطريركاً على انطاكية . فانتخب وتسلم عكاز الرعاية . وحرر الرسائل السلامية فوجهها إلى زملائه رؤساء الكنائس الخمس . واضطر ان يدافع عن سلامة العقيدة فضيق على الباقيين من رهبان بيت مارون في منبج وفي وادي العاصي (٣).

وكان بطرس القصار قد اباح للكرجيين في النصف الثاني من القرن الخامس ان ينتخبوا كاثوليكوماً عليهم شرط ان تم سيامته على يد البطريك الانطاكي . فلما تم الفتح الاسلامي وانقطعت العلاقات بين الكرسي الانطاكي وبلاد الكرج شغل الكرسي الكاثوليكوسي كما شغل الكرسي الانطاكي . وفي السنة ٧٤٥ جاء وفد كرجي يقاوض ثيوفيلكتوس البطريك في أمر الرئاسة . فدعا البطريك الأساقفة إلى مجمع محلي وسمح للكرجيين ان ينتخبوا رئيسهم وان يرسموه مستقلين شرط ان يذكروا البطريك الانطاكي ويؤدوا له مالا سنوياً . وبقي الحال على هذا المنوال حتى السنة الالف تقريباً حينما حل البطريك الأورشليمي محل البطريك الانطاكي في نظام الكنيسة الكرجية .

مجمع هيرية : (٧٥٤) وطوى الزبلي فتأده على عزيمة ماضية فراح في حوالي السنة ٧٥٣ يستمزج الرعايا في أمر العقيدة التي كان قد عقد نيته عليها فأمر الولاة والمطارنة بعقد الاجتماعات لهذه الغاية (٤). وبعد ان لاحت أشراط الفوز دعا الأساقفة إلى مجمع في قصر هيرية Hieria بالقرب من خلقيدونية في العاشر من شباط سنة ٧٥٤ (٥). فالتأم في هذا الموعد ثلاث مئة وثمانية وثلاثون

(١) نظم الجوهري لسعيد ابن البطريق ج ٢ ص ٤٥ وما يليها

Barhebraeus, Chron. Syr. 126; Theophanes, Chron., a. 6234.

2) Charon, Abou Qorra, Dict. Hist. Geog. Ecc., I, Col. 157 - 158.

3) Theophanes, Chron., a. 6236; Michel le Syrien, II, 511.

4) Theophanes, Chron., a. 6244.

5) Vita Stephani Junioris, P.G., C. Col. IIII; Ostrogorsky, G., Bilderstreit, 14.

موجباً على كل منهم ان يمسك بيد امرأة في اثناء العرض (١) . ويقول ثيوفانس ان حاكماً من حكام آسية الصغرى (ميخائيل لاختانوذراكون) جمع رهبان ولايته وراهباتها فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالا ومن لم يقطع فتسمل عيناه ويقصى الى قبرص . فهناه الزبلي قائلاً : لقد وجدت في شخصك رجلاً يحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي (٢) . وصادر الزبلي املاك الاديرة وضمها الى املاك الدولة . وهكذا فر عدد كبير من الرهبان الى ايطالية وجنوب روسية وشاطئ لبنان وفلسطين . ويقدر الاستاذ اندريف الروسي عدد الذين فروا الى ايطالية بخمسين ألفاً (٣) . وأشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصغر (٤) ومن هنا في الأرجح كان رأي الاستاذ اوسبنسكي الروسي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرفوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات Iconomachia لان الواقع انها كانت حرباً ضد الرهبان Monachomachia (٥) .

موقف رومة : وكان من جراء العنف الذي لجأ اليه لاوون وابنه قسطنطين ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضهاد . فافتن البابا زخريا (٧٤١ - ٧٥٢) في السنة ٧٥١ بخلع كليريك ملك فرنسة وتنصيب بيدينوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيدينوس بجيش الى ايطالية يحارب اللومبارديين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الزبلي بولاياته هذه اجابه بيدينوس انه وهبها لكرسي رومة عن حب لبطرس الرسول كما تغفر له خطاياه . من هذا التباعد بين الفيلسوف والبابا وهذا التقارب بين البابا وبيدينوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة البذور التي ادت فيما بعد الى الانشقاق العظيم .

- 1) Theophanes, Chron., a. 6257. 6259 ; Amann, E., Querelle des Images, Fliche et Martin, op. Cit., VI, 109 - 110.
- 2) Theophanes, chron., a. 6262, 6263.
- 3) Andreev, I, Germanus and Tarasius, 78.
- 4) Vita Stephani, P. G., C. Col. 1070 - 1186.
- 5) Uspensky, Ch. N., Hist. of Byzantium, 1. 228.

استقفاً . ولم يظهر بينهم أي ممثل لكنائس رومة والاسكندرية واوروشليم وانطاكية . وتوفي انسطاسيوس البطريرك القسطنطيني قبيل انعقاد هذا المجمع فتولى الرئاسة فيه ثيودوروس متروبوليت افسس . وكان قد اشتهر بعدائه للايقونات . وعاوناه في تسيير امور المجمع كل من سيسينيوس اسقف برجسة وباسيليوس اسقف انطاكية بسيدية (١) .

وبحث الآباء المجتمعون أمر الايقونات فثبتوا قول لاوون وابنه وواجبوا نزعها . واكدوا ان تصوير المسيح بالمادة يعني واحداً من اثنين اما القول مع نستوريوس بامكانية فصل الطبيعتين وتصور واحدة منهما وهي البشرية او مجارة المونوفيسيين والقول معهم بطبيعة واحدة هي الالهية (٢) . وابي الآباء ان يتقبلوا شيئاً من آراء الزبلي الخصوصية . فأنتنا نراهم يؤكدون ان مريم هي والدة الاله وانها اسمى المخلوقات تشفع مع سائر القديسين من اجل البشر (٣) . ومنع الآباء كل تخريب في الكنائس وكل تحطيم بدون موافقة البطريرك والامبراطور .

وفي منتصف شهر آب من السنة ٧٥٤ قدم الزبلي البطريرك الجديد قسطنطين سيلايون الى الآباء المجتمعين . ثم أعلنت في السابع والعشرين خلاصة اعمال هذه المجمع مشفوعة بارادة امبراطورية تقضي بالتنفيذ وتؤدي بقطع كل من جرمانوس القسطنطيني وجاورجيوس القبرصي ويوحنا الدمشقي (٤) . وانتحل الآباء المجتمعون الصفة المسكونية لهذا المجمع فاعتبروه المجمع المسكوني السابع .

تضييق واضطهاد : وتقوى قسطنطين الخامس الزبلي بقرارات هذا المجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصب غيظه وبلاءه على الرهبان . فكم عين قلع وكم يد واذن قطع فضلاً عن قتلهم (٥) . واكره طائفة منهم على الزواج اكرهاً . واستعرض مرة فئة منهم في ميدان الهيودوروم

- 1) Theophanes, Chron., a. 6245 ; Nicephore, Breviarum. 65 - 66.
- 2) Mansi, XIII, Col. 257, 260 ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 153.
- 3) Mansi, XIII, Col. 335, 347 - 348 ; Brehier, L., Querelle des Images, op. cit., V, 469.
- 4) Theophanes, Chron., a. 6245 ; Nicephore, Brev., 66.
- 5) Nicephore, Brev., 61.

الجمع المسكوني السابع : (٧٨٦-٧٨٧) وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون هذا مثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لثين الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امه ايرينه زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات (١) . ورأت ايرينه منذ بداية عهدها ان الجيش ما يزال معادياً للايقونات وأن الصقالية في غليان مستمر فأرجأت النظر في اعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريرك بولس الرابع القسطنطيني وغيره من كبار رجال الكنيسة قد اكرهوا اكراماً على تقبل قرارات مجمع هيربة (٧٥٤) فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع مجمعاً مسكونياً وان يُرقى الى الكرسي البطريركي طراسيوس كاتم اسرار الدولة *asecretis* . وكان طراسيوس عالماً ورعاً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم (٢) . وما ان تسلم عكاز الرعاية حتى بادى الى توجيه الرسالات السلامية الى رومة والاسكندرية وانطاكية واوروشليم مبدئاً فيها استمساكه بقرارات المجامع المسكونية وإيمانه الوثيق بشفاعة العذراء والملائكة والقديسين واحترامه للايقونات (٣) .

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريرك طراسيوس وكتب الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا اديانوس الاول (٧٧١ - ٧٩٥) والى البطاركة ابوليناريوس الاسكندري وثيودوروس الانطاكي والياس الاورشليمي من اجل مجمع مسكوني يعتقد في القسطنطينية (٤) . فأجاب اديانوس مادحاً مبتهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه المسكوني وطلب ان ترد له « املاك بطرس الرسول » والسلطة على الابريشيات « التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني » (٥) .

- 1) Diehl, C., *l'Impératrice Irène, Figures Byzantines*, I, 77 - 111.
- 2) *Vita Tarasii*, P. G, X CVIII, Col. 1385 1424 ; *Theophanes, Chron.*; a. 6277; *Mansi*, XII, Col. 986 f.
- 3) *Mansi*, XII, Col. 1119 ; *Grumel, Regestes des Actes du Patrimoine de Const.*, 351, 352.
- 4) *Dölger, Reg.*, 343 ; *Mansi*, XIII, Col. 1056.
- 5) *P. L.*, XCVI, Col. 1215 f ; *Mansi*, XII, Col. 1073 f.

وفي صيف السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل (١) ولكن الجند اندفعوا اليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج (٢) . فاستبدلت الوصية حامية العاصمة بغيرها . وعاد الآباء الى الاجتماع في ايلول السنة ٧٨٧ في مدينة نيقية فتألف المجمع من ٣٦٧ اباً وكان رئيسه البطريرك طراسيوس وناب عن البابا اديانوس القسان بطرس وبطرس وعسن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا لأن الظروف السياسية في الدولة الاسلامية كانت شديدة على هؤلاء (٣) .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثماني جلسات واشترع اثنين وعشرين قانوناً وذلك في خلال شهر واحد بين الرابع والعشرين من ايلول والثالث والعشرين من تشرين الاول سنة ٧٨٧ وافتتح طراسيوس اعمال المجمع بخطبة وجيزة ثم تلي كتاب الامبراطور والوصية وأهم ما جاء في هذا الكتاب ما معناه : « اننا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عُنينا بارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم اتم كهنته الجزيل بر كم الحافظين عهده بذبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجامع الارثوذكسية » . وجاء في هذه الرسالة ايضاً ان طراسيوس أغضب على قبول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطونية : « اني ارى وأنظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح الهنا مقسومة الان ومنشقة واننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الان . ومسيحيو الشرق المائلون لنا في الايمان يقولون قولاً آخر وافقهم عليه مسيحيو الغرب . ونحن اصبحنا غرباء عنهم جميعاً . وكل يوم نحرم من الجميع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق » (٤) .

وبعد ذلك وفي الجلسة الثالثة في الثامن والعشرين من ايلول دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بالخطأ الذي وقفوا فيه وقدموا التدامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم

- 1) *Grumel, V., Regestes*, 355.
- 2) *Theophanes, Chron.*, a. 6278.
- 3) *Mansi*, XII, Col. 1127 - 1146; *Amann, E., Querelle des Images, op. cit.*, VI, 116, n. 5.
- 4) *Mansi*, XII, Col. 1085.

السادس وسمل عينيه فتوج كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيسته الكتدرائية وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ واعتبره خلفاً للاوون الرابع وهرقل ويوستنيانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت حكومة القسطنطينية هذا العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق كما فعل غيره من الابطارة الذين قاموا قبله في الغرب فزحفوا ووحّدوا (١) . وعلم كارلوس حتى العلم ان حكومة القسطنطينية ستنتفي بعد ايرينة فسيفساً جديداً ففاوض ايرينة في الزواج ولكنها خلعت في السنة ٨٠٢ (٢) . ولم تعترف حكومة القسطنطينية بلقب كارلوس الجديد قبل السنة ٨١٢ ولكنها في مقابل هذا اضافت رسمياً الى اللقب الفسيلفس الكلمة « الروماني » ! وبقيام امبراطوية غربية تناظر الامبراطورية الرومانية الشرعية اشتد النزاع بين بطريرك هذه ربابا تلك ومهدت الطريق لانشقاق الكنيسة الجامعة انشقاقاً كبيراً !

* * *

- 1) Bury, J. B., Charles the Great and Irene, Hermanthena, 1893, 17 - 37 ; Schramm, P., Kaiser Rom und Renovatio, I, 12 - 13.
- 2) Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 265 - 269.

وفي مقدمة هؤلاء باسيلوس اسقف انقيرة . وقد قال في اعترافه : « فانا باسيلوس اسقف مدينة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة أعني ادريانوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة كراسي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الأرثوذكسين وقدمته اليكم أنتم الذين نلتهم السلطان عن الاصل الرسولي » (١) .

وقرئت رسالة البابا ورسائل البطارقة وأعلن طراسيوس موافقته على مضمون هذه الرسائل . واعترف الابطاء في الجلسة الثالثة والرابعة بوجوب تكريم الايقونات وقبلوها والغوا قرارات مجمع هييرية (٧٥٤) (٢) . وفي الجلسة السابعة كتبوا اعتراف الايمان وحددوا موقفهم من الايقونات فقالوا « باكرامها بالسجود احتراماً للذين صوّرت عليهم لا عبادة لهم لأن العبادة انما تجب لله وحده دون غيره (٣) » .

وأوجبت القوانين الاثنان والعشرون التعويض على الأديار والأوقاف عما لحق بها من خسارة واضرار وفرضت على الأساقفة القيام بواجبهم كما بينت حقوقهم وصلاحياتهم وتطلبت من الكهنة والقساوسة والرهبان التقيد بالقوانين الكنسية (٤) .

امبراطورية غربية : وكان من جراء هذا الاضطهاد الطويل الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب ومن جراء استمساك بطريرك القسطنطينية بلقب بطريرك المسكونة ان حاول بابا رومة لاوون الثالث اعادة الحق الى رومة القديمة العاصمة الاولى في انتخاب الامبراطور . فانه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرينة غير قانونية لأنها امرأة ولأنه لم يسبق لرومة ان اعترفت بحق امرأة في الحكم . واعتبر عرش الامبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين

- 1) Mansi, XII, Col. 1087.
- 2) Mansi, XII, Col. 1086, XIII, Col. 132.
- 3) Mansi, XIII, Col. 377 ff.
- 4) Hefelé - Leclercq: Hist. des Conciles, III, 741 - 798 ; Grumel, V., Images, Dict. Theol. Cath., VII, Col. 746 - 844.

شعر الرأس للفت النظر والاعواء (١) .

وكان المؤمنون لا يزالون يمارسون بعض الطقوس الوثنية القديمة فيحتفلون ببدء السنة الجديدة بالطقوس نفسها التي كان يمارسها الوثنيون لتكريم كرونوس Kronos إله الزمان فيتنكرون بجلود الحيوانات ويصنعون وجوههم (٢) . وكانوا لا يزالون يكرسون الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثاني والسابع عشر من كانون الأول لشرب الخمر وتغير الأزياء والرقص وغير ذلك مما شاع في عهد الوثنيين احتفاء بعيد الإله باخوس (٣) . فنهى الآباء المجتمعون عن هذا كله وعن الميومة أيضاً ، وهي احتفال الربيع ، كما منعوا المؤمنين عن ابقاء النيران في أول الشهر القمري وعن تبادل اللبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف وحرموا على طلبة الحقوق التنكر باللبسة لمناسبات معينة (٤) .

ولم يغفل الآباء أمر السحر والشعوذة وما تبعها من خرافات واحاديث كاذبة . وكان قد كثر عدد المشعوذين والساحرين والعرافين الذين ادعوا علم الغيب وكان قد أصغى اليهم وعمل بإشاراتهم بعض كبار الرجال . فشجب الآباء هذا كله وفرضوا ندامة ست سنوات على المؤمنين الذين يلجأون إلى السحرة والمشعوذين والذين يعرضون الديبة وغيرها من الحيوانات ليبيعوا صوفها تعاويز واحرازاً (٥) .

قوانين الوصل : واعترف آباء المجمع الخامس والسادس بجميع قرارات المجمع المسكونية الستة . ثم اتخذوا من قوانين الرسل الخمسة والثمانين التي جمعها يوحنا سكولاستيكوس في كتابه النوموقانون أساساً لكل تشريع كنسي . وهي ليست رسولية بالمعنى الحرفي أي أنها ليست من تصنيف الرسل أنفسهم وإنما تتضمنت التقليد الذي شاع وطبق في كثير من الكنائس منذ أيام الرسل كما تتضمنت أيضاً عدداً من القوانين التي اشترعها الآباء في مجامعهم المحلية قبل المجمع المسكوني الأول .

الفصل الرابع والثلاثون

نظم الكنيسة وقوانينها وطقوسها في القرنين السابع والثامن

ارتباك وانحطاط : وأدت حروب القرن السابع إلى الارتباك والبليلة . وزادت هجمات البرابرة الطين بلة فكثرت تنقلات العائلات والعشائر واختلط الحابل بالنابل . واستهال الأمر على الناس وتخوفوا وتنازقوا وتسافهوا وتطابشوا . ولجأت الحكومة إلى القسوة فسمت العيون وجذعت الأنوف وصلمت الأذان وقطعت الألسن . فتباغض الناس وتقاطعوا وانغمسوا في الشر وتهافتوا على المنكر وسخف الرأي وانتشرت الخرافات .

ترفع وتصون : ولاحظ آباء القرن السابع هذه الأمور فأيقظوا لها الرأي وأسهروا لها القلوب واشترعوا في المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ مئة قانون وقانونين . وأوجبوا معاقبة كل كاهن أو علماني يتغيب عن الاشتراك في صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية وأبعدوا الخمرات وحوانيت الطعام عن الكنائس ومنعوا النساء عن الثروة والبقية في أثناء الاحتفالات الدينية وقبحوا إيواء الماشية في كنائس القرى والمزارع . ثم زجروا الرجال والنساء الذين استغلوا ظرف الصلاة للأنجار باجسادهم وحرموا سنة كاملة أولئك الذين اتلفوا الكتب المقدسة أو باعوها من تجار العطور ليصنعوا منها أبواقاً . ومنع المجمع منعاً باتاً إقامة حفلات الأغبة في الكنائس (١) .

وهدد المجمع بأشد العقوبات جميع الذين يخالطون ويعاشر الزهاد الذين كرسوا أنفسهم لله واعتبر الاجهاض نوعاً من القتل وحرّم جميع الذين يصنعون ويتجرون و يروجون الرسوم الخلة بالآداب . وشجب المجمع كل تفنن في ترتيب

1) Canons, 4, 91, 100, 96.

2) Leclercq, H., Dasius, Dict. Arch. Chrét., IV, Col. 275 - 279.

3) Crawford, J., De Bruma et Brumalibus Festis, Byz. Zeit., 1920, 365 - 396.

4) Canons, 62, 65, 71.

5) Schlumberger, G., Quelques Monuments Byzantins Byz. Zeit., 1893, 187-191.

1) Canons 80, 70, 76, 88, 97, 68, 74, Mansi, XI, Col. 935 ff.

واستمسك الآباء المجتمع الخامس السادس بجميع هذه القوانين . وحذا حذوهم فوطيوس فيما بعد وكذلك بلسامون وزونارس . وشك آباء الكنيسة اللاتينية الشقيقة بصحة بعض هذه القوانين فلم يعتبروا ثابتاً منها سوى الخمسين التي جمعها ديونيسيوس الصغير . فكان هذا الاختلاف حول هذه القوانين من عوامل الانشقاق (١) .

وصايا الرسل : وامتنع آباء المجتمع الخامس السادس عن الاعتراف بوصايا الرسل لأنهم لمسوا فيها دساً غريباً لا يتفق والعبادة الحسنة ورأوا من الصواب طرحها جانباً « كي لا يسري سم الهرطقة » وبينوا بوضوح أسماء الآباء الذين يرجع اليهم في امر النوماقانون فذكروا في القانون الثاني ديونيسيوس وبطرس الاسكندرانيين وجرغوريوس قيصرية الجديدة واثناسيوس الاسكندري وباسيليوس قيصرية قبدوقية وجرغوريوس نيصيص وامفيلوسيوس ايقونية وتيموثاوس الاسكندري وثيوفيلوس وكيرلس الاسكندرانيين وجناديوس القسطنطيني وكبريانوس قرطاجة .

الكتب المقدسة : وعينت قوانين الرسل التي نبتاها المجتمع الخامس السادس الكتب المقدسة فجاءت هكذا : اسفار موسى الخمسة وسفر واحد للقضاة وسفر واحد لراعوث واربعة اسفار للملوك وما بقي من اخبار الايام سفران وسفران لعزرا وسفر واحد لاستير وسفر واحد لايوب والمزامير سفر واحد وثلاثة اسفار لسليمان وللانبياء اثنا عشر سفرأ وواحد لاشعيا وواحد لارميا وواحد لخزقيال وواحد لدانيال وثلاثة اسفار للمكابيين وجاء في هذه القوانين : « وعليكم ان تعلموا احداثكم ايضاً حكمة ابن سيراخ الجزيل المعرفة والادب » اما كتب العهد الجديد فهي البشائر الاربع ورسائل بولس الاربعة عشرة ورسائل بطرس ورسائل يوحنا الثلاثة ورسالة ليعقوب ورسالة يهوذا و « كتاب اعمالنا نحن الرسل » . ومما جاء في القانون الخامس والثمانين اشارة الى رسالتي اقليمس ووصايا الرسل « التي اوصوا بها لكم ايها الاساقفة . وهي محررة بواسطتي انا اقليمس في ثمانية كتب ينبغي عدم

1) Leclercq, H., *Canons Apostoliques*, Dict. Arch. Chrét., II, Col. 1913-1914.

اشهارها تجاه الكل لاجل الامور السرية التي تتضمنها » . وردع الآباء المؤمنين عن مطالعة الابوقريفة ولا سيما ابو قريفة الشهداء وامروا باحراقها .

الاباطرة والكنيسة : وخاض الاباطرة في باطلهم فتدخلوا في شؤون الكنيسة تدخلا فعلياً فسن هرقل الاكثيسيس واشترع قسطنطين الرابع التيبوس ودعا الى المجتمع المسكوني السادس وحذا حذو يوستنيانوس الثاني وأعد لاوون الثالث الاكلوغة وغيرها من القوانين واعتبر نفسه كاهناً اعظم فركب رأسه وقال ما قال في الايقونات المقدسة . وبسط قسطنطين الخامس عنانه في الجهل وتدخل هو ايضاً في امور الكنيسة . ويجوز القول ان عدداً كبيراً من الاساقفة لم يستلموا عكاز الرعاية الا برضى الامبراطور وموافقة .

ولكن الكنيسة أنجبت في هذه الفترة نفسها من تاريخها ابناء قدسين غيرين اخذوا على يد هؤلاء الاباطرة وقصروا خطاهم وحبسوا عنانهم فدافعوا عن حرية الكنيسة دفاع الأبطال . وهل ننسى ادوار مرتينوس الاول ومكسيموس المعترف وجرغوريوس الثاني ويوحنا الدمشقي !

ومما يجب ذكره ان هرقل لوى عنانه واكد ليوحنا الرابع بابا رومة ان سرجيوس أعد الاكثيسيس وان قسطنطين الرابع افاق من سكرته ورجع عن التيبوس وان يوستنيانوس الثاني تساهل في تنفيذ قوانين المجتمع الخامس السادس ولم يكره البابا قسطنطين على العمل بموجبها .

ومما لا يجوز اغفاله ايضاً ان لاوون الثالث استمزج وشاور وحاول الاقناع قبل ان اتخذ القرارات بنزع الايقونات وان ابنه حذا حذوهم وان الآباء الذين اجتمعوا في هيرة لينفذوا برنامج قسطنطين الخامس قطعوا عليه وجهته في أمر العقيدة وخفضوا من غلوائه وانه هو أمسك وارتدع !

البطريرك المسكوني : وكان المجتمع الخلقيدوني (٤٥١) قد اعتبر اسقف رومة الجديدة مساوياً لاسقف رومة القديمة وكان اكاكيوس اسقف رومة الجديدة قد اتخذ لقب البطريرك المسكوني بعد ذلك بسنوات معدودة . ثم انتشر الاسلام في ابرشيات مصر وسورية ولبنان وفلسطين وقامت دولة اسلامية فنية ثيوقراطية فاستضعف بطاركة الشرق واستكانوا وتضاءل نفوذهم ثم تيممت كراسيهم

وأُست شاعرة مدة من الزمن . فأصبح البطريرك المسكوني هو البطريرك الفعّال الوحيد في الشرق .

وجاء المجمع الخامس السادس (٦٩٢) فاعترف بالواقع وأيد بقانونه السادس والثلاثين قرار المجمع الخلقيدوني فنح البطريرك المسكوني الامتيازات نفسها التي تمتع بها زميله بابا رومة . وفي السنة ٧٣٢ استحكم الشقاق بين لاوون الثالث وبين بابا رومة فوسّع لاوون سلطة البطريرك المسكوني على حساب زميله الروماني فخضعت اليرية وصقلية وكلايرية لسلطة بطريرك القسطنطينية . وسلخ لاوون في هذه السنة نفسها ابرشيات اسورية عن كنيسة انطاكية فاتبعها الكرسي القسطنطيني ايضاً . واذا ما قابلنا بين هيرارخية القسطنطينية كما أباها ابيفانيوس القبرصي في السنة ٦٥٠ وبين تكتيكون البطريرك نيقوفوروس في السنة ٨١٠ نجد عدد الاسقفيات التابعة للكرسي القسطنطيني يرتفع من ٤٢٤ الى ٦٠٠ (١) .

وعظم قدر البطريرك المسكوني في عاصمة الدولة وارتفعت منزلته ووقرت مهابته في الصدور فأقسم الاباطرة امامه يمين الولاء للدين القويم وتسلموا التاج من يده (٢) . وتدخل هو تدخلا فعلياً في الحكم واشترك في اعمال مجلس الشيوخ والوزراء وناب عن الامبراطور في غيابه وتولى الوصاية على الاباطرة القصر . فان سرجيوس دار دفعة الحكم في اثناء تغيب هرقل عن العاصمة وتولى بولس الوصاية على قسطنديوس القاصر . وجلس البطريرك المسكوني في المرتبة الاولى بعد الامبراطور ونالت حاشيته مرتبة مرموقة في سجل التشريعات (٣) .

النظام والانضباط : وكانت المجامع قد ربطت كل اسقف بابرشيته ربطاً وثيقاً فحرمت عليه ترشيح نفسه بعد سيامته لاي مركز اسقفي شاعر خارج ابرشيته . وكان هذا التحفظ الشديد قد صعب انتقاء الكفاء لبعض المراكز العالية ولا سيما كراسي البطارقة . وحدث مثل هذا في السنة ٧١٥ عندما توفي البطريرك المسكوني يوحنا السادس وشغل كرسيه . فان انظار الشعب والاكليروس والسلطات الزمنية

1) Parthey, G., Hieroclis Synecdemus et Notitiae Graecae Episcopatum ; Gelzer, Georgii Cyprii Descriptio Orbis Romani.
2) Sickel, Das Byzantinische Kronungsgrecht, Byz. Zeit., 1898, 511 - 558.
3) Dolger, Reg. 213 ; Constantin Porphyrogénète, De Caerimoniis, II, 39.

اتجهت شطر جرمانوس اسقف كيزيكة لما تحلى به من ورع وتقوى وعلم ومقدرة . واضطرت هذه العناصر الى توقيع العرائض لاطهار رغبتها واجماعها قبل نقل هذا الحبر الجليل من ابرشية كيزيكة الى ابرشية القسطنطينية (١) .

ونظر الآباء المجتمعون في المجمع الخامس السادس في مشاكل الاسقفية فحرّموا الزواج على الاساقفة وسمحوا بوصول مرشح متزوج الى الكرسي شرط انفصال زوجته عنه ودخولها ديراً من الاديبار . وحض الآباء الاساقفة على الوعظ والارشاد ولا سيما في ايام الآحاد وعلى اقتطاف المعاني والاحكام من الكتاب الالهي متبعين في ذلك التقليد الذي وضعه الآباء المتوشحون بالله مستمسكين بالتفسير الذي أقره كواكب الكنيسة . وأوجب القانون الثامن الذي اشترعه المجمع المسكوني الخامس والسادس على المطارنة دعوة الاساقفة الخاضعين لهم الى مجمع محلي مرتين في السنة او على الاقل مرة واحدة بين عيد الفصح المقدس وقبل انتهاء شهر تشرين الاول . ومنع هذا المجمع الخامس السادس استئثار المطارنة بتركات الاساقفة الخاضعين لهم . فقد جاء في القانون الخامس والثلاثين انه اذا توفي اسقف تبقى تركته تحت مراقبة اكليروس الكنيسة التي كان متصداً فيها الى ان يتم انتداب اسقف آخر . وأجاز القانون السابع والثلاثون للاساقفة الذين اكرهتهم الظروف على الاقامة في القسطنطينية وعدم العودة الى ابرشياتهم بالاكرام اللائق برتبهم وان يمنحوا الدرجات حسب عاداتهم .

ونص القانون الرابع عشر والخامس عشر على انه لا يسام قساً من كان دون الثلاثين من العمر وان لا يسام شماساً من كان دون الخامسة والعشرين ولا ايودياكوناً من كان دون العشرين وانه اذا كان المرشح مستحقاً فلتؤجل شرطونيته الى نهاية السنة المعينة « لان الرب يسوع اعتمد وابتدأ يعلم في سن الثلاثين » . وألغى القانون السادس عشر قرار مجمع قيصرية الجديدة فلم يحدد عدد الشماس « وجاء في القانون السابع انه لما كان بعض الشماس يتواقحون فيجلسون فوق القساوسة فان المجمع يأمر بأن يجلس الشماس تحت القس ولو كان

1) Theophanes, Chron. a. 6207 ; Nicephore, Brev., 50.

متقلداً وظيفة من الوظائف وأنه يستثنى من ذلك من كان نائباً عن بطريرك او متروبوليت وأتى الى مدينة أخرى بمهمة معينة . « ومن يخالف هذا الحسد متكبراً فليكن آخر جميع الذين من رتبته لان ربنا هنا عن محبة المتكاثرات الاولى في المجالس » . وأبقى المجمع الخامس السادس على تشريع يوستينيانوس في أمر الزواج فنحى الاكليريكيين من رتبة ايبوذيا كون فما فوق عن الزواج . واذا كان اصحاب هذه الدرجات قد اقترنوا قبل سيامتهم فليحافظوا على نسايتهم وليعنوانا بهن مبهتمين عنهن عندما يقومون بالخدمة المقدسة « ومن تجاسر على عمل كهذا فليقطع ومن أراد من المتقدمين في الاكليروس ان يقترن بامرأة حسب ناموس الزيجة فليفعل ذلك قبل شرطونيته ايبوذيا كوناً او شماساً او قساً » .

وعالج الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ سر الزواج فاعتبروا الخطبة الرسمية الكنسية عقداً ساري المفعول وحرّموا في القانون الثامن والتسعين زواج الخطيبة من شخص ثالث غير الخطيب الاول . وقالوا في القانون الرابع والخمسين : « لا يجوز ان يقترن أحد بابنة عمه او ام وبنتها بأخوين او اخوان باختين . ومن يفعل ذلك فليقف تحت قانون سبع وستين مع فصل الزيجة غير الشرعية » . ونص القانون السادس والعشرون ان القس الذي يزوج عن جهل زواجا غير شرعي له ان يتمتع بالكرامة للكهنوتية . وأما الأعمال الكهنوتية فيمنع منها . ومن يداوي جراحاته لا يحق له ان يبارك غيره ولذلك فلا يبارك على انفراد ولا علناً ولا يوزع جسد الرب ولا يخدم خدمة اخرى وليبتهل الى الرب بدموع ليصفح له . ومثل هذه الزيجة غير الشرعية قد تنحل ولا يكون للرجل اشتراك مع تلك التي حرم عمل الكهنوت بسببها . وجاء في القانون السابع والثمانين ان من ترك رجلها وتقترن بأخر فانها زانية وأنه ان ثبت انها ذهبت من عند رجلها بدون داع موجب فالرجل يستحق العفو وأما هي فللعقوبة . ومن يترك امرأته التي ارتبط معها بموجب الناموس ويقترن باخرى يقع تحت جريمة الزنا . ومثل هؤلاء يوضعون سنة كاملة في عداد الباكين وستين مع السامعين وثلاثاً مع الساقطين وفي الرابعة يقفون مع المؤمنين ويستحقون القرايين اذا تابوا بدموع! وجاء في القانون الثالث

والتسعين ان المرأة التي يغيب رجلها عنها وتنقطع أخباره اذا اقترنت بغيره قبل التثبت من موته تعتبر زانية . وجاء في القانون الثاني والسبعين انه لا يجوز لرجل أرثوذكسي ان يقترن بامرأة هرطوقية ولا لامرأة أرثوذكسية ان تقترن برجل هرطوقي لأنه ليس من الواجب ان يخلط ما لا يجب اختلاطه ولا للذئب ان يجتمع بالخروف . واذا يادر أحد الزوجين الهرطوقيين الى النور الحقيقي ولبث الآخر في الظلمة فلا يفك رباطهما عملاً بقول الرسول : ان الرجل غير المؤمن يقدر بامرأة مؤمنة والمرأة غير المؤمنة فلتتقدس بالرجل المؤمن . وقضى القانون الثاني والتسعون بأن الذين يخطفون النساء والذين يساعدونهم او يشيرون عليهم فليقطعوا ان كانوا اكليريكيين وليفرزوا ان كانوا علمانيين .

وحرم المجمع بقانونه الرابع والثلاثين التآمر على الأساقفة وغيرهم من رجال الاكليروس كما نهى عن العبث بالقوانين المدنية المرعية الاجراء وأوجب قطع من يشترطون بالمال ومن يتناولون مقابلاً لمناولة القربان الطاهر « لأن النعمة لا تباع ولأننا لا نوزع تقديس الروح بالمال بل ينبغي ان نعطي القربان لمستحقه » وجاء في القانون الحادي والعشرين ان الاكليريكيين الذين يذنبون ثم يتوبون ويبتعدون عن الخطيئة يجوز قص شعرهم كسائر الاكليروس . أما اذا لم يرغبوا في ذلك فليربوا شعورهم مثل العوام لأنهم فضلوا العالم على الحياة السماوية .

ممارسة الاسرار : ونهى الآباء عن التعميد في المنازل وأوجبوا ممارسة هذا السر في الكنائس وأمرؤا بقطع الاكليريكي المخالف وفرز العلماني . وأصروا على وجوب تعلم دستور الايمان وتلاوته في صباح الخميس الكبير أمام الاسقف او الكاهن . وسمحوا بقبول التائبين من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والابوليناريين بدون اعادة معموديتهم . ولكنهم أوجبوا مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والقم والاذن . وأما البولسيون والاقنوميون الذين يعمدون بغضة واحدة والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الآب والابن اقنوم واحد فهؤلاء « نقبلهم كالامم اي اننا في اليوم الأول نعدهم مسيحيين وفي

الثاني موعوظين وفي الثالث نستقسمهم نافخين في وجوههم وفي آذانهم ثلاثاً وعلى هذه الحالة نعظهم ونجعلهم ان يلبثوا مدة في الكنيسة ويسمعون الكتب وحينئذ نعظهم . ومثلهم المانويون والقالنتنيانيون والمركيانيون وغيرهم من أصحاب هذه الهرطقات . أما النساطرة فينبغي ان يعترفوا بالايمان كتابة وان ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس واوطيخا . وبما ان القراية الروحية هي أهم من القراية الجسدية وبما اننا علمنا ان قوماً يقبلون أولاداً من المعمودية ويتزوجون امهاتهم اذا تزلزل فأننا نحدد الا يجري شيء من هذا .

ومنع آباء المجمع الخامس السادس المؤمنين عن تناول مباشرة وأوجبوا تناول القربان باليدين الاثنتين متقاطعتين اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس . وأجازوا استعمال المعلقة . وحرّموا مناولة أجساد الموتى لأنه كتب : « خذوا فكلوا » وأما أجساد الموتى فإنها لا تأخذ ولا تأكل .

الصوم : وعلم الآباء ان النصارى في بلاد الأرمن وغيرها بأكلون بيضاً وجبناً في الآحاد والسبوت من الصوم الأربعيني فأمرّوا بترتيب واحد في كنيسة الله في المسكونة كلها وأوجبوا اكمال الصوم لأن الكنيسة تمنع كل مذبح والبيض والجن من أثمار المذبحين .

وعلم الآباء ايضاً ان أهل رومة يصومون في سبوت الصوم الاربعيني مخالفين الترتيب الكنسي . فأمرّوا بقطع كل اكليريكي يصوم الأحد او السبت ما عدا السبت العظيم وبفرز كل عامي يقدم على ذلك . وأثبتوا في القانون السابع والستين ان الكتاب الالهى يحظر الدم والمخنوق وان ذوي البطون الشرهة يقعون تحت العقوبة .

الليتورجية : وتطورت طقوس العبادة تطوراً ملموساً في القرن السابع . ففي السنة ٦١٥ او ما يقاربها ادخل البطريرك سرجيوس القسطنطيني ليتورجية القديسات السابق تقديسها البروجيازينا . وكانت كنيسة اورشليم قد سبقت غيرها الى هذا (١) . ويرى بعض رجال البحث ان البروجيازينا التي شاع

1) Chronique Pascale, P. G., XCII, Col. 989; Leclercq, H., Messe, Dict. Arch. Chrét., XI, Col. 770 - 771.

استعمالها في القرن السابع كانت تقام آنئذ في جميع ايام الصوم ما عدا السبوت والآحاد والخميس الكبير (١) . وجاء في القانون الثاني والخمسين الذي أقره المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ ان قداس البروجيازينا يقام في كل ايام الصوم الاربعيني المقدس ما عدا يومي السبت والأحد ويوم عيد البشارة المقدس . وتسمى هذه الخدمة خدمة القديسات السابق تقديسها لأن القرايين التي تقدم فيها لا تقبل استحالة وانما يتم عليها تذكّار الخدمة لتقديس المؤمنين . وهذه القرايين يقدمها الكاهن مقدسة ومستحيلة من ذي قبل في خدمة سابقة ومؤلفة من جسد الرب ودمه وحفوظة في بيت القربان *Skeuphytlakion* الى يوم التقديم .

أما خدمة القديس في اوائل القرن الثامن فإنها الخدمة التي تنسب الى ايونا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم . وقد وصفها وصفاً كاملاً دقيقاً ابونا الجليل في القديسين جرمانوس بطريرك القسطنطينية (٧١٥ - ٧٣٠) في كتابه تاريخ الكنيسة . وهو أعظم ما ظهر من نوعه قبل كتاب سمعان الثسالونيكي .

واعتر آباء القرن السابع تعميم الأطفال اجبارياً فقل عدد الموعوظين وتضاءل الحد الفاصل بين قداس الموعوظين وقداس المؤمنين . وبدأ القديسين في هذه الفترة بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرايين *Proscomid* وتقديمها على البروتيسيس *Prothesis* ثم بقراءة الديتيخة (٢) . وكانت هذه تشمل ذكر الأحياء والأموات من الأساقفة وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب (٣) . ويلاحظ رجال الاختصاص ان الدخول بالانجيل بعد الخروج به بدأ في طقوسنا في القرن السابع ايضاً . ورأى القديس جرمانوس في هذا رمزاً الى خروج المسيح من اورشليم وتعليمه الانجيل الذي هو صوفيا اورثي اي الحكمة المستقيمة الحقيقية . ورأى هذا القديس ان الشمعة التي تتقدم الانجيل تشير الى يوحنا السابق وان الترتيل بعد هذا « هلموا نسجد ونركع » انما هو اشارة الى فرح البشر بقبول الانجيل وايمانهم بالخلص وان التسييح الملائكي « قدوس الله » انما هو اشارة الى البشر لما

1) Brehier, L., La Vie de l'Eglise Byzantine, op. cit., V, 492.

2) Germain, P. G., XCVIII, Col. 396 - 397.

3) Maxime, Mystagogia, P. G. XC, Col. 117.

تعلموا سر الثالث بتعليم الانجيل مجدوا الله بنعمة واحدة مع الملائكة اذ اصبحوا معهم رعية واحدة للراعي الواحد. وهنسا يصعد الاسقف الى السنثرونون *Synthronon* ويبارك الشعب. وبعد هذا تقرأ الرسائل اشارة الى ان المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالانجيل ثم يتلى الانجيل ويقبل العطاء وينادي الشماس بخروج الموعوظين (١).

وعندئذ يفتح الكاهن الانديمنسي اي القائمة مقام المائدة ويصار الى الايصوذن الكبير المعروف بدورة القداس وفيه تدخل القرايين وهي لا تزال غير مقدسة الى المائدة. والايصوذن الكبير في نظر القديس جرمانوس يرمز الى نقل جسد يسوع من الجلجلة (المذبح) الى القبر (المائدة) (٢). ويأخذ بعض رجال الاختصاص بما جاء في تاريخ كدريمنوس فيقولون ان الشاروبيكون الذي يرتل لهذه المناسبة ادخل في الخدمة في عهد الامبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨) وانه كان قبل ذلك يرتل عند تقديم التقداس (٣). اما القديس جرمانوس فانه رأى في المراوح اجنحة السرافيم ترفرف لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك. ومن هنا القول في هذا الشاروبيكون:

« ايها المثلث الشاروبيم سرياً والمرغون التسبيح المثلث التقديس الثالث المحيي لنطرح هنا الآن كل مهمة دنيوية لاننا مزمعون ان نستقبل ملك الكل محضوفاً بالمراقب الملائكية بحال غير منظور ملولياً ! » .

أما باقي الخدمة فانه ظل كما كان في القرن السادس: غسل الأيدي والطلبات « وترتيل » دستور الايمان وخلق ابواب الهيكل وصلاة الانافورا وترتيل التريصاغيون ولفظ الكلام الجوهري وقراءة الليتيخة وتلاوة الصلاة الربانية ورفع القدسات وكسر الخبز والمناولة. ورأى البعض ان سكب الماء الساخن يعود الى القرن السادس وان صلاة الشكر أدخلت في عهد البطريرك سرجيوس (٤).

1) P. G., XC VIII, Col. 405, 409, 412 - 413, 416 - 417.

2) Germain, P. G. XC VIII, Col. 416 - 417.

3) Cedrenus, P. G., CXXI, Col. 478.

4) Chronique Paseole, P. G., XCII, Col. 1001.

ولا تزال نرى حتى يومنا هذا مع القديس جرمانوس وغيره من الآباء ان الستر الكبير يشير الى حجر القبر والبخور الى حنوط يوسف ونيقوذيموس وطيوب النسوة وتسكير أبواب الهيكل الى انخدار المسيح الى الجحيم وتسكير ستر الباب الى الحراس والتقييل الى المحبة. ونقول « الابواب الابواب » الى البوابين كي لا يدعوا أحداً من غير المؤمنين او الموعوظين يدخل. وتتلو دستور الايمان لارتباط المحبة بالايمان. وتفتح ستر الباب الملوكي لنشير الى هرب الحراس وزفر فوق القرايين بالستر الكبير لنذكر بالزلزلة التي حدثت عند قيام المخلص. ويطوى الستر اذ يصل قاريء دستور الايمان الى العبارة « وقام في اليوم الثالث » للاشارة الى دحرجة الحجر عند باب القبر. والمراوح تمنع وقوع شيء من هوام الهواء في الأواني وتشير الى الاجنحة الستة. ورفع الخبز المقدس يتم به رسم قيامة المخلص. وقول الكاهن « القدسات للقديسين » يعني انه لا يجوز لغير الطاهرين. وقوله « الذي يجزأ ولا يتقسم » يعني ان الخبز المقدس هو جسد الرب كله. وكل جزء منه هو جسد الرب كله فجسد الرب لا يتقسم في جوهره وان تجزأ في اعراضه. وقوله « لا يفرغ ابداً » يعني ان المسيح يكون معنا الى انقضاء الدهر بأسراره الالهية وبعد ذلك في ملكوت السماوات. ووضع الخبز المقدس في الكأس يعني ان المسيح قام بكليته جسداً حياً. والماء الحار يقصد به ان يجعل الدم المقدس حاراً كما هو الدم الحي. ثم توضع في الكأس الأجزاء لتحصل على نعمة من ملاسة دم المخلص. وفتح الباب اشارة الى ظهور المخلص للتلاميذ بعد القيامة. وعرض الكأس على الشعب هو الاشتراك في التناول. وقول الكاهن « خلص يا الله شعبك » اشارة الى البركة التي أعطاها المسيح لتلاميذه على جبل الزيتون قبل الصعود: والقول « ارتفع اللهم » اشارة الى صعود الرب وانخدار الروح القدس يوم الخمسين. وعرض الكأس ثانية يذكر بمجيء المسيح ثانية (١).

ومنع آباء المجمع الخامس السادس بالقانون الثامن والعشرين تقديم العنب مع التقديم الغير الدموية وأوجبوا تقديم القربان فقط وتوزيعه وحده على

(١) خدمة القداس الالهي لجراسيموس مسرة متروبوليت بيروت ص ٨ - ١٢

الشعب لأجل موهبة الحياة ومغفرة الخطايا . وأجازوا قبول العنب على انفراد ومباركته وتوزيعه على طالبيه شكراً لواهب الأثمار التي بها تنمو أجسادنا وتتغذى وحرّموا في السابع والخمسين تقديم العسل واللبن على المذبح .

ولا نجتو بركبنا : وأوضح الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ أنه بعد دخول الكهنة مساء السبت إلى الهيكل لا يجني أحد ركبته حتى عشية الأحد التالية لأننا نتخذ الليل الذي يلي السبت مقدمة لقيامه مخلصنا ومنها نبتدىء بالنشائد الروحية مقيمين العيد من ظلام إلى نور فنحتفل بالقيامه يوماً كاملاً ليلاً نهاراً ونحافظ على التقليد الذي تسلمناه قانونياً من آبائنا المتوشحين بالله - القانون التسعون من أعمال المجمع الخامس السادس .

التريثيل والموتلون : وكان رومانوس المرتل البيروتي قد اشتهر بنظم التراتيل والابتهاالات في القرن السادس . فلما جاء القرن السابع لمع في هذا الحقل نفسه صفرونيوس البطريرك الأورشليمي (١) (٦٠٥ - ٦٣٩) ومكسيموس المعترف (٢) . بيد أن أشهر المرتلين في هذا القرن هو اندراوس الاقريطشي . ولد في دمشق سنة ٦٦٠ وترهب في اورشليم وخدم في كنيسة القيامة ثم أرسل مع وفد إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور قسطنطين الرابع في السنة ٦٨٥ فبقي فيها وترأس الاورفانوتروفون . وفي السنة ٧٠٠ سم متربوليتاً على غوربتنة في جزيرة اقريطش . وفي السنة ٧١٢ جنح إلى المونوثيلية مع فيليببيكوس المغتصب ثم تاب وتوفي السنة ٧٤٠ (٣) . وقد سبقت الإشارة إلى نتاج يوحنا الدمشقي وصديقه قوزما اسقف ميومة فلسطين في هذا الحقل من العمل فلترجع في محلها . وكذلك قانون الاكاثيستون الذي نظمته سرجيوس البطريرك القسطنطيني (٤) .

- 1) Patr. Gr., LXXXVII, Col. 3733 ff.
- 2) P. G. XCI, Col. 1417 - 1424.
- 3) Vailhé, S., André de Crète, Echos d'Orient, 1902, 378 - 387 ; Petit, L., André de Crète, Dict. Arch. Chrét. I, Col. 2034 - 2041.
- 4) Krypiakiewicz, P. F., De Hymni Acathisti Auctore, Byz. Zeit. 1909, 357 - 382 ; Meester, L'Inno Acatisto, Rome, 1905 ; Bréhier, L., Vie de l'Eglise Byz., op. cit., V, 496 - 497.

العلم والتعليم : ولم يهمل الآباء العلم والتعليم بعد يوستينيانوس ولكن مراجعنا في ذلك قليلة مشوشة . وجل ما يجوز قوله هو أن المدارس المسيحية ظلت سائرة في عملها في الشرق وانها زينت أكثر المدن العظمى . صفرونيوس البطريرك الأورشليمي علم الأدب في دمشق مدة الزمن قبل وصوله إلى الكرسي الأورشليمي وحاز لقب « الحكيم » (١) وعي زلزال السنة ٥٥١ معالم مدرسة بيروت فأنجحت انظار طلاب العلوم العالية إلى القسطنطينية وجامعتها ولعبوا في العاصمة دوراً مرموقاً . ومن هنا اهتمام آباء المجمع الخامس السادس بهؤلاء الطلاب كما جاء عند الإشارة إلى القانون الحادي والسبعين (٢) .

وحل مكسيموس المعترف لواء الدفاع عن الايمان القويم فأفحم وأسكت بعلم وافر ومنطق سديد ونطق فصيح . واشتهر في حقل اللاهوت بكتابه الاجوبة على الاسئلة وبحاشيته على هامش مصنفات غريغوريوس التريزي وديونيسيوس الاروباغوسي . وكتب تحت تأثير هذين كتابه في الزهد ورسالته في التصوف Mystagogia وفصوله في الحجة (٣) . وجاء بعد مكسيموس يوحنا الدمشقي وقد سبق الكلام عنه في فصل خصوصي فليراجع في محله .

ومن آثار هذه الفترة من تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية حياة القديس يوحنا الرحوم بطريرك الأسكندرية (٦١١ - ٦١٩) وقد دجها لاونديوس اسقف نيابوليس قبرص مستعيناً في ذلك بما وضعه صفرونيوس البطريرك الأورشليمي ويوحنا موسكوس (٤) . وكان يوحنا هذا قد كرس شطراً وافرأ من حياته في اوائل القرن السابع لجمع أخبار الرهبان القديسين في مصر وفلسطين وسورية فوضع كتابه الشهير الليموناريون الذي عرف ايضاً بالعنوان « الفردوس الجديد » (٥) .

- 1) Vie de Sophronius, P. G., LXXXVII.
- 2) Fuchs, Die Hoheren Schulen von Konstantinopel im Mittelalter ; Schemmel, F., Die Hochschule von Konstantinopel.
- 3) Patr. Gr., XC, XCI ; Viller, Sources de la Spiritualité de Saint Maxime, Rev. d'Ascétique et de Mystique, 1930.
- 4) Delahaye, Une Vie Inédite de Saint Jean l'Aumônier, Analecta Bollandiana, 1927, 5 - 75 ; Gelzer, Leontius von Gæapolis.
- 5) Vailhé, S., Jean Moschus, Echos d'Orient, 1902, 107 ff ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 186.

ومن أغرب ما دون في هذا العصر قصة برلام ويواصف . وهي في أساسها سيرة بوذا غوماطة بقالب مسيحي . وقد نسبت خطأ الى يوحنا الدمشقي ولعل ناقلها زاهب آخر باسم يوحنا لا قديسنا الشهير . ونصها اليوناني كما نعرفه اليوم يعود في الأرجح الى القرن الحادي عشر (١) .

الفصل الخامس والثلاثون

العباسيون والكنيسة

٧٥٠ - ٩٦٩

الثورة العباسية : ونشأت أحزاب سياسية في الدولة الأموية كالزبيريين والخوارج والشيعة ففتت في ساعد الأمويين وأضعفتهم فطمع فيهم الخصوم وقاموا يكيدون . ودان للامويين شعوب كثيرة ولكن الأمويين لم يحسنوا السياسة فأثقلوا الجزية والخراج واستاقوا الاسرى واستعبدوا وأذلوا . فلم تنم هذه الشعوب على الضيم . وانصرف الأمويون الى اللهو والخمر والحجون ولمس عاملهم غفلة وإهمالا فأصبح لا هم لهم سوى ابتزاز الأموال وحشدها . وقيل لبعض الأمويين : « ما كان سبب زوال ملككم » فقال : « اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا » !

وكانت الشيعة قد قابلت نزول الحسن عن الخلافة بالسخط . وبايعت الحسين فكان يوم كربلاء فاستفظعت مقتل ابن بنت الرسول وازدادت حماساً وتعصباً . ثم تقسمت فرقاً . فناصر بعضهم محمد بن الحنفية وعبدالله ابا هاشم بعده فمحمد بن عباس . وعباس عم الرسول واليه انتسب العباسيون . وناصر آخرون وكانوا كثيراً عبدالله بن حسن ابن الحسن بن علي . فتخوف العباسيون منه فعقدوا مؤتمراً هاشمياً يضم العلويين والعباسيين في مكة . فتشبث العلويون فسأبرهم العباسيون ريثما تنهأ لهم الأسباب ووافقوهم على مبايعة « النفس الزكية » .

وفي حوالي السنة ٧١٨ ألف محمد بن عباس جماعات سرية وأرسل معظمهم الى خراسان لأنها كانت في نظره أصلح من غيرها لنشر الدعوة ففرسها كانوا شيعيين ويكرهون العرب والأمويين ولا يطمعون في الخلافة . وتوفي محمد

* * *

1) Boissonade, *Anecdota Graeca*, IV; Peeters, *Première Trad. Lat. de Berlaam et Joasaph. Anal. Boll.*, 1931, 276 - 312; Nercessian, S., *Illustration du Roman de Berlaam et Joasaph*, 1637, 5 - 32.

ابن عباس وترغم الحركة العباسية بعده ابنه ابراهيم الامام . فأرسل هذا ابا مسلم الخراساني في السنة ٧٤٦ الى خراسان . فأقام في مرو وبدأ يدعو الناس الى مبايعة آل محمد بدون تعيين . فتبعه اناس كثيرون . واشتدت شوكته فهرب عامل خراسان فألقى الخليفة مروان القبض على الامام ابراهيم في مركزه في الحميمة في شرق الاردن . فأوصى هذا بالخلافة الى اخيه ابي العباس السفاح . ومات ابراهيم الامام فدعا ابو مسلم أهل خراسان الى مبايعة السفاح . وكانت ثورة وكانت معركة حاسمة عند الزاب الأعلى في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ٧٤٩ . وتعقب السفاح مروان فأدركه في مصر وحز رأسه . فزالت دولة الأمويين واستتب الأمر للعباسيين في الشرق كله (١) .

السياسة العباسية : وكان العباسيون في عصرهم الأول أصحاب قوة وعزم وتدبير . ولكنهم لم يجمعوا عن الفتك بكل من يخشى شره . وتعليل ذلك أنهم كانوا حريصين على الملك يستحلون كل شيء في سبيل تأييده . فقد نجدهم أعدل خلق الله وأعظمهم تسامحاً وقد نجدهم شديدين مشددين . فالحرية عندهم كانت مكفولة ما دامت بعيدة عن سياسة الأحزاب . والتساهل كان مباحاً ما دام لا يؤثر في الملك (٢) .

العباسيون والنصارى : وهكذا فأننا نرى الموالي الفرس الذين نظموا حكومة العباسيين ورتبوا دوائها يقربون أهل الذمة في العراق والشام فيطمعونهم بالرواتب والجوائز ويكرمونه . فجها بذة العباسيين أكثرهم من اليهود والكتاب من النصارى . وتقلد هؤلاء ديوان الجيش ايضاً وتسابق كبار رجال الدولة من المسلمين أنفسهم الى تقبيل أيديهم . ومن تقلد هذا الديوان ملك ابن الوليد قلده أياه المعتضد بالله (٨٩٢ - ٩٠٢) « وكان المعتضد شهماً عاقلاً فاضلاً وكان شديداً على أهل الفساد » وقد المتني بالله (٩٤٠ - ٩٤٤) ابا العلاء صاعد ابن ثابت خلافة الوزارة وكان نصرانياً (٣) . واستخدم العباسيون الاطباء من أهل

1) Weil, Gesch. d. Chalifen, I - III ; Vloten, G., De Opkomst der Abbasiden; in Chorasan.

(٢) ادباء العرب في العصر العباسي للاستاذ بطرس البستاني ص ١٤ - ١٦

(٣) الوزراء والكتاب للبهشاري ص ٩٥

الذمة والحكماء والتراجمة والكتاب فأكرمهم وراعوا جانبهم وقدموهم . وقد حفظ لنا ابن ابي اصيبعة في كتابه طبقات الأطباء الشيء الكثير من هذه المحاسنة . ولعل أفضل ما ينقل عنه كلامه عن علاقة الخليفة المنصور بجورجيس ابن بختيشوع وكان جورجيس آنئذ رئيس أطباء مارستان جنديسابور . فلما انقطعت شهوة المنصور من الداء الذي أصابه في معدته استقدم جورجيس فدرس علته ووصف الدواء فاشتفى الخليفة وطابت نفسه ومنع جورجيس من الرجوع الى بلده . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة الاف دينار . فقبل جورجيس الدنانير ورد الجواري فلما عاتبه المنصور أجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج الا بامرأة واحدة وما دامت حية لا نأخذ غيرها » (١) . وبذل المأمون وغيره جهدهم في نقل الكتب من اليونانية والسريانية الى العربية وانفقوا بسخاء فكان السوربون المسيحيون ساعدهم الأقوى وفيهم الحمصي والبعليكي والدمشقي والحسيري والحراني (٢) .

وأكرم بعض الخلفاء الأساقفة وجالسوهم . فالهادي كان يستدعي اليه الاسقف تيموثاوس في أكثر الأيام ويحاوره في الدين ويبحث معه وينظره ويطرح عليه كثيراً من القضايا . وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الاسقف المذكور في هذا الموضوع . وكان هارون الرشيد يفعل مثل هذا ايضاً . وغض بعض الخلفاء النظر عن اذلال بعض النصارى فسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم حتى أصبح هؤلاء النصارى يهدون الخلفاء ايقونات القديسين فيقبلونها منهم . وكثيراً ما كان الأساقفة يطلبون من الخلفاء تثبيتهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم او منازعيهم (٣) .

(١) طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٢٤

(٢) طبقات الاطباء ايضاً ج ١ ص ١٣٨ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ . راجع ايضاً الفهرست لابن التميمي ٢٤٥ و ٢٦٤ وتاريخ ابي الفرج الملقب (المشرق ١٩٤٩) ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٣٠ - ١٣١ وفيه اشارة الى تاريخ المشاركة خط ص ١٤٣ وكتاب الخطط للمقريري ج ٢ ص ٥١١

ولكن بعض هؤلاء الخلفاء والوزراء العادلين المتسامحين كانوا في بعض الظروف أشد الناس تعنتاً . فالمهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) « قوض الكنائس التي التي ابتناها النصارى في عهد العرب وأخرب كنيسة الخلقيدونيين (الروم) في حلب » (١) وأمر أن لا يقتني النصارى عبيداً (٢) . وفي السنة ٧٧٩ أقبل المهدي على حلب فخرج إلى لقائه التتوخيون ممتطين خيولاً مطهمة رافلين بالخلل . فقبل له هؤلاء هم نصارى « فاحتدم المهدي سخطاً واضطربهم أن يسلموا . فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل . ولم تسلم النساء . واستشهد منهم رجل جليل اسمه ليث » (٣) .

وفي السنة ٧٩٧ مرّ هارون الرشيد بالرها فواجهه المسلمون وشكوا النصارى مدعين أن ملك الروم يزورهم كل سنة سرّاً ويصلي في كنائسهم . « فبحث الخليفة فاستبان له اقترائهم فأوسعهم ضرباً . وفي هذا الزمان كان رجل قرشي مسلم اسمه رويح . وكان بيته مجاوراً للكنيسة . وكان يضايق الكاهن ويزعجه وقت الصلاة وي طرح عليه من الكوة كرات من طين . ولما كان يحرق فيه يوماً وقت ذبيحة القداس شاهد في الطبق على مائدة الحياة حملاً مذبوحاً . فأنحدر إلى الكنيسة وشاهد أمام الكاهن خبزاً مكسوراً . فعاد إلى الكوة وحرق ثانية فشاهد الحمل . فجاهر حالاً بالنصرانية وترك بيته وقصد أحد الأديار واصطبغ بالمعمودية . ولما بلغ هارون الرشيد خبره استحضره ولاطفه ليعود إلى الإسلام فأبى . فأوثقه والقاه في السجن ، وظل سنتين كاملتين راسخاً في عقيدته » (٤) .

وفي السنة ٨٠٧ أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (٥) .

(١) تاريخ أبي الفرج الملقب (المشرق ١٩٤٩) ص ٤٩٢

(٢) المجلد لمازي ابن سليمان أخبار بطارقة كرسي المشرق ص ٧٤

(٣) تاريخ أبي الفرج الملقب ص ٤٩٣

(٤) أبو الفرج أيضاً ص ٤٩٥ و ٤٩٧

(٥) الرسل والملوك للطبري ج ٢ ص ٧١٢ - ٧١٣

وفي السنة ٨١٢ في عهد الأمين (٨٠٩ - ٨١٣) اتفق ناصر وعمر الخارجيَّان وعبرا الجزيرة وجعل أصحابهما الخوارج يقتلون دون شفقة ويسبون ويغزون ويفحشون . وفيما كانا يحاصران حران كتب إليهما الرهاويون يقولون : إن أرسلتما من يدمر كنيسة النصارى فإنهم يضحون بأموالهم كلها حرصاً عليها . ففزع الرهاويون وأوصوا بالصوم واعتكفوا على السهر والصلاة . فسمع الرب طلباتهم وأهم شيخاً من العرب يقال له يحيى ابن سعيد فخرج يريد مواجهة ناصر وعمر الخارجيَّين وأشار عليهما أن يعدلا عن قصدتهما . فلبيا مشورة الشيخ وادى لهما الرهاويون خمس مئة ألف درهم (١) .

وفي عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٤) تداعت قبة القيامة في اورشليم . فأرسل بكام المصري إلى توما البطريرك الأورشليمي بمال كثير يستعين به على إصلاح القبة . فأصلحها البطريرك (٢) .

تحاسد النصارى : ولو دققنا في ما كان يلحق بالنصارى من الأذى لرأينا سببه في بعض الأحيان وشايات بعضهم على بعض . فان عيسى ابن شهلا لما تولى الطبابة في دار الخلافة اغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه وكتب مرة إلى مطران نصيبين بلبس أشياء عظيمة المقدار من أواني الكنيسة . وهدد قائلاً : ألسنت تعلم أن امر الملك بيدي أن شئت أمرضته وإن شئت عافيته . فبعث المطران بالكتاب إلى الخليفة فانتقم منه .

وحسد بختيشوع ابن جبرائيل الطبيب حنين ابن اسحق المترجم الشهير لما رأى من منزلته عند المتوكل فعمل على الكيد به من طريق الدين . فاصطنع ايقونة للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المخلص . وأوعز إلى بعض خاصته أن يحملها هدية إلى الخليفة . وكان هو المستقبل للايقونة من يد حاملها . فاستحسنها المتوكل . وجعل بختيشوع يقبلها . فقال له الخليفة المتوكل لم تقبلها ؟ فقال له

(١) تاريخ أبي الفرج الملقب ص ٥٠٠ - ٥٠١

يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العاملين فمن اقبل ؟ فقال المتوكل : وكل النصراري يفعلون ذلك . فقال نعم يا أمير المؤمنين وأفضلُ مني . ولكني اعرف رجلا في خدمتك يتهاون بها ويصق عليها . وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخره يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسول . فقال المتوكل : من هذا الذي هذه صفته ؟ فقال له : حنين المترجم . فأمر المتوكل باحضار حنين فاستمعه بختيشوع ساعة . ثم خرج تواء إلى حنين وقال له : أهديت إلى الخليفة ايقونة وقد استحسنتها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه احترقنا وقال لنا هذا ربكم وامه مصوران . وقد سألتني عن رأيي فيها فقلت مثلها يكون في الحمامات والكنايس . فطلب الي ان ابصق عليها فبصقت . فاذا دعا بك فافعل . فصدقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع . فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه . ووجهه إلى ثيودوسيوس الجاثليق فأحضره . فلما رأى الايقونة وقس عليها وقبلها ولم يزل يقبلها ويبكي طويلا . ثم اخذها بيده وقام قائماً فدعا لأمير المؤمنين واطنّب في دعائه . فدعاه إلى الجلوس . ثم سأله عما يستحق الذي يبصق عليها . فقال : « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمه دخول الكنيسة ومن القربان وامنع النصراري من ملاسته وكلامه وأضيّق عليه » . فاعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال وأمر بنقض منازل وحبسه . ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج إلى مشورته فأفرج عنه (١) .

الشرع والنصارى : وأظهر العباسيون في دعوتهم انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين . فلما استتب لهم الامر قربوا الفقهاء والعلماء والزهاد واکرموهم . وكانوا اذا لقوا فقيهاً او زاهداً طلبوا اليه ان يعظهم فاذا وعظهم بكوا . وأشهر المتعظين منهم المنصور والرشيد والمعتمد والواثق . ولا غرو فالمسلمون انقادوا إلى فقهاءهم فاستمعان الخلفاء بهؤلاء على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم . واكتسب الفقهاء بتقربهم مالا وجاهاً فرسخ احترامهم في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين .

ويستدل مما تبقى من آداب العصر العباسي ان الفقهاء والعلماء جعلوا « عهد عمر » اسماً لاجتهادهم في معاملة اهل الذمة . وقد سبق لنا القول ان نص هذا « العهد » اتصل بالفقهاء بطريق الاسناد إلى عبيد الرحمن ابن غنم الاشعري الراوي القديم الذي توفي في السنة ٧٨ للهجرة . ونضيف هنا ان أكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه والادارة في العصر العباسي ويكاد لا يخلو منها او من بعضها مصنف (١) .

واختلف الأئمة في قيمة حياة الذمّي . فانها كانت عند أبي حنيفة (٦٩٦ - ٧٦٧) وابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) تكافئ حياة المسلم ودينه دية المسلم . اما عند مالك (٧١٥ - ٧٩٥) فدية اليهودي او النصراني نصف دية المسلم . وعند الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠) ثلثها . اما المجوسي فدينه جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم . واستحق التأديب عند هؤلاء وغيرهم من قبال للمسلم يا يهودي او يا نصراني (٢) . وذهب بعض فقهاء هذا العصر إلى انه لا تقبل شهادة الذمّي على اهل دينه . فحز هذا في صدور النصراري حزاً عميقاً . وذهب البعض مذهباً آخر . وكان على قضاة النصراري ان يقبلوا شهادة المسلم على النصراني فزاد هذا الموقف في كرههم وحقدهم (٣) .

واجتهد الفقهاء في هذا العصر اجتهداً شاقاً في أمر تسلط أهل الذمة على المسلمين ففي السنة ٨٤٩ أمر المتوكل الاستعانة بأهل الذمة في الدواوين واعمال السلطان التي تجري احكامهم فيها على المسلمين (٤) . ولكنه بعد ذلك بعشر سنين انشأ قصره الجعفري وأجرى اليه نهراً وجعل النفقة عليه إلى دليل ابن يعقوب النصراني (٥) وفي السنة ٩٠٩ علا أمر النصراري وغلبوا على الكتاب فأمر المقتدر

(١) سمات النصراري واليهود في الاسلام لحبيب الزيات المشرق ١٩٤٩ ص ١٦١ - ٢٥٢

(٢) كتاب الخراج ليحيى ابن آدم القرشي طبعة اوروبية ص ٥٥ وكتاب الخراج لقدامة خط نسخة باريز رقم ٥٩٠٧ ص ٢٩

(٣) كتاب الخراج لقدامة ايضاً ص ١٣ . Sachau, Syrische Rechtsbücher, II, 107.

(٤) الرسل والملوك للطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ - ١٣٩٠

(٥) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٣٨

بما أمر به المتوكل و اضاف الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهيزة (١). ولكن هذه الاوامر كانت ضعيفة الاثر فان وزيره ابا الحسن علي ابن الفرات كان يدعو اربعة من النصارى الى طعامه كل يوم . وكانوا في جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم (٢). ولما أراد المقتدر ان يستوزر الحسين ابن القاسم في السنة ٩٣١ أشار عليه بأن يجتهد في اصلاح اعدائه . فابتدأ ببني رائق فكان يمضي الى كاتبهم النصراني ويضمن لهم الضمانات . ثم فعل ذلك باصطفن ابن يعقوب كاتب مؤنس وقال له : « ان تقلدت الوزارة فأنت قلدتنها » (٣) وكان الحسين هذا يتقرب الى النصارى الكتاب بأن يقول لهم : « ان أهلي منكم واجدادي من كباركم . وان صلياً سقط من يد عبيد الله ابن سليمان جدي فلما رآه الناس قال : هذا شيء تبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم » (٤) ومثل هذا كثير فليراجع في محله (٥). وعالج الفقهاء هذه القضية فاختلّفوا وأفتى بعضهم بأنه يجوز بأن يكون وزير التنفيذ لا وزير التفويض من اهل الذمة . ووزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش . اما وزير التفويض فهو الذي يفوض السلطان اليه تدبير الدولة برأيه (٦).

ومنع الفقهاء في العصر العباسي تغيير الدين الا اذا كان دخولا في الاسلام . فانفصلت الطوائف بعضها عن بعض . وعوقب المرتد عن الاسلام بالقتل . وقل التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين . اما زواج المسيحي من مسلمة فانه كان مستحيلا (٧). ومنع الفقهاء ايضاً اهل الذمة من تعلية بيوتهم على ابنية المسلمين . فان ملكوا بيوتاً عالية اقرؤا عليها ومنعوا من الاشراف منها على المسلمين (٨).

(١) ابو المحاسن طيبة اوروية ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٤٠

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢

(٤) عريب ص ١٦٤

(٥) الخضارة الاسلامية للدكتور ادم متر ج ١ ص ٦٨ - ٧٠

(٦) العقيد الفريد لابي سالم محمد ابن طاحية ص ١٤٧

(٧) كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر ص ١٣

(٨) Sachau, Syrische Rechtsbücher, II, 75, 170, 192.

(٨) الاحكام السلطانية للاوردي ص ٤٢٨

ولم يُغلق الفقهاء دون اهل الذمة اي باب من ابواب الرزق . فكانوا مزارعين وتجاراً وصناعاً وصيارفة وأطباء (١). وكان معظم الصيارفة والجهابذة يهوداً واكثر الاطباء والكتبة نصارى (٢). وكان رئيس النصارى في بغداد طبيب الخليفة (٣).

القضاء بين النصارى : ولم يفصل الاسلام بين السلطين القضائية والتنفيذية فالنبي كان رئيس الدولة الاسلامية وقاضيتها في آن واحد . وكان ايضاً « مبلغاً لشريعتها » . وكذلك كان خلفاؤه من بعده . وكان محمد يعهد بالقضاء الى بعض الولاة ضمن توليتهم امور الولاية فاقننى خلفاؤه أثره واتبعوا الخطوة نفسها فقضى ولائهم بين الناس بالنيابة عنهم . ثم كثرت الاعمال فاضطر الولاة الى تعيين القضاة (٤). ولم يحدد الوالي اختصاص القاضي فاحتفظ لنفسه بما كان « يعجز عنه القاضي » (٥). ثم خرج القاضي من سلطان الوالي فخضع للخليفة مباشرة . وكان ابو جعفر المنصور أول خليفة ولي قضاء الامصار من قبله (٦).

وكان هذا القاضي قاضي المسلمين « يحضر مجلسه المسلمون دون اهل الذمة » (٧). ولا غرابة في ذلك فالمسلمون الفاتحون كانوا قد أقرؤا الناس على ما كانوا عليه من قبل فلم يتعرضوا لهم في شيء من معاملاتهم او احكامهم . ومن هنا اهتم النصارى بعد دخولهم في دار الاسلام بالقوانين البيزنطية ونقلها الى السريانية والعربية . ومن هذه كتاب الهدى وقد سبقت الاشارة اليه (٨). وأجاز بعض الفقهاء تقليد الذمي القضاء بين اهل دينه واعتبروا هذا التقليد تقليد زعامة ورئاسة لا حكم وقضاء . ولكنهم رأوا انه اذا امتنع اهل الذمة عن التحاكم امام

(١) الخراج لابي يوسف القاضي ص ٦٩

(٢) المقدسي ص ١٨٣

(٣) Barhebraeus, Chron. Ecc., III, 187.

(٤) Wellhausen, J., Die Religions-Politischen Oppositionsparteien im Alten Islam, 78.

(٥) الخطط للمقريري ج ٢ ص ٢٠٧

(٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ والقضاة للكندي ص ٣٦٨

(٧) المبسوط للرخسي ج ١٦ ص ٩٨

(٨) Tyan, E., Hist. de l'Organisation Judiciaire en Pays d'Islam, I, 119 - 138.

قضائهم لا يجبروا على ذلك . فاذا رجعوا الى قاضي الاسلام قضى بينهم بحكم الاسلام « لانه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم » (١) .
والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم النصرانية انها كانت محاكم كنسية يقوم فيها الرؤساء الروحيون مقام كبار القضاة . ولم تقتصر الاحكام فيها على مسائل الزواج بل كانت تشمل مسائل الميراث واكثر المنازعات التي قامت بين المسيحيين وحدهم . ولم ينظر الرؤساء بعين الرضا الى من لجأ من النصارى الى المحاكم الاسلامية . ولذلك صنف الجاثليق النسطوري ثيموثاوس في السنة ٨٠٠ كتاباً في الاحكام القضائية المسيحية « لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى النقص في القوانين المسيحية » (٢) . ولخص ابن العبري القوانين الكنسية والمدنية في كتابه الهدايات وأبدع في ابواب الشرع المدني (٣) . وجعل الآباء القضاة العقوبات دينية منها التكدير والتوبيخ ومنها القطع والندامة ومنها البذل والغرامة (٤) .

الخلفاء والبطاركة : وبعد انتقال مركز الحكم من دمشق الى بغداد أصبح « الجاثليق » النسطوري ذا مهابة ونفوذ نظراً لكثرة اتباعه في العراق وفارس وما وراءهما الى الشرق . وكانت تنتخبه كنيسة فيصدق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهداً كما كان يكتب لكبار العمال . ولم يبق من نصوص هذه العقود سوى نص واحد صدر عن الخليفة المستنجد في السنة ١١٣٩ (٥) . وكذلك كان يكتب لبطريك البعاقبة وبطريك الروم . وكان للنصارى التوبيخ دون سائر النصارى مكانة ممتازة في الدولة الاسلامية . فكانوا يدفعون الضرائب للملكهم وكان للضرائب عامل من قبله في بلاد الاسلام (٦) .

وكان لليهود رئيس في بغداد يدعى « رأس الجالوت » ورئيس آخر في

القاهرة بعد قيام الدولة الفاطمية يلقب « سرهساريم » اي امير الامراء . وكان هذا يعين ائمة اليهود في مصر والشام (١) . فاحتج احمد بطاركة البعاقبة فقال في مجلس له مع الخليفة : ان رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون وانه هو رئيس روحي لا يستطيع الا فرض العقوبة الروحية كأن يحكم بخلع اسقف او قطع كاهن او منع علماني من حضور الاحتفالات الكنسية (٢) .

وظل انتساب بطاركتنا الى الكنيسة الجامعة واستمساكهم باللغة اليونانية وتعلقهم بأدابها الكنسية سبباً لاتهامهم بالميل الى الروم والتجسس لهم ومطاعتهم بأخبار المسلمين . وظلوا هم بعيدين عن زميلهم الكبير بطريك القسطنطينية لا يتصلون به ولا يجرون على ذكره في الذبيخة . فقد جاء في تاريخ افثيخيوس تحت اخبار السنة (٩٣٧ - ٩٣٨) ان الروم والمسلمين تهادنوا وتبادلوا الاسرى فوجه ثيوفيلاكوس بطريك القسطنطينية رسولا الى افثيخيوس نفسه بطريك الاسكندرية والى ثيودوسيوس بطريك انطاكية والى خريستوذولس بطريك اورشليم يسألهم « ان يذكروا اسمه في صلواتهم وقداستهم فأجابوه الى ما سأل . وهذا كان قد انقطع عن وقت خلافة بني امية » (٣) .

فثيودوروس (٧٧٤ - ٧٩٧) خالف كنيسة القسطنطينية وامبراطورها وواظب على احترام الايقونات وقطع قوزما متروبوليت حماه لانه ماشى القسطنطينية في امر الايقونات ولكنه على الرغم من هذا الموقف المعادي للقسطنطينية اضطر ان يتحمل عذاب النفي والاضهاد عندما غزا قسطنطين الخامس حدود الخلافة فأبعد الى موآب (٤) .

وكان ايوب الاول البطريرك الانطاكي (٨١٣ - ٨٤٤) قد طوى فؤاده على التعاون مع الخلفاء لاسقاط التهم ورفع الشبهات فتوج توما الصقلي الثاني في وجه الامبراطور ميخائيل الثاني ارضاء للمأمون (٥) . ورافق المعتصم الى حصار

1) Benjamin von. Tadel, 98 ; Goldziher, I., Rev. Etudes Juives, VIII, 121 ff.
2) Dionysius Tellmehre, (Chabot), 148 ; Barhebraeus, Chron. Ecc., I, 372.
3) Eutichius, Ann., II, 93.
4) Theophans, Chron., a. 6248, 9255.
5) Michel le Syrien, III, 57.

(١) الاحكام السلطانية للهاوردي ص ١٠٨ - ١٠٩
2) Sachau, Syrische Rechtsbueher, II, 57.
3) اللؤلؤ المنشور للبطريرك اغناطيوس افرام ص ١١٩
4) Sachau, op. cit., II, 68 ; Mez, A., Die Renaissance des Islam, Trad. Ar., I, 58.
5) Amedroz. Journ. Roy. Asiat. Soc., 1908, 467 ff.
6) Barhebraeus, Chron. Ecc., I, 384.

أنقره فكلّم حاميتها « بالرومية وقال اطيعوا السلطان وادوا الجزية » فقبل بالشتم والحجارة (١). ورأى خريستوفوروس البطريرك الانطاكي (٩٦٠ - ٩٦٧) ان يبعد عن انطاكية في اثناء الحرب بين سيف الدولة والروم فسار الى دير سمعان واقام فيه . وعندما عاد الروم الى بلادهم قصد خريستوفوروس سيف الدولة في حلب فأحسن قبوله وشكره على ما فعل . وعاد البطريرك الى انطاكية . ثم توفي سيف الدولة فتألمت العامة على خريستوفوروس واتهمه صديقه ابن مارك بمكاتبة الروم واستنهاضهم . فحلف البطريرك انه ما كاتب الروم قط فوثب عليه قوم من الخراسانيين واقامه واحد منهم وضربه آخر بالخنجر فانفذه في بطنه فسقط فقطع رأسه وطرح في اتون حمام وحملت جثته وطرحت في النهر . وانفذ ابن مارك قبل الصبح قوماً الى كنيسة القسيان وقبضوا على ما وجدوه في منزل البطريرك وفي خزانة الكنيسة واخذوا كرسي مار بطرس وهو من خشب النخل مصفح بالفضة وحفظوه في دار شيخ يعرف بابن عمر . وما زال في داره الى ان ملك الروم المدينة . وبعد ثمانية ايام ظهرت جثة البطريرك على جزيرة في النهر فخرج قوم من النصاري واخذوها سرّاً ودفنوها في الدير المعروف بارسانة خارج المدينة (٢).

هيراخية انطاكية : وتختلف المراجع في تتابع البطارقة وتعاقبهم على السدة الرسولية وتباين آراؤهم في تعيين مدة الرئاسة لكل منهم . واليك ما جاء في لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وما دونه افتيخيوس البطريرك الاسكندري وما دونه بعده يحيى ابن سعيد الملحق لتاريخ افتيخيوس .

1) Eutichius, Ann., II, 60.

2) Eutichius, Ann., II, 124, 127 - 129 ; Ibrahim b. Yuhanna, Vie du Patriarche Melkite d'Antioche, Christophore, Proche - Orient Chrétien, 1952 11 - 38, 333 - 366.

بطارقة انطاكية

(١) ٧٤٨ - ٨١٠

لائحة قسطنديوس	لائحة افتيخيوس
ثيوفيلكتوس ٧٤٨ - ٧٦٢	ثيوفيلكتوس ٧٥٤ - ٧٦٢
ثيودوروس ٧٦٧ - ٧٨٧	ثيودوروس ٧٧٤ - ٧٩٧
يوحنا الرابع ٧٩٧ - ٨١٠	يوحنا ٧٩٨ - ٨١١

(٢) ٨١٠ - ٩٠٢

ايوب الاول ٨١٠ - ٨٢٦	ايوب الاول ٨١٣ - ٨٤٤
نقولاوس ٨٢٦ - ٨٣٤	نقولاوس ٨٤٨ - ٨٧١
سمعان ٨٣٤ - ٨٤٠	اسطفانوس ٨٧١ - ٨٧٢
الياس ٨٤٠ - ٨٥٢	
ثيودوسيوس ٨٥٢ - ٨٦٠	ثيودوسيوس ٨٧١ - ٨٩٢
نقولاوس الثاني ٨٦٠ - ٨٧٢	
ميخائيل ٨٧٩ - ٨٩٠	
زكريا ٨٩٠ - ٩٠٢	سمعان ٨٩٢ - ٩٠٤

(٣) ٩٠٢ - ٩٦٦

جاورجيوس الثالث ٩٠٢ - ٩١٧	الياس ٩٠٥ - ٩٣٠
ايوب الثاني ٩١٧ - ٩٣٩	ثيودوسيوس ٩٣٤ - ٩٤٣
افستراتيوس ٩٣٩ - ٩٥٩	ثيوخريستوس ٩٤٤ - ٩٤٨
خريستوفوروس ٩٦٠ - ٩٦٦	خريستوفوروس ٩٦٠ - ٩٦٧

ويستدل من التنقيح الذي ادخل في القرن العاشر على لألحة انسطاسيوس البطريك الانطاكي (١) ان المؤمنين الارثوذكسين آثروا آثذ التكل في السواحل على الانتشار في الداخل وان أهم ابرشيات الكرسي الانطاكي الساحلية أمست في القرن العاشر كما يلي (٢) : ١ : ابرشية عكة من نهر الكرمل حتى نهر الزيب بما في ذلك دير القديس جاورجيوس اللباني. ٢ : ابرشية صور من نهر الزيب حتى نهر الليطاني ٣ : ابرشية صيدا من الليطاني حتى الدامور ٤ : ابرشية بيروت من نهر الدامور حتى نهر ابراهيم . ويضاف اليها برج الهري *Trieris* وبرج المسيحة *Gigarta* (٣) . ٥ : ابرشية جبيل من نهر ابراهيم حتى سيل قانونيت *Kanonit* . ٦ : ابرشية البترون من هذا السيل الشوي حتى وجه الحجر *Lithoprosopon* ٧ : ابرشية طرابلس من رأس وجه الحجر (الشقة) الى سيل ستروثيون *Stronthion* ٨ : ابرشية عرطوز *Orthosias* من سيل الستروثيون حتى خريسوبوتاموس *Chrysopotamos* ٩ : ابرشية عرقة من الخريسوبوتاموس حتى نهر السوسية *Sousie* (الحصن) (٤) . ١٠ : ابرشية طرطوس من نهر السوسية حتى نهر المرقية . وكانت تدعى ابرشية هنتارغوس *Hentargos* . ١١ : ابرشية بانباس من نهر المرقية حتى نهر بانباس . وهي خاضعة لمتربوليت أبامية . ١٢ : ابرشية البلدة *Pallos* من نهر بانباس حتى النهر الكبير . وهي مستقلة . ١٣ : ابرشية جيلة من النهر الكبير حتى نهر صهيون ١٤ : ابرشية اللاذقية من جسر نهر صهيون حتى نهر تراسكية *Thrascaia* ١٥ : ابرشية أبامية من نهر تراسكية حتى النهر الكبير (العاصي) . ١٦ : ابرشية سلفكية من النهر الكبير حتى الكيروبوتاموس بما في ذلك دير القديس سمعان . ١٧ : ابرشية موبسوس من الكيروبوتاموس حتى نهر القيسي الكبير *Physi* . ١٨ : ابرشية ادنه من هذا النهر الكبير حتى نهر ادنه . ١٩ : ابرشية طرطوس من نهر ادنه حتى نهر الروسوس *Rhosos* وهو الحد الفاصل بين الكرسيين الانطاكي والقسطنطيني .

1) *PapadoPontos - Kerameus, Anec. Hell., Constantinople, 1884, 65 - 67.*

2) *Vailhé, S., Hiérarchie du Patriarcat d'Antioche, Echos d'Orient, 1907, 90 - 101, 139 - 145, 393 - 368.*

3) *Dussaud, R., Topographie, 81 - 83.*

4) *Ibid., 383, 388.*

وتشير هذه اللأحة المنقحة نفسها الى كاثوليكوسين تابعين للكرسي الانطاكي احدهما كاثوليكوس روماغريس *Romagris* والآخر كاثوليكوس ايرنبوليس *Irenopolis* . وقد أبان الاب فاهي *Vailhé* أن روماغريس هو حي الروم في نيسابور وان ايرنبوليس هي مدينة السلام اي بغداد . وكان الداعي لسيامة الكاثوليكوس الاول كثرة التجار اليونانيين في نيسابور . اما بغداد فانها كانت عاصمة العباسيين وكانت تضم عدداً لا يستهان به من أبناء الكنيسة الجامعة وجاء في تاريخ ابن العبري ان البطريك الانطاكي الياس سام اول كاثوليكوس ارثوذكسي في بغداد في السنة ٩١٠ (١) .

1) *Barhebraeus, Chron. Ecc., II, 236 ; Will, Ch., Acta et Scripta, 212 Echos d'Orient, 1907, 97.*

في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حل بالدولة من ضعف وما أحدث بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع هيرية (٧٥٤) عقد مجلساً في القصر ضم بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالايقونات ومن حرمها . ودعا البطريرك نيقوفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون وطلب الى المجتمعين ان يبحثوا في أمر الايقونات . فأجابه ثيودوروس بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان الواجب على الفيلسوف ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يغتصب دورهم اغتصاباً وان للفيلسوف ان يعنى بما سوى ذلك (١) . فأجاب لاوون بأنه لا يرغب في حل الناس على الاستشهاد . وفي عيد الميلاد من هذه السنة استمع القديس الالهي في كنيسة الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً الايقونات . ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ قبض على البطريرك نيقيفوروس ونفاه الى خريسوبوليس واقام في موضعه علمانياً يدعى ثيودوتوس . ثم عقد مجمعاً محلياً في نيسان سنة ٨١٥ في كنيسة الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرم تكريم الايقونات (٢) . على ان لاوون الخامس كان اقل اسراعاً من سبقة الى محاربة الايقونات مع ان مقاومة من كرم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي قبل . فاكتمى لاوون بني الاساقفة والربان وبجسهم . واشهر المنفيين بعد نيقوفوروس البطريرك ثيودوروس الاستودي الذي كتب من منفاه في ازمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الربان كما انه استغاث بابا رومة وبطاركة الشرق الثلاثة (٣) . وكان بين المنفيين ثيوفانس المؤرخ . فانه ابعد الى سموتراقية فتوفي في السنة ٨١٧ (٤) .

ميخائيل الثاني والايقونات : (٨٢٠ - ٨٢٩) وأشرك لاوون الخامس

ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس اسرة حاكمة . ولكن رفاقه في السلاح الذين

الفصل السادس والثلاثون

فوطيوس العظيم

٨٥٨ - ٨٦٧ و ٨٧٧ - ٨٨٦

لاوون الخامس والايقونات : وسيطر نقفور وزير المال على بلاط ايرينية وقبض عليها وحبسها في احد الاديرة . فانهى عهد هذه الفسيلة في السنة ٨٠٢ وكان نقفور سامي الاصل ولم يقل قول ايرينة فلم ينفذ مقررات المجمع المسكوني السابع ولكنه لم يضطهد من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وسقط نقفور في حرب البلغار في السنة ٨١١ وقطع البلغاريون رأسه واتخذوا جمجمته كأساً . وجرح ابنه وولي عهده وتوفي فتولى العرش ميخائيل الاول صهره (٨١١ - ٨١٣) وكان ميخائيل لطيف المعشر معجباً بالربان فأبعد عن الوظائف جميع اعداد الايقونات فأثار غضبهم ودفع بهم الى التآمر . ومما زاد في الطين بلة ان البطريرك نيقوفوروس تقسى في معاملة المهاجرين الذين نقلوا الى العاصمة وتراقية من الولايات النائية الجنوبية الشرقية لتمسكهم بمذاهب لم تقرها المجمع المسكونية فعاتت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل . وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشبة فأعد ميخائيل جيشاً وزحف الى الجبهة في ربيع السنة ٨١٣ فدارت الدائرة عليه فنادى الجند بلاوون الارمني احد كبار القادة فسيفساً . فتنازل ميخائيل وترهب .

واول ما فعله هذا الفيلسوف الارمني لاوون الخامس (٨١٣ - ٨٢٠)

انه أقسم بيمين الولاء للكنيسة وقطع وعداً بأن يحافظ على عقائدها ومصالحها . ولكنه كان وصولياً وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبد عهد الولاء للكنيسة . وكان مراوفاً مداوراً فبث باديء ذي بدء

1) Vita Theodore, P. G., Vol. 99, Col. 181 - 183 ; Dobroklonskij, A., Saint Theodore the Studite, 2 vols., Odessa, 1913 - 1914.

2) Serruys, D., Les Actes du Concile Iconoclaste de l'An 815, Mel. Arch. Hist. Ecole Fr. de Rome, 1903, 345 - 351.

3) P. G., Vol. 99 Col. 1152 - 1156.

4) P. G., Vol. 108, Col. 36 - 44.

عاونوه في الوصول إلى الحكم وفي طليعتهم ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فقاموا عليه . واكتشف لاوون هذه المؤامرة وقذف بميخائيل إلى السجن ولكنه أجّل عقابه وترك شر كاهه في المؤامرة أحراراً . فضرب هؤلاء ضربتهم قبل أن ينكشف أمرهم وذبحوا لاوون في كنيسة الخاصة . وأخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجوه فسيفساً قبل أن تكسر قيوده الحديدية .

وكان ميخائيل الثاني ريفياً غير مثقف جندياً عتيقاً في طباعه وعاداته ولكنه كان قديراً حكيماً . وعلى الرغم من قلة إيمانه بالايقونات (١) فإنه اتخذ موقفاً معتدلاً فنع كل مشادة حول الايقونات واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك واستقبل ثيودوروس الراهب في قصره وأكد له حرية العبادة وقال نيقيفوروس البطريك : ليس لي أن ابتدع في الإيمان والعقيدة ولا أن أجادل في التقاليد الموروثة أو أن أنقضها . ولكنه لم يعترف بقرارات المجمع المسكوني السابع (٢) .

ثيوفيلوس الأول : (٨٢٩ - ٨٤٢) ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعض يرى فيه عدواً لدوداً للايقونات وانصارها وبعض يراه معتدلاً في موقفه مقتصر في إجراءاته على العاصمة وضواحيها (٣) . والواقع أنه رغم تعلقه بالعدراء والقديسين فإنه اتخذ له مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم الشهير يوحنا الكاتب . وجعل من صديقه هذا بطريكاً مسكونياً ولم يكثر بقرارات البطارقة باسيلوس الأوروشيمني وخريستوفوروس الاسكندري وايوب الانطاكي التي وجهت إليه موجبة المحافظة على التقليد واحترام الايقونات (٤) . وكوى كني الراهب العازار بالحديد الحامي وجلد ثيوفانس وإخاه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بابيات من الشعر نظمها هو نفسه (٥) .

- 1) Mansi, XIV, Col. 417.
- 2) Ostrogorsky, G., Byz. State, 180 - 181 ; Ternovsky, F. A., Graeco-Eastern Church, 487 ; Amann, E., Epoque Carolingienne, Fliche et Martin, VI, 240.
- 3) Burg, J. B., East. Rom. Emp., III, 140 - 141 ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286 ; Amann, E., op. cit., 241.
- 4) Texte, P. G., Vol. 95, Col. 345 - 386 ; Papadopoulos, Chrys. Ist. Ekk., 329.
- 5) Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286.

يوم استقامة الرأي : وتوفي ثيوفيلوس في السنة ٨٤٢ . وخلف خمس بنات وابتأ ذكراً هو ميخائيل الثالث . واذ كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فإن الفسيفس الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على ميخائيل القاصر . وعاونها في الوصاية مجلس تألف من كبار رجال الدولة بينهم أخوها برداس وبتروناس والمايستر سرجيوس وثيوكتيستوس عزيز ثيودورة المفضل على غيره (١) .

وتحدثت ثيودورة من أصل أرمني بفلاغوني شرقي ولكنها على الرغم من هذا أحببت الايقونات وأكرمتها . ووافقها على ذلك مجلس الوصاية . فدعت الآباء الأرثوذكسين إلى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته في اضطهاد من كرم الايقونات . وطلبت إلى البطريك يوحنا الكاتب أن يشترك في أعمال هذا المجمع فأبى . وادعى أن مؤامرة كانت تحاك لاغتاله فأخرجه برداس من المقر البطريكي وأودعه بيته . ثم انتخب مثوديوس المعترف بطريكاً على القسطنطينية وذلك في الرابع من أذار سنة ٨٤٣ . ووافق مجمع الآباء على خلع يوحنا واعترف برئاسة مثوديوس وجدد الاعتراف بقرارات المجمع المسكونية واعتبر تكريم الايقونات عملاً مشروعاً ولعن من حرّمها (٢) . وفي الأحد الأول من الصوم الكبير في الحادي عشر من أذار سنة ٨٤٣ خرجت ثيودورة في موكب عظيم إلى كنيسة الحكمة الإلهية يواكبها كبار الرجال لاستماع القداس الإلهي ولتقبيل الايقونات ولطلب المغفرة لزوجها الراحل . ولا تزال حتى يومنا هذا نعتبر الأحد الأول من الصوم الكبير يوم استقامة الرأي (٣) .

لصورتك الطاهرة نسجد أيها الصالح طالبين مغفرة الذنوب أيها المسيح الإله
أن أسراك كلها يا والدة الإله تفوق كل أدراك وتعلو كل مجد .

الريودي الأحد الأول من الصوم

- 1) Dvornik, F., Photius and Iconoclasm, Dumbarton Oaks Papers, 7, 1953 96 ff.
- 2) Mansi, XIV, Col. 788 ; Grumel, Regestes, 415, 422 f.
- 3) Grumel, Regestes, 425

الاحزاب والكنيسة: وكانت رومة الجديدة قد ورثت عن رومة القديمة أحزابها الأربعة الزرق والخضر والبيض والحمرة. ثم انضم البيض الى الخضر والحمرة الى الزرق فانقسم سكان عاصمة الروم وامهات مدنها الى حزبين رئيسيين الى زرق وخضر. وكانت الكنيسة الارثوذكسية (ولا تزال) يونانية في فكرها ونظمها فقالت بالديموقراطية وأشركت الشعب في جميع نواحي حياتها فلعبت الحزبية الشعبية دوراً هاماً في اعمال هذه الكنيسة واقوالها.

وشمل الزرق في ميدان السياسة الدينية الطبقتين الغنية والمتوسطة والربان المتطرفين ولا سيما الاستوديين. وانضوى الى الخضر جمهور الشعب والرعاة والكهنة وربهان آخرون وحارب الزرق العلوم الكلاسيكية القديمة فاشي العلماء الخضر في غالب الاحيان. فانقسمت الكنيسة الى زرق محافظين متطرفين *Acribeia* والى خضر طلقاء معتدلين *Oeconomia*.

واصطبغ الانقلاب الذي دبره الامبراطور نيقيفوروس واعوانه في السنة ٨٠٢ باللون الاخضر فأيدى جمهور الشعب والاساقفة والكهنة وقاومه الاغنياء والاشراف والربان. وتوفي طراسيوس البطريك في السنة ٨٠٦ فرشح الزرق المتطرفون ثيودوروس الاستودي ولكن نيقيفوروس الامبراطور آثر الاتزان والاعتدال فأبى نيقيفوروس وزير المال وجعل منه بطريكاً مسكونياً (٨٠٦ - ٨١٥) فاعترض الزرق المتطرفون على شرطونية البطريك الجديد وقاومه مقاومة عنيفة (١) وتأمرؤا على حياة الامبراطور (٢). وكان ما كان من أمر نيقيفوروس في حرب البلغار وسقوطه في ميدان القتال فتألب الزرق المتطرفون على ابنه وولي عهده واقاموا ميخائيل الاول امبرطوراً محله. وعلا شأن الاستوديين في عهد هذا الفيلسوف ولكن قلة خبرتهم وتطرفهم في الرأي والعمل أدبوا الى الاندحار في الحرب والى وصول لاوون الخامس الى الحكم والى تأجيل تكريم الايقونات ثلاثين سنة اخرى.

وخلف نيقيفوروس على السدة المسكونية ثيودوروس كسيتراس (٨١٥ -

1) Dvornik, F., « Les Slaves, Byzance et Rome au IX^e Siècle, » 125 ff.

2) Gregorii Abulpharagii, Chron. Syr., II, 137 ; Michel le Syrien, III, 12 f.

(٨٢١) وانطونيوس كاسياتاس (٨٢١ - ٨٤٧) فيوحنا الكاتب (٨٣٧ - ٨٤٣) وقالوا جميعهم برفع الايقونات من الكنائس وعدم تكريمها. وجاءت الفسيفساء ثيودورة تكرم الايقونات في السنة ٨٤٣ فأزلت يوحنا الكاتب عن الكرسي وراحت تفتش عن خلف له. وكانت متطرفة في عاطفتها الدينية وقالت قول الاستوديين ولكنها آثرت وصول بطريك معتدل الى الكرسي المسكوني تحوطاً (١). واوعزت بانتخاب مثوذبيوس الصقلي العالم الكبير والتسني الورع وصديق زوجها المتوفى (٢). ورغب مثوذبيوس رغبة اكيدة في المحافظة على السلم والوئام في الكنيسة فابتعد في انتقاء الاساقفة الجدد عن الاوساط المتطرفة فأثار بذلك غضب الاستوديين واعوانهم. فهاجوا وماجوا وعابوا الاموات قبل الاحياء فعادوا الى الطعن في طراسيوس ونيقيفوروس واضطر مثوذبيوس ان يقطعهم من الشركة (٣).

وتوفي مثوذبيوس في حزيران السنة ٨٤٧. ولحق ثيوكتيستوس مستشار ثيودورة وعزیزها تكتلاً في الاوساط العلمية العالية حول برداس مناظره فقش هذه المرة عن خلف لمثوذبيوس في الاوساط المتطرفة وقدم اغناطيوس ابن الفيلسوف ميخائيل الاول ولم يكثر لما ابداه المعتدلون من تعلق بغريغوريوس اسبستوس صديق مثوذبيوس ورئيس اساقفة سرقوسة. وكان اغناطيوس قد اشتهر بورعه وغيرته على الدين والكنيسة ولكنه كان سريع الغضب معجباً بنفسه مستبداً برأيه (٤).

اغناطيوس وبرداس : (٨٤٧ - ٨٥٧) وظلت ثيودورة تدير دفعة الحكم اربع عشرة سنة (٨٤٢ - ٨٥٦). وفي خلال هذه المدة نشبت مشادة بين ثيوكتيستوس وبرداس اخي ثيودورة أهم اسبابها حب السلطة وشهوة الحكم.

1) Dvornik, F., Les Slaves, op. cit. 128 f.

2) Dvornik, F., The Photian Schism, 13.

3) Narratio de Beatis Patriarchis Tarasio et Nicephoro, P. G., Vol. 99, Col. 1853 ; Grumel, Pol. Relig. du Patr. St. Methode, Echos d'Orient, 1935, 385 - 401.

4) Amann, E., Epoque Carolingienne, op. cit., 466 ; Dvornik, F., Photian Schism, 17 ff.

فنشأ انقسام داخلي في مجلس الوصاية أدى الى استقالة عمانوئيل عم الفسيفس والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب المباشر وشاية رفعها برداس الى الفسيفس الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على الزوج من ثيودورة او إحدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بسين ثيودورة واخيها برداس حول السلطة أدت في السنة ٨٥٦ الى خروج ثيودورة وبناتها من القصر . واصبح برداس صاحب الصول والطول .

وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته افذوكية في بيت عمها برداس . ولم تكن الحياة والكنة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت . وظهر برداس عطفاً على كتنه فاتهمته زوجته بكنته . فطرد امرأته من البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة . فوبخ اغناطيوس برداس ونهاه عن المحرم ونصح له ان يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس . وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث ليتناول الاسرار الالهية . فأبى البطريرك مناوئته وطرده خارج الكنيسة . وحق برداس على البطريرك اغناطيوس وطقى يسعى للانتقام منه .

واتفق ان راهباً ادعى انه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق . فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن . واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقلع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريرك اغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاعتنم برداس الفرصة واتهم البطريرك بالتآمر على الفسيفس ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة المملكة . فصدّق الفسيفس كلام برداس وأمر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في إحدى الاديرة . فسألن اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبة فأنكرن فامتنع عن اجابة طلب الفسيفس . فصدّق ميخائيل ان البطريرك عدو له . فأكره والدته واخواته على التهرب كما اوعز الى اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه . فلمس اغناطيوس تعقد الامور لمس اليد وادرك ان لا فائدة للكنيسة من بقاءه في منصب الرئاسة فاستعفى عن رضى واختيار وأشار على الاساقفة ان

ينتخبوا غيره من ابناء الكنيسة . (١) وليس من العلم بشيء ان نصر على الغي فتقول مع مرتينوس جوجي واميل أمان ان اغناطيوس خلع خلعاً (٢) .

فوطيوس رئيس الكنيسة : (٨٥٨) وشاورت الحكومة وفاوضت الاساقفة فاتضح لها ان الاساقفة اصدقاء اغناطيوس رغبوا في تطبيق القانون اي في دعوة المجمع القسطنطيني الى الانعقاد لينتج القضية ويرفع الى الفسيفس اسماء ثلاثة اساقفة يرى فيهم اللياقة والكفاءة لينتقي الفسيفس افضلهم . فوافقت الحكومة على دعوة المجمع . وتوافد الآباء الاعضاء . ولكنهم كانوا قد تحالفوا فيما بينهم وتشاقوا في عهد اغناطيوس فانقسموا الى متطرفين يؤيدون اغناطيوس ومعتدلين يعارضونه كل المعارضة . ولدى اجتماعهم للبحث عن راع صالح يخلف اغناطيوس تفرقت كلمتهم واضطرب حبلهم . ثم توافقوا على ان يكون الخلف من كبار رجال الدولة اصحاب الرأي والورع والتقوى . ولم يروا في عملهم هذا خروجاً كبيراً على القوانين والتقاليد فطراسيوس ونيقيةفوروس لم يكونا اكليريكيين قبل اجماع الكلمة على انتخابها . وهكذا فان المجمع رفع الى الفسيفس اسماء ثلاثة احدهم اغناطيوسي متطرف والآخر معتدل معارض والثالث حيادي وهو فوطيوس رئيس مجلس الوزراء protoaskretis .

وأيد معظم الاساقفة من اتباع اغناطيوس المرشح الجديد لاسباب اهمها انه كان ارتوذكسياً لا غش فيه وانه تحمل العذاب في سبيل الدفاع عن الدين القويم في اثناء حرب الايقونات وانه كان أعلم اهل عصره وانه لم يتظاهر بالعداوة لاغناطيوس وانه كان يمت بصلة النسب الى ثيودورة الفسيفس والى برداس في آن واحد (٣) .

وكان فوطيوس كريم الاصل يرجع في نسبه الى اسرة يونانية قديمة تتصل بالاسرة المقدونية . وكان ابوه سرجيوس ابن اخي البطريرك طراسيوس وكان

1) Theophanes Cont. IV, 37 - 38 ; Nicetas, P. G., Vol. 105, Col. 504 - 505 ; Dvornik, F., Photian Schism, 36 - 50.

2) Amana. E., « Destitution d'Ignace, » Fliche et Martin, op. cit., VI, 467 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 105, 106, n. 1.

3) Dvornik, F., Photian Schism, 50 ; Bury, J. B., Relationship of Photius to Empress Theodora, Eng. Hist. Rev., 1890, 252 - 258.

سيافاً في القصر . وكانت ام فوطيوس ايرينة شقيقة لعديل الفسيفس ثيوفيلوس . واشتهر والداه بمناصرة الرأي الأرثوذكسي واستشهدا لهذه الغاية . ونشأ فوطيوس في القسطنطينية وتلقى علومه فيها . ثم تبحر واستبحر فأصبح واسع الاطلاع غزير المواد متقناً لعلوم اللسان اليوناني مطلعاً على آدابه بصيراً بمذاهبه الفلسفية . وأحاط بسائر علوم زمانه كالنفس والطب والفلك . وكان جزيل الورع فاضلاً لطيفاً وديعاً محباً للسلام . ولدى وصوله الى السدة البطريركية تضلع من علم اللاهوت وخاض عباب علم التفسير واستجلى غوامضه . واشهر آثاره الفكرية مجموعة الميريوبيلون *Myriobiblon* « الوف الكتب » وفيها منتخبات من مئات المؤلفات القديمة وتعليقات هامة عليها وكتاب الليكسيكون *Lexicon* في علوم اللغة وكتاب الامفيلوخية *Amphilochia* وفيه الاسئلة والاجوبة في مواضيع مختلفة . وله مقالات ورسائل تحفظ رأيه في بعض المشاكل التي اثيرت في عهده (١) . ولا يختلف اثنان فيما نعلم في عبقرية فوطيوس وعظمته وسمو مطلبه وطهاره سيرته واستقامة عقيدته (٢) . واستوظف فوطيوس فقسام أعلى المراتب فأصبح بروتوسباتاريوس « السيف الاول اي رئيس رجال المعية » وبرتوسيكيرتيس اي السكرتير الاول ومستشاراً واول عضو في المجلس الاعلى . وانتدب سفيراً الى شرقنا . وعلم فوطيوس في جامعة القسطنطينية وأصبح بيته داراً للعلم والادب والحكمة يؤمه الادباء والعلماء في كل يوم .

وعلا فوطيوس درجات الكهنوت بسرعة فسيم في اليوم الاول متوحداً وفي اليوم الثاني اناغوستاساً وفي الثالث ايبودياكوناً وفي الرابع شماساً وفي الخامس قساً وفي السادس اسقفاً فبطريركاً . ولم ير الروم آثذ في هذه الترقية الشذوذ الذي نراه اليوم . فبولس الثالث سيم بطريركاً على القسطنطينية في السنة ٦٨٧ بهذه الطريقة نفسها وكذلك طراسيوس في السنة ٧٨٤ ونيقيفوروس في السنة ٨٠٦ .

- 1) *Patrologia Graeca*, Vols. 101 - 104 ; Hergenroither, J., *Photius Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols., *Monumenta Graeca ad Photium Pertinentia*; Papadopoulos-Kerameus, A., *Monumenta Graeca et Latina ad Historiam Photii Pertinentia*, 2 Vols.; Amann, E., *Photius, Dict. Theol. Cath.*
- 2) *Ostrogorsky, G., The Byzantine State*, (1956) 199.

ومما يجدر قوله هنا ان رومة لم تمتنع عن الاعتراف بهؤلاء كما امتنعت عن الاعتراف بفوطيوس . وكان المتقدم في شرطونية فوطيوس رئيس اساقفة سرقوسة غريغوريوس خصم اغناطيوس . ولكنه لم ينفرد بالشرطنة كما يزعم الأب جوجي (١) بل عاونه فيها اسقفان اغناطيوسيان آخران (٢) .

وأدى « تقدم » غريغوريوس في شرطونية البطريرك الجديد الى نفور اغناطيوس وخسة اساقفة معه . ورغبت الحكومة في السلم والوثام فأشارت على فوطيوس بالتسوية . فاشتراط الاساقفة الخمسة على فوطيوس ان يحل زعيمهم اغناطيوس فيحسبه بطريركاً بريثاً من التهم الموجهة اليه وان يمتنع عن التفوه بشيء ضده وان يمنع غيره عن ذلك ايضاً (٣) . ويرى الاب جوجي ان فوطيوس وعد الا يقبل في الشركة من يطعن باغناطيوس (٤) . وهذا توسع في تفسير النصوص لا تجيزه قواعد المصطلح (٥) .

وهكذا فان روح التضحية الشخصية وانكار الذات التي تجلت بتنازل اغناطيوس عن الكرسي وبقبول فوطيوس بالشروط المفروضة أنقذت الكنيسة القسطنطينية من الشقاق . فكتب فوطيوس الى زميله بطريرك انطاكية يبشره بحلول السلام والوثام (٦) ودون نيقيناس خبر انتهاء المشادة والمشاخنة (٧) .

ولكن الأحقاد ظلت توغر الصدور في الاوساط السياسية وتستوقد الغيظ فثيودورة وأعوانها كانوا لا يزالون يبطنون العداوة لمخائيل وبرداس وينصبون لها الحباثل الخفية . وكان اغناطيوس لا يزال يعطف على ثيودورة وكذلك بعض الاستوديين فانهم ظلوا حاقدين متممرين مضممرين الحزازة والضغينة . ورأى فوطيوس ان يمنع الاكليروس عن مكاشفة الحكومة بالعداوة فأتهمه الاغناطيوسيون

- 1) *Jugie, M., Schisme Byzantin*, 107.
- 2) *Mansi, Greek Acts*, XVI, Col. 348, 352, 353; *Dvornik, F., Photian Schism*, 51, n. 4.
- 3) *Metrophanes of Smyrna*, *Mansi*, XVI, Col. 416; *Dvornik, F., Phot. Sch.*, 52 - 53.
- 4) *Jugie, M., Sch. Byz.*, 108, n. 2.
- 5) *IV Congrès Int. Byz.*, Actes 317.
- 6) *Valetta, J., Photii Epistolae*, I, 145, 146.
- 7) *P. G.*, Vol. 105, Col. 512; *Aristarchos, S., Photii Orationes et Homiliae*, I, 149 - 160.

بالخيانة ونكث اليهود . واجتمعوا في كنيسة القديسة ايرينة ونادوا باغناطيوس بطريركاً شرعياً وحرّموا فوطيوس . فدعا فوطيوس المجمع القسطنطيني الى كنيسة الرسل لبحث المشكلة الجديدة . فاعتبر الآباء عمل اغناطيوس وأعوانه غير قانوني وأكدوا اللجوء الى خلعه ان هو قبل الرئاسة مرة ثانية او عاد الى التجاوز والتطرف الذي كان قد أدى الى الشغب والفوضى في الكنيسة (١) . واشترك الاغناطيوسيون في أعمال هذا المجمع ولكنهم لجأوا الى التشويش فقمعت الحكومة هذه المقاومة بالقوة ونفت اغناطيوس ونقولاوس رئيس دير الاستوديون وغيرهما (٨٥٩) (٢) .

رسائل الجلوس : (٨٦٠) وقضى العرف بتوجيه رسائل الجلوس الى سائر البطارقة لتتبع بالانتخاب الجديد وتتضمن اعترافاً بالايمان المقدس (٣) . وكان الامبراطور نيقيفوروس قد منع البطريرك نيقيفوروس عن توجيه رسالة بالجلوس الى بابا رومة نظراً لاقدام حبر رومة على شق الامبراطورية والاعتراف بامبراطور غربي . ولم يرض الاباطرة محاربو الايقونات عن ارسال هذه الرسائل الى رومة نظراً للاختلاف في موقف الكنيستين الرومانية والقسطنطينية من الايقونات . وذهبت ثيودورة النقية وبطريركها ميثوديوس الى أبعد من هذا فامتنعوا عن تبادل الرأي مع رومة قبل العودة الى اكرام الايقونات المقدسة (٤) . واصطدم فوطيوس بامتناع الاغناطيوسيين عن الاعتراف بسلطته فأرى من الحكمة ان يوجه رسائل الجلوس الى كل من بابا رومة وبابا الاسكندرية وبطريرك انطاكية وبطريرك اورشليم راجياً ان يعينه اعتراف زملائه برسائلهم السلامية في تخفيف الأزمة في القسطنطينية . فكتب في ربيع السنة ٨٦٠ الى حبر رومة نقولاوس الاول والى حبر الاسكندرية ميخائيل الاول والى حبر اورشليم ثيودوسيوس والى ايكونوموس كنيسة انطاكية . وكان يتنازع الكرسي البطريركي في كنيستنا

نقولاوس الاول البطريرك الشرعي وافستاثيوس متروبوليت صور . ولعل هذا هو السبب الذي حدا بفوطيوس ان يرسل كتاب الجلوس باسم ايكونوموس الكنيسة الانطاكية لا باسم البطريرك .

وجاء في رسالة الجلوس التي ارسلها فوطيوس الى بطاركة الشرق بعد الشكر لله على احساناته وعلى نعمة الكهنوت ما معناه : «اني عندما اتأمل في سمو الرتبة الاسقفية وانظر الى الضعف البشري ولا سيما حقارتي يأخذني العجب وأحار في أمر أولئك الذين يقدمون على أثقال كاهلهم بهذا الحمل المرهق . اما انا فيعجز لساني عن وصف الحزن الذي شملني لدى قبولي ذلك العبء الثقيل . اني لم أرتق السدة البطريركية الا بعدما تنحى عنها سلفي ولاني لم أجد سبيلاً للتخلص من تلك المسؤولية الكبرى التي اضطرني الى تحملها الكهنة والأساقفة ولا سيما الفيلسوف » (١) .

فأبطاً الآباء البطارقة ريثما ينجلي الموقف . ثم تلقوا رسالة من زميلهم الأكبر بابا رومة (٨٦١) أعلمهم فيها انه لم يشترك في رسالة فوطيوس او تنزيل اغناطيوس (٢) . فازدادوا تريباً وباتوا ينتظرون تطور الموقف . ثم عاد فوطيوس فكتب الى توما متروبوليت صور يسأله ما اذا كانت الكنيسة الانطاكية تعترف به فأجابه بالنفي (٣) . بيد ان افستاثيوس منافس نقولاوس الاول عمد بعد حين الى الاعتراف بفوطيوس لعله يستعين بهذا الاعتراف على خصمه نقولاوس . فشكر فوطيوس وطلب اليه ان يقوم الى القسطنطينية (٤) .

البابا نقولاوس الاول : (٨٥٨ - ٨٦٧) وكان نقولاوس بابا رومة يهوى السياسة ويجب مزاولتها . وكانت مواهبه غير عادية ففاق سلفاه القريين من عهده علماً وعزماً وحزماً (٥) . وعزز رئاسته في الغرب تعزيزاً فنفذت كلمته

(١) واللفظ لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريس فيليبوس . المرة ١٩٣٧ ص ٢٧٧-٢٧٨

Grumel. V., Regestes, 465.

(٢) Mansi, XVI, Col. 168.

(٣) Grumel, V., Reg. 471.

(٤) Grumel, V., Reg. 472.

(٥) Duchesne, L., Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical, 115, 119.

1) Metrophanes, Mansi, XVI, Col. 416 ; Zonaras, J., Commentaria, P. G., Vol. 137, Col. 1004 f.

2) Dvornik, F., Phot. Sch. 55 - 65.

3) Vancourt, R., « Patriarcats », Dict. Théol. Cath.

4) Ostrogorski, G., Byz. State, 199 - 200.

في فرنسا والمانيّة وأخضع يوحنا رئيس أساقفة رايينة بعد مشادة عنيفة (١) . وأراد نقولاووس ان يبلغ في الشرق الى حيث لم تبلغ آمال أسلافه . فكتب الى فوطيوس يأسف انه ليس بإمكانه ان يعترف به فوراً وان اعترافه سيتوقف على التحقيق الذي سيجرى من قبله في القضية (٢) .

الجمع الاول الثاني : (٨٦١) وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذو قرن الشقاق بين الارثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة . وهب البولسيون والمانوويون يشاغبون . فرأى القسيفلس ومجلسه الاعلى والبطريرك الجديد ان يجمعوا مجمعا مسكونيا . وكانت الدعوة الى هذه المجمع من حق الاباطرة وقد مارسوها منذ عهد قسطنطين الكبير (٣) . فضمن القسيفلس رسالته الى نقولاووس دعوة الى مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية للنظر في مشاكل كثيرة (٤) . فقبل نقولاووس الدعوة واعترض على أعمال مجمع كنيسة الرسل ثم اقترح اعادة النظر في قضية اغناطيوس امام المجمع المسكوني وبحضور مثليه الاسقفين رادولدو وزخريا ليتسنى له الاطلاع على الحقيقة والعمل بموجب القوانين المرعية الاجراء . وأشار بعد هذا الى تعدي لاوون الاسوري على حقوق البطريركية الرومانية وطلب إعادة ما سلب منها وشمل هذا الطلب أبرشيات كلابرية وصقلية واليرة ومقدونية وتسالية وآخية ودافية وميسية وبريفاليتانية (٥) . ويرى الاب اميل امان ان اللوم في هذا التوسع في الطلب يجب ان يقع على انسطاسيوس سكرتير البابا لا على نقولاووس نفسه (٦) .

والثام المجمع في ربيع السنة ٨٦١ فأعلن بولس متروبوليت قيصرية قبلدوقية في الجلسة الاولى انه لا حاجة لاعادة النظر في قضية اغناطيوس لانه خلغ لذنوب اقترفها وان كنيسة القسطنطينية تعتبر مشكلة اغناطيوس قضية مفروغا منها ولكن اكراماً للقديس بطرس وللاب المسكوني الاقدس نقولاووس لا مانع من النظر

1) Amann, E., op. cit., 381 - 383.

2) Jaffé - Wattenbach, 2682, Epistolae, VI, 433.

3) Dvornik, F., De Potestate Civili in Conciliis Oecumenicis.

4) Dvornik, F., Photian Schism, 70 - 71.

5) Jaffé - Wattenbach, 2683 ; Epistolae, VI, 439.

6) Amann, E., Ep. Car., op. Cit., VI, 472, n. 1.

في هذه ثانية (١) . ومثل اغناطيوس أمام المجمع وحقق معه في كيفية ارتقائه الى الكرسي وما اذا كان قد انتخب انتخاباً او عُيّن تعييناً . فأجاب ان امرأة رفعت طراسيوس قبله الى الكرسي نفسه . فاعترض القسيفلس وقال : « بل قل انه عُيّن في عهد امرأة » . ثم امتنع اغناطيوس عن الحضور في الجلسة الثانية . وفي الجلسة الثالثة اكره على الحضور بأمر القسيفلس . ولما مثل أمام الآباء اعترض على صلاحية ممثلي البابا وسأل : « من هم القضاة الذين ينظرون في قضيتي » . فأجابهم الاسقفان الرومانيان : « هم نحن والمجمع المقدس » . فأجاب انه لا يرضى وانه سيطلب تدخل البابا . وفي الجلسة الرابعة استجوب المجمع بناء على طلب ممثلي رومة اثنين وسبعين شاهداً عن كيفية وصول اغناطيوس الى الكرسي البطريركي ثم اتخذ الآباء قراراً بخلع اغناطيوس والاعتراف بفوطيوس ووافقهم على ذلك ممثلاً رومة (٢) .

وبحث المجمع مسألة الايقونات فأوجب تكريمها . وقاوم فرق الهرطقة بأقوال الروح فاجتذب أكثرها الى حظيرة المخلص . ووضع قوانين تتعلق بالأديرة والرهبان فحرم تحويل المساكن الى اديرة بدون موافقة الأساقفة وأوجب على الملاكين ان يتنازلوا عن حقوقهم في ملكية هذه المساكن . ومنع المجمع شرطنة الرهبان الذين لا يرغبون في الخضوع الى رئيس معين وأوجب الإقامة في الأديرة والابتعاد عن السكنى في المنازل الخصوصية . وفرض على كل راغب في الزهد والتقوى ان يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبة . ومن أعمال هذا المجمع ان الآباء أقرروا الا يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتم المدة القانونية فيها (٣) .

وقد سمي هذا المجمع الأول الثاني لأنه عندما بحث أمر الايقونات هجم محاربوها من الخارج وعطلوا جلساته بالقوة . ثم عاد الى الانعقاد ثانية فسمي المجمع الأول الثاني .

1) Dvornik, F., Ph. Sch., 78.

2) Ibid., 80 - 88 ; Amann, E., op. cit., 472 - 473.

3) Mansi, XVI, Col. 536 - 548 ; Grumel, V., Reg. 466 ; Deusdedit, Collectio Canonum, (Ed. Glanville), 604 - 610.

نقولاووس وفوطيوس : (٨٦١ - ٨٦٧) وأرسل ميخائيل الثالث أعمال هذا المجمع الأول والثاني إلى البابا نقولاووس مع أحد كتابه لاوون ومع ممثلي البابا وزودهم بهدايا كنسية ورسالة منه إلى البابا . وكتب فوطيوس أيضاً رسالة مملوءة محبة ولطفاً . وبشر الممثلان سيدهما بما أحرزاه من نجاح في إعادة النظر في قضية اغناطيوس وبما سجلاه من نصر لرومة في التدخل في شؤون كنيسة القسطنطينية . فارتاح نقولاووس لذلك ووافق على الدور الذي لعبه ممثلوه في المجمع الأول الثاني ووكّل إلى الاسقف رانولدو القيام بمهمة جديدة في بلاط الافرنج في خريف السنة ٨٦٢ واستمر الاسقف زخريا في متابعة أعماله في رومة (١) .

ولكنه ساء نقولاووس ان ممثليه في المجمع الأول الثاني لم يسجلا اي تقدم في أمر الأبرشيات المسلوخة التي طالب باعادتها إلى البطريركية الرومانية . وكان فوطيوس قد أشار في رسالته إلى نقولاووس إلى استعدادة للاعتراف بحق رومة في هذه الأبرشيات ولكنه أوضح ان الفسيفس عارض في ذلك . فاستأنس البابا بهذه الاشارات ورأى ان يؤجل الاعتراف ببطريركية فوطيوس إلى ان ينال ما تمنى من السلطة على هذه الأبرشيات . وكتب إلى كل من ميخائيل وفوطيوس (٨ اذار سنة ٨٦٢) معلقاً اعترافه وموافقته إلى ان يثبت من بعض الامور . وكتب بالمعنى نفسه إلى زملائه بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم (٢) . ويشك الأب دفورنك ما اذا كانت هذه الرسائل وصلت إلى هؤلاء البطاركة في حينها لأن البابا ارسلها بطريق القسطنطينية (٣) .

ورأى ميخائيل وفوطيوس ان الثمن الذي حدده نقولاووس كان عالياً فصمما صمماً طويلاً وباتاً ينتظران تطور الظروف . واضطرب البابا وضاق صدره . وفيما هو ينتظر ورود الجواب أطل عليه وفد الاغناطيوسيين المتطرفين برئاسة ثيوغنوستوس Theognostos . وأدعى هذا الوفد انه يمثل اغناطيوس وبطال

1) Dvornik, F., Phot. Sch., 91.
2) Epist. VI, 440 - 442.
3) Dvornik, F., op. cit. 95 - 96.

بحقوقه واغناطيوس براء من هذا كله (١) ، فأصغى البابا إلى أقوال الوفد وظل ينتظر رد فوطيوس وميخائيل . ثم يئس فدعا أساقفته إلى مجمع في رومة في صيف السنة ٨٦٣ . فاستمع الآباء إلى تقرير الاسقف زخريا عن أعمال المجمع الأول الثاني وعن الدور الذي قام به في اثناء انعقاد هذا المجمع . فاعترف زخريا بأنه تجاوز صلاحياته فقطعه المجمع وامتنع عن الاعتراف برسمية فوطيوس . ثم قطع غريغوريوس وأعلن اغناطيوس بطريركاً شرعياً على القسطنطينية (٢) . وأغرب ما في أخبار نقولاووس انه عين زخريا بعد قطعه رئيساً على دير القديس غريغوريوس . وهذا الدير كان آنئذ من أغنى أديار رومة وأهمها ! ثم أعاده إلى سابق عهده في رئاسة الكهنوت وفي العمل الإداري الذي كان يقوم به قبل القطع (٣) . اما رانولد فانه رفض ان يمثل أمام الآباء في المجمع وأيد فوطيوس فوقع تحت الحرم (٤) .

ومضى برداس وفوطيوس في العمل معاً لصالح الامبراطورية والكنيسة فقضيا على مقاومة الاغناطيوسيين ووطدا الامن في الداخل ثم احسنا السياسة في الخارج فحالفوا رستيسلاف امير مورافية الكبرى وهزما جيشاً بلغاريّاً كان في طريقه إلى الحدود المورافية . ورأب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده فطلب مبشرين ارثوذكسيين يعلمون شعبه الدين القويم فاختر فوطيوس الاخوين قسطنطين ومثوذبيوس لهذه الغاية ، فقاما إلى مورافية في السنة ٨٦٤ وصنفا كتباً دينية في اللغة الصقلية ونقلوا الانجيل إليها وبشرا . وجاء بوغوريس ملك البلغار بعد انزاهه امام الروم سنة ٨٦٤ إلى القسطنطينية فاعتمد على يد البطريرك فوطيوس وسمي ميخائيل في المعمودية باسم اشبينه ميخائيل الفسيفس . وعين فوطيوس رئيس اساقفة لبغارية وقسيسين ومعلمين . وكان نقولاووس قد طالب بمعظم الاراضي البلقانية مدعياً ان خدمة شعوبها الروحية منوطة باسقف رومة كما سبق وأشارنا فجاء عمل فوطيوس مخالفاً

1) Dvornik, F., Ph. Sch., 96.
2) Epist. VI, 517 - 523.
3) Pat. Lat. Vol. 75, Col. 236.
4) Epist. VI, 561 - 562.

لرغبته فاشتدت الإزمة الرومانية البيزنطية تعقداً .

وبعد ان سجلت القسطنطينية هذا النصر المبين في مورافية وبلغارية رأى صاحبها ميخائيل الثالث ان يرد على نقولاووس . فكتب اليه في صيف السنة ٨٦٥ كتاباً مرأ جعل البابا ان يقول عنه ان كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعباناً فلام الفسيفس البابا بادبىء ذي بدء على قلة تقديره للتضحية التي قدمتها كنيسة القسطنطينية في سبيل السلم والوثام فأبان له ان مشكلة اغناطيوس مسألة داخلية ادارية لا تمت الى امور العقيدة بصلة وبالتالي فانه لا يحق لرومة ان تتدخل فيها . واضاف الفسيفس انه على الرغم من هذا فان كنيسة القسطنطينية نزلت عند رغبة البابا وسمحت باعادة النظر في قضية اغناطيوس امام ممثليه في الجمع . وأكد الفسيفس ان الموجب لدعوة هذين الممثلين الى الجمع انما كان للنظر في امر الايقونات . ثم أتهم الفسيفس ثيوغنوسطوس بالتحريض والمشغبة وأمر البابا ان يرسل ثيوغنوسطوس واعوانه الى القسطنطينية للتحقيق وهدد باحضارهم بالقوة اذا اقتضى الامر (١) . فغضب البابا لكرامته ، وكان سريع الغضب ، وكتب في الخامس والعشرين من ايلول سنة ٨٦٥ رسالة أصبحت فيما بعد موضوع اهتمام عند علماء الجدل (٢) . وأهم ما جاء فيها ان السيد له المجد هو الذي خص بطرس بهذه الصلاحيات الواسعة وان بطرس منحها خلفاءه من بعده وان رومة وحدها تفخر باقامة بطرس وبولس فيها ووفاتها ضمن اسوارها وان بعد رومة تأتي الاسكندرية وانطاكية . اما القسطنطينية فانها اضطرت ان تستورد رفات اندراوس ولوقا وتيموثاوس . وأضاف البابا ان هذه الامتيازات التي تمتعت بها رومة تمنحها حق الاشراف على كنيسة القسطنطينية (٣) . وذهب نقولاووس الى ابعد من هذا فحصر في نفسه حق الدعوة الى المجامع فاصطدم بالعرف والتقليد الشرقيين اللذين جعلوا الدعوة لانعقاد المجامع من صلاحيات الامبراطور وحده .

1) Epist. VI, 457 - 479.

2) Lammer, H., Papst Nikolaus I und die Byzantinische Staatskirche.

3) Epist. VI, 474, 484.

انبثاق الروح القدس : وفي السنة ٨٦٦ هجم لويس الالماني على بوغوريس البلغاري وغلبه . فطلب البابا نقولاووس الى لويس ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين روحيين من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . فطعن القسيسون الباباويون بفوطيوس وأعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قساوسة الروم وقالوا بصوم السبت وفصلوا الاسبوع الاول من الصوم الكبير وسمحوا بتناول الألبان وأكل الجبن فيه وكرهوا البلغاريين بالقسوس المتزوجين زيجة شرعية وعلموا ان الروح القدس منبثق من الآب والابن (١) .

ولا يخفى ان كنيسة اسبانية كانت قد بدأت تقول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن منذ أواخر القرن السابع وان هذا القول كان قد شاع في بعض كنائس الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن . ولكن كنيسة رومة كانت قد واطبت على القول بانبثاق الروح القدس من الآب فقط كما جاء في دستور نيقية . ولم تقبل اضافة العبارة « والابن » Filioque قبل القرن الحادي عشر . ولنا دليل واضح على هذا في موافقة البابا نقولاووس نفسه على الاعتراف بالايمان الذي أورده فوطيوس في السنة ٨٦٠ في رسالة الجلوس . ففوطيوس قال في هذه الرسالة : « وبالروح القدس المنبثق من الآب » (٢) ونقولاووس أكد في الثامن من آذار سنة ٨٦٢ ان اعتراف فوطيوس كان مستقيماً كل الاستقامة (٣) .

دعوة الى مجمع مسكوني : (٨٦٧) ورأى الفسيفس في وصول اللاتين الى بلغارية خطراً على سلامة الدولة . ورأى فوطيوس في التعاليم خروجاً يجب بحثه في مجمع مسكوني . ورأى ايضاً في الرسائل التي وردت عليه من بعض الأوساط الكليريكية الغربية تدمراً من سلوك نقولاووس وسياسته ما يوجب دعوة الآباء الى مجمع مسكوني . فوجه فوطيوس في السنة ٨٦٨ منشوراً الى بطاركة الشرق وأساقفته جاء فيه « ان ابليس لا يشيع من الشر وان رجالا كانوا قد نبغوا

1) Lettre Encyclique de Photius, P. G. Vol 102, Col. 721 - 741 ; Grumel, V., Reg., 481.

2) P. G., Vol. 102 Col. 589.

3) Epist. VI, 440.

في ظلام الغرب تزلوا في الآونة الاخيرة في بلغارية نزول الصاعقة وقفزوا قفز الوحوش ودخلوا كرم الرب المغروس جديداً فرعوه وأبادوه بأرجلهم وأسنانهم واحتالوا على البلغاريين فنقلوهم الى صوم السيوت وفصلوا الاسبوع الاول من الصوم الكبير عن جسم الصوم وجذبوهم الى شرب الالبان وأكل الجبن فيه والشراهة وجعلوهم يعقنوا القسوس الأفاضل المتزوجين الزيجة الشرعية كهنة الله الحقيقيين ولم يخشوا ان يعيدوا ميرون الميرنين من القسوس داعين أنفسهم أساقفة مدعين ان المسحة التي يتممها القسوس باطلة لا نفع لها . فانهم يقولون لا يجوز للكهنة ان يقدسوا المكلين بميرون لأن هذه الشريعة خصت برؤساء الكهنة . ولم يقفوا عند هذا الحد من مخالفة الشريعة فانهم شرعوا بوقاحة زائدة في نغل الدستور الشريف المقدس فعلموا بأن الروح القدس ينبثق لا من الآب فقط بل من الآب والابن . فمن ترى سمع من الكفرة أنفسهم قولاً مثل هذا . فمن من المسيحيين يطبق ان يدخل في الثالوث الاقدس علتين فيقول ان الآب علة الابن والروح ثم ان الابن علة الروح فيحل الرئاسة الواحدة الالهية الى اثنين ويمزق تعليم المسيحيين في الله . فمن أين سمعت هذا ومن أي انجيلي جاءك هذا الصوت فربنا والها قال : الروح الذي من الآب ينبثق « (١) . ثم يوضح فوطيوس ان القول بأن الآب علة الابن والآب والابن معاً علة الروح يوجب ان يكون الآب والابن والروح علة لا تقوم رابع والأربعة لخامس الى ما لا نهاية له . وايضاً ان الانبثاق من الآب كامل ولا حاجة الى القول بأكثر منه . فان كل ما يقال في الثالوث المتساوي في الطبيعة والجوهر إما ان يكون عاماً للثلاثة او خاصاً بواحد منهم . فان كان صدور الروح لا عاماً لهم ولا خاصاً بواحد منهم ينتج انه ليس أنبثاق للروح في الثالوث رئيس الحياة الكلي الكمال (٢) .

واجتمع الآباء الشرقيون في القسطنطينية سنة ٨٦٧ واشتركوا في اعمال الجمع المنشود وحكموا على البابا نقولاووس وقطعوه ونادوا بلويس الثاني

١) P. G., Vol. 102 Col. 721 - 741. واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت الانشقاق .
ج ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٩
٢) Jugie, M., De Processione Spiritus Sancti, Rome, 1936.

امبراطوراً (١) . وهذا جل ما يجوز قوله عن هذا الجمع . فأعماله ضائعة ومعظم ما يقال عنه في بعض المراجع الغربية مأخوذ عن اعداء فوطيوس ومناظره (٢) . وهو بالتالي ناقص في العدالة لا يصلح وحده لاثبات الحقائق التاريخية ولا يجوز والحالة هذه القول مع من قال ان بطاركة الشرق لم يرسلوا نواباً عنهم وان فوطيوس نفسه « عتین ثلاثة رهبان من اتباعه من الرعاع الاردباء الموافقين لرأيه الفاسد لينوبوا عن البطاركة » (٣) ولعل الافضل ان نقول مع الأب اميل امان ان الابوكريساريوس الثلاثة الموجودين في القسطنطينية آنئذ لتمثيل البطاركة الشرقيين نابوا عن رؤسائهم في هذا الجمع (٤) .

رد نقولاووس : وخشي نقولاووس المناداة بلويس الثاني امبراطوراً في الجمع ولمس خطراً مداماً يهدد نفوذ الكنيسة الرومانية . وساءت حالته الصحية في صيف السنة ٨٦٧ فأمر بتوحيد الجهود للرد على فوطيوس وطلب بصورة خصوصية الى عالم الكنيسة الغربية هنكار Hincmar رئيس أساقفة ريمس ان يسخر علومه التاريخية لهذه الغاية . وظهرت ردود أهمها في تاريخ الكنيسة مصنف راترامنه Ratramne في الانبثاق (٥) . وتوفي نقولاووس في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ٨٦٧ دون ان يعلم النتيجة .

انقلاب في القصر : (٨٦٧) وكان ميخائيل قد عطف على فارس مغوار استرعى نظره حينما ذلل مهراً جامعاً فأحبه وجعله امير اخوره وهو باسيلوس مؤسس الاسرة المقدونية . وكان باسيلوس ذكياً نشيطاً قديراً ولكنه كان طموحاً ملاقاً . فما ان أصبح عالماً بأحوال البلاط حتى أبد برداس ضد اخته ثيودورة ثم أيد فوطيوس ليعيد عن الفسيفس كاتم أسرار عاقلاً فاضلاً . ثم نصب لبرداس

١) Dvornik, F., Phot. Sch., 120 - 121 ; Metrophanes, Mansi, XVI, Col. 417.
٢) Liber Pontificalis (Duchesne), II, 178 ff ; Anastasius, Mansi, XVI, Sessions VII - IX.
٣) Hefelè - Leclercq, IV, 532.
٤) Amann, E., Affaire de Photius, op. cit., VI, 481 - 482.
٥) Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam Infamantium Libri Quatuor, P. L., Vol. 121, Col. 225 - 346.

المكايد وغدر به . وفي الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ هجم على ميخائيل نفسه وقتله في قصره .

ولم يرض جمهور الشعب عن ميخائيل ولم يفرح بالانقلاب سوى الزرق المتطرفين . فاضطر باسيليوس ان يداري هؤلاء ويداورهم . فأوعز الى فوطيوس خصمهم ان يستعني ففعل في اليوم الاول بعد الانقلاب . وفي الثالث من تشرين الثاني عاد اغناطيوس الى الكرسي البطريركي (١) . وكان باسيليوس قد اشترك في اعمال المجمع الذي قطع نقولاووس قرأى من الحكمة ان يسرع في اعلام رومة بما تم في بطريركية القسطنطينية .

وكانت السيادة في البحر المتوسط قد استقرت في يد المسلمين . وكان هؤلاء قد استقروا في صقلية وباري وترنوم . وكانوا يغيرون من هذه القواعد على سواحل الادرياتيک الشرقية وسواحل ايطالية الجنوبية فيرعبون سكانها ويعرقلون تجارتها . فأدى اندفاع باسيليوس في درء الخطر الاسلامي الى تقرب من البابا وتعاون مع الامبراطور الغربي لويس الثاني .

المجمع القسطنطيني التاسع: (٨٦٩-٨٧٠) ورغب الفسيفس الجديد في تسوية تعيد الوحدة الى الصفوف في عاصمته . وعلمت رومة بهذه الرغبة ولكنها توجست خوفاً مما جرى في مجمع السنة ٨٦٨ من تذاثر الآباء الشرقيين في محاكمة بابا رومة وقطعه . وكان الآباء الغربيون قد عظموا الرئاسة ووقروها فجعلوها فوق حكم البشر (٢) . فتنى اديانوس الثاني (٨٦٧-٨٧٢) وجهة نظر نقولاووس ودعا الأساقفة الى مجمع في كنيسة القديس بطرس في العاشر من حزيران سنة ٨٦٩ (٣) . فرفض الآباء قرارات المجمعين القسطنطينيين اللذين عقدا في السنة ٨٥٣ والسنة ٨٦١ وحرروا فوطيوس وغضوا النظر عن هفوات الآباء الذين اشتركوا في اعمال مجمع السنة ٨٦٧ ولكنهم اوجبوا ابعادهم عن مراكزهم

(١) ولم يسمح فوطيوس الفسيفس فسيفاً وانما كان قد مسحه قيصراً في ايام ميخائيل . فاكثفى

باسيليوس بذلك ولم يجر مسحاً جديداً . Dvornik, F., Phot. Sch., 132-137.

(٢) « Prima Sedes a nemine iudicatur ».

(٣) Mansi, XVI, Col. 372 ff.

الاكليريكية . ووافقوا على اقتراح باسيليوس الذي قضى بعقد مجمع مسكوني في القسطنطينية ولكنهم اوجبوا على هذا المجمع قبول قراراتهم هذه دون اعادة نظر . وافتتح المجمع اعماله في الخامس من تشرين الاول برئاسة بانس احد كبار رجال البلاط (١) وبحضور الوفد الروماني وممثلي البطارقة الشرقيين الثلاثة توما متروبوليت صور وايليا كاتم سر البطريرك الاوروشيمني والارشدياكون يوسف نائب البطريرك الاسكندري (٢) واثنى عشر اسقفاً قسطنطينياً . فلمس الرومانيون لمس اليد مبالغة ثيوغنوستوس في اهمية الحزب الذي كان يؤيد اغناطيوس . ثم تكاثرت عدد الاساقفة بنسبة تعاضم الضغط من القصر حتى بلغوا المئسة في الجلسات الاخيرة . وعلى الرغم من توصيات المجمع الروماني بوجوب الاكتفاء بتصديق قراراته والابتعاد عن كل بحث في مواضيعها فان بانس أصر على استدعاء فوطيوس واعوانه الاكليريكيين وعلى استماع ما يقولون في الدفاع عن انفسهم . فاحتج الوفد الروماني على هذا الاستماع ثم وافق . فطلب فوطيوس للمشول ففعل . ثم طلب اليه ان يجيب عما وجّه اليه من انتقاد فرفض بعزة وأنفة . فقطع هو وجميع اتباعه وكسرت قرارات بطريركيته . وفرضت رومة طاعتها فرضاً فجاء في القانون الثالث عشر انه « ان جسر احد ان يتمثل بفوطيوس وديوسقوروس ويكتب كتابة او يقول قولاً يحط من كرامة كرسي بطرس هامة الرسل فليكن محروماً مثلها » (٣) .

ولكن هذا الانتصار لم يدم الا قليلاً . ففي غد اليوم نفسه الذي انتهت فيه اعمال هذا المجمع (٢٨ شباط سنة ٨٧٠) تقدم بوغوريس ملك البلغار بطلب الى المجمع يرجو فيه البت فيما اذا كانت الكنيسة البلغارية تابعة لرومة او للقسطنطينية . فعقد اعضاء المجمع اجتماعاً خاصاً لهذه الغاية . ووجد رسل رومة ان باسيليوس واغناطيوس لم يكونا أقلّ تمسكاً بالكنيسة البلغارية وبوجوب دوام خضوعها لكرسي القسطنطينية من برداس وفوطيوس . وعلى الرغم من احتجاج رسل البابا فان باسيليوس وممثلي بطارقة الشرق أقروا خضوع الكنيسة البلغارية لسلطة

1) Dvornik, F., Phot. Sch. 147.

2) Hefelè - Leclercq, IV, 492 ff.

3) Ibid. 522.

البطريرك المسكوني . وأسرع اغناطيوس فسام عليها رئيس اساقفة يونانياً يعاونه عشرة اساقفة يونانيين . واضطر الكهنة الرومانيون ورؤساؤهم ان يغادروا بلغارية .

ويتضح مما تقدم ان موقف البطريركيات الشرقية في معضلة فوطيوس هذه كان مرتبطاً بموقف الفسيلفس . فالبطاركة قاوموا فوطيوس ارضاء لباسيليوس الفسيلفس لا اعترافاً « بسلطة » نقولاووس وادريانوس او امتثالاً لأوامرهما . فالكنيسة الشرقية كانت ولا تزال تعتبر المجمع المسكوني صاحب السلطة الاولى في الكنيسة . ورئيس الكهنة فيها لا يعلو عليه رئيس من حيث درجة كهنوته سوى المجمع (قانون الرسل) . ولو كان الدافع لمقاومة فوطيوس انصياع هؤلاء البطاركة لأوامر رومة لما خالفوها في قضية بلغارية في غد اليوم نفسه الذي وقعوا فيه قرارات مجمع القسطنطينية .

اضطهاد فوطيوس والافواج عنه : (٨٧٠ - ٨٧٣) وأمر باسيليوس بنفي فوطيوس فأبعد الى دير سكابي في البوسفور ووضع تحت رقابة فرقة من الجنود . واعتراه مرض ثقیل فلم يسمحوا بطبيب يعالجه او صديق يعزيه . وعرفوه من الكتب والأوراق ولم يسمحوا له بالكتابة الا نادراً . وظل فوطيوس على هذه الحال ثلاث سنوات ونيف . ثم كتب رسالته الملتين والاحدى والثمانين الى باسيليوس فقال :

« لا اذكرك بالصدقة القديمة ولا بالأقسام الرهيبة ولا بمسحك وسيامتك قيصراً ولا بالرباط الذي ربطنا به تبسني ابنك الصالح بل اني اذكر بحقوق البشر . فلوك الأعاجم واليونان كانوا اذا حكموا بالموت نفذوا ولم يتركوا من حكموا عليهم ان يموتوا جوعاً وحنقاً بالعذاب . اما نحن فاننا نعيش عيشة امر من الموت فاننا قد حررنا الأقارب والخدام والمعارف ثم الكتب . وهذا لعمرى أمر جديد وقصاص غريب . وهل ترغبون ان لا نسمع كلام الرب ! لا سمح الله ان تم في عهدك اللعنة القائلة : « ويكون في تلك الأيام جوع خبز وجوع لاستماع كلمة الرب » ... فلا نطلب منك كرسياً ولا مجداً ولا سعادة ولا رفاهة بل ما يسمح

للمسجونين ... فلا تسمح بأن يضاف في ترجمة حياتك ان ملكاً موصوفاً بالحلم والرافة أسلم الى المنفى والجوع رئيس كهنة كان صديقاً له وشريكاً وانه فيما كان رئيس الكهنة يصلي من اجله دفعه الى الموت » .

المجمع القسطنطيني العاشر : (٨٧٩ - ٨٨٠) وحافظ الاساقفة والكهنة أصدقاء فوطيوس على عهودهم له ووفوا . فاضطر اغناطيوس ان يرسم غيرهم للقيام بالخدمات الروحية . فلم يلاق العدد الكافي من أصحاب اللاياقة . فكتب باسيليوس الى ادريانوس في ذلك ورجاه ان يعدل موقفه ممن رسم على يد فوطيوس فأبى (١) . وحذا حذو ادريانوس خلفه يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) (٢) وأصبحت كنيسة القسطنطينية كنيسة اغناطيوسية وفوطيوسية (٣) . وكان الجيش لا يزال يذكر انتصاراته على يد برداس وميخائيل ويعتز بها . فاضطر باسيليوس ان يتقرب من فوطيوس وأعوانه ومؤيديه وان يشر بهم في الحكم (٤) .

فدعا الفسيلفس البطريرك من منفاه في السنة ٨٧٣ وأكرمه اكراماً عظيماً وطلب اليه ان يشرف على تهذيب اولاده قسطنطين واسكندر ولاوون (٥) . ولا نعلم ما اذا كان هذا العفو شمل الاساقفة المنفيين . ولعله لم يشملهم . ولما عاد فوطيوس الى العاصمة انصرف الى موالاة اغناطيوس ضناً بمصلحة الكنيسة . ولعله استسمحه ونال منه الصفح في السنة ٨٧٦ فانه في كتابه عن الروح القدس يدعو قديساً وفي المجمع المسكوني الثامن صرح انها تعانقا متسالمين (٦) . ويرى العلماء الباحثون ان اغناطيوس لم يعترض على شرطونية مناظره من الناحية الكنسية وانه اعتبره بطريركاً بعد المسالمة وان فوطيوس مارس السلطة البطريركية في الأشهر القليلة التي سبقت وفاة اغناطيوس وان هذا وافق على عودة فوطيوس الى الكرسي بعده (٧) . وتوفي اغناطيوس عن ثمانين عاماً في الثالث والعشرين من

1) Mansi, XVI, Col. 203, 204.

2) Dvornik, F., Ph. Sch. 155 ff.

3) P. G., Vol. 102, Col. 900, 757 f.

4) Dvornik, F., Ph. Sch., 162 - 163.

5) P. G., Vol. 102, Col. 949, 952, 953.

6) Dvornik, F., Ph. Sch., 167 ; Vogt, A., Oraison Funèbre de Basil I, Orientalia Christiana, Vol. 27, pp. 62 - 69.

7) Dvornik, F., Ph. Sch., 172.

تشرين الأول سنة ٨٧٧ فاستلم فوطيوس عكاز الرئاسة في السادس والعشرين من الشهر نفسه .

وكتب فوطيوس في أواخر السنة ٨٧٧ الى بطاركة الشرق رسائل الجلوس ودعاهم الى مجمع مسكوني يعيد النظر في قرارات مجمع السنة ٨٦٩ - ٨٧٠ وينظر في أمر الانشقاق وبات ينتظر رسائل السلام . فكتب ميخائيل الثاني الاسكندري يعرب عن فرحه وارتياحه ويشكر الله على النعمة بارتقاء فوطيوس وأكد ان سلفه لم ينبذ شركته قط . وكتب ثيودوسيوس الاوروشيليمي ينعي ما حل بالمدينة المقدسة من خراب ويستنجد بفوطيوس وباسيليوس ثم يقول : « ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركاً على المدينة الملكية فليكن محروماً ولينزل من منصبه » . وأظهر ثيودوسيوس الاول الانطاكي غمه وأسفه على الحكم بمجمع السنة ٨٦٩ الذي وقعته نوما باسم كنيسة انطاكية وطلب الصفح لثأبه وختم رسالته قائلاً : « ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركاً يكون ملعوناً من الآب والابن والروح القدس » . وأوفد البطاركة قوزما وباسيليوس وايليا لينوبوا عنهم في المجمع المسكوني (١) . ويلاحظ هنا ان البطاركة لم ينتظروا تعليمات رومة وارشاداتها قبل الاقدام على الاعتراف ببطريركية فوطيوس وانهم لعنوا من لا يعترف بها !

ثم كتب باسيليوس الى يوحنا الثامن بابا رومة يعلمه بارتقاء فوطيوس ويرجو الاعتراف به والاشتراك في مجمع مسكوني للتعاون في جعل الوضع في القسطنطينية قانونياً . وكتب فوطيوس كتاباً لطيفاً وأردفه برسائل السلام التي كانت قد وردت من البطاركة الشرقيين (٢) .

وكان التيار الاسلامي يهدد ايطالية ورومة . وكانت آمال يوحنا الثامن في مساعدة فرنسية او المانية قد خابت . فأكرم هذا البابا الوفد البيزنطي الذي حمل رسائل الجلوس وأظهر ارتياحاً لما تم في القسطنطينية ووافق على رجوع فوطيوس الى منصبه وألغى المجمع السابقة التي عقدت ضده وطلب لقاء ذلك ان لا يتدخل فوطيوس في ابرشية البلغار والا يرتقي علماني بعد ذلك عرشاً اسقفياً وان يعتذر فوطيوس نفسه عما مضى امام المجمع . وعين البابا الكردينال بطرس نائباً عنه

1) Grumel, Reg. 509, 510 ; Hefelè - Leclercq, IV, 594 - 596.
2) Doelger, Reg. 497 ; Grumel, Reg. 513.

وحمله رسائل الى باسيليوس وفوطيوس وبطاركة الشرق واساقفة الكرسي القسطنطيني والى الاغناطيوسيين والى النائيين الرسولين الاسقفين اوجانس وبولس اللذين كانا قد ارسلوا الى القسطنطينية قبل ارتقاء فوطيوس للبيت في القضية البلغارية والقضاء على البطريرك اغناطيوس اذا لم يرفع ولايته عن بلغارية . وأردف هذه كلها بكتاب التعليمات *Commonitorium* (١) .

ووصل الكردينال بطرس الى القسطنطينية فاشترك في المفاوضات التمهيدية التي كانت قد بدأت بين زميله الاسقفين اوجانس وبولس وبين البطريرك فوطيوس . واتفق الطرفان في جميع الامور التمهيدية ولم يختلفا الا في أمر اعتراف فوطيوس بخطأه أمام المجمع . فالبابا كان قد جعل هذا الاعتذار شرطاً أساسياً للاعتراف ببطريركية فوطيوس . وفوطيوس رأى ان ما قاله في مجمع السنة ٨٦٧ ضد نقولاوس جاء رداً على تدخل هذا الخبر في شؤون كنيسة القسطنطينية الداخلية وانه اذا كان قد تجاوز حدود الدفاع عن النفس في ما قاله في هذا المجمع فان ممثلي رومة تجاوزوا حدود القانون في الحكم عليه قبل التحقيق والتدقيق . وأضاف فوطيوس انه اعتذر لاغناطيوس نفسه وتسالم معه . ورأى الوفد الروماني في تنازل فوطيوس وباسيليوس عن ابرشية البلغار وفي استعداد الفيلسوف للتعاون في صد المسلمين عن ايطالية ورومة ما يبرر التراجع عن أمر الاعتذار موضوع البحث . فوافقوا على ذلك وتحملوا مسؤولية هذا العمل تجاه الخبر الروماني (٢) .

والتأم المجمع في أوائل تشرين الثاني سنة ٨٧٩ في كنيسة الحكمة الالهية مؤلفاً من ثلاث مئة وثلاثة وثمانين اسقفاً خاضعين لفوطيوس ما عدا نواب رومة والاسكندرية وانطاكية واورشليم . وتغيب الفيلسوف عن الحضور بداعي الحزن على ابنه قسطنطين فترأس الجلسات فوطيوس نفسه (٣) . وبعد تبادل السلام بين فوطيوس ونواب الكنائس الشقيقة القى خطبة الافتتاح

1) Jaffe - Wattenbach, 3271 - 3276 ; Mansi, XVII, Col. 468 - 473 ; Epist. VII, 188 ff.
2) Doornik, F., Ph. Sch., 180 - 181.
3) Ibid., 189.

زخريا متروبوليت خلقيدونية . فأوضح أسباب الاضطراب وذكر المصائب التي حلت بفوطيوس ثم وجه كلامه الى نواب رومة فقال : « لقد عقد هذا المجمع لاجلكم ولاجل كنيسة رومة المقدسة كي لا يقول المشاقون انكم رؤساء القلاقل والاضطرابات . لقد جسم الخلاف بنعمة الله وبسعي امبراطورنا محب المسيح وبصلوات بطريركنا اللائق للقداسة وبالتفاهم الذي تم بسين البطاركة الشرقيين الثلاثة وبصلوات البابا يوحنا اللائق بالقداسة وتضرعاته » (١) . فأمن المجمع لكلامه . وقال الكردينال بطرس : « والبابا يوحنا يشارك فوطيوس في الرأي ولهذا السبب أرسل له بدلة رئاسة الكهنوت » . ثم ختمت الجلسة بالدعاء لجميع البطاركة .

وفي الجلسة الثانية في الثالث عشر من تشرين الثاني قرئت رسائل البابا الى الفسيفلس والى فوطيوس . وقد اختلف العلماء مدة طويلة من الزمن في صحة نصها . فقال الارثوذكسيون منهم بصحة النص اليوناني كما ورد في اعمال المجمع . وقال الغربيون بتشويه النص الاصلي واتهموا فوطيوس نفسه بهذا التشويه واعتمدوا النصوص اللاتينية الباقية . ثم قضت العناية بأن ينبري ليبحث هذه الرسائل وتدقيقها عدد من جلة علماء الكنيسة اللاتينية الشقيقة نخص بالذكر منهم الأب اميل امان مدير موسوعة اللاهوت الكاثوليكية والأب فرنسيس دفورنيك استاذ التاريخ الكنسي في جامعة براغ والابوين غرومل ولوران . ونظر هؤلاء العلماء في التفاوت بين النصين اليوناني واللاتيني فلم يثبت القول بالدس على فن النقد الحديث وارتأى الأب امان ان يكون الوفد البيزنطي قد اطلع على نصوص الرسائل الباباوية بعد ادراج اصلها في السجل فلما لم يجدها موافقة لتفاهم والاتحاد عرض ان تعدل فعدلت فحملها الكردينال بطرس معدلة الى القسطنطينية فقرئت معدلة وضمت الى اعمال المجمع بنصوصها المعدلة (٢) . وعُني سيادة متروبوليت

1) Mansi, XVII, Col. 385 f.

2) Amann, E., Affaire de Photius, Fliche et Martin, VI, 492 - 493, n. 2 ; Jean VIII, Dict. Théol. Cath., VIII, Col. 605 ff. Dvornik, F., Ph. Sch., 182 ff. ; Legendes, 324 ff. ; Grumel, V., Lettres de Jean VIII, Echos d'Orient, 1940 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 120 - 130.

بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس في السنة ١٩٣٧ . بنقل خلاصة ما كان قد تم من هذه الابحاث الى العربية فديج بيراع الحجة المسيحية سلسلة مقالات عنوانها « هل زور فوطيوس رسائل البابا يوحنا الثامن » ونشرها في اعداد مجلة المسرة لتلك السنة فأجاد وافاد .

وبعد قراءة هذه الرسائل سأل الكردينال بطرس : هل يقبل المجمع فحواها ؟ فأجاب المجمع انه يقبل كل ما جاء فيها عن السلام وعن البطريرك . اما ما يتعلق منها بارادة الفسيفلس فالأمر فيها له . فقال الكردينال : لقد ورد في كتاب التعليقات الذي احمّل الى الشرق بعد الآن امفوريونا الى بلاد البلغار . فذكر فوطيوس ما كتبه الى البابا نقولاووس وأكد انه لم يشترط لكنيسة البلغار احداً بعد عودته الى الكرسي . ثم قال بروكوبيوس قيصرية : اننا نؤمل برحمة الله ودعاء سيدنا ورئيس كهنتنا ان تخضع الامم كلها لملوكنا المقامين من الله وحيثند يعينون لكل ابرشية بالهام من الله . فأمن المجمع لكلامه وقالوا ان هذه المسألة ليست روحية بل مدنية وانهم لم يجتمعوا ليوزعوا ابرشيات . ثم طرح نواب رومة مسألة اخرى فقالوا : وكيف رقي فوطيوس الى الكرسي قبل وصولهم . فأجاب الاساقفة انه تم باتفاق الاساقفة واعتراف البطاركة كلهم . ثم سرد فوطيوس تاريخ بطريركيته مستهلاً بالقول : « اني لم اشتبه هذا الكرسي مطلقاً » . ثم ذكر انتخاب الاساقفة والكهنة والحاج الحكام عليه ثم عزله وشكره لله . وأكد انه عاد الى البلاط بدون وساطة وان اغناطيوس نفسه اقامه نائباً بطريركياً وانه لم يقبل عكاز الرعاية ثانية الا بعد وفاة سلفه وضغط الفسيفلس والحاج الكنيسة . فقال الاساقفة : « نعم كل هذا جرى تماماً » . وقرئت رسائل البطاركة وسمع الاعضاء نص الحرم الذي وضعه البطريرك الاسكندري على من مثله في المجمع السابق وعلموا ان توما متروبوليت صور ندم وطلب الصفح .

وفي الجلسة الثالثة في التاسع عشر من تشرين الثاني قرئت رسالة البابا يوحنا الى بطاركة الشرق وحقق في أمر نواب هؤلاء البطاركة الذين اشتركوا في مجمع السنة ٨٦٩ فتبين انهم انما مثلوا امير العرب لا رؤساءهم .

وفي الجلسة الرابعة في الرابع والعشرين من كانون الاول تليت رسائل جديدة من بطريركي انطاكية واوروشليم حملها باسيليوس متروبوليت مروتوبوليس فثنين منها ان اعتراف البطارقة لم يكن ضرورياً لوصول فوطيوس الى كرسي الرئاسة (١). وتلي كتاب البابا الى الفسيلفس ونص الكومونيتوريوم فترك البت في قضية بلغارية الى الفسيلفس ولاسيا وان يوحنا وفوطيوس أصبحا اخوين متفقين متحابين. واعيد البحث في شرطونية العوام فقاوم الاساقفة اقتراح رومة مقاومة اشد من الاولى. وألغيت قرارات مجمع ادرينوس ومجمع السنة ٨٦٩. وقرر المجمع اشتراك جميع الاساقفة في خدمة القداس في اليوم التالي يوم عيد الميلاد (٢).

وعاد المجمع الى العمل في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ٨٨٠ فأقر في جلسته هذه الخامسة ان يعتبر المجمع النيقاوي الثاني مجمعا مسكونياً وان يعرف بالمجمع المسكوني السابع. واوفد المجمع ثلاثة من اعضائه الى متروفانس متروبوليت ازميز لينقلوا اليه رغبة المجمع في اعترافه برئاسة فوطيوس. فاعتذر متروفانس بداعي المرض فقرر المجمع قطعه من الشركة الى ان يعترف بسلطة البطريك. ثم سنّ المجمع قوانين ثلاثة بناء على اقتراح الوفد الروماني. وقضى الاول ان يحرم فوطيوس من يحرمه يوحنا من رجال اكليروسه او ابناء رعيته المقيمين في اوروبة وآسية وافريقية وان يقابل يوحنا فوطيوس بالمثل وان التقدم الذي للكنيسة الرومانية يبقى على حاله بلا احداث ولا تغيير ان في الحاضر والمستقبل (٣). ومنع القانون الثاني الاساقفة الذين لجأوا الى الاديار رهباناً عن العودة الى وظائفهم السابقة. ولعن المجمع في القانون الثالث كل علماني يجراً على ضرب اسقف.

ووقع بولس اسقف انكونة اولاً ثم اوجانس فبطرس ثم ممثلو البطارقة الشرقيين ثم سائر اعضاء المجمع. وكان الفسيلفس لا يزال قاعماً في قصره محزون

1) Mansi, XVII, Col. 484.

2) Mansi, XVII, Col. 475 - 492.

3) Ibid., Col. 497.

الصدر لهدف القلب على فقد قسطنطين. وكان لا بد من موافقته على قرارات المجمع لتصبح نافذة سارية المفعول. فأمر الاعضاء القصر في الثالث من اذار وخلا الفسيلفس بالوقوف وبثمانية عشر متروبوليتاً وبالبطريك. وقضى العرف بأن يعلن الآباء ايمانهم فاقترح باسيليوس اضافة نص الدستور النيقاوي القسطنطيني الى اعمال المجمع فوافق الرؤساء. فوقف بطرس رئيس الكتبة وقال: اننا نحافظ على تعليم المسيح واوامر الرسل وشرائع المجمع السبعة المسكونية وتعاليمها كما تسلمناها ونرفض ما رفضوه ونقبل ما قبلوه. وعليه فائتاً نقبل بالقلب واللسان دستور الايمان الواصل اليها منهم منذ القديم ونقرأه في كل مكان علناً ولا نحذف منه ولا نزيد عليه ولا نبديل فيه ولا نزيفه. لان هذه كلها من اعمال المحال الخبيث. فالمجمع المقدس المسكوني الحالي يعانق بالشوق الالهي وباستقامة الذهن دستور الايمان القديم ويوقره وعليه يؤسس ويبنى حقيقة الخلاص ويهتف للجميع ان يرتأوا ويعلموا هكذا:

اؤمن بالله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والارض كل ما يرى وما لا

يرى. وارب واحد يسوع المسيح الخ. وبالروح القدس الرب الحي المنبثق

من الآب المسجود له والمجد مع الآب والابن الناطق بالانبياء الخ.

فكهنذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف نعمدنا وبه طحنت كل هرطقة. واما الذين يغيرونه او يبدلونه او يمسونه بكلمات غريبة او بزيادة او بنقص فبحسب حكم المجمع السابقة المسكونية ان كانوا من الاكليروس فليقطعوا قطعاً نهائياً وان كانوا من العوام فليحرموا بالانائيمة (١).

فقال الاساقفة: جميعنا هكذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف نعمدنا وعليه اهلنا لدرجة الكهنوت. فالذين يعتقدون غير هذا الاعتقاد هم اعداء الله والحقيقة.

وفي الثالث عشر من اذار اجتمع الاعضاء في كنيسة الحكمة الالهية فتلى اعتراف الايمان عليهم فصدقوا عليه وعلى اعمال الجلسة السادسة. ونادى الجميع ان كل من لا يعترف برئاسة كهنوت فوطيوس لا ينظر مجد الله.

1) Grumel, V., Reg 521.

وأدت مشاحنات الانشقاق فيما بعد الى التطرف في الجدل فشاغ في الاوساط اللاتينية الغربية ان اعمال الجلستين السادسة والسابعة مزورة وان فوطيوس نفسه زورها (١). ثم قام الكردينال هرغنروتر Hergenrother وصارح زملاءه في الغرب بأنه ليس في محتويات هذه الأعمال ما لا يتفق وعرف الآباء وأضاف ان تقاليد القصر في ذلك العهد قضت ببقاء الفسيفس في قصره في حالة الحزن ستة أشهر كاملة (٢). والواقع ان الآباء كانوا قد ذبلوا أعمال كل مجمع مسكوني باعتراف بالايمان سموه هوروساً horos (٣). وانهم اضطروا اضطراراً في هذه المرة ان يجتمع رؤسائهم بالفسيفس في قصره اولاً ليقرؤا الهوروس وينالوا التصديق وان يجتمعوا جميعاً لتلاوة الهوروس والاعتراف به (٤). وليس في هذا الهوروس ما لا يتفق وتقليد الكنيسة الرومانية أثبت. فانها كانت لا تزال تقول بالانشقاق من الآب مخالفة بذلك كنائس اسبانية وغالية (٥).

يوحنا الثامن والمجمع : ورضي يوحنا الثامن عن فوطيوس واعتبره بطريركاً شرعياً على كنيسة القسطنطينية وابتهج لحلول السلام والوثام في هذه الكنيسة. وحرر الى باسيليوس وفوطيوس بهذا المعنى (٦). وظل راضياً حتى وفاته ولم يقطع فوطيوس من الشركة مرة ثانية ولم يقع اي انشقاق آخر بين الكنيستين في أيامه (٧). وقد ضل بارونيوس وهرغنروتر وهقله وغيرهم من علماء الغرب عندما رؤوا ان يوحنا الثامن لم يعترف بفوطيوس نهائياً ولم يؤيد حكم هذا المجمع وانه أرسل الكردينال مارينس الى القسطنطينية للتثبت مما جرى فلما أبلغه هذا ان فوطيوس زور رسائله عاد فحرمه حرماً عظيماً (٨). والسبب

1) Mansi, XVII, Col. 512.

2) Photius, II, 528 - 539.

3) Mansi, XI, Col. 638 f., XIII, Col. 376 f., XVI, Col. 179 - 184.

4) Dvornik, F., Phot. Sch., 194 - 196.

5) Grumel, V., Le Filioque au Concile Photien, Echos d'Orient, 1930, 257 - 264 ; Laurent, V., Le Cas de Photius, 396 - 415 ; Dvornik, F., Legendes de Constantin et de Méthode, 324 ff. ; Amann, E., Affaire de Photius, Fliche et Martin, VI, 495 - 496 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 126 - 130.

6) Jaffé - Wattenbach, 3322, 3323 ; Epist. 227, 229.

7) Amann, E., Affaire Photius, op. cit., VI, 496 - 497 ; Dvornik, F., Ph. Sch., 202 - 236.

8) Hergenrother, Photius, II, 553 ff.

في هذا التساقط في الضلال ان هؤلاء العلماء اعتمدوا مراجع مغرصة أهمها ملحق مجمع السنة ٨٦٩ الذي نشره لأول مرة الاب رادر اليسوعي سنة ١٦٠٤ ثم ادرج فيما بعد في مجموعة هاردوين ومانسي (١). وواضع هذا الملحق عدو لفوطيوس لا تقبل شهادته بدون تجريخ وقد انفرد في الحرم الثاني ولم يشر اليه أحد غيره. ولنا في أقوال الثناء التي فاه بها فوطيوس مادحاً يوحنا بعد المجمع ما يؤيد دوام المحبة والوفاق بين هذين الحبرين. فقد دعا فوطيوس يوحنا الثامن « قديساً » في رسالة وجهها الى رئيس أساقفة اكيلا في السنة ٨٨٤. وجاء في كتاب فوطيوس عن الروح القدس ما معناه : « اما يوحنا فانه خاصتي ويحق لي ان أدعوه هكذا لأسباب كثيرة أهمها انه انتصر لي أكثر من غيره. وهو قوي بعقله وتقواه وبغضه للظلم والكفر. وهو خليف بأن يدير الشرائع المقدسة والشرائع السياسية وان يرد كل شيء الى النظام. وهو الذي ثبت بواسطة نوابه قرارات المجمع فيما هو من قانون الايمان » (٢).

ولم يجد خلفاء يوحنا عن خطته هذه ولم يقطع أحدهم فوطيوس عن الشركة وهو قول يؤيده رجال الاختصاص ويجمعون عليه. والشقاق الثاني وهم قضى عليه العلم التزيه ونبذه التاريخ الصحيح.

سنو فوطيوس الأخيرة : (٨٨٦ - ٨٩٧) وتوفي باسيليوس الفسيفس في السنة ٨٨٦ فخلفه ابنه لاوون السادس الملقب بالحكيم (٨٨٦ - ٩١٢). ولدى ارتقائه دس أعداء فوطيوس الوسواس واقنعوا الفسيفس الجديد ان الواشي به لايه كان ثيودوروس الساحر وأشركوا مع هذا بالتهمة فوطيوس نفسه. فعزل لاوون فوطيوس أما لأنه صدق الوشاية او لأنه أحب ان يجلس أخاه اسطفانوس بطريركاً او للأميرين معاً. ونفى لاوون فوطيوس الى دير الارموريين فقضى البطريرك العظيم سني حياته الأخيرة في المنفى بعيداً عن أصدقائه معتزلاً. وتوفي بعد ذلك بنحو عشر سنوات. ولا نعلم شيئاً عن هذه السنوات الأخيرة التي قضها فوطيوس في الوحدة.

1) Mansi, XVI, Col. 409 ff.

2) هل عاد فوطيوس الى الكنييسة لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس - مجلة المسرة سنة ١٩٣٨ ص ٧٥ - ٧٦ P. G., Vol. 102, Col. 380, 820

الفصل السابع والثلاثون

عصر الروم الذهبي

٨٤٣ - ١٠٢٥

ضعف الدولة العباسية : واشتد نفوذ الأتراك في بغداد وعلت أصوات الجوارى امهات الامراء . وثار العلويون مطالبين بالعرش ونفر العرب من بني العباس . فتصرف طاهر ابن الحسين وخلفاؤه في النفوس لمصلحتهم في خراسان . واستقل حسن ابن زيد الديلم في طبرستان وجرجان . وتغلب الصفاريون في سجستان وغيرها وأرادوا مهاجمة بغداد (٨٧٤) . واستطاع افاق ان يصبح سيد البصرة وان يمد سلطانه الى أبواب بغداد . وسلخ احمد ابن طولون التركي مصر والشام وأخذ يجمع الضرائب لحساب نفسه (٨٧٧) . واكتفت بغداد بتحريض بعض امراء الشام عليه . ثم اعترفت دمشق بسلطة خواروية بن احمد بن طولون فقضى على الأحزاب المعادية (٨٨٩) واتخذ دمشق قاعدة لملكه .

فتوحات باسيلوس الاول : واستغل باسيلوس الاول هذا الظرف لصالحه وصالح الروم فقام بحارب على طول الجبهة الاسلامية من شاطئ قبليقية حتى ارمينية وطرابزون . ونجح في دفع المسلمين الى الوراء في حروب متتالية بين السنة ٨٧١ والسنة ٨٨٢ . فاحتل الممرات الرئيسية عبر طوروس وقاتل البولسين ودخل عاصمتهم تفريقية في السنة ٨٧٢ وذبح خريسوخيروس صاحبها وعرض رأسه في موكب النصر في القسطنطينية . وفي السنة التالية احتل زبطرة وسميساط . وعند السنة ٨٧٧ كان قد احتل لؤلؤة وجميع ما وقع بين قيصرية ومرعش وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتها وممراتها . وسره ان الخليفة المعتمد اعترف في السنة ٨٨٥ بدولة ارمينية مستقلة بزعامة أشوت فأسرع يعترف هو بدوره بالملك الجديد مؤكداً ان ارمينية ستظل أعز حليفات الامبراطورية .

تطويبه : ولا نعلم بالضبط متى طوب فوطيوس او من طوبه . وليس في هذا النقص في المعلومات ما يدعو الى التحذر والتيقظ . فالتطويب في الكنيستين اليونانية واللاتينية كان لا يزال عملاً فردياً في غالب الأحيان . ولم يكن متوطاً برئيس الكنيسة وحده بل كان مباحاً لاي اسقف من الاساقفة ان يطوب من يراه لائقاً بالتطويب (١) . وحصر تطويب فوطيوس بين السنتين ٩٦٦ و٩٩٨ وجعله في عهد البطريرك سيسينيون هو اجتهاد في حد ذاته قام به الاب مرتينوس جوجي (٢) . وجل ما يجوز قوله هو ان اسم فوطيوس يرد مطوباً تطويماً كنسياً كاملاً لأول مرة في سينكساريون في دير الصليب الاقدس في القدس يعود الى القرن العاشر او الحادي عشر (٣) . وانه بدأ يظهر في هذا الوقت نفسه ايضاً في سينكساريات القسطنطينية (٤) . ويرى الاب ذفورنك ان بعض اتباع فوطيوس بدأوا بتطويبه بعد انتقاله بفترة وجيزة (٥) .

وبينا نرى سرجيوس والد فوطيوس مطوباً معترفاً *homologetes* تحت اليوم الثالث عشر من اذار نجد فوطيوس نفسه مطوباً تحت السادس من شباط قديساً عجائباً *thaumatargos* وذلك في سينكساريون باريز رقم ١٢٩٤ والعجبية التي جرت على يده هي اندحار الروس أمام القسطنطينية في السنة ٨٦٠ .

نمدح الآن بازهار النشائد قيسار الروح القدس اللاهج بالله كوكب الكنيسة
الباهر الضياء المرشد الالهي للمستقيمين للرأي المقاوم للبدع الكلي الثبات
ولنصرخ نحوه هاتقين : السلام عليك ايها القديس فوطيوس الكلي
الاكرام . اورولوغيون

1) Dvornik, F., Phot. Sch., 389.

2) Culte de Photius dans l'Eglise Byzantine, Rev. Or. Chrét., 1923, 109 ff.

3) Papadopoulos - Kerameus, Mon., II, 662.

4) Dvornik, F., Ph. Sch., 388 - 389.

5) Ibid. 388.

وأدرك باسيلوس خطورة الموقف في البحر المتوسط . فان المسلمين كانوا قد استقروا في صقلية وجنوب ايطالية . وكان قد تبين جلياً ان الامراء اللومبارديين لا يقوون على الصمود في وجه المسلمين وان الامبراطور الغربي لويس الثاني كان قد أصبح ضعيفاً . وكان قد أم القسطنطينية وفدان أحدهما يمثل لويس الثاني والآخر يمثل البابا ليحثا الفيلسوف على صيانة النصرانية . فهب باسيلوس في السنة ٨٦٨ وأنفذ اسطولاً قوياً بقيادة نيقيطاس . وقدر النجاح لهذا القائد فأعاد النظام والأمن الى بحر الادرياتيك . وعادت مدن دلمانية الى حوزة الفيلسوف واعترفت دويلات الصرب والكروات بسيادة القسطنطينية . وضرب نصر السوري بوارج المسلمين ضربات أليمة في مياه ايطالية الغربية وأحرز نصراً كبيراً بالقرب من جزر ليباري فدخلت كابوا وسالرنو ونابولي وغيرها في حاية الروم ودخل البابا يوحنا الثامن في حلف مع الروم . وجاءت السنة ٨٨٥ فأحرز القائد نيقيفوروس فوقاس انتصارات برية عديدة تمكنها من استعادة مقاطعات ايطالية الجنوبية من يد المسلمين فأنشأ في السنة ٨٨٦ ثيمة لانغورديية وثيمة كلابرية وقوت الكنيسة الارثوذكسية أبرشياتها في هذه المنطقة عينها .

لاوون السادس : (٨٨٦ - ٩١٢) ولم يكن لاوون السادس « الحكيم » رجل حرب كوالده فلزم القصر واهتم بشؤون السلم والعلم والدين . وسنعود الى اثره في نظم الكنيسة فيما بعد . وكانت اقريطش قد أصبحت مأوى قرصان المسلمين وملجأهم . وقسام لاوون الطرابلسي في السنة ٩٠٤ بهجوم جرى على القسطنطينية . ثم انثنى من تلقاء نفسه على ثسالونيكية . وقدر له ان تكون خالية من الحامية فدخلها عنوة وقتل ونهب ثم سبى اثنين وعشرين ألفاً من الشبان والشابات فباعهم في أسواق الرقيق في الخندق في اقريطش وفي طرابلس . فهب هماريوس في السنة ٩٠٦ فانتصر على المسلمين انتصاراً كبيراً . وتشجع وتقوى فقاد في السنة ٩١٠ حملة بحرية على اقريطش نفسها فاحقق اخفاقاً كبيراً . وفي السنة ٩٠١ سيطر المسلمون على مضيق مسينة . وفي السنة التالية تم استيلاؤهم

على صقلية فأعلن امير القيروان انه « سوف يخرب مدينة الشيخ الهرم بطرس نفسها » .

قسطنطين السابع ورومانوس الاول : (٩١٢ - ٩٥٩) وتوفي لاوون السادس في السنة ٩١٢ . وكان قد جعل للدولة اباطرة ثلاثة : هو نفسه وأخاه الكسندروس وقسطنطين السابع الارجواني المولد . وكان قسطنطين لا يزال في السادسة من عمره فتسلم مقاليد الوصاية عمه الكسندروس . ثم توفي هذا في السنة ٩١٣ بعد ان أقام مجلس وصاية برئاسة البطريرك . وفي السنة ٩١٩ احتل القائد رومانوس ليكاينوس البلاط واستحوذ على شخص الفيلسوف الصغير وأزوجه من ابنته وأعلن نفسه أبا الملك ثم قيصر ثم فيلسافاً .

وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون مغلوبين على امرهم لقلة طاعة الجند ولشدة نفوذ الخدم ولدسائس امهات الامراء وشاياتهم ومؤامراتهم ولشغب الجند على القادة وتنازع هؤلاء السيادة . وكان ان شعر الولاة بضعف الخلفاء فانصرفوا الى جمع المال فعمد الخلفاء الى اغتيال الولاة فكثرت العصيان واضطربت الأحوال .

وقبيل انتهاء الحرب البلغارية حطم الروم عمارة لاوون الطرابلسي في مياه المنوس (٩٢٤) ونجا لاوون نفسه باعجوبة ! وما ان وضعت الحرب البلغارية أوزارها في السنة ٩٢٧ حتى بادر الروم الى الهجوم وهب قائدهم غرغون Courcouas الى القتال في آسية الصغرى فأحرز انتصارات متتالية وتمكن من جعل دجلة والفرات الحد الفاصل بين الروم والعرب بدلا من الهاليس . وعاون غرغون في هذه الحروب عدد من كبار الضباط قدبر لهم فيما بعد ان ينتصروا هم ايضاً كما انتصر غرغون نفسه . وأشهر هؤلاء ثيوفيلوس ابن غرغون وبرداس فوقاس وابناه نيقيفوروس ولاوون . ففي السنة ٩٢٨ احتل الروم ارضروم واخرجوا المسلمين من ارمينية . وفي السنة ٩٣٤ استولوا على ملاطية ثم ناوهم سيف الدولة صاحب الموصل وتمكن من ايقاف تقدمهم . ولكنهم عادوا الى الهجوم بين السنة ٩٤١ والسنة ٩٤٢ فاحتلوا دارا ونصيبين وميفارقين وقاربوا

حلب . وفي السنة ٩٤٤ توج غرغون انتصاراته بأن نقل بموكب فخيم « مندبل السيد » الذي كان قد احتفظ به أبحر ملك الرها من هذه البلدة الى القسطنطينية .

دولة الحمدانيين : (٩٤٢ - ١٠٠٣) ولم يقع اي تمزيق جديد في جسم الدولة العباسية في ايام المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) والمكتفي (٩٠٢ - ٩٠٨) . ولكن في عهد المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) عادت الدولة الى ما كانت عليه من التفكك ثم أضاع القاهرة (٩٣٢ - ٩٣٤) والرازي (٩٣٤ - ٩٤٠) والمتقي (٩٤٠ - ٩٤٤) والمستكني (٩٤٤ - ٩٤٦) آخر ولاياتهم فاضمحلت بذلك سلطة الخليفة الزمنية بكاملها .

وكان بين الطامعين في الملك والسلطان في أثناء هذا الانحلال بعض القبائل البدوية العربية . ولعل أشهر هؤلاء بنو تغلب . فان كبيرهم الامير عبدالله بن حمدان تمكن في السنة ٩٠٥ في عهد المكتفي من الاستئثار بالسلطة في الموصل ونواحيها . وتمكن ولداه حسن وعلي في السنة ٩٤٢ من انتزاع اللقبين ناصر الدولة الاول وسيف الدولة الثاني . وتوغل سيف الدولة في الجزيرة في السنة ٩٣٧ . وفي السنة ٩٤٤ دخل حلب وأسس فيها دولة دامت حتى السنة ١٠٠٣ . وبقي ناصر الدولة في الموصل يسكن الفتن في بغداد بينما هب سيف الدولة يمتشق حسام الاسلام في وجه الروم . وما فتئ كذلك حتى أدركته المنية في السنة ٩٦٧ .

ولما استقر سيف الدولة في حلب وجعلها عاصمة للكله وقاعدة لاعماله الحربية تحول القتال الرئيسي بين الروم والمسلمين من جبهة ارمينية الى خط جديد امتد من قليقية حتى ديار بكر . وانتقلت المبادرة في هذه الحروب الى الروم . ويرى رجال الاختصاص ان انتصار الروم على المسلمين في القرن العاشر لم يكن نتيجة ضعف العباسيين فحسب بل انه تأتى عن تجدد عند الروم وتيقظ وتنشط وان هؤلاء وان اختلفوا في العنصر فقد اتحدوا في الارثوذكسية . وفي المفاخرة باجداد ماضية وشعروا بوجوب اعادة النظر في انظمتهم السياسية والاجتماعية

والاقتصادية وبوجوب اتقان الجيش وتكميله ليأتي بالفائدة المطلوبة . فالروم في القرن العاشر في نظر هؤلاء كانوا في يقظة ونشاط لا في غفلة وانقسام (١) .

وأثقل الحمدانيون كاهل العشائر الضاربة في الجزيرة بالضرائب وبين هؤلاء بنو حبيب . وكان بنو حبيب تغالبة ايضاً فشق عليهم الأمر فانقبضوا ثم خرجوا للقتال . فجرد عليهم ناصر الدولة في السنة ٩٣٥ فقهرهم . فعولوا على الرحيل . فقاموا عشرة الاف فارس بنسائهم واولادهم وعبيدهم وقطعوا الحدود والتجأوا الى الروم وعادوا الى النصرانية دين الجدود . وحذا حذوهم غيرهم من عشائر الجزيرة (٢) .

وفي السنة ٩٣٨ سجل سيف الدولة انتصاره الاول على الروم أمام حصن زياد فدخله عنوة . ثم خرج منه يقاتل فأدركه الروم بين حصن زياد وحصن سلام فدارت الدائرة على الروم فيما يظهر وتغنى ابو فراس بالنصر . وفي السنة ٩٣٩ أنفذ الروم حملة الى القوقاس لتأديب الكرج لأنهم امتنعوا عن غزو المسلمين على الرغم من كونهم ارثوذكسيين يدينون بدين الفيلسوف . فاستنجد الكرج الحمدانيين . فهب سيف الدولة لمعونتهم وأجلى الروم عن بلادهم . وفي الربيع التالي توغل سيف الدولة في بلاد الروم فأصبح زعيم الجهاد الاكبر وعدو النصرانية عند الروم . وشغلت سيف الدولة ما بين السنة ٩٤٠ والسنة ٩٤٤ مشاغل في عاصمة الخلافة كان محورها السلطة العليا فانقض الروم على قيليقية في خريف السنة ٩٤٠ ووصلوا الى منطقة كفرتوتة . ثم شغلوا في اوروبة قتراجعوا . وعادوا في مطلع السنة ٩٤٢ فانطلقوا في سهول قيليقية حتى حدود سورية . ثم انقض غرغون في خريف هذه السنة نفسها على مقاطعة ديار بكر فاستولى على ميافارقين كما سبق وأشرنا . وكان ما كان من أمر المندبل . وفي السنة ٩٤٤ دخل سيف الدولة حلب وحصن وانتزعها من يد الاخشيديين فانطلق الروم في منطقة مرعش ومنطقة بغراس حتى مداخل انطاكية . فرد سيف الدولة باغارة في منطقة عرابسوس .

(1) Gelzer, H., Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, 8 ; Canard, M., Dynastie des Hamdanides, I, 718 - 719.

(2) Canard, M., op. cit., I, 741 - 747.

وجاءت السنة ٩٤٦ فتبادل الحصان الاسرى عند لامس سلفكية . وفي ربيع السنة ٩٤٨ خرج الروم من ملاطية وسميساط واتجهوا نحو الجزيرة ليستولوا على ممر الحدث مرعش . فصمد سيف الدولة في معركة جلباط الوارد ذكرها . في احدى قصائد ابي فراس . وفي الربيع التالي ٩٤٩ ظهر لاوون بن فوقاس امام الحدث محاصراً فدخلها عنوة ودك حصونها . واستولى الروم ايضاً على مرعش وقتلوا عند أسوار طرسوس . وحملوا على جزيرة اقريطش ولكن دون جدوى . وفي ربيع السنة ٩٥٠ قام سيف الدولة الى الجزيرة يتفقد شؤونها فانقض لاوون بن فوقاس على شمال سورية حتى مداخل انطاكية وحاصر بوقه في سهل العمق . فهب محمد بن ناصر الدولة لقتاله ولكنه فشل فشلاً ذريعاً .

خرشنة والمصيبة : (٩٥٠) وعاد سيف الدولة الى حلب يستعد للقتال فجمع ثلاثين ألفاً واصطحب ثلاثة من الشعراء المتنبي و ابا فراس و ابا زهير المهلهل ونهض الى مرعش فملاطية فاحتل صارخة وقتل وسبى وأحرق . وأراد العودة الى حلب . ثم علم ان لاوون ابن فوقاس قد حشد في منطقة خرشنة *Charstanon* فعاد اليه وأنزل به خسارة كبيرة . ثم اتجه نحو الجنوب فصمد له الروم في درب الجوزات بين الالبستان والحدث . ومرت طلائع سيف الدولة ولم يحرك الروم ساكناً . ثم اقبل سيف الدولة فوجد الممر مقطوعاً فأمطره الروم حجارة وصخوراً وسهماً . ثم لحق به الروم مرة ثانية وثالثة وأرهقوه فتفرق عنه رجاله ففر هارباً نحو حلب فعرفت هذه الحرب بغزوة المصيبة .

يوحنا جيمسكي : وفي السنة ٩٥٨ بدت علامات الضعف في مقاومة سيف الدولة . وتسلم قيادة الروم يوحنا جيمسكي *Jean Tzimiskes* « يوحنا شمشيق » فأحرز انتصارات متتالية في الجزيرة العليا واحتل أكثر مدنها . ثم حاصر سميساط على الفرات الاعلى وأنزل بسيف الدولة سلسلة من الهزائم وبعد السنة ٩٦٠ أضاف الروم الى ملكهم كل ما وقع شرقي الفرات جاعلين من هذه المناطق ثيمة الجزيرة (١) .

احتلال اقريطش : (٩٦٠ - ٩٦١) وكان لقسطنطين السابع ولد اسمه رومانوس تزوج وهو ابن سبع عشرة سنة بابنة اسمها ثيوفانو . وكانت ثيوفانو تكره العيشة بين حماها وبنات حميها . فأوعزت الى زوجها رومانوس قدس السم لوالده قسطنطين . وشرب منه جرعة فلم يعيش قسطنطين الا سنة واحدة . وكان رومانوس الثاني منصباً على الشهوات والملاهي فاتكل على زوجته في ادارة الامور وعلى رجل اسمه يوسف ابرينكاس *Bringas* . ولمس ابرينكاس ضعف العرب ورأى الظرف ملائماً لارجاع اقريطش الى حوزة الروم . فأعد نيقيفوروس فوقاس اسطولاً عظيماً وجيشاً كبيراً واقتحم الخندق فدخلها عنوة في ربيع السنة ٩٦١ ثم استولى على الجزيرة بأسرها . ونقل اليها جاليات يونانية وأرمينية واستدعى نيقن مطانويتا القديس المبشر ليكرز فيها باسم المسيح وينصّر سكانها المسلمين .

مغارة الكحل : (٩٦٠) وأحب سيف الدولة ان يغتنم هذه الفرصة السانحة فجهز ثلاثين ألفاً وقام بهم الى خرشنة . فأسرع لاوون فوقاس الى نلال طوروس يسد عليه طريق العودة وكن له عند ممر اندراسوس *Andrasos* « مغارة الكحل » فهزمه فيه . وعظمت غنائم لاوون فأسر عدداً كبيراً من المسلمين وأطلق سراح جميع من كان قد وقع في الاسر من الروم (١) .

عين زربا وحلب : (٩٦٢) ورأى نيقيفوروس ان يستغل الكارثة التي حلت بسيف الدولة فيفتتح قبليقية اكبر المعازل البحرية الاسلامية بعد اقريطش واقرب الطرق الى سورية . فجال جولة موفقة في مطلع السنة ٩٦٢ واستولى في اثنين وعشرين يوماً على خمسين بلدة او حصناً . وعاد في اول الصوم الكبير الى قبد وقية . وأعاد الكرة في الخريف فافتتح عين زربة . ولم يقوَ سيف الدولة على الصمود في وجهه عند ممرات الامانوس فتدفقت جيوش نيقوفوروس الى سهول سورية حتى منبج على الفرات . ثم حاصر نيقوفوروس حلب احد عشر يوماً (٢٠ - ٣١ كانون الاول ٩٦٢) فاقتحم سورها ولكنه لم يقوَ على القلعة . وعاد

1) Canard, M., op. cit., I, 800 - 803.

1) Philipson, A. E., Byzantinische Reich, 173.

الى القسطنطينية بغنائم عظيمة . وعلم بوفاة رومانوس الثاني وهو في طريقه الى العاصمة .

نيقيفوروس فوقاس : (٩٦٢ - ٩٦٩) وتوفي رومانوس الثاني اما مسموماً او مسقوماً فتسلمت زوجته ثيوفانو زمام الحكم بالصاية على ولديها القاصرين باسيلوس وقسطنطين . وكانت تكره ابرينكاس وتحب نيقيفوروس . فاستدعت نيقيفوروس من حلب . وسمح هذا الجنوده ان ينادوا به فيلسافاً وهو في طريقه الى العاصمة . فلما نهض اليها من قيصرية قامت ثورة ضد ابرينكاس ودخل نيقيفوروس العاصمة وتقبل التاج من يد البطريرك مشتركاً في الحكم مع القاصرين . وبعد شهر واحد تزوج من ثيوفانو الوصية الارملة . ولما جاء الى الكنيسة وطلب الدخول من الباب الملوكي اعترضه البطريرك بوليفكتوس بسبب زواجه من الثانية في حياة الاولى خلافاً للناموس .

فتوحات الروم في سورية : (٩٦٣ - ٩٦٩) وكان نيقيفوروس جندياً مدهشاً وتكتيكياً قديراً وقائداً محكماً فأحبه الجنود وتعلقوا به . وكان زاهداً قنوعاً قاسياً متصلياً ولكنه كان في الوقت نفسه محباً عطوفاً . فأصبح رجل الساعة بقوة ارادته وتمسكه بالسلطة وحبه للدولة واخلاصه لها .

وأوقف الانقلاب في القسطنطينية الأعمال الحربية في قيليقية وسورية . فعاد سيف الدولة الى حلب واستعاد عين زربا وغيرها في قيليقية . وحاصر ابن شمشيق مصيصة في صيف السنة ٩٦٣ ولم يستول عليها . وقام الى ادنه فتحاده حاكم طرسوس فهزمه ابن شمشيق ولكنه اضطر ان يغادر قيليقية لما حل بها من قحط وجوع وأوبئة .

وفي ربيع السنة ٩٦٤ تولى نيقيفوروس القسطنطينية نفسه قيادة جيوشه . فأنشأ قاعدة هامة للتموين في قيصرية قبدوقية وزحف برجاله فاقترحم عين زربا وأدنه واستولى على اسوس عند مدخل سورية وعاد الى قبدوقية لتمضية فصل الشتاء . وفي السنة التالية عادت قيليقية بأسرها الى الروم بعد ان كانت زهاء ثلاثة قرون قاعدة برية بحرية تنقض منها جيوش الاسلام واساطيله على

الامبراطورية . وفي شتاء هذه السنة عينها احتل الروم قبرص ايضاً . وفي شتاء السنة ٩٦٦ أغار نيقيفوروس على الجزيرة فدخل دارا ونصيبين واستولى على الآجرة المقدسة « القرميدة » *Karimidion* التي كانت تحمل صورة السيد العجائبية . ثم انقض على انطاكية في حملة ارهايصة . وفي خريف السنة ٩٦٨ عاد القسطنطين الى الفتح فحاصر ابن سيف الدولة في حلب وقام بجيشه الى حصن فدخلها ثم انحدر منها الى عرقة فطرطوس فجبلته وأبقى فيها حاميات من الروم . ثم ظهر أمام انطاكية يشدد الحصار عليها بامرة ميخائيل بورجس البطريرك ويرم قلعة بغراس في طريق انطاكية الاسكندرونة . وأقام ابن اخيه بطرس فوقاس قائداً عاماً وأوصاه بوجوب انتظاره وعدم اقتحام انطاكية قبل عودته . وقام هو الى القسطنطينية فدخلها بموكب نصر عظيم في مطلع السنة ٩٦٩ وفي اثناء غيابه اتصل نصارى انطاكية بقيادة الروم مؤكدين وقوع القوضى في صفوف المسلمين . فاندفع البطريرك وقام ببعض رجاله فتسلق الأسوار ودخل بعض الابراج وكاد يموت موتاً لولا وصول لاوون واسعافه . وسقطت انطاكية بيد الروم في الثامن والعشرين من تشرين الاول بعد ان بقيت اسلامية ثلاثة قرون ونيفاً . واشتد حماس الجند وألحوا بوجوب اقتحام حلب وفعلوا فسقطت في يدهم في كانون الاول من السنة نفسها . ووقع صاحبها قرغويه معاهدة مع الروم اعترف فيها بسيادتهم وحمايتهم . واعترف الروم بولايته على حلب وولاية بكجور بعده على ان يعينوا اميراً عليها من يرونه لائفاً من أبناء حلب بعدهما . ومن شروط هذه المعاهدة ان يقيم في حلب ممثل رسمي للقسطنطين وان يدفع الحلبيون ديناراً عن كل ذكر في كل سنة وان يمتنعوا عن جباية الجزية من النصارى وان يؤمنوا طرق التجارة وان تشرف لجنة من الروم والحلبين على جباية الكمارك (١) .

وعاد بطرس فوقاس الى انطاكية وحقق في مقتل البطريرك خريستوفوروس الذي أشرنا اليه سابقاً فحبس ابن مارك ايماً ثم أخرجه الى جسر باب البحر حيث

1) Schlumberger, G., *Nicéphore, op. cit.*, 730 - 733 ; Canard, M., *op. cit.*, I, 831 - 838. (الزبداء لكامل الدين ابن العميد (مجموعة كتاب ص ٤١٩ - ٤٢٤) .

طرح جثة البطريك وأمر به فقطع بالسيف عضواً عضواً ورُمي بكل ناحية قطعة . وأما ابن محمود وابن دعامة شريكاه في الجرم فانها كانا قد حملا الى سجن طرسوس وبقيتا فيه مدة طويلة . ومات ابن محمود في الحبس وبقي ابن دعامة الى ان جاء ميخائيل البورجي فاحضره الى انطاكية وثقله بالحجارة وطرحه في النهر (١) .

يوحنا جيمسكي : (٩٦٩ - ٩٧٩) ولم ترض ثيوفانو الفيلسفة عن حياتها الزوجية مع نيقيفوروس . وكان ابن اخته يوحنا جيمسكي جميل الصورة لا يزال في الخامسة والاربعين من عمره فأحبته ثيوفانو فأبعده نيقيفوروس . فأقنعت ثيوفانو زوجها فأرجعه الى البلاط . وكانت مؤامرة بين ثيوفانو ويوحنا فذبح نيقيفوروس ذبحاً في اواخر السنة ٩٦٩ ونودي بيوحنا فيلسفاً بالاشتراك مع باسيليوس وقسطنطين القاصرين .

وكان يوحنا جيمسكي او ابن شمشيق كما عرفه العرب شجاعاً باسلاً منزناً صبوراً لطيفاً كريماً . وكان قد اشترك في معظم حروب نيقيفوروس ففرقه الجنود واحبوه وتعلقوا به . فأعاد باسيليوس ليكاينوس الى الادارة المركزية وانصرف هو الى السياسة والحرب .

ثيودوروس بطريك انطاكية : (٩٧٠ - ٩٧٦) وكان الموقف السياسي في سورية لا يزال حرجاً فطلب الفيلسفس الجديد الى البطريك المسكوني بوليفكتوس ومجمعه المحلي ان ينتخبوا بطريكاً على انطاكية وسائر المشرق لان هذا الكرسي الرسولي كان لا يزال شاغراً منذ قتل خريستوفوروس . واقترح الفيلسفس انتخاب الراهب ثيودوروس قتم انتخابه في الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ٩٧٠ . ولما وصل ثيودوروس الثاني الى مركز رئاسته في انطاكية خرج الى كنيسة « ارشايا » وحمل جسد سلفه خريستوفوروس الى القسيان (٢) .

دمشق تعترف بسيادة الروم : (٩٧٥) وأنهى ابن شمشيق مشكلة الروم

1) Eutichius, Ann. II, (Yahya b. Said), 134 - 135.

2) Eutichius, Ann. II, (Yahya b. Said). 138.

والبغاير فعزم على ازالة خلافة بغداد والاستيلاء على بيت المقدس . ولكن كان عليه قبل هذا وذاك ان يجابه دولة فنية جديدة كانت قد قامت في مصر . فان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع كان قد سير جوهر الرومي الى مصر في السنة ٩٦٨ فافتتحها وازال شعار الاسود العباسي وألبس الخطباء الابيض وفتح دمشق وأنفذ جيشاً الى انطاكية فحاصرها خمسة اشهر خلال السنة ٩٧٠ - ٩٧١ . وكان الفيلسفس قد اكتفى بأن عين ميخائيل بورجس دوقاً على انطاكية وجعلها سالحة للدفاع . وكان قد أنفذ في السنة ٩٧٣ الدومستيقوس الارمني عليه Mleh الى الجزيرة غازياً . فاستولى هذا القائد على ملاطيه ولكنه ارتد امام آمد فاعتقل وأرسل الى بغداد فتوفي فيها . وفي السنة ٩٧٤ قام الفيلسفس بنفسه قاصداً بغداد فدخل ارمينية وحالف ملكها اشوت ثم استولى على آمد واحرق ميفارقين ودخل نصيبين وادخل امير الموصل الحمداني في طاعته . وتعسر عليه تموين جيشه فعاد الى القسطنطينية .

وفي ربيع السنة ٩٧٥ انطلق ابن شمشيق من انطاكية قاصداً اوروشليم . وما ان أطل على دمشق حتى فاضحه حاكمها فاعترف بسيادة الفيلسفس وتقبل حامية مسيحية ودفع جزية ستين الف دينار في كل عام . وكتب بذلك كتاباً وأخذ فيه خطوط الاشراف وقدّم جماعة منهم رهينة . ولما كانت قوات الفاطميين قد التجأت الى مدن الساحل قام الفيلسفس ابن شمشيق الى الساحل قبل التوغل في الجنوب فاحتل جبيل وبيروت وأسر امير هذه المدينة نصر الخادم وحمله الى بلاد الروم . وزل على طرابلس فلم يتم له شيء فيها . ثم استولى على بانياس وجبله وسلم كليب النصراني كاتب رقطاس حصن صهيون فصيرّه الفيلسفس بطريقاً ثم « باسليقا » على انطاكية (١) .

اوروشليم : وقام الى طبرية فدخلها . ثم قام الى الناصرة فحف عنها احتراماً واجلالاً وتساق جبل الطور تيمناً وتضرعاً . وتقبل هناك دخول اوروشليم والرملة وعكة في الطاعة وارسل اليها عسكريين يقيمون فيها (٢) .

1) Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 145 - 146.

2) Laurier, E., Chronique de Mâtthieu d'Edesse, 16 - 24 ; Georges Hamartolus Continuator, 865.

باسيليوس الثاني : (٩٧٦ - ١٠٢٥) وتوفي ابن شمشيق مسموماً . وكان باسيليوس واخوه قسطنطين قد بلغا سن الرشد او ما يقرب منها . وكانا يهابان الخصي باسيليوس لانه كان قد تولى تربيتهما . وحدثته نفسه بالملك فأرجع ام الفيلسفين ثيوفانو وعزل القائد الاعلى برداس اسكليروس وعينه في وظيفة ثانوية في قيادة جيش الجزيرة . فذهب برداس واتحد مع اعداء باسيليوس الخصي . فكانت بينه وبين جيوش العاصمة مواقع هائلة وحروب شديدة دامت اربع سنوات . ولجأ برداس الى بغداد وطلب معونة الخليفة العباسي الطائع (٩٧٤ - ٩٩١) .

اغاييوس بطريرك انطاكية : (٩٧٧ - ٩٩٦) وكان باسيليوس الفيلسوف قد استدعى ثيودوروس الثاني البطريرك الانطاكي في بدء ثورة برداس . وأرسل اليه « شلندي » يقلسه الى القسطنطينية بجزراً . فسار البطريرك ولما بلغ طرسوس توفي فيها . فبعث اهل انطاكية « يلتمسون بطريركاً يكون عليهم ويتولى تدبيرهم » . فاستقر الامر على ان يكتبوا الى الفيلسوف بمن يقع اختيارهم عليهم . فاختروا جماعة وكتبوا الى الفيلسوف بهم وطلبوا الى اغاييوس اسقف حلب ان يحمل رسالتهم الى الفيلسوف . فسألهم اغاييوس ان يضيفوا اسمه الى جملة الاسماء . فاجابوه الى ذلك . فشخص بالكتاب الى حضرة الفيلسوف وأنهى اليه حال انطاكية وتمسك اهلها بطاعته « واعلمه ان الصواب يقضي بأن يكون لها بطريرك يديرها ويثبت اهلها على طاعته » . فكتب الفيلسوف الى المايسطرس في انطاكية يستميله ويعده بالاحسان اليه ويضمن له ولاية انطاكية مدة حياته وانه اذا تم ما استقر بينها يكون اغاييوس بطريركاً على انطاكية .

وعاد اغاييوس الى انطاكية متكرراً بزي رهب . ولما وصل اليها اجتمع بالمايسطرس وقدم له كتاب الفيلسوف قبله ودعا وقطع اسم فوقاس الشائر واعترف باغاييوس بطريركاً على انطاكية .

ولما استقر أمر اغاييوس كتب رسائل الجلوس وبعث بواحدة منها الى ايليا البطريرك الاسكندري وقرن بها « امانته » ليُعلم منها انه يقول بما اتفق عليه

اصحاب المجامع المسكونية السبعة وطلب اليه ان يذكر اسمه في الذبتيخة . فأنكر ايليا الاسكندري عليه فعله لانه ترك ابرشيتيه في حلب ليصير بطريركاً على انطاكية فأصبح حاله « حال من تزوج ابنة ثم تركها واخذ والدتها او كمن طلق زوجته وتزوج غيرها » . واكد ايليا ان درجات الكهنوت مرتبة على مثال طغيات الملائكة والنجوم والكواكب التي تلزم نظامها ومواضعها . وطلب محضراً من اهل انطاكية وكهنتها وشيوخها يذكرون فيه واقع الحال . فرد اغاييوس رداً طويلاً وفق فيه بين التقليد الرسولي وبين كيفية وصوله الى كرسي الرسولين في انطاكية . واليك نصه بالحرف كما حفظه يحيى ابن سعيد الانطاكي في تاريخه :

« بسم الله الرحمن الرحيم كتابي ايها الاب الروحاني الطاهر المشارك في الخدمة المساوي في الرتبة المتحد في الروحانية من الكرسي السليحي بمدينة الله الفائزة بفخر اسمه المحفوظة بتلميذه . واول رحله يوم السبت السابع من كانون الاول عن سلامة بيع الله المقدسة واولادها قبلي وسلامي من بعدهم والحمد لله على ما من واولي وهو المسؤول أن يتم اسباب ستره على هذا الشعب واکال نعمته على هذه الامة قبلي وقبلك وقبل كل راع استرعاه في كل موضع ارتضاه بمنه وكرمه .

« وقد وصل كتابك ايها الاب الروحاني الطاهر على يد أنبا يوحنا الراهب المنفذ من مسكنتنا الى قدسك . وأحطت علماً بمشتمله وسررت بأخبار سلامتك وما استدلت عليه من الاستقامة قبلك . ثم طار بعد ذلك فكري وتعمس ذهني وذهل عقلي وتقطعت خواطري متأملاً ما كتبتك ومتبحراً ما أجبته . ولا أدري ما السبب الذي حملك على دفع غير مدفوع وانكار غير منكر والاحتجاج بما لا يبلغ وقول ما لا يليق . وقد كان ينبغي اذ عرفت موضع ابتدائي وإشاري للتيارك بمشاركتك وانفاذي رسولي اليك في وقت كان يكاد ان يتعذر فيه عبور الطيور من جهتنا الى جهتك فضلاً عن الرسل والكتب الا كنت تكتب بما كتبت به دون ان تتحقق انك فيه على حق لا ينحل وجحة لا تبطل وصواب لا ينكر وقاعدة لا ينسب اهلها الى هوى ولا غي ولا قصد ولا حال من الاحوال التي قدسك متبرئ منها ومرتفع عنها .

« وما ان تذكر ايها الاب الروحاني غمك بما صار اليه حالي وقلقك بما جرى عليه أمري وإيثارك الموت دون السماع بمثله فهذا ما كان يليق اذ كان لم يمر بحمد الله هاهنا ارايسيس ولا فساد مقالة ولا نقص سنة ولا حالة غير معروفة . والذي جرى هو أمر صغر حالي عنه وبعد موضعي منه لارتفاعه مني وقلة قيامي به وتفاوت نقص استحقاقي له . الا انه لم يكن مني ولا اتى بسعي الا ما اختاره اصحابي ورصي به شمي وأمضاء رؤساء الدولة وعرفه علماء الملة في المدينة العظمى التي عليها يعمل ومنها يقتبس . وكيف يجوز ان ينكر واحد ما تجتمع عليه هذه الطبقة وترضى به هذه الامة . وهو أمر مشهور عندنا مستعمل بيننا على قديم الزمان الى حيث انتهينا .

« والذي ذكرته أيها الاب الروحاني في هذا الباب أنا أعلم أنك لم تذكره إلا لبعده العهد بهذا الحال ببلدك ولعدم الكتب التي تنبئ بمثله في ناحيتك ولقلة من يستعملها ويقتبسها في موضعك للأحوال التي دفع إليها أهل تلك الديار فما نسأل الله المعونة عليه . وإذا أنت رجعت إلى الفحص من ذلك وجدته أمراً لم يبدأ منا ولا يتناهى فينا . وذلك أنك تجد القديس أفسطاثيوس بطريرك مدينتي هذه وقد نقله السينودس المقدس بيقية من حلب إلى أنطاكية ووجدت القديس ملاطيوس منقولاً من لاريسه إلى حلب ومن حلب إلى أنطاكية وقد حضر السينودس الثانية في القسطنطينية ونقل القديس غريغوريوس الثالوثي من نازينز وكرسه على كرسيها ووجدت أودوكسيوس قد نقل من مرعش إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية ووجدت أوسابيوس قد نقل من بيروت إلى نيقوميدية ومنها إلى القسطنطينية ووجدت جماعة آخرين منقولين إلى مواضع عدة .

« هذا بعد ما بطرس السليح الذي هو أساس البيعة ورأس الشريعة ومقامه اثنتي عشرة سنة بانطاكية وانتقاله بعد ذلك إلى رومية . وكفاك به من شاهد وتناهى عن ذكرناه قليلاً من كثير قدوة يقتدى بها وأصلاً يرجع إليه . وإذا كان ذلك كذلك فقد عرفت منا أيها الاب الروحاني ما طلبته ووجدت ما ابتغيته إذ كان التماسك في كتابك أن يوجد في هذا الباب أصل يرجع إليه وطريق تفسح لك في قبول الكسوف ورفع الاسم لا سيما مع علمك بأن هذا ليس هو ما تدعو إليه حاجة ضرورية وإنما يراد به اتحاد البيعة المقدسة بالروحانية . ومن طلب أن يتحد مع قدسك ويشارك خدمتك فليس يجوز أن تنفرد عنه بالحجج التي احتججت بها ويتضح حلها ويقوم البرهان بصحة غيرها .

« من ذلك تشبيه هذا الأمر بمن تزوج ابنة ثم تركها وأخذ والبتها . وقد ارتفع الكهنوت الإلهي عن التشبيه بالتزويج البشري . ولو لم يكن الأمر كذلك لكان إذا توفي أسقف وكان له أخ يستحق رئاسته لا يجوز له أن يرجع موضعه كما لا يجوز للأخ أن يأخذ زوجة أخيه بعد وفاته . والتشبيه بمن طلق امرأة وأخذ غيرها يبعد أيضاً عما نحن فيه ولا يليق أن يشبه به إلا لم يكن بالجائز للمدينة أن يصير عليها غير أسقفين كما لا يجوز للمرأة أن تتزوج أكثر من زوجين . فأما قول السيد المسيح بأنه من طلق امرأته فقد جعلها أن تفجر ومن تزوج مطلقة فإنه يفجر فلم يكن مقولاً عن الكهنوت وإنما كان كلامه على اليهود لما حضروه محربين له فأراهم بعد طباعهم عما يوجب ناموس الطبع اللطيف والعقل الخفيف من المحافظة على الزوجة البشرية والتمسك بحبها لاجل أن الاثنين قد صاروا جسداً واحداً كما قال الكتاب حتى أظهر عيوبهم وأحوجهم إلى أن قالوا لقد كان أخيراً للرجل أن لا يتزوج بالكلية . وإن كان كذلك فأيّة مناسبة بين هذا المعنى وبين الكهنوت الإلهي التي هي درجات تترقى من اللون إلى التي فوقها . فأما تشبيه هذه الدرجات بطبقات الملائكة التي تحفظ كل طعمة منها موضعها ولا تنهدأ إلى غيرها فهذا أيضاً مما لا يشبه في حال النقلة والالام يكن بالجائز للانتمسك أن يصير أيوذاً كون ولا لا أيوذاً كون أن يصير تاماً ولا لتمام أن يصير قسيساً ولا للقسيس أن ينتقل إلى ما فوق . فأما تشبيهها بالنجوم فإن الكواكب لازمة لظاهرها ومواقعها لا ينتقل أحدها إلى موضع غيره فهذا أيضاً بعيد لا يليق لأن الكواكب أجرام غير ناطقة رتب الباري كل واحد منها في موضعه وجعل طبيعته لا تتغير من حالته . فأما الإنسان فإنه

جعله حيواناً ناطقاً متحرراً من حال إلى حال ومن أمر إلى أمر . والخلق به أن يكون انتقله إلى ما هو أشرف وحركته إلى ما هو أعلى . فمن هذا جاز أن ينتقل من ذكرنا نقله . وقد قامت الشواهد بهذه الحال .

« فأما ما التمسته أيها الاب الروحاني من احضار محضر من المدينة الشريفة يذكر فيه كيف جرت هذه الحالة والرضى به فلم يجر بذلك رسم ولا فعل هذا من قدمني فأفعله أنا بعده . ولولا تعذر الطريق في هذا الوقت إلى ما هناك لقد كان ذلك سهلاً . فأما أنفاذ خطوط كهنة الكرسي وشيوخه بالرضى فهذا نريد أن يكون لو لم يتم الأمر وحينئذ تكون الشبهة لاحقة في مثل هذا . فأما بعد تمامه ومضي سنة عليه فانت تعلم أنه لو لم يحصل في الأول خطوط ويقع إجماع ورضى قبل التوجه إلى المدينة المتسلكة لما كان تم .

« وكان بعد تمامه اضطراب ولم يقع بعده سكون . ونحن كنيسةنا بحمد الله واحدة والمشاركة فيها من كل جهة واقعة والمحبة بين أولادها تامة كاملة وليس ها هنا خلف ولا انفراط ولا انشقاق ولا حال فيها شبهة تحتاج إلى أنفاذ ما التمسته . وظلمة مثل هذه في غير موضعها تجري مجرى المعاينة والاجابة إلى مثل ذلك نقص وإيقاع شبهة . فاما الحق بالمودة الإلهية والأليق بالأحوال الروحانية أن تدع التماس ما لم تجر العادة بالتام والاحتجاج بما قد بطل وبمثله والرجوع إلى الواجب في تأكيد المودة واتمام اتحاد الخدمة والمشاركة حتى يزول الشك ويرتفع سبب الفساد ولا يقع في البيعة انشقاق .

« وانت أيها الاب الروحاني تأتي في ذلك الواجب . وقد اردت أنفاذ البردة على ما جرى به الرسم والعادة ولم تتأخر إلا لبعده الطريق وصعوبة الوقت . وأنا أرصد الفرصة لأنفاذها وأراقب نفوذ من يصلح لحملها وأتفدها وأتبارك بإصدارها وأني في ذلك على الرسم الذي أنا قلق لتأخره . وأنت أيها الاب الروحاني تأتي في قبولها عند وصولها ما جرت فيه العادة التي تتبع الروحانيات ولا ينقصها تأخرها ولا يزيد فيها تقدمها . مع أنها جلي بكتابك عاجلاً متضمناً من أخبارك واستقامة أحوال من قبلك ما أمر به ومن حاجاتك ومهماتك ما أقوم فيه بواجب المودة والإخوة الروحانية والمشاركة إن شاء الله .

« سلام ربنا والمنا يسوع المسيح يكون معك وعندك حافظاً ومواقعاً وكافياً ومشهداً من الآن وإلى كل أوان وإلى دهر الداهرين آمين » (١)

ووصل هذا الكتاب إلى إيليا البطريرك الاسكندري ووافق على مضمونه وقبل اغابيوس في الشركة واعترف ببطريركيته . وبلاحظ هنا أن البطريرك الانطاكي رأى في اعتراف زميله واجباً روحانياً « لتوكيد المودة واتمام اتحاد الخدمة والمشاركة حتى يرتفع سبب الفساد ولكي لا يقع في الكنيسة انشقاق »

1) Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 150 - 154.

ورأى هذا البطريرك أيضاً أن إرسال المحاضر بخطوط الكهنة والشيوخ أمر لم يفعله من تقدمه من البطارقة . واكتفى بأن يكون إيمانه إيمان أصحاب الجامع المقدسة السبعة وأن يكون شعبه راضياً وأن يكون رؤساء الدولة قد وافقوا على اختياره ويلاحظ أيضاً أن لا إشارة البتة في هذا الجدل حول الاعتراف بالبطريركية إلى موافقة رومة وحبرها وأن البطريرك الانطاكي الجديد اعتر بموافقة رؤساء الدولة في القسطنطينية « المدينة العظمى » ويعلم « علماء الملة » فيها .

حروب باسيليوس الثاني : وقدر لباسيليوس أن يصبح أعظم قوة وأطول باعاً في الحرب من أسلافه . فإنه تمكن بجده وسعيه ومقدرته في الإدارة والحرب من تجييش عدد من الرجال أكبر بكثير من أي عدد جنده أسلافه . وحارب في وقت واحد في جبهات أربع في بلغارية وإيطالية وسورية والقوقاس . وكان سعد الدولة الحمداني قد دخل حلب واستولى عليها . فحاول مراراً أن يتملص من الاتاوة التي كان يقجور قد قبل بدفعها إلى الروم . فأدى هذا إلى انفاذ حملات ثلاث على حلب في السنوات ٩٨١ و ٩٨٣ و ٩٨٦ . واضطر سعد الدولة أن يستنجد العزيز الفاطمي فنشب خصام بين الروم والفاطميين . ولما كان باسيليوس منهمكاً في القضاء على ثورة البرداسين اضطر بدوره في أواخر السنة ٩٨٧ إلى أن يصالح العزيز الفاطمي بمعاودة كان من شروطها أن يذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية . وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن .

وتوفي سعد الدولة الحمداني في السنة ٩٩١ فطمع العزيز بحلب وحاصرها في السنة ٩٩٢ . فاستجار لؤلؤ الوصي على ابن سعد الدولة باسيليوس الثاني . فأمر باسيليوس دوق انطاكية ميخائيل بورجس أن يقدم المعونة اللازمة . فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي في الخامس عشر من أيلول سنة ٩٩٤ . فرأى الفسيلفس أن يشرف بنفسه . فجمع جيشاً خاصاً وجعل لكل مقاتل بغلين وهب بسرعة فائقة فقطع آسية الصغرى في ستة عشر يوماً وفاجأ الفاطميين عند حلب فتراجعوا عنها حتى أبواب دمشق .

يوحنا الخامس بطريرك انطاكية : (٩٩٦-١٠٢٢) وسخط باسيليوس على ميخائيل بورجس وألزمه بيته وولى على انطاكية الدوق دميانوس دلاسانوس وطلب إلى اغابيوس البطريرك أن « يكتب خطه بالزهد في رئاسة انطاكية واعتزله عنها » فامتنع البطريرك . فجعل الفسيلفس للبطريرك ديراً في القسطنطينية يعرف بالافرنديو وأمر أن يحمل إليه في كل سنة من دخل كنيسة انطاكية أربعة وعشرين رطلاً من الدنانير « برسم نفقة مائدته » فقبل البطريرك واستقال . وتوفي بعد ذلك بسنة (١) .

« وصير » باسيليوس عوضاً عن اغابيوس بطريركاً من أهل القسطنطينية اسمه يوحنا . وهو الخامس في المراجع الارثوذكسية والثالث في المراجع الغربية وكان خرتوفيلاكساً في كنيسة الحكمة الالهية . وأمر الفسيلفس أن « ترتب » كنيسة القسيان في انطاكية على مثال كنيسة الحكمة الالهية (٢) .

باسيليوس والحاكم : وتوفي العزيز الفاطمي وتولى الحكم بعده الحاكم « بأمرة » (٩٩٦ - ١٠٢١) فأنزله بدوق انطاكية داميانوس دلاسانوس في تموز السنة ٩٩٨ هزيمة كبيرة وخر داميانوس مقاتلاً . فاضطر باسيليوس أن يعود إلى سورية لينقذ الموقف . فدخل انطاكية في العشرين من أيلول سنة ٩٩٩ . واستولى على حصص في تشرين الأول من السنة نفسها . ثم قام إلى طرابلس وحاصرها وسير سرية إلى بيروت وجبيل فظفرت بالأسرى والغنائم . وعاد الفسيلفس إلى طرسوس لتمضية فصل الشتاء . وبينما هو يعد العدة في طرسوس لتابعة الحرب ضد الفاطميين علم ب وفاة داود ملك الكرج . وكان داود هذا قد أوصى بملكه إلى الفسيلفس . فقام الفسيلفس بجيشه إلى ملاطية . ثم عبر الفرات ودجلة فقدم أمراء الكرج خضوعهم وضم الفسيلفس دولة داود إلى الامبراطورية وعاد إلى القسطنطينية . وترك هذا كله أثراً في نفس الحاكم الفاطمي فأسرع يفاوض في السلم وخص أورستبوس بطريرك اوروشليم بالمفاوضة . فقام هذا البطريرك إلى انطاكية . ومنها إلى

1) *Entichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 177.*

2) *Ibid.*

القسطنطينية . فكان صلح بين الدولتين لعشر سنوات (١) .

ومما يروى ان يوحنا البطريرك الانطاكي فاوض زميليه اورستيس في اثناء مروره في انطاكية في امر كنيسة الكرج فتنازل له عن المال السنوي الذي كان يتناوله من كنيسة الكرج لصنع الميرون واحتفظ بحقه في ان يذكر هو وحده في الذبيخة وفي ان يوفد الى الكرج اكسرخوساً يتفقد احوال الكنيسة فيها ويجمع دخل اوقاف الكرسي الانطاكي منها (٢) .

المسيح هو الملك : وتنصرت الحكومة وفاخرت بنصرانيتها واعتزت . وأصبح السيد المخلص في نظر الحكومة والشعب هو الملك . وأصبح الانجيل دستور الدولة . فكنت اذا قصدت القصر الملكي تقرأ على جدران بعض البنايات العبارة « المسيح الفيلسوف » او المسيح الامبراطور . وقد تسمع وانت في طريقك الى القصر جماعات يرتلون . فاذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنوداً حاملين الصليب عالياً هاتفين : « المسيح المنتصر » . واذا ما وصلت الى مداخل القصر وجدت فوق العتبات ايقونات مقدسة تمثل المسيح مرتدياً لباس الملك متوجاً . واذا دخلت ظننت انك في كنيسة لا في قصر ملكي . فمن ايقونة للعدراء والدة الاله حامية العاصمة الى ذخيرة تضم عود الصليب الى ايقونة عجائبية تمثل السيد مصلوباً كان قد ظفر بها ابن شمشيق (يوحنا جيمسكي) في اثناء مروره في بيروت الى زاوية مكرمة تحفظ حذاء السيد الذي وجده ابن شمشيق في جبيل الى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيد وقد احتفظت به الرها اكثر من تسعة قرون . وقد تقف قليلاً متأملاً مصلياً فيدخل القاعة رئيس اساقفة تتبعه حاشيته وقد جاء خصيصاً لتكريم هذه الآثار وتجديد التكريس .

وقد تكون احد اعضاء الوفود الاسلامية المتفاوضة فيتاح لك الدخول الى قاعة العرش . فتجد العرش عرشين احدهما عليه الانجيل الطاهر وهو عرش المسيح الملك والثاني لثايبه على الارض الفيلسوف . فاذا قابلت العرش الاول او مررت من امامه رست شارة الصليب بالاصابع الثلاثة وانحنيت اكراماً واجلالاً . وقد

1) Dolger, Reg., 788 ; Schlumberger, G., Epop., II, 201 - 208.
2) Echos d'Orient, 1934, 136.

تكون احد القضاة الزائرين فيدفعك اهتمامك بالقضاء الى الوقوف في دار العدل لاستماع المرافعة وصدور الاحكام فتذكر هناك ايضاً بأن الملك للسيد له المجد . فالقوانين والاحكام تستهل « باسم سيدنا يسوع المسيح » وقد تكون تاجراً تضطرك الظروف الى زيارة احد المصارف لتقبض تحويلاً مالياً معيناً فتشاهد الدراهم والدنانير فتجد رسم السيد المسيح على احد الوجهين (١) .

وقد تكون عدواً محارباً في الجزيرة او في سورية فتعد جيش الروم بعدد معين من الصليبان . وقد تمتنع في قلعة شيزر كما فعل بن كرايس في السنة ٩٩٩ ثم تلتبس الامان من ملك الروم وتشتري شروطاً فيجيبك الى ذلك وينفذ اليك صليبه (٢) . وقد تقع الهدن بين الروم والمسلمين فينفذ ملك الروم صليباً من ذهب مرصعاً « اماناً لعدوه ووفاء بالشرط » (٣) .

الفيلسوف نائب المسيح : ولما كان الملك الحقيقي روحاً غير منظور أصبح الملك الملموس رمز الملك السيد ونائبه على الارض : ثوبه ثوب الايقونات وتاجه وصولجانه مشرفان بالصليب المقدس . ولما كانت ثيابه هذه هبة ربانية حملها الملائكة الى قسطنطين الكبير أصبح المحل الوحيد اللائق بحفظها هو الكنيسة . وأمسى قصر الفيلسوف من حيث التخطيط وهندسة البناء وتزيين الزوايا والقبب والجدران اشبه بالكنيسة من اي بناء آخر . وأمست أبواب قاعة العرش تفتح وتغلق في أوقات معينة كأبواب الايقونسطاس في الكنيسة . وقام العرش في حنية كعرش الاسقف في الكنيسة . وقضت هذه الصلة بين الفيلسوف وبين السيد الروح غير المنظور ان يظهر الفيلسوف ظهوراً على عرشه في الاستقبالات الرسمية دون اي كلام او تبادل أفكار . وتغرد الطيور الذهبية وتزأر الاسود المصطنعة ويسجد الحاضرون ثلاث سجادات . وما هي الا لحظة حتى يرتفع الفيلسوف بعرشه نحو السماء فيخني . واذا قضت الظروف ان

1) Guerdan, R., Grandeurs et Misères de Byzance, (Paris, 1954), 1 - 5 ; Ensslin, W., Emperor and Imperial Administration, Byzantium, (Oxford 1953), 273 ff.
2) Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said) 183.

يستقبل الفسيفس في باسيليقا المنيرة جلس على عرشه الذهبي صامتاً مسبل الجفنين . فاذا ما رغب في شيء رفع جفنيه ونظر الى رئيس الخصيان . فتصدر اشارة عن هذا فيتم تنفيذ الأمر الصادر دون كلام . وتنتهي المقابلة عندما يرسم الفسيفس شارة الصليب فيخرج الزائرون متراجعين خاشعين . وقضت نيسابة المسيح على الفسيفس بأن يشترك مع البطريك في ممارسة بعض الطقوس الدينية . فيخرج الاثنان الى الشوارع بسحابة من البخور وموكب كبير . ويركب البطريك حماراً أبيض ويمتطي الفسيفس جواداً عربياً فيزوران في كل يوم جمعة كنيسة السيدة حامية العاصمة . وفي يوم الخميس الكبير يتفقدان العجزة في المآوي فيغسل الفسيفس أرجل هؤلاء ويقبلها مذكراً بما فعل السيد له المجد .

وجاء في كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته (٩٠٣) انه اذا خرج الفسيفس الى كنيسة الحكمة الالهية مشى أمامه اثنا عشر بطريقاً وحمل هو بيده حقاً من ذهب فيه تراب . فاذا مشى خطوتين وقف ونظر الى التراب وقبله وبكى . وما زال يسير كذلك حتى ينتهي الى باب الكنيسة . فيقدم رجل شيخ طشتاً واربقةً من ذهب . فيغسل الفسيفس يده ويقول لوزيره : اني بريء من دماء الناس كلهم . ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له : دن بالحق كما دان بيلاطس (١) .

واذا دخل الفسيفس الكنيسة ليصلي استوى على عرش خاص واعتبر مسحاً من الله لينوب عن المسيح في الأرض . واستحق التناول بيده من المائدة المقدسة . ولكنه لم يرأس الكنيسة كما توهم البعض .

وكان على الفسيفس ان يراعي هذا التقليد في حياته الخصوصية . فكان كلما انتهى من الطعام كسر الخبز وشرب الخمر . واذا ما جلس الى المائدة جلس حواليه اثنا عشر شخصاً . وعند كثرة الضيوف كانت تقام اثنا عشر مائدة . وفي ليلة عيد الميلاد كان عليه ان يدعو أفقر الفقراء لتناول الطعام معه . فالكل اخوان في المسيح . وكان يضيء غرفة نومه صليب وعدد من الكواكب . وكان

يطل عليه من فسيفساء الجدران باسيليوس الاول المقدوني وعائلته وفي ايديهم الاناجيل !

ولما كان الفسيفس نائب المسيح على الارض كانت ارادته مطلقة وكان هو مصدر السلطة . فكان هو يسن الشرائع ويلغيها ويعين القضاة والوزراء ويعزلهم ويوافق على انتخاب البطريك . وكانت سلطته مسكونية تشمل العالم بأسره فلا تقف عند حد جغرافي او سياسي ولا يحق لمعترض ان يعترض عليها . وأصبح البطريك الجالس الى يمينه بطريكاً مسكونياً ايضاً له حق التقدم على سائر البطارقة بعد بطريك رومة .

وضاقت لابل تضاعلت صلاحيات مجلس الشيوخ مصدر السلطة في رومة القديمة فأضحى في هذين القرنين متفرجاً يشاهد الحوادث الجسام دون ان يكون له رأي فيها . وبات الزرق والخضر في جملة المتفرجين لا مجالس لهم ولا صلاحيات . واستبدلوا اهازيج القتال بتراتيل الصلاة يأتمرون باشارة البروتوبسالطي بدلا من سيف القائد المغوار .

الفسيفس والكنيسة : والدولة والكنيسة عند الروم شخص واحد فالفسيفس يتسلط على الجسم والبطريك على الروح . ولا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة (١) . فالآباء رأوا في شخص قسطنطين الكبير حامياً داعياً فنحوه لقب « المساوي للرسول » *Isapostolos* . ولم يتنازل أحد من خلفائه عن هذه المنحة . ونادى أعضاء المجامع المسكونية مراراً بالفسيفس حبراً أعظم *Pontifex Maximus* ومن هنا نشأت في الأرجح هذه الامتيازات الروحية التي تمتع بها ملوك الروم في داخل الكنيسة كمنح ولي العهد اكليريوس والسماح للفسيفس بالدفاع في اثناء مسحه فسيفساً كأنه شماس ودخوله الى الهيكل من الباب الملوكي وتناوله الذبيحة بيده على المائدة المقدسة (٢) . واضطر الفسيفس في بعض الأحيان ان يتخذ موقفاً معيناً من بعض المشاكل العقائدية والادارية

1) *Epanagoge, II - III ; Treitinger, O., Ostromische Kaiser, 158 - 159.*2) *Bréhier, L., Institutions, 432.*

الكنسية . فكان يلجأ في مثل هذه الظروف الى دعوة المجامع المحلية او المسكونية فيرعاها بعنايته وينفذ قراراتها . وتطرق بعضهم ففرض الحل فرضاً كما فعل هرقل عندما تبنى القول بالمشيئة الواحدة والفسالسة محاربي الايقونات (١) .

وتدخل بعض الفسالسة للمحافظة على النظام وتنفيذ قرارات المجامع . فقضى أحد قوانين يوستينيانوس الكبير (٥٣٥) بأن يحافظ هو على شرف الكهنوت فيقول كلمته في انتقاء الكهنة والأساقفة (٢) . وتدخل بعضهم ايضاً فقرر بعض الأعياد الكنسية . فيوستينوس الاول (٥١٨ - ٥٢٧) هو الذي عمم الاحتفال بعيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الاول . ويوستينيانوس الكبير هو الذي ثبت عيد دخول المسيح الى الهيكل في الثاني من شباط (٣) . وموريقيوس هو الذي حدد الخامس عشر من آب عيداً لانتقال السيدة العذراء (٤) . ويعود الفضل في الاحتفاء بعيد النبي الياس في العشرين من تموز الى باسيليوس الاول (٨٦٧ - ٨٨٦) فانه كان شديد التعلق به والتوسل اليه (٥) . وفي السنة ١١٦٦ جعل عمانوئيل كومنينوس الاعياد نوعين منها ما تجب البطالة فيه طوال النهار ومنها ما تنتهي البطالة فيه عند الانتهاء من خدمة القداش (٦) .

ولم تنفرد كنائسنا بهذا التدخل في شؤونها . فقد تعرضت كنيسة رومة ايضاً الى مثل هذا التدخل من فسالسة الشرق وابطاطرة الغرب . وهو أمر معروف يجمع عليه جميع المؤرخين . وكما ناضلت كنيسة رومة في سبيل استقلالها كذلك فعلت كنائسنا . او لم ينصح البطريرك نيقولاووس الى الفسيلفس لاوون السادس الا يكون عثرة في سبيل الكنيسة وان يتصرف بما يشرف مركزه العالي . ثم لما أصر الفسيلفس على موقفه ألم يمنعه البطريرك من الدخول الى الكنيسة . والبطريرك بوليفكتوس ألم يعترض نيقيفوروس فوقاس عندما حاول الدخول من الباب الملوكي لأنه تزوج من الثانية في حياة الاولى خلافاً للناموس . ثم ألم يمنع هذا

1) Ibid., 432 - 435.

2) Linginthal, Z., Nov. Just., 16 Mars, 535.

3) Leclercq, H., Dict. Aech. Chrét., XII, 910 - 916, XIV, 1720.

4) Dolger, Reg., 147.

5) Theophanes Cont., V, 8.

6) Dolger, Reg., 1466.

البطريرك نفسه يوحنا جيمسكي من الدخول الى الكنيسة الا بعد ان يقوم بشروط معينة . وباسيليوس البطريرك ألم يرفض المثول أمام مجلس القضاء الاعلى مصراً على المحاكمة أمام مجمع مسكوني . وهل ننسى ما جاء في الابناغوغة بفضل فوطيوس العظيم . فالفسيلفس بموجب هذه المجموعة مسؤول عن الجسم فقط أما الروح فانها برعاية البطريرك صورة المسيح على الأرض . وهذا البطريرك لا تمس كرامته ولا يعتدى عليه . ولا يغيب عن البال انه كان على الفسيلفس ان يتسلم تاجه من يد هذا البطريرك وان يعلن موقفه من بعض الشؤون الهامة الى البطريرك قبل التتويج . وكان لهذا البطريرك سلطة روحية على الفسيلفس لأنه راعي النفوس ومنها نفس الفسيلفس ولأنه كان عراب الامراء . وكان هو الذي يعلن شرعية ولادتهم (١) .

وليس من العلم بشيء ان نماشى الأب مرتينوس جوجي فنلوم الكنيسة الارثوذكسية لخضوعها الى الفسيلفس جاعلين من هذا الخضوع نظاماً قضى بأن يكون الفسيلفس هو البطريرك Césaropapisme (٢) وان نصرب في الوقت نفسه عرض الحائط برأي كبار رجال الاختصاص أمثال اوستروغورسكي وفزيلييف وغريغوار ودبل وغيرهم (٣) .

الانجيل دستور الدولة : وقضت هذه الفلسفة الدينية السياسية بأن يعترف عند الروم بقدسية الانجيل الطاهر ووجوب تطبيق أحكامه . فأصبحت دولتهم ديموقراطية في تساوي أبنائها مطلقة مستبدة في تنفيذ مبادئ الانجيل الشريف . ولم يبق فيها اي تفوق نظري لطبقة على سواها . وأصبح بإمكان أوضاع الرجال ان يتسّم أعلى المراتب . أو لم يكن لاوون الاول لحاماً ويوستينوس الاول راعياً للخنازير وفوقاس قائد مئة ولاوون الثالث شحاذاً متسولاً وباسيليوس الاول فلاحاً ورومانوس ليكابينوس افاقاً ؟ أو لم يُنعت قسطنطين الخامس

1) Dolger, Reg., 823 ; Grumel, Reg. I, 830.

2) Jugie, M., Schisme Byzantin, 3 - 10.

3) Ostrogorsky, G., The Byzantine State, 214 - 215, 217 - 219 n. 1 ; Grégoire H., The Byzantine Church, Byzantium, 129 - 130 ; Diehl, C., Problèmes de l'Histoire Byzantine, 59 - 61.

بالزبلي وميخائيل الثالث بالسكير وميخائيل الخامس بالقلقاط اي نقال البضائع؟ والفسيلسات ألم تكن احدهن خزرية واخرى مغنية وغيرها مروضة للدبية ؟ او لم يكن عدد كبير منهن بنات موظفين عاديين ؟ !

وعملا بتعاليم الانجيل المقدس ترفع الفسيلفس عن الشموخ والتكبر فدعا الى مائدته البؤساء والمشردين . وفتح بابه لجميع الرعايا من عباد الله يلجونه أفي شأوا . واشتدت عنايته وعناية البطريرك ايضاً بالمرضى والمصابين والعجز . فكثرت المآوى والمياثم ولا سيما المستشفيات . وأشهر هذه المؤسسات دير الاله القوي Pantocrator الذي انشأه يوحنا كومنينوس (١١١٨ - ١١٤٣) في عاصمة ملكه وفيه مستشفى للرجال وآخر للنساء وثالث للأمراض المعدية . وكان يؤمه طبيب استاذ وعقاقيري ورهط من الطلبة . وكان يفاخر الاستاذ الطبيب بطريقته الخصوصية في تنظيف أدوات الجراحة وتطهيرها (١) .

وساوى الروم بين الرجل والمرأة . فكان للنساء شأن كبير في الحياة الاجتماعية . وشاطرن أزواجهن السلطة في كثير من الأحيان . وشاركت الفسيلسة زوجها حق السيادة وسبقته الى تقبل طاعة الشعب وولائه . وكان الشعب لدى خروجها من الكنيسة يهتف لها : « أهلاً بالاوغسطة المحمية من الله ، أهلاً بلايسة الارجوان ، أهلاً بمحبوبة الكل » .

ولم تكن هذه الديمقراطية وليدة نضج سياسي او فلسفي ولكنها تأتت بطبيعة الحال عن تقبل الانجيل وتقبيله واتخاذ دستوراً للدولة . فالدافع نفسه الذي جعل من الفسيلفس نائباً للمسيح على الأرض أدى الى السعي لجعل المجتمع الارضي مائثلاً قدر المستطاع للمجتمع الرباني . ومن هنا هذه القسوة في العقوبات عند الروم : في قطع يدي المزور وحرق المرتشي . فالقانون الهى والخروج عليه خطيئة تستوجب نار جهنم !

البطريرك : وجارت الكنيسة الدولة في نظمها . فكانت الكنيسة واحدة

1) Oeconomus, L., Les Oeuvres d'Assistance et les Hôpitaux Byzantins ; Codellas, S., The Pantocrator, Bull. Hist. Med., 1942, 392 - 410.

جامعة كما كانت الامبراطورية واحدة جامعة . وكما جاز للامبراطورية ان يكون لها امبراطوران او أكثر في آن واحد كذلك جاز للكنيسة ان تخضع لأكثر من رأس واحد (١) . وتقبل الجمع المسكوني الثاني (٣٨١) هذه النظرية فأوجب في قانونه الثاني على الأساقفة الا يتعدى أحدهم على الكنائس التي تقع خارج حدود أبرشيته . وأقر في قانونه الثالث ان يكون التقدم « في الكرامة » لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومة « لكونها رومة الجديدة » (٢) . ثم أقر الجمع المسكوني الرابع في قانونه الثامن والعشرين هذا التقدم في الكرامة لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومة (٣) . ثم جاء يوستينيانوس الكبير يشترع فتعرف الى بطاركة خمسة : بطاركة رومة والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية واورشليم واعتبرهم أساس النظام والسلطة في الكنيسة الواحدة الجامعة (٤) .

الشرطنة : وهو لفظ يوناني Cherotonia ومعناها الانتخاب . وكان البطريرك ينتخب انتخاباً . فقد قضى قانون يوستينيانوس بأن ينتخب الاكليروس ووجهاء العاصمة ثلاثة فينتقي الاسقف المشرطن اي اسقف هرقلية أفضل هؤلاء للسدة البطريركية (٥) . ثم حرّم الجمعان النيقاوي (٧٨٧) في قانونه الثالث والقسطنطيني (٨٧٠) في قانونه الثاني عشر سيامة بطريرك ينفرد امير بانتقائه كما حرّم تدخل الشعب في الانتخاب . وأصبح انتخاب البطريرك بعد هذا محصوراً في مطارنة الكرسي . وتوجب على جميع المطارنة ان يشتركوا في هذا الانتخاب . ثم جاء في كتاب التشريعات لقسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٩) ان المطارنة ينتخبون ثلاثة ينتقي الفسيلفس أحدهم وانه اذا لم يرض عن الثلاثة جاز له ان ينتقي رابعاً يقبل به المطارنة (٦) وبقي الحال على هذا المنوال حتى آخر ايام الامبراطورية : الجمع ينتخب والفسيلفس يرقى (٧) .

1) Bréhier, L., Institutions, 447.

2) Mansi, III, 559.

3) Mansi, VII, 428 - 429.

4) Lingenthal, Nov. Just., 109, 123, 131.

5) Lingenthal, Nov. Just., 174.

6) Vogt, A., Livre des Cérémonies, II, 14, (1040 - 1048).

7) Codinus, LV, 20 (101 - 102), Symeon de Thessalonique, 224.

التنصيب والتولية : وكان التنصيب يتم على درجتين : اعلان اسم المنتخب *menouma* وحفلة التنصيب *Prozlesis* . وكان الفسيفس يدعو أعضاء مجلس الشيوخ والمطارنة وعدداً كبيراً من سائر رجال الاكليروس الى القصر ليقول : « ان النعمة الالهية وقدرتنا المستمدة منها تعلنان ترقية فلان الى رتبة بطريرك القسطنطينية » (١) . وعندئذ يظهر البطريرك المنتخب ليتقبل تهاني الشيوخ والمطارنة . ثم يصار الى تنصيبه بطريركاً في الاحد التالي في كنيسة الحكمة الالهية . فيترأس حفلة التنصيب متروبوليت هرقلية ويقدم له الفسيفس العكاز والمنذية والصليب (٢) . ويدعى بعد هذا صاحب القداسة ويخاطبه المطارنة بالعبارة : « ايها السيد الفائق القداسة » ويوقع هكذا : « بنعمة الله اسقف القسطنطينية رومة الجديدة والبطريرك المسكوني » (٣) .

الانتقاء : وحرمت مجامع نيقية (٣٢٦) وانطاكية (٣٤١) وسريكية (٣٤٧) تنقل الاساقفة من كرسي الى كرسي فتعذر على اساقفة الكرسي القسطنطيني ان يتبوأوا السدة البطريركية . والواقع انه لم يرق هذه السدة من اساقفة الكرسي القسطنطيني سوى ستة بين القرن السادس والقرن الثاني عشر وسوى احدى عشر بين السنة ١١٦٩ والسنة ١٤٤٠ . وهكذا فان انتقاء البطاركة كان يتم في غالب الأحيان من بين الكهنة والرهبان . وآثر الاساقفة المنتخبون أعضاء السنودوس كهنة كنيسة الحكمة الالهية على سواهم فرقوا في القرون الاربعة بين السنة ٣٧٩ والسنة ٧٠٥ ثمانية عشر كاهناً من كهنة هذه الكنيسة الى السدة البطريركية وسبعة من كنائس القسطنطينية الاخرى وثلاثة عشر كاهناً من كنائس آسية الصغرى وانطاكية واسقفاً واحداً وعلمايين اثنين وثلاثة رهبان . وتخرج معظم هؤلاء من مدارس القسطنطينية او اثينة او الاسكندرية او انطاكية فتحلوا بالعلم العالي وبسعة الاطلاع . وما بين السنة ٧٠٥ والسنة ١٢٠٤ رقي السدة القسطنطينية

1) Vogt, A., op. cit., II, 14, (1044).

2) Ibid., II, 14 (1040 - 1048) 38 (1177).

3) Bréhier, L., Investiture des Patriarches de Constantinople, Misc. Merca, III, 3658, ff. ; Laurent, Byzantion, 1929, 629 - 631.

خسة واربعون راهباً وخمسة عشر كاهن رعية وسبعة علمانيين وستة أساقفة (١) .

صلاحيات البطريوك : والبطريوك بموجب الابناغوغة (٨٨٤ - ٨٨٦) معلم الكنيسة الاكبر ومفسر عقيدتها الأوحد . وهو صاحب السلطة الاكليريكية العليا ينظر في ما يستأنف اليه من القرارات فيبرمها او يلغيها . وتمتع بموجب نص الابناغوغة بحق الستافروبيغية اي بالسلطة المباشرة على كل ما يغرز فيه صليبه في جميع الابريشيات الخاضعة لسلطته الروحية فزاد هذا الامتياز نفوذه ودخله في آن واحد (٢) . وكانت قراراته *thespismata* نافذة مرعية الاجراء في جميع أنحاء الامبراطورية وكانت تصدر في ظاهرها عنه وحده ولكنه قلما أقدم عليها بدون موافقة لجنة السنودوس . وكان البطريرك يدعو السنودوس بكامله الى الانعقاد للنظر في المسائل الهامة كاعداد اعتراف بالايمان او النظر في قضية عقائدية او اتخاذ اجراء اداري هام (٣) . فلما عظم أمره وكثرت مشاغله وتنوع لشأ حوله في أواخر القرن الخامس او اوائل السادس سنودوس دائم شمل مطارنة الابريشيات القريبة من القسطنطينية وعرف بالسنودوس الانذموسي *Endemousa* وظل السنودوس الاكبر الذي شمل جميع المطارنة هو المرجع الأخير في المشاكل الهامة . وعند تأزم الامور كان البطريرك يدعو الى الاشتراك في أعمال المجمع الاكبر وجهاء الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ فيتحول السنودوس الى «مجمع عام» يمثل أكبر كبراء الكنيسة القسطنطينية من اكليريكيين وعلمايين (٤) .

وظل البطريرك صاحب الكلمة الاولى والاخيرة في امور الليتورجية . فكان هو وحده يقر الأعياد الجديدة ويعدل التقويم الكنسي ويشرف على ممارسة الأسرار . بيد ان واجبه الأكبر قضى بالسهر على انضباط الاكليريكيين وتقيدهم بالانظمة المرعية الاجراء . فكان عليه ان يقمع الفساد ويؤدب العصاة والمعاندين . وكان يستند في تنفيذ أحكامه الى تعاون وثيق مع السلطات الزمنية والى امتيازات

1) Bréhier, L., Institutions, 482 - 486.

2) Lingenthal, Nov. Leon VI 31 ff. ; Mitard, Mélanges Diehl, I, 220.

3) Grumel, Reg., 805, 839.

4) Acte Synodal de Georges Xiphilin, 1191, éd. Papadopoulos Kerameus, Byz. Zeit., 1902, 75 ff.

خصه بها العرف والقانون . وأهم هذه انه كان له حق الاشراف على انتخاب الاساقفة وحق الامتناع عن الاعتراف بقانونية الانتخاب . فكان الاسقف المنتخب يظل اسقفاً منتخباً الى ان ينال من يد البطريك الاوموفوريون *Omophorion* رمز السلطة الروحية (١) .

وكان التشريع في الأحوال الشخصية لا يزال محصوراً بغيره من أنواع التشريع في يد الامبراطور . وكان شغل لاوون السادس (٨٨٦ - ٩١٢) الشاغل ان يكون له ولد ذكر يخلفه على العرش . وماتت زوجته فتزوج ثانية ثم ثالثة ثم رابعة غير مكترث بنصوص القانون الذي سنه هو نفسه . فكانت مشادة بينه وبين البطريك أدت الى نزول هذا عن كرسيه ولكنها لم تنته عند هذا الحد . فالكنيسة أصرت على شجب الفسيفس وتوصلت في السنة ٩٢٠ الى اصدار قرار اسمته كتاب الاتحاد *Tomos Enouseous* منعت فيه الزيجة الرابعة منعاً قطعياً وحرمت على المتجاسر عليها الدخول الى الكنيسة ونعتت الزيجة الثالثة بالدناسة ومنعتها على الذين لهم اولاد والذين يزيد عمرهم على الأربعين ووضعت المتزوجين الزيجة الثالثة تحت قصاص الابتعاد عن المناولة خمس سنوات (٢) . فانتصرت بذلك انتصاراً باهراً وبدأت تنزع حق التشريع في امور الزواج والأحوال الشخصية من يد الفسيفس والسلطات الزمنية . ثم جاء البطريك اليكسيوس الاستودي (١٠٣٨) فلم يسمح بالزواج في درجة القربى السابعة الا بعد الندامة والتوبة (٣) . وتبعه البطريك ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣ - ١٠٥٩) فحرم هذه الزيجة تحريماً (٤) . وأصبح التشريع في امور الزواج بعد هذا حقاً من حقوق الكنيسة (٥) .

البطريركية : وقام القصر البطريكي *Patriarchéion* الى جانب

- 1) *Chrysanthos, Hist. of the Church of Trebizonde, 178 ; Concile de Constantinople, 870, Canon 12 ; Monnier, H., Les Nouvelles de Léon le Sage, 34 - 35.*
- 2) *Grumel, Reg. 669.*
- 3) *Grumel, Reg. 844, 845 - 847.*
- 4) *Lambros, Byz. Zeit., 1896, 565.*
- 5) *Brehier, L., Institutions, 492.*

كتدراية العاصمة كنيسة الحكمة الالهية وأطل بواجهته الجميلة على الفوروم الاوغسطيني . وحوى في طابقه السفلي مكتبة البطريركية وقاعتي الحاكمة السكريتون العظمى والصغرى وقاعة السندوس . وكان يربط هذا القصر بكنيسة الحكمة الالهية من جهته الخلفية ممر يؤدي الى منابر الوعظ والارشاد .

ولم تختلف الادارة البطريركية في اوائل عهدها عن ادارات المطرانيات . فتألفت من اكليريكيين يعاونون الاسقف في القيام بواجباته الطقسية وفي قضاء حاجات الشعب الخاضع لسلطته . ثم تطورت ظروف اسقف القسطنطينية فأصبح بطريكاً ثم بطريكاً مسكونياً فتنوعت الواجبات وتعددت وكثر عدد الموظفين وتفاوتوا في الاهمية فاصبحوا طبقات . ويقدر العلماء عدد الاكيريكيين في البطريركية القسطنطينية في هذا العهد الذي نحن بصددده بحوالي خمس مئة كما يرجحون ان عدد كبار الموظفين لم يتجاوز الخمسة والاربعون موظفاً . ويرون ان اهم هؤلاء كانوا خمسة : السنكلوس والايكونوموس والسكيلاريوس والسكيفوفيلاكس والخرتوفيلاكس .

اما السنكلوس *Sugkellos* فانه كان في البدء امين سر البطريك وموضع ثقته فيه ومعاونه الاول في الادارة . وعظم امره فاعتبر في غالب الاحيان وريث البطريك وخليفته . فرقي السدة البطريركية بين عهد يوحنا القيدوقي (٥١٨) وعهد ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣) ثلاثة عشر سنكلوساً (١) . وتدخل الامبراطور بانتقاء السنكلوس وتمت ترقيته الى منصبه في قصر الامبراطور (٢) ومنح مرتبة خصوصية في التشرقيات الامبراطورية وتقديم على المطارنة (٣) وعهد اليه بمهمات سياسية (٤) فأصبح رجل الامبراطور في البطريركية . ثم تطورت الظروف فتح الامبراطور هذا اللقب المطارنة المقربين فنشأت مشادة بينهم وبين زملائهم الذين لم يحملوا هذا اللقب انتهت بشغب يوم عيد العنصرة في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٠٢٩ . فظهر عندئذ لقب البروتوسنكلوس (٥) .

1) *Athenagoras, Ann. Soc. Etudes Byz., IV, 1928, 9 - 10.*

2) *Constantin VII, Ceremoniis, éd. Reiske, II, 5.*

3) *Athenagoras, op. cit., 12 - 14.*

4) *Ibid., 25 ff.*

5) *Grumel, Les Metropolitans Syncelles, Et. Byz., 1945, 92 ff. ; Athenagoras, op. cit., IV, 31 ff.*

وعني الايكونوموس *Oikonomos* بتدبير مصالح البطريركية المادية . وكان عليه ان يفتش الاوقاف ويحيي دخلها . وكانت هذه الاوقاف كثيرة متنوعة منها الاراضي الزراعية والقرى والاديرة . وتوجب على الايكونوموس ان يتسلم المعونات السنوية من صندوق الدولة وان يشرف على انفاقها (١) .

وسكيلاريوس الامبراطور هو حارس السكليون *Sakellion* اي امين الصندوق . أما سكيلاريوس البطريرك فانه كان ناظر الاديرة وحافظ النظام فيها (٢) .

وحفظ السكليفيلاكس *Skeuphylax* الاواني المقدسة والبذللات الحبرية وكتب الخدمة المقدسة وأعد كل ما لزم لخدمة القديس . ومن هنا اهتمامه بالقمح والخمر والزيت والشمع وما نتج عن ذلك من مشاكل . ولا يخفى ما وصلت اليه الاواني المقدسة من ترصيع وتزيين وتجميل وما حوته البذللات الحبرية من جواهر (٣) .

ويستدل من أعمال المجامع ان الخرتوفيلاكس *Chartophylax* كان في القرنين السادس والسابع مدير محفوظات البطريركية وامين مكتبتها (٤) . ثم أصبح في القرن التاسع أكبر كبراء البطريركية وأقرب المقرين الى البطريرك محل محله عند الحاجة وينفذ القانون باسمه (٥) . ونراه في القرن الحادي عشر مسيطراً على جميع أعمال البطريركية مقدماً على المطارنة في التشريفات الملكية « لأنه قم البطريرك ويمينه » (٦) . وشملت المحفوظات التي تولى حفظها القوانين الملكية والأحكام البطريركية واعترافات الأساقفة بالابمان وأعمال المجامع المسكونية والمحلية ولوائح الأساقفة . وكانت هذه الأوراق جميعها تحتم بخاتم البطريرك

- 1) Grumel, Reg. 768 - 769, 772, 774 ; Dolger, Reg., 1956 ; Codinus, ps., Officialibus, éd. Will, I, 23.
- 2) Codinus, ps., Officialibus, I, 25 - 26 ; Siméon de Thessalonique, Sacri ord., 242 (461).
- 3) Codinus, op. cit., I, 25 - 26 ; Siméon de Thess., op. cit., 242 (461) ; Athenagoras, op. cit., IV, 4 - 5.
- 4) Dvornik, Légendes 53 ; Mansi, VIII, Col. 1035, X, Col. 1000, XI, Col. 214 - 216.
- 5) Fortescue, Dict. Arch. Chrét. III, Col. 1015.
- 6) Dolger, Reg., 1175 ; Nicole, Byz. Zeit, 1894, 19.

وتوقع بتوقيع الخرتوفيلاكس . وقضى الواجب ان يعني الخرتوفيلاكس بجميع الكتب الكنسية والحفاظة على سلامتها ومنع كل دس فيها ومقابلتها عند الاقتضاء غيرها وترجمتها (١) . وتنوعت أعماله الادارية واتسعت صلاحياته فكان عليه ان يحقق في كل ترقية اكليريكية قبل السماح بها . وكان عليه ايضاً ان يشرف على انتخابات الأساقفة وان يراقب جميع كهنة القسطنطينية ورهبانها . وكان يجلس للنظر في سلوك الاكليريكيين فارضاً الندامة والتوبة ومهدداً بالقطع اذا قصت الظروف بذلك . وكان يفصل في دعاوى الزواج والطلاق . وكان عليه بالإضافة الى هذا كله ان يفض جميع الرسائل الموجهة الى البطريرك المسكوني وان يقترح اجوبتها . ولم يستثن من هذه سوى رسائل البابا والبطاركة (٢) .

وشملت الحاشية البطريركية موظفين آخرين أبرزهم آمر السكليون اي السجن البطريركي وله حق الاشراف على كنائس القسطنطينية والرفرندياريوس *Referendarius* ناقل رسائل البطريرك الى القصر الملكي والمنذاتون *Mondaton* معلمي الطقوس اليومية والايوميمنسكون *Hypomimeskon* معادل الميستيكوس في القصر والايرومنمون *Hieromnem* المشرف على فرز الاصوات في الانتخابات الواقف وراء البطريرك يوم التتويج واساتذة المدرسة البطريركية وأمين الانجيل والواعظ ومفسر الاسفار المقدسة . ومن هؤلاء الموظفين الكاناستاسيوس المراقب العام في الخدمة الالهية والبروتوباباس معاون البطريرك في الهيكل والبروتوبسالتيس المرتل الاول والنوميكوس مدير الموسيقى .

الاساقفة : وبينهم المطارنة في مراكز ولايات الدولة ورؤساء الاساقفة في مناطقهم المستقلة والاساقفة في المدن وامهات القرى وكان البريدوت « الاكليريكي الزائر » قد حل محل الخوراسقف .

وقضت قوانين يوستينيانوس بأن ينتخب الاسقف انتخاباً وبأن يشترك في هذا الانتخاب اكليروس الابرشية ووجهاء المركز فيتفقون على ثلاثة ينتقي

- 1) Beurlier, Bull. Soc. Antiq. Fr., 1895, 92 - 93 ; Balsamon, Meditations, P. G., Vol. 104, Col. 1083.
- 2) Fortescue, op. cit. Col. 1017 ; Grumel, Reg., Preface, XII.

الاسقف المشرطن أليقهم . وكان هذا الاسقف المشرطن اما متروبوليت الولاية او البطريرك او ممثله . وقضت هذه القوانين ايضاً بأن يكون المرشح قد أكمل الخامسة والثلاثين من العمر وان لا يكون قد تزوج مرتين والا تكون زوجته قد تزلت من قبل (١) . وجاز انتخاب العلمانيين لهذه الدرجة شرط التدرج في مدة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أشهر (٢) . وتوجب على المرشح ان يكون عالماً مطلعاً وان يتمكن من الاجابة عن الاسئلة التي يوجهها اليه الاسقف المشرطن (٣) . وأوجب الآباء في مجمع نيقية الثاني على المرشح لدرجة الاسقفية ان يعيد المزامير عن ظهر القلب (٤) . وحرمت السيمونية تحريماً واعتبر العاطي والآخذ مشتركين في الجرم (٥) .

وظل هذا التشريع نافذاً طوال قرون متتالية . فقد ورد بتمامه في بروخيرون باسيلوس الاول (٨٧٨) (٦) . وجل ما اضيف اليه ان آباء مجمع نيقية الثاني أوجبوا خلع الاسقف الذي يصل الى كرسية بتدخل علماني (٧) وان آباء المجمع الخامس السادس حرّموا العيشة الزوجية وأوجبوا على كل اكليريكي متزوج يصل الى رتبة الاسقفية ان يبتعد عن زوجته فيدخلها ديراً بعيداً عن مركز عمله (٨) . والغى لاوون السادس القانون الذي منع انتخاب اسقف ابي ولد شرعي وسمح للاساقفة باعالة ذويهم المعوزين (٩) . وحرّم وصول عبد آبق الى الكرسي وأوجب اعادته الى سيده (١٠) .

وحاول الاباطرة التدخل في الانتخابات وتدخلوا ولكن الكنيسة قاومتهم مقاومة عنيفة . فالبطريرك تراسيوس حارب تدخل الفسيلفس في السنة

1) Nov. Jus. 6 (535), 123 (546).

2) Nov. Jus. 123 (546).

3) Nov. Jus. 6, 8.

4) Mansi, XIII, Col. 417 - 418.

5) Nov. Jus. 6, 9.

6) Prochiron de Basile, éd. Lingenthal, 28, 155 - 160 ; Vast, H., le Cardinal Bessarion, 272.

7) Mansi, XIII, Col. 419 - 422.

8) Mansi, XI, Col. 945 - 948, 965.

9) Léon VI, Nov. ed. Lingenthal, 16 - 17 ; Monier, H., Les Nov. de Léon le Sage, 173.

10) Monier, H., op. cit., 66.

٧٩٠ في انتخاب اسقف اما ستريس ولم يعترف الا بمرشح الشعب والا كليروس (١) وكان نيقيفوروس فوقاس قد أصدر قانوناً قضى بوجوب موافقة الفسيلفس على ترشيح الاسقف فهب بوليفياكتوس البطريرك يحاول الغاء هذا القانون فاستغل ظروف يوحنا جيمسكي واكرهه على الالغاء (٢) . وفي السنة ١٠٧١ ألغى السنودوس انتخاب اسقف برناسوس بعد ان ثبت تدخل الفسيلفس (٣) .

ولم يحصر القانون حق الترشيح بل أباحه لجميع الاكليريكيين على السواء (٤) . ولكن ظروف الاكليريكيين المقربين من البطريرك والمطارنة عاونتهم على الوصول الى الكرسي الاسقفي أكثر من غيرهم . وكاد الترشيح ينحصر بعدد أوائل القرن الثامن برؤساء الاديار وكبار الرهبان . ثم قدمت السلطات الروحية شمامسة الكرسي البطريركي ومتخرجي المدرسة البطريركية واساتذتها على غيرهم فتميز رهط من الأساقفة بعلمهم وثقافتهم أمثال يوحنا مقروبوس اسقف افخايتة وثيوفيللاكتوس اسقف اوخريدة وافستاثيوس اسقف ثسالونيكية . ولم يقتصر في الترشيح على الرهبان الا بعد القرن الرابع عشر (٥) .

واجبات الاساقفة وامتيازاتهم : وقضى القانون والعرف والتقليد على الاسقف بأن يكون نبيل النفس حر الخلال محمود الشئال وقوراً محترماً وان يخضع لرئيسه متروبوليت الولاية وان يبقى في ابرشيته فلا يرحلها الا لضرورة وان يكرم وقته للوعظ والارشاد وألا يطمع في المال ويجمعه لنفسه . وكان مطلق السلطة في المسائل الاكليريكية (٦) معفى من معظم الضرائب غير خاضع لسلطة الوالدين (٧) لا يطلب للشهادة أمام المحاكم الا باذن الفسيلفس (٨) . وكان حر التصرف بأمواله الشخصية التي توفرت لديه قبل السيامة . أما دخله بعدد

1) Vie de Saint Georges d'Amastris, 15 - 20.

2) Dolger, Reg. 723, 726 ; Schlumberger, G., Epopée, III, 16 - 17.

3) Kougeas, Melanges Sp. Lambros, 574 - 579.

4) Nov. Jus., 6 (535).

5) Bréhier, L., Institutions, 511 - 512.

6) Epanagoge Basilii, VIII, 1 (77) ; Vogat. A., Basile I, 273.

7) Prochiron de Basile, éd. Lingenthal, XXVI, 78 (145).

8) Barhebraeus, III, 1.

تعميد النسوة واصبحن كلهن معمدات في الصغر فزال السبب الرئيسي لوجود الشماسات وانقطعت أخبارهن (١).

وكانت القوانين المدنية والكنسية قد ميزت الكهنسة بما يزيدهم وقاراً واحتراماً بالحياة واللباس الخصوصي وشارة الصليب على القلنسوة لكبرائهم في ثسالونيكية وبصياتهم وعدم الاعتداء عليهم وباعفائهم من بعض الضرائب ومن السخرة والخدمة العسكرية وبمحصن النظر في دعاويهم امام محاكم الاساقفة . وكان قد أبيع لهم العمل لتأمين الرزق فنتهم لاوون السادس من معاطاة الحمامة وغيرها من الاعمال المدنية وحرّم عليهم العمل بالاجور كادارة الاملاك (٢).

الرهبان : ولعب الرهبان دوراً هاماً في الكنيسة والدولة . ولم ينتموا بادىء ذي بدء الى طغمة الاكليروس وانما اعتبروا علمانيين مربوطين بنذر وجب القيام به على اكمل وجه باشراف الاساقفة . ثم تدرج بعضهم في سلم الكهنوت وبقي معظمهم علمانيين فعرف الاكليريكيون منهم بالرهبان المقدسين *hieromoiines* ثم تكاثروا هؤلاء المقدسون فعظم شأنهم . وما فتئوا يتقدمون حتى احتكروا الكرسي الاسقفية .

وعرف الروم نوعين من الترهّب : الشرقي والباسيلي . وتميز الترهّب الشرقي بالتأمل والانفراد . فكان الراهب منفرداً منعزلاً *monos monomakos* يعيش في صومعة مقلّة *egkleistoi* او على عمود *stulites* او على شجرة *dendrites* وجاء القديس باخوميوس في القرن الرابع فجمع هؤلاء الزهد حول دير معين يعيشون فيه مجتمعين . وتكتل النساء في فلسطين فعاشوا في صوامع قريبة واشتركوا في مائدة واحدة وصلاة واحدة مرة في الاسبوع (٣) . اما الطريقة الباسيلية فانها تميزت بالعيشة المشتركة والعمل المشترك والطاعة . ووافقت هذه الطريقة ظروف المناطق اليونانية في آسية واوروبا فانتشرت انتشاراً واسعاً وقامت الصوامع

1) Balsamon, P. G., Vol. 137, Col. 442, Vol. 138, Col. 987 ; Blastares, P. G., Vol. 119, Col. 1272.
2) Nov. Leon, 86 ; Spulber, C., Etudes de Droit Byzantin, Nov. 86, 288.
3) Besse, dom, Les Diverses Sortes de Moines en Orient avant le Concile de Chalcedoine, Rev. Hist. Relig., vol. 40, 159 ff. ; Jerphanion, G., La Voix des Monuments, II, 111 ff.

الحيامة فانه اعتبر مالا كنسياً لا يجوز انفاقه بصورة شخصية (١) . وحرّم على الاسقف تعاطي الأعمال المدنية كجباية الضرائب وتصفية الثروات وقبول الوصاية (٢) . ولكنه توجب عليه الاشراف على اقتصاديات الاسقفية والمؤسسات الخيرية الخاضعة له (٣) .

الكهنسة : وظل هؤلاء متزوجين كما جرت العادة من قبل وحرمت القوانين انفصالهم عن زوجاتهم . وأجيز لهم في أواخر القرن التاسع الزواج حتى نهاية السنة الثانية بعد الرسامة . ثم جاء لاوون السادس فأبطل هذا التوسع (٤) .

واحتفظت كنيستنا بالشماسات قروناً طويلاً وفرضت عليهن شروط بولس الرسول في رسالته الاولى الى تيموثاوس : « لا تكتتب في عداد الأرامل الا التي لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج الا مرة واحدة ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها وأضافت الغرباء وغسلت أقدام القديسين واملت المتضايقين وسعت في كل عمل صالح » (٥ : ٩ - ١٠) ولكنهن بقين غير اكليريكيات لا يحق لهن الوعظ او ممارسة الأعمال الكهنوتية واكتفين بمعاونة الكهنسة فكان يرأسن تعميد النساء ويعلمن المواعظات ويراقبن النساء المؤمنات في الغوناكيون *gunatkeion* (مد النساء) في اثناء القداس الالهي . وكان ايضاً يتفقدن المرضى والمصابين . وكان قانون يوستينيانوس قد قضى بعد قبولهن بهذه الدرجة قبل الخمسين وبوجوب محافظتهن على الآداب والوقار . فاذا ما أجيحفن بالنذر فجدن عن السيرة الحسنة او تزوجن عوقبن بالموت (٥) . ثم لطف هذا القانون في عهد باسيلوس الاول وقبلن شماسات في الأربعين من العمر (٦) . وما فتئن يعملن في حقـل الرب حتى القرن الثالث عشر . وزالت الحاجة الى

1) Prochiron de Basile, XXIV, 1 (133).

2) Epanagoge Basilii, IX, 1.

3) Ibid., IX, 9.

4) Nov. Léon VI, éd. Lingenthal, 3, 79; Monier, H., Nov. de Leon, 24.

5) Nov. Jus., 6 (535), 123 (546).

6) Vogt, A., Basil I, 279 - 280.

والأديار في كل مكان . وأشهرها أديرة جبل القديس او كسندديوس وجبل اوليمبوس في بيثينية وجبل آتوس في شبه جزيرة خلقيديسة وجبل الميثورة في ثسالية .

وحدد القديس باسيليوس ساعات الصلاة والدرس والعمل والاكل والنوم وعين نوع اللباس وتفاصيله . واكتفى بعدد محدود من الرهبان في الدير الواحد ونهى عن الكثرة . وصعب الخروج من الدير والدخول اليه ووجب الطاعة الكاملة للرئيس .

وأقبل الناس على التهرب جماعات واندفعوا في سبيل الرهبة وانفردوا في تأسيس الاديار فاحدثوا بلبلة وتشويشاً فاتخذ المجمع المسكوني الخلقيدوني (٤٥١) قرارات منعت تأسيس الاديار قبل موافقة الاسقف صاحب العلاقة وأوجبت اقامة الرهبان في الاديار وعدم خروجهم منها بدون اذن الاسقف كما اوضحت ان واجب الرهبان الاول هو الصوم والصلاة في الدير . وحرمت على العبد تقديم النذر بدون موافقة سيده كما منعت الزواج بعد تقديم النذر .

وجاء يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) فاشترع قوانين اعترف بها بقدسية الحياة الرهبانية ثم اتخذ من مبادئ القديس باسيليوس الكبير وقرارات المجمع اساساً للتنظيم فنع انشاء الدير في اية ابرشية قبل موافقة اسقف هذه الابرشية وبركته (١) . وأوجب احاطة الدير بسور ومراقبة بابه (٢) . وحرّم بعد ذلك انطلاق الرهبان « التائبين » الذين كانوا ينتقلون من مكان الى آخر مستعطين خبزهم اليومي . وأبعد اديرة الراهبات عن اديرة الرهبان وفرق بين الاسكيتيرية asketeria اديرة التائبات واديرة الرهبان (٣) . وجعل على كل دير رئيساً بلقب ايغومينس hegoumenos ومعناه المدير او ارشمندريت archimandrites ومعناه حارس الخطيرة (٤) . ومنح الراهبات حق انتخاب هذا الرئيس ووجب خضوعهم للتفتيش . فكان على البطريرك ان يوفد اكسرخوساً لهذه الغاية مسلحاً بالتعليمات البطريركية الـ Entalma (٥) .

1) N. J., 67 (538).

2) N. J. 5 (535).

3) C. J., I, 3, 43 (529).

4) Dict. Arch. Chrét., I, Col. 2739.

5) N. J. 133 (539).

ولم يتعرض يوستينيانوس لنظم الرهبان الداخلية . فكان على المؤسس ان يذكر أهمها في تيبكيون Typikon التأسيس . وكان للرئيس والاسقف حق الاضافة والتعديل . وواظب الرهبان منذ عهد القديس باسيليوس الكبير على صلوات الساعات السبع بما فيها من صلوات الميسونوكتيكون Mesonuktikon وصلوات الاورثروس Orthros . وكان من حسن حظ كنيستنا ان أوجب القديس سابا بالتبكيون تقدم اللغة اليونانية على السريانية والعربية فأكره الرهبان السريان والعرب ان يشتركوا في ليتورجية الكنيسة الكبرى بعد اقامة الصلاة بلغتهم في الكنائس الصغرى . فظلت كنيستنا بفضل هذا التدبير على صلة وثيقة بكنائس اليونان واللاتين وتسنى لها متابعة الفكر الكنسي الجامعي والاشترك فيه . وقضى هذا التبكيون ايضاً بأن يكون الايغومينس يونانياً او في الارجح متهلئاً بجيد اللغة اليونانية (١) .

ودافع الرهبان دفاع الابطال عن الايقونات فذاقوا الامرين في عهد قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥) . ثم انتصروا فعادوا الى سابق عزمهم وسطوتهم . فحاول البطريرك القسطنطيني نيقيفوروس الاول (٨٠٦ - ٨١٥) ان يحسد من غلواتهم . ثم جاء القسيفلس نيقيفوروس فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩) فنع انشاء الدير الجديدة وتوسيع القديسة . ولكن القسيفلس باسيليوس الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥) ألغى هذه الاحكام فعاد الرهبان الى سابق عهدهم .

القديس ثيودوروس الاستودي : (٧٥٩ - ٨٢٦) وادى هذا التضييق الشديد على الرهبان الى تفكير جدي في الرهبة والتهرب . وقام في الجبل المقدس نفسه في جبل اوليمبوس من دعا الى الاصلاح والتجديد . فظهر بادية ذي بدء القديس يوانيكوس الكبير الذي اشتهر بالفضيلة والتقوى وأسس في اوليمبوس ثلاثة اديار كانت حياته المثالية فيها اكبر رادع عن الشر واشد دافع للخير . وهو الذي علمنا ان نقول : « الآب رجائي والأبن ملجائي »

1) Dimitrijevsij (Travaux de l'Académie de Kiev, 1890 ; Kurtz, Byz. Zeit., 1894, 168 - 170 ; Laures Palestiniennes, Dict. Arch. Chrét., IX, 1966-1976.

والروح القدس وقائي ايها الثالث القدوس المجد لك « (١) .

وظهر ايضاً ثيودوروس المعترف الاستودي . أبصر النور في القسطنطينية في السنة ٧٥٩ ونال حظاً وافراً من التربية الصالحة والعلوم الفلسفية . ثم عافت نفسه الدنيا وما فيها في الثانية والعشرين من عمره فلجأ وجماعة من رفاقه الى عقار له في السكوديون في جبل اوليمبوس . ووضع نفسه ورفاقه تحت تصرف خاله القديس افلاطون الذي كان قد سبقه الى العزلة والتأمل في دير السكوديون . ونذر ثيودوروس نفسه فيهر اقرانه بالتقوى والصلاح والحفاظة على التقليد الرهباني . فرقاه البطريرك تراسيوس في السنة ٧٨٤ الى رتبة الكهنوت . وألمّ بحاله مرض عضال فأوصى بانتخابه رئيساً على دير السكوديون فأصبح هيغومينا في السنة ٧٩٤ (٢) .

وقام ثيودوروس باعباء الرئاسة بجد ونشاط وغيره وتقان . فقدس نفسه قبل تقدس غيره واحترم القوانين ليعتبرها غيره . فسطعت الحياة الرهبانية في السكوديون بكل سناها . وكان خطير النفس رفيع الالهواء فصبا الى اصلاح كامل يشمل الحياة الاجتماعية بأسرها . فطالب بتطبيق المبادئ المسيحية في جميع النواحي وقال باستقلال الكنيسة وحريتها في انتخاب اساقفتها وأوجب مكافحة السيمونية وخلع من رشا للوصول الى الكرسي ومحاربة من لم يحترم الايقونات ومن غALT في العقيدة وأنب كل تهتك دنس (٣) .

واتخذ ثيودوروس موقفاً حازماً من الفسيفس قسطنطين السادس لتشبته في تطليق امراته الشرعية ثيودورة فنفي الى تسالونيكية هو ورهبانه في السنة ٧٩٥ ثم اعادته ايرنية في السنة ٧٩٧ . ثم اقلق المسلمون البلاد وظهرت طلائع جيوشهم في بيشينية فرحل ثيودوروس وجماعته في السنة ٧٩٩ واستقروا في دير

1) Van Den Gheyn, Acta Sanct. Boll., Nov., 325 - 371.

2) Vie de Saint Théodore, P. G. Vol. 99, Col. 236 - 241, 248 - 249 ; Dvornik, P., Legendes, 115 ; Marin, Saint Théodore, 24 - 25.

3) Brehier, L., Institutions, 541.

الستودايوس Stoudios القديم في القسطنطينية (١) . فأقام الرهبان هذا الدير من كل جذب وصوب حتى فاق عددهم الالف (٢) . ولم ينعم ثيودوروس براحة البال طويلاً . فان لاوون الخامس الارمني (٨١٣ - ٨٢٠) اثار على الكنيسة والرهبان حرباً اليمة سبقت الاشارة اليها . واضطهد هذا الفسيفس ثيودوروس ورهبانه بأنواع متنوعة من الاهانة والسجن والنفي . ومات لاوون فقضى ثيودوروس البقية الباقية من حياته في دير مطمئناً متفرغاً للارشاد والاصلاح . ورقد بيسوع شيخاً طاعناً سنة ٨٢٦ .

وقسم ثيودوروس العمل الرهباني الى دوائر معينة وأقام على رأس كل دائرة قيماً جعله مسؤولاً عن عمله فيها . وحدد ثيودوروس الواجبات في هذه الدوائر المختلفة ونظمها نظماً ليسهل على الرهبان حفظها . ثم اشترع قانون عقوبات لمن خالف هذه القوانين . ودعا الرهبان الى اجتماع عام ثلاث مرات في الاسبوع ليعظهم في التقوى والطاعة وضبط النفس والاندفاع في سبيل العمل المشترك . ودونت هذه الاصلاحات في مصنفاته ولا سيما الكاتيكيسيس Katekesis الصغير بعظاته المئة والاربع والثلاثين (٣) والكاتيكيسيس الكبير بأقسامه الثلاثة وعظاته السبع والسبعين (٤) . وقد خلّد شخصيته في رسالته الى تلميذه نقولاووس فلترجع قبل غيرها (٥) . واما التيبكيون الذي يعزى الى القديس ثيودوروس فانه في الحقيقة تطبيق معدل الانظمة الاستودية في اديرة مختلفة (٦) .

وتتجلى مبادئ ثيودوروس في تيبكيون دير الافرجيتيس Evergestis الذي انشئ في القسطنطينية في اوائل القرن الحادي عشر . فقد حدد هذا التيبكيون كيفية الترتيل والتكريس والتطهير وبين ساعات الصلوات في الليل

1) Delahaye, H., Stoudion - Studios, Analecta Bollandiana, 1934, 64 ; Janin, Les Eglises du Précurseur à Const., Echos d'Or., 1938, 319.

2) Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium, 148 - 149.

3) Théodore le Studite, P. G., Vol. 99, Col. 509 - 688 ; Van Der Vost, La Petite Catéchèse de Saint Théodore, Anal. Boll., 1914, 31.

4) Gardner, Alice, Theodore of Studium, His Life and Times, 78 ff ; Cozza Luzzi, Nava Patrum Bibliotheca, IX, 1 - 217.

5) Gardner, A., op. cit., 71 - 74.

6) P. G., Vol. 99, Col. 1703 - 1720.

والنهار وأوجب إقامة القداس الإلهي يومياً وأجاز المناولة ثلاث مرات في الأسبوع للرهبان المقدمين ومرة واحدة في الأسبوع لسائر الرهبان وأوجب الاعتراف قبل المناولة وحصر حق استماع الاعتراف برئيس الدير وحده وقضى عليه بوجوب الإصغاء مرتين في النهار : في الصباح وبعد العشاء . وسلطة الرئيس بموجب هذا التمييز واسعة مطلقة وعلى الرهبان أن يحترموا هذا الرئيس ويطيعوه طاعة تامة . وهو يعين رؤساء الدوائر دونه . وأهم هؤلاء الأيكونوموس *Oeconomos* وهو القهرمان ويمين الرئيس وقد يخلفه في الرئاسة . وهناك السكيوفيلاكس *Skeuphylax* وهو أمين الكنيسة والذوخياروس *Dochiaros* وهو أمين الصندوق وضابط اللوازم والايستيمونارخوس *Epistemonarchos* وهو الناظر المحافظ على النظام والترابيزاريوس *Trapezarios* وهو مدير المائدة ورئيس الطهارة والخبازين وعلى الرهبنة أن تحتفل بعيد تأسيسها وبذكرى المحسنين إليها . وعليها أيضاً أن تأوي المسافرين والمرضى فتزلهم عندها وتعني بهم (١) .

الفصل الثامن والثلاثون

الفاطميون والكنيسة

٩٦٩ - ١٠٥٤

الشيعة : وكانت شيعة علي لا تزال تتطلب الخلافة له ولنسله وترى أنهم أحق بها . وكان الخلفاء العباسيون يحذرونهم ويراقبونهم وينكلون بهم فلا يرجع الشيعة عن مطلبهم ولا يغير الخلفاء سياستهم . وكان العباسيون أقدر على تتبع الشيعة من الأمويين لأنهم كانوا أعرف بالعلويين . وأساليبهم فقد خالطوهم وحالفوهم للعمل ضد الأمويين . وكان كلما قام خليفة عباسي قام داعٍ علوي يدعو إلى نفسه ثم يقاتل فيقتل . وقد يكشف أمره قبل الخروج فيُحبس أو يُسَم . ولم يجد عطف المأمون على الشيعة ولم يدم نفعه فالتوكل تحامل عليهم فأعاد الاضطهاد سنة ٨٥٠ وهدم قبر علي في النجف وحرث قبر الحسين في كربلاء .

وأدى هذا الاضطهاد المستمر إلى التكم فالتخذت الشيعة مبدأ التقية بحيث أخفت ميولها اتقاء للضرر . وحصرت الشيعة الخلافة في علي وابنه الحسن ثم الحسين (٦٨٠) ثم علي زين العابدين (٧١٢) فمحمد الباقر (٧٣١) فجعفر الصادق (٧٦٥) فموسى الكاظم (٧٩٩) فعلي الرضا (٨١٨) فمحمد الجواد (٨٣٥) فعلي الهادي (٨٦٨) فالحسن العسكري (٨٧٤) فمحمد المنتظر . وهو في حالة غيبة موقفة حي لا يموت . وقد تغيب في كهف في جامع سامرا سنة ٨٧٨ . هو المهدي الذي سيظهر فيحكم العالم قاطبة ويكون ظهوره فاتحة عصر يسبق نهاية العالم . وهو الإمام المدير « قائم الزمان » (١) .

(١) أصل الشيعة وأصولها الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (صيدا ١٩٣٦) والعقيدة والشرعية في الإسلام لاغناطيوس غولنيزر تعريب محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) وتاريخ العرب للدكتور فيليب حتي .

1) Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium, 150 - 152 ; Bréhier, L., Institutions, 542 - 545.

الاسماعيلية : وكان جعفر الصادق قد عين ابنه اسماعيل خلفاً له ولكنه عاد فعين ابنه الثاني موسى الكاظم . ووافقت أكثرية الشيعة على هذا التغيير ولكن بعضهم ظلوا تابعين لاسماعيل . فلما مات في السنة ٧٦٠ أصبح عندهم الامام المهدي المستور . ولما كان اسماعيل هو الامام السابع عُرف هؤلاء بالسبعية ايضاً .

ثم راجت النظريات الفلسفية اليونانية واشتد الاحتكاك بالمانوية والمجوسية فأخذ الاسماعيليون عن فيثاغوروس وافلوطين وغيرهما واعتبروا العدد سبعة مقدساً وجعلوا التجليات سبعة : الله والعقل والنفس والمادة الاصلية والفضاء والزمن وعالم الارضين والبشر . وقالوا بسبعة انبياء مشرعين « ناطقين » : آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم محمد التام ابن اسماعيل . وقالوا ايضاً بسبعة ابناء صامتين بين كل نبينين ناطقين . واول هؤلاء الاساس ومنهم اسماعيل وهارون وبطرس وعلي . وجاء بعد هؤلاء زعماء الدعاة واحدهم « حجة » فالمبشرون « الدعاة » . وقالوا ايضاً بتأويل القرآن قرأوا المعنى الحقيقي مستوراً بالمعنى الظاهري . ومن تعاليمهم تناسخ الارواح وحلول الالهية في اسماعيل وانتظار « رجعتة » مهدياً . وجعلوا المريدين المتدرجين سبعة طبقات ايضاً ناسجين على منوال اليونان والمانويين .

واشهر رجالهم في القرن التاسع عبدالله بن ميمون القداح وهو الذي اكمل نظامهم الديني السياسي . جعل البصرة اولا مقره ثم انتقل الى سلمية في شرق حماة . ومنها أنفذ الدعاة الى جميع انحاء العالم الاسلامي لينشوا روح الشك في العقائد الرائجة ويوجهوا الانتباه الى المهدي المنتظر .

القرامطة والالفة : وقبل وفاة عبدالله بن ميمون في السنة ٨٧٤ للميلاد لمع بسين اتباعه حمدان قرمط . وكان من غلاة الدعاة . فابتنى لنفسه مقراً « دار الهجرة » في جوار الكوفة في السنة ٨٩٠ . واستغل العداوة المزمنة بسين الفلاحين وابناء البادية . وجعل لمنظمتهم ارزاقاً جارية « مشتركة » مستمدة من تبرعات المريدين . وأباح حمدان الاشتراكية « الالفة » في الاموال . وشدد على المساواة وجعل للعمال والصناع مراسيم تقربهم من نقابات العصر

الحديث . وفي الرسالة الثامنة من رسائل اخوان الصفا وصف لهذه النقابات الاسلامية القديمة فليراجع في محله . ويرى العلامة المستشرق الافرنسي ماسينيون صلة بين حركة حمدان قرمط وبين الماسونية وغيرها من الجمعيات السرية التي بدأت تظهر في الغرب بعد ذلك بقليل .

وساهم القرامطة في ثورة الزنج في البصرة (٨٦٨ - ٨٨٣) واسسوا دولة لهم في الاحساء (٨٩٩) واحتلوا مكة (٩٣٠) وحملوا الحجر الاسود منها الى هجر . ولجأ بعضهم الى سلمية مقر اخوانهم الاسماعيليين في شمال سورية وشنوا منها الغارات على من جاورهم من اهل هذه البلاد . وبلغوا بفتنتهم وقلقهم خراسان واليمن (١) .

الفاطميون : ولمع بين دعاة الاسماعيليين في اواخر القرن التاسع رجل من اهل صنعاء اليمن اسمه ابو عبدالله الحسين . فرحل الى شمال افريقية وبث دعوته في صفوف البربر ولا سيما في مرايض بني كتامة . وكانت آتخذ خاضعة لدولة الاغالبة . ولاقي ابو عبدالله نجاحاً فغادر سعيد ابن حسين زعيم الاسماعيليين سلمية متخفياً الى شمال افريقية . وقال سعيد انه من ذرية فاطمة من نسل الحسين واسماعيل (٢) وسجن سعيد في سجلماسة بأمر زيادة الاغلي (٩٠٣ - ٩٠٩) فأنفذه ابو عبدالله الحسين بثورة قضت على دولة الاغالبة . ونودي بسعيد اميراً فعرف بالامام عبيد الله المهدي حفيد فاطمة من نسل الحسين واسماعيل .

وحكم المهدي (٩٠٩ - ٩٣٤) من الرقادة وقتل ابا عبد الله الحسين وبسط سلطانه حتى حدود مصر . ثم احتل الاسكندرية في السنة ٩١٤ . وانشأ لنفسه عاصمة جديدة على الساحل التونسي الى الجنوب الشرقي من القيروان وأطلق عليها اسمه فعرفت بالمهدية . ثم خلفه القائم (٩٣٤ - ٩٤٥) فالمنصور (٩٤٥ - ٩٥٢) فالعز (٩٥٢ - ٩٧٥) . وفي عهد هذا الاخير عظم شأن الاسطول الفاطمي فغزا سواحل اسبانية في السنة ٩٥٥ . وبعد ذلك بثلاث سنوات تقدم الجيش غرباً حتى بلغ المحيط الاطلسي . وفي السنة ٩٦٩ استولى الفاطميون على مصر وقضوا على

1) Karmatians, Encyc. of Islam ; de Goeje, Mémoire sur les Carmathes ; Goldziher, I., Streitschrift gegen die Batiniyya Sekte.

(٢) تاريخ العرب الدكتور فيليب حتي ص ٧٣١ - ٧٣٢

سلطة الاخشيديين . وكان بطل هذه الفتوحات جوهر الصقلي الرومي . وكان هذا نصرانياً ولد في صقلية وجاء منها الى القيروان رقيقاً .

ولم يكتف جوهر بفتح مصر بل عمل على مد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام فأخذ قائده جعفر ابن فلاح لمقاتلة الاخشيديين في فلسطين وسورية . فالتقى الخشمان في الرملة في ايلول السنة ٩٦٩ . وكان الحسن الاخشيدي على رأس جيوش المقاومة فوقع اسيراً . وتتابعت انتصارات الفاطميين ففتحوا طبرية . وضرب جعفر عقيل وفزارة ومرة وغيرها من قبائل البدو بعضها ببعض وقصد دمشق فثار اهلها على الاخشيديين فانهمزوا عنها وذلك بعد شهر واحد من معركة الرملة . فاتخذ الفاطميون دمشق قاعدة لهم وانطلقوا شمالاً وغرباً فاستولوا على الساحل حتى طرابلس ولكنهم انهزموا امام الروم في انطاكية . واقامت الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي في دمشق في اول جمعة من شهر محرم سنة ٣٥٩ للهجرة اي في التاسع عشر من تشرين الثاني سنة ٩٦٩ وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع .

وتولى القرامطة ، بعد خروج عبيد الله المهدي من سلمية ، زعامة جميع طوائف الاسماعيلية فيها وحواليها . فلما أصبح عبيد الله امام الفاطميين تدخل في شؤون سلمية فأيده بعض القرامطة فيها وقاومه غيرهم . ورأى المواليون وعلى رأسهم ابناء ابي طاهر ان تنضوي طائفتهم تحت لواء الفاطميين . ورأى للمعسكر الثاني وفي طلبعتهم احمد ابن ابي سعيد واخوته ان يوجهوا السياسة توجيهاً يعود بالنفع على القرامطة انفسهم . وتوفي صديق الفاطميين في السنة ٩٤٤ ولم يترك من الابناء من يصلح للحكم والزعامة فتولى الاستقلاليون دفعة السياسة وما فتتوا حتى وصول الفاطميين الى سورية .

وتوفي المعز في اواخر السنة ٩٧٥ وخلفه ابنه « العزيز بالله » ابو منصور نزار . ولبت في الخلافة احدى وعشرين سنة . ومال الى اصطناع الموالي ولم يعتمد على المغاربة الا قليلاً . وانتقى مواليه من الاتراك والصقالبة فولى بنجوتكين التركي القيادة وولاية دمشق . وولى وفي الصقلي على عكة « وبشارة » الاخشيدى على طبرية وجهاتها . ومن هنا القول « بلاد بشارة » حتى يومنا هذا .

فأدى هذا الانتقاء الى كثير من الحسد والنزاع بين الاتراك والمغاربة .

العزیز والنصارى : (٩٧٥ - ٩٩٦) ولم يحصر العزيز الحكم بالمسلمين دون سواهم فولى عيسى ابن نسطوريوس النصراني الوزارة وجعل ابا الفتح منصور النصراني طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة (١) . وكثر عدد الذميين من النصارى واليهود في الدواوين ومناصب الحكم واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ وجاء لابي صالح الارمني ان الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون اقامة الكنائس والاديار بل ربما تولوا اقامتها بأنفسهم (٢) .

وكانت زوجة العزيز وام ست الملك جارية رومية ارثوذكسية . وكان لها في ايام زوجها نفوذ عظيم في الدولة . كانت ابنتها ست الملك حازمة عاقلة بصيرة في الامور فأحبها العزيز وأصغى اليها واستمع الى نصيحها فكان لها اثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى وكان لست الملك خالان رفعها العزيز بتدخله في شؤون الكنيسة الى الذروة فجعل احدهما اورسطيوس بطريركاً على اوروشليم (٩٨٤ - ١٠٠٥) والآخر ارسانيوس متروبوليتاً على القاهرة ثم بطريركاً على الاسكندرية (٣) .

السياسة الفاطمية الدينية : وقامت دولة الفاطميين على الدعوة الشيعية فكان خلفاؤها ائمة احفاداً لعللي وفاطمة . وتحدثت امامتهم من امامة اسماعيل ابن جعفر الصادق . وحرصوا كل الحرص على هذه الصفة . ولما استقروا بمصر والشام اعتمدوا الدعاية السريّة لتأييد دعوتهم لانهم لم يجدوا في هذين القطرين ما وجدوه في المغرب مهلاً خصباً لدعوتهم .

وانخذت دعوتهم المذهبية صبغة رسمية فانتظمت في القصر نفسه وفي الجامع الازهر . وتولى بثها بنو النعمان بقراءة علوم آل البيت والتفقه فيها .

(١) مختصر الدول لابن العربي ص ٣١٦

(٢) تاريخ الاديار والكنائس ٣٩ و ٤١ فقلنا من كتاب الحاكم بأمر الله لعبد الله عنان ص ٣٧

(٣) تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٥ و ٢٩٨ وتاريخ المكين ابن العميد

(ليند ١٦٢٥) ص ٢٤٧ والخطط للمقريري ج ٤ ص ٣٩٨

وكان عظماء الدولة يشاركونهم في بعض الاحيان فيقرأون هذه العلوم ويشرحونها . وكانت هنالك دعاية اخرى تحاط بالتحفظ والتكتم ويشرف عليها زعيم كبير يدعى داعي الدعاة . وكانت هذه الدعوة تجري في تسع مراتب يعرضها الدعاة بالتعاقب وفقاً لاستعداد المريد واهليته فلا يصل الى درجاتها العليا الا من كان موضع الثقة . فالدين في المرتبة الاولى امر مكتوم وانصراف الناس عن الأئمة هو أصل الشر والخلاف في الاسلام وليس دين محمد ما تعرفه الكافة وانما هو سر الله المكتوم لا يطبق حمله الا ملك مقرب او نبي مرسل او عبد مؤمن اصطفاه الله . واذا آتس الداعي قبولاً انتقل بالمريد الى المرتبة الثانية فأكد ان الله لم يرض في اقامة حقه الا ان يؤخذ عن أئمة معينين . ويقول الداعي في المرتبة الثالثة ان هؤلاء الأئمة سبعة : علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد وجعفر واسماعيل وهو القائم صاحب الزمان . وابنه محمد صاحب العلم المستور ودعائه هم الوارثون لعلمه . وكان يقال في المرتبة الرابعة ان الانبياء الناطقين بالامور الناسخين للشرائع سبعة ايضاً وانه لا بد لكل منهم من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على امته . ويكون لهذا ظهور في حياته يخلفه بعد وفاته . ويسير كل مستخلف على هذا المنوال الى ان يأتي منهم سبعة . ويقال هؤلاء « السبعة الصامتون » . فاذا انقضى هؤلاء السبعة يبدأ دور ثان من الأئمة يفتتحه بني ناطق ينسخ شريعة من مضى . واول النطق آدم وظهيره او سوسه شيت وثاني النطق نوح وظهيره سام وثالثهم ابراهيم الخليل وظهيره ابنه اسماعيل ورابعهم موسى وظهيره هارون وخامسهم عيسى وظهيره شمعون الصفا وسادسهم محمد وظهيره علي وهو اول السبعة الصمت . وجاء بعده ستة صمتوا على الشريعة الاسلامية . وسابع النطق هو قائم الزمان محمد ابن اسماعيل ابن جعفر . وكان يلقي على المريد في المرتبة الخامسة انه لا بد مع كل امام قائم من حجج اثني عشر متفرقين في الارض . ويدعو الداعي في المرتبة السادسة الى ان الشرائع رموز لها معان مستترة تختلف عن نصوصها الظاهرة وان منطق العقل هو المعول عليه في هذه الامور فيتعرف المريد الى افلاطون وارسطو وفيثاغورس وغيرهم . وجاء في المرتبة السابعة ان صاحب الشريعة لا يستغني من نفسه ولا يسد له من صاحب يعبر عنه ليكون احدهما الاصل والآخر يصدر

عنه . وجاء في الثامنة ان مدير الوجود والصادر عنه انما هو تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول وان الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن المصدر الثاني . فالسابق لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يحدد فلا يقال هو موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز . والتالي يلحق بمنزلة السابق . ومعجزات الانبياء تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون وتارة تكون بافصاح يعرفه كل الناس . والقرآن والقيامات والثواب والعقاب معناها غير ما يفهمه الكافة وهي حدوث ادوار تقع عند انقضاء ادوار من ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها . وفي الدعوة التاسعة الاخيرة كان المدعو ينتقل الى الفلسفة وما وراء الطبيعة فيعلم ان ما ذكر من الحدوث والاصول انما هي رموز الى معاني المبادئ وتقلب الجواهر وان الوحي انما هو صفاء النفس ويعبر عنه بكلام الله وانه ليس على العارف المستشير ان يعمل به وان الانبياء اصحاب الشرائع انما وجدوا لسياسة العامة وان الفلاسفة انبياء الخاصة (١) .

الحاكم بامره : (٩٩٦ - ١٠٢١) « وُجِدَ » في الرابع عشر من آب سنة ٩٨٥ وتولى الخلافة بعد العزيز وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره . وطوى مرحلة الحداثة في الخامسة عشرة . وما ان بلغ اشدّه حتى اصبح « مبسوط الجسم مهيب الطلعة له عيان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ونظرات حادة مروعة كنظرات الاسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها وله صوت قوي مرعب يحمل الروح الى سامعيه » . (٢) وكان منذ حدوثه يؤثر العمل المضني على مجال اللهو واللعب . وظل طوال حياته عفيفاً زاهداً « لم يمد يده قط الى الاخذ من مال احد بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة » (٣) . وكان اذا أمر باحد من الوجهاء الاغنياء وهب تركته او ضمها الى صندوق الدولة وكان زاهداً متقشفاً يحترق الرسوم والالقب الفخمة يرتدي ثياباً بسيطة من الصوف الابيض ويتعمم بفوطة

(١) الخطط المقرري ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٣ وقد نقلها الى اللغات الاوروبية عدد من المستشرقين بينهم دي ساسي في مقدمة كتابه الشهير عن الدروز .

(٢) اخبار الدول المنقطعة للعزيز جمال الدين نقلت عن كتاب الحاكم لعبد الله عنان ص ٥١ . وتاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٢١

(٣) المرجع نفسه ٢٠٦

ويحتذي حذاء ساذجاً ويركب فرساً بلا زينة أو حماراً ولا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابيسة . ولم ينقطع عن الاتصال بالشعب وقضاء ما استطاع من حوائجهم وربما حمل اليهم بنفسه السجلات والمراسيم المطلوبة (١) .

وجاء في كتاب عمدة العارفين للشيخ محمد شرف الدين الاشرفاني « ان سيرة الحاكم كانت من أعجب السير واغربها يأمر بشيء ثم ينهي عنه وكانت اموره متضادة لان كان عنده شجاعة واقدام وجبن واحجام يبخل بالقليل ويعطي الجزيل وذلك لحكمة في ذاته » وعني بالدعاية للمذهب فحارب الفسق والدعارة والخمر والخمارين . وحرّم دخول الحمام بلا مئزر وحرّم على النساء التزين والتبرّج وكشف الوجه في الطريق وعاقب كثيرين (٢) . ولم يرَ الحاكم في النصارى مادة للمذهب الذي دعا اليه فشجعهم على الزواج الى اراضي الروم في انطاكية وشمال سورية . وهدمت كنيسة القيامة في عهده في ايلول السنة ١٠٠٩ . وهدمت الكنيسة المريمية في دمشق (٣)

حمزة ابن علي : وظهر في القاهرة في الثلاثين من ايار سنة ١٠١٧ حمزة ابن علي ابن احمد الزوزني . وكان فارسياً أبصر النور في زوزن ثم هاجر الى مصر وانضاف الى المقامات الربانية . « واشتهر بخدمة الحاكم قبل التجريد وبعد التجريد فأضيفت النذر ودعاتهم اليه . واستمر في مصر حتى حلت الثامنة واربع مئة فكشف التوحيد في اول يوم من المحرم (٣٠ ايار سنة ١٠١٧) ودعا الخلائق الى التوحيد . وكانت دعوته تخيراً لا تكليفاً » (٤) .

فصدر سجل باباطال السجلات التي صدرت من قبل في حق النصارى واليهود ورفع الفروض التي ضربت عليهم واطلق الحرية لهم في اعادة الكنائس وعودة من أسلم منهم الى النصرانية . وقد حفظ لنا يحيى ابن سعيد الانطاكي نص سجلين بهذا المعنى احدهما موجه الى رئيس دير طور سيناء الانبا سليمان والآخر

(١) الخطط لمقريري ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣ وتاريخ يحيى الانطاكي ص ٢٠٥ و ٢١٧ - ٢١٨

(٢) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢١٨ و ٢١٩ و ١٨٦

(٣) المرجع نفسه ١٩٥ و ١٩٦

(٤) عمدة العارفين ص ٤٤ - ٤٧

الى نيقيفوروس بطريرك اوروشليم وخلف ثيوفيلوس . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر امير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لينتفيقور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته واطلاق بغيته من صيائنه وحياطته والذي عنه وعن اهل الذمة من نخلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افترائهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقة في دينه وعقيدته واقامة ما يلزمه في حدود ديائنه وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد وما برسم هذه المواضع من الدور المنصوية اليها والمنع من نقض المصلبات بها والاعتراض لاجاسها المطلقة لها ومن هدم جداراتها وسائر ابنيها احساناً من امير المؤمنين اليهم ودفع الاذى عنهم ومن كافتهم وحفظاً للذمة الاسلام فيهم . فن قرأه او قرأه من الاولياء والولاة ومتولي هذه النواحي وكافة الجهات وسائر المتصرفين في الاعمال والمستخدمين على سائر منازلهم وتفاوت درجاتهم واستمرار خدمتهم او تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه فليعلم ذلك من امير المؤمنين ورسمه ويعمل عليه وبحسبه وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ويتجنب مباينة قصه ومجانبة شرحه . وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وادراك بغيته ان شاء الله تعالى (١) .

الدروز في ابرشيات انطاكية : وانتشرت هذه الدعوة في الاوساط الاسلامية في ابرشيات انطاكية ولاسيا في ربوع لبنان الشرقي فالغربي ثم اضطهد اتباعها في كل مكان فزحوا الى سورية ولبنان وآثروا السكنى مع المسيحيين وتعاونوا معهم في المحافظة على الراحة والامن والطمانينة وعلى حرية المعتقد والعبادة .

اسم الكنيسة ولقبها : وعاب اليعاقبة المصريون تيموثاوس البطريرك الاسكندري (٤٦٠ - ٤٨٢) بقوله قول الملك في الجمع الخلقيدوني (٤٥١) فاطلقوا عليه لقب البطريرك الملكي وسموا اتباعه ملكيين تعبيراً وتقبيحاً . ويقول المؤرخ ايفاغريوس ، وهو من اعيان القرن السادس ، ان هذا التعبير جاء اولاً باليونانية مشتقاً من اللفظ فيلسفس اي الملك (٢) . وظلت اللغة اليونانية حتى القرن السادس لغة جميع النصارى الشرقيين . ثم أحل الاقباط القبطية محلها في مصر

(١) تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٣٠ - ٢٣١

(٢) Evagrius, P. G., Vol. 86, Col. 2532; Duchesne, L., Eglises Séparées, 52, Hist. Anc. de l'Eglise, III, 486, n. 2.

واليعاقبة السريانية في سورية والجزيرة فنقل هؤلاء التعبير اليوناني « فاسيليوكوس » الى السريانية باللفظ « ملكايا » نسبة الى ملكا . وعُرِّبَت هذه التسمية فأصبحت ملكائية (١) .

وتناصر الناس وتكتلوا حول العقيدة الدينية وانتظمت الحكومات على هذا الاساس نفسه فظن الخلفاء الامويون والعباسيون بأبناء الكنيسة الجامعة قاتمهمهم بالتجسس للروم والتعاون معهم وقرَّبوا الاقباط في مصر واليعاقبة والنساطرة في سورية والجزيرة وما بين النهرين فعيروا أبناء الكنيسة الجامعة باللفظ نفسه الذي اطلقه عليهم هؤلاء المونوفيسيون . وأصبح التعبير لقباً رسمياً في جميع الاوساط الحكومية الرسمية (٢) فحمله المؤمنون وتناقلوه .

ولكن أبناء الكنيسة الجامعة لم يتناسوا ولم يتنازلوا عن اللفظين ارثوذكسي وكاثوليكي للتعبير عن صحة العقيدة وجامعية الكنيسة . فالإيمان الذي اقره المجمع المسكوني السادس هو في نظر البطريرك افيخيوس المؤرخ « الامانة المستقيمة الارثوذكسية للثقة التي بلا عيب » (٣) . وكنيسة ابي جيلة في مصر هي « كنيسة اهل الملة الجامعة » (٤) . والمرمسة التي أمر الحاكم بهدمها في دمشق هي « كنيسة السيدة الكاثوليكي » (٥) . وهذه المصادر التي نعتمد اولى بثقتنا من حيث العدالة والضبط في الموضوع الذي نبحث من اقوال الاقباط واليعاقبة والمسلمين التي استشفع بها حبيب الزيات في كتابه « الروم الملكيون » . وكنيستنا كانت وظلت ولا تزال وستبقى الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية . وهي كانت وظلت ولا تزال ونقول مع الزيات اننا اخترنا اللقب « ارثوذكس » عند انفصال اخواننا الروم الكاثوليك عنا سنة ١٧٢٤ .

(١) الروم الملكيون في الاسلام لحبيب زيات ص ٢ - ٣ . اطلب ايضاً الباحث الجلية في الليترجيات الشرقية والغربية للبطريرك افرام الرحاني ص ٤٧٣ .

(٢) الروم الملكيون لحبيب الزيات ص ٣ - ٩ .

(٣) تاريخ سعيد ابن بطريق ج ٢ ص ٣٥ .

(٤) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٩٥ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٩٥ .

انطاكية والقسطنطينية ورومة : وكان نزاع حول احترام الايقونات المقدسة كما سبق واشرنا وناضلت كنيسة انطاكية في سبيل اكرام الايقونات واحترامها فخالفت بذلك الموقف الرسمي في القسطنطينية فشفع موقفها عند هشام ابن عبد الملك الخليفة الاموي وضعفت ريبتها فيها فرخص لها بالرجوع الى حقوقها وسمح باقامة بطاركتها في انطاكية مدينة الله . ولكنه لم يسمح فسيا يظهر بذكر بطاركة القسطنطينية في الذبتيخة الانطاكية . وبقي الحال على هذا المنوال حتى قلت هيبة الخلافة وعظم شأن الامبراطورية الشرقية . ففي السنة ٩٣٧ - ٩٣٨ تهادن الروم والمسلمون فوجه ثيوفيلكتوس بطريرك القسطنطينية رسولا الى افيخيوس بطريرك الاسكندرية والى ثيودوسيوس بطريرك انطاكية وخريستوذوللس بطريرك اوروشليم يسألهم ان يذكروا اسمه في صلواتهم وقداستهم فأجابوه الى ما سأل « وهذا كان قد انقطع من وقت خلافة بني امية » (١) .

ولم يمنع الخلفاء الامويون والعباسيون ذكر بطريرك رومة في الذبتيخات الانطاكية والاوروشليمية والاسكندرية . ولكن صلة هذه الكنائس بكنيسة رومة تضاعلت ثم انقطعت . فقد جاء ليحيى ابن سعيد الانطاكي ان البطريرك الاسكندري افيخيوس ذكر في تاريخه اسماء بطاركة رومة « من بطرس رأس الحواريين الى اغايوس البطريرك الذي عاصر المجمع السادس في القسطنطينية » . ولعله يشير الى اغاثون الذي تولى السدة الرومانية من السنة ٦٧٨ الى السنة ٦٨٢ . وقال افيخيوس انه « لم يقع له » بعد هذا التاريخ اسماء بطاركة رومة « ولا شيء من اخبارهم » . ثم يفيد يحيى ابن سعيد انه « لم يزل اغاثون هذا يذكر في الذبتيخات الشرقية منذ اجتماع المجمع السادس (٦٨١) الى بعد وفاة سعيد ابن بطريق بطريرك الاسكندرية (٩٣٣-٩٤٠) بمدة طويلة لا يعرف مقدارها وانه ذكر بعده اسم بطريرك على رومة يدعى بنديكتوس . ولعله بنديكتوس الثالث (٨٥٥ - ٨٥٨) . ويضيف يحيى ابن سعيد : « ولم يزل اسم بنديكتوس مذكوراً في الذبتيخة الى سنة نيف وتسعين وثلاثمائة للهجرة (٩٩٩ - ١٠٠٠) وقد كان صير

(١) يحيى ابن سعيد ايضاً ص ٩٣ .

بعد بناديكتس هذا بطاركة عدة الا لم يرفع لاحد منهم في بلاد مصر والشام اسم ولا ذكر واقتصروا على اسم بنادكتس المتوفي . وفي زماننا هذا صيروا عليها بطريركاً يسمى يوحنا (يوحنا العشرون ١٠٢٤ - ١٠٣٣) ورفعوا اسمه واسقطوا اسم بنادكتس . فهذا هو السبب المانع من تدوين اسمائهم والعذر في الاضرار عن ذكرهم « (١) » .

وفي هذا كله ما يكفي للقول بتضاؤل الصلة وانقطاعها في الارجح بين كنيسة رومة وشقيقتها كنائس الاسكندرية وانطاكية واوروشليم منذ اواخر القرن السابع حتى اوائل القرن الحادي عشر ، فاذا جهل بطاركة هذه الكنائس طوال قرون ثلاثة اسماء بطاركة رومة ولم يذكروا في ذبيحتاتهم سوى اغاثون الثاني وبنديكتوس الثالث فاي شيء علموه عن رومة وكنيستها !

لغة كنيسة انطاكية : وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في جميع الكنائس شرقاً وغرباً حتى القرن الثالث بعد الميلاد . ثم انفردت رومة باللاتينية . وخرج النساطرة واليعاقبة والاقباط في القرن الخامس فبدأت القبطية تحتل محل اليونانية في مصر والسريانية في سورية والجزيرة في الكنائس التي انفصلت عن الكنيسة الجامعة . وظلت اليونانية تحتل مرتبة مرموقة في الكنيسة القبطية في مصر حتى القرن الثاني عشر للميلاد . فقد جاء في سير البطاركة انه « لما أقيم البطريرك أبا مقارة في السنة ١١٠٣ و قدس في الكنيسة المعلقة بالسيدة في مصر قرى تقليده على الانبل يونانياً وقبطياً وعربياً » (٢) . وجاء لابن العسال في مقدمة كتابه تصحيح الانجيل « ان القبط لما زال ملكهم وملكت عليهم الروم تكلموا بالرومي ايضاً » . ودليله ان قداساتهم الى اليوم (١٢٥٣) يوجد فيها الكثير من الالفاظ الرومية . فلما غلبت اللغة العربية على القبط لم يبق منهم من يعرف القبطية او الرومية الا القليل « (٣) » .

(١) تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٩٢

(٢) سير البطاركة مخطوط باريز رقم ٢٠٠ - ٢٠١ ص ٣٠٢

(٣) كتاب الانجيل المقدس مخطوط اكسفورد هانت ١١٨

وكانت كنيسة انطاكية قد نشأت يونانية في لغتها هليانية في ثقافتها أممية في اتجاهها ورسالتها . وكان كبار آباءها قد كتبوا باليونانية فجعلوا تراث كنيستهم يونانياً ايضاً . وكانت سلطة هذه الكنيسة قد اتسعت فشملت بلداناً يونانية اللغة كما سبق و اشرنا فظلت اللغة اليونانية لغة هذه الكنيسة الرسمية . وظل اساقفتها و بطاركتها يجيدون هذه اللغة طوال القرون الاسلامية العربية وحتى هذا العصر الذي نحن بصددده . وقد مرّ بنا كيف استعان الخليفة المعتمد (٨٣٣ - ٨٤٢) بالبطريرك ايوب بطريرك انطاكية فحمله معه الى حصار انقرة وكيف ان هذا البطريرك « كان يخاطب الروم بالرومية » (١) .

الطقس البيزنطي : وكتبت معظم الاناجيل وجميع الرسائل باليونانية ودون اقدس الآباء واعلمهم بهذه اللغة عينها فأصبحت اليونانية لغة المسيحيين المقدسة ولا تزال . وصلى الانطاكيون بها منذ تأسيس كنيستهم ولكنهم لم يمنعوا استعمال اللغات المحلية في القرى والمزارع التي لم تفهم اليونانية وسمحوا بقراءة الاسفار مترجمة في اثناء الاحتفالات الدينية من اليونانية الى اللغات المحلية . فكانت هذه الترجمة من جملة الاعمال التي قام بها الاناغنوستوس (٢) . وتبلورت مع مرور الزمن خدمة روحية دينية نسبت الى يعقوب اخي الرب وترجمت الى السريانية (٣) لتسهيل العبادة على من كان يجول اللغة اليونانية . ولا مجال للقول مع غبطة البطريرك اغناطيوس يعقوب السرياني ان الليتورجية المنسوبة الى القديس يعقوب دونت اولاً بالسريانية ثم تناقلتها كنائس اليونان والرومان (٤) لاننا لا نعلم « بالضبط » الطقس الذي اتبعه يعقوب وسائر الرسل والتلاميذ . ولعله كان آتئذ أقرب بكثير الى طقوس اليهود من هذا الذي نسبته الى اخي الرب (٥) .

(١) سعيد ابن البطريق ج ٢ ص ٦٠

(٢) Justinus, Apolog., I, 47.

(٣) Dalmais, I. H., La Liturgie, Initiation Théologique, I, 119 ; Bardy et Bréhler, Expansion Chrétienne, Fliche et Martin, op. cit., IV, 547.

(٤) الكنيسة السريانية الارثوذكسية لسوريوس يعقوب « متروبوليت بيروت ودمشق

وتواهبها للسريان » ص ٤ (بيروت ١٩٥٧) .

(٥) Dom Cabrol, La Prière des Premiers Chrétiens ; Cullmann, Le Culte dans l'Eglise Primitive.

انفصل اليعاقبة في منتصف القرن الخامس ونشط آباؤهم وعلماءهم لنقل الأدب الكنسي من اليونانية إلى السريانية واستمر آباؤنا وعلماءنا في كنيسة الانطاكية الجامعة يصلون باليونانية والسريانية بموجب ما نسميه خدمة يعقوب اخي الرب . ولا نعلم بالضبط مدى انتشار هاتين اللغتين في كنائسنا المحلية . ولا يجوز القول مع من يريد التفرقة بيننا وبين شقيقائنا الكنائس اليونانية ان لغة كنيستنا في طقوسها كانت سريانية مجرد العثور على عدد من كتب الخدمة باللغة السريانية . فهؤلاء الذين يريدون التفرقة احصوا الباقي من هذه الكتب المخطوطة بالسريانية « وأهلوا » احصاء ما تبقى منها باليونانية . وهو أمر لا يميزه العلم ولا تقره « الحبة المسيحية » .

وقال آباؤنا بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية فلم يفرقوا في تنظيم الطقوس بين سرياني ويوناني او بين انطاكي واسكندري وقسطنطيني بل انهم استحسنوا الاحسن واستظرفوا الاظرف . فلعب ابناء الكنائس الشرقية الثلاث دوراً هاماً في تطور الطقس القسطنطيني . او لم يكن رومانوس المرتل حصياً بيرونيّاً قبل ان يغرد في كنائس القسطنطينية . وقانون الفصح الجيد الذي يعد من اجل صلوات الخدمة القسطنطينية هو من نظم يوحنا الدمشقي وتلميذه . والاوكتيوخوس بكامله كما تبنته كنيسة القسطنطينية يحمل هو ايضاً طابع هذا القديس الانطاكي الدمشقي « دفاق الذهب » . والقديس اندراوس الذي نلمس اثره في عدد لا يستهان به من قوانين الخدمة البيزنطية هو فلسطيني . وصفرونيوس العظيم واضع خدمة الايفانية كان دمشقي المولد انطاكي الكنيسة قبل ان يتبوا السدة البطريركية الاورشليمية (١) . والقديس كيرلس الذي خلد اسمه بصلوات جمعة الآلام كان مصرياً قبل ان يصبح بطريرك الاسكندرية . وهكذا فان الطقس البيزنطي الذي وصفنا تطوره في فصل سابق كان نتيجة عمل تعاوني لم تنفرد به كنيسة القسطنطينية دون سواها .

1) Vailhé, A. A., *Sophron le Sophiste et Sophron le Patriarche*, Rev. Or. Chrét., 1903, 356 - 370 ; Puniet, Dom Pierre, *La Fête de l'Épiphanie*, Rassegna Gregoriana, 1906, 497 - 514.

ويرى العلماء الباحثون ان هذا التعاون في « الاخراج » بين انطاكية والقسطنطينية ادى الى تسرب الطقس البيزنطي في ابرشيات انطاكية منذ ان تم تبلوره في القرن السابع وانه شاع واكتسح الموقف فيها مع عودة الروم الى الحكم في شمال سورية في القرنين العاشر والحادي عشر وانه لم يصبح اجبارياً قبل القرن الثالث عشر كما سيجيء في حينه (١) .

البطاركة : وهناك تفاوت كبير في عدد البطاركة الذين تولوا رئاسة كنيستنا في هذا العصر بين لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وبين نصوص يحيى ابن سعيد الانطاكي المؤرخ المعاصر . وهناك ايضاً فرق ظاهر في عدد سني الرئاسة وفي ترقيم البطاركة . ولعله من الضروري ان نثبت هذه الفروقات وفي الجدولين التاليين :

لائحة قسطنديوس		لائحة يحيى ابن سعيد	
يوحنا الخامس	٩٩٥ - ١٠٠٠	يوحنا	٩٩٣ - ١٠٢٢
نقولاوس الثالث	١٠٠٠ - ١٠٠٢	نقولاوس	١٠٢٥ - ١٠٣١
الياس الثاني	١٠٠٣ - ١٠١٠	ايليا	١٠٣٢ - ١٠٣٣
ثيودوروس الثاني	١٠١٠ - ١٠١٥	ثيودوروس الثاني (جرجس)	
مكاروريوس الفاضل	١٠١٥ - ١٠٢٢	سينوديكون	١٠٣٤ - ١٠٤٢
الفثريوس الثاني	١٠٢٣ - ١٠٢٨	باسيليوس الثاني	
بطرس الثالث	١٠٢٨ - ١٠٥١	بطرس الثالث	١٠٥٢ - ١٠٥٦ ؟

ولا بد من تقديم رواية يحيى ابن سعيد الانطاكي على رواية البطريرك قسطنديوس لأن الأول راو معاصر انتقل من الاسكندرية الى انطاكية وأقام فيها والثاني مؤرخ متأخر من أعيان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن ليس هذا كل ما في الأمر . فالبطريرك قسطنديوس اعتمد وثائق بطريركية القسطنطينية ونقل عنها . فلا بد والحالة هذه من اثبات روايته الى ان يقوم من أبناء كنيستنا من

1) Charon, C., *Hist. des Patriarcats Melkites*, III, 9 - 24 ; Salaville, S., *Les Liturgies Orientales* ; Raes, A., *Introductio in Liturgiam Orientalem*, Romé, 1947 ; Hanssens, M., *Institutiones Liturgicae de Ritibus Orientalibus*, Romé, 1932.

يدقق هذا الأمر ويثبت الحقيقة . ويوحنا الخامس عندنا هو يوحنا الثالث بموجب ترتيب لوكيان والمؤرخين الغربيين . ونقولاً ووس الثالث هو الثاني عندهم . أما ثيودوروس فإنه كان يعرف بجرس لاسكارس قبل وصوله الى السدة البطريكية . ومن هنا ورود اسمه أحياناً البطريك جرجس . وجاء في سينوديون « أحد الايمان القويم » بعد ثيودورس الثاني باسيليوس الثاني فبطرس الثالث .

يوحنا الخامس : (٩٩٣ - ١٠٢٢) وتدخل اغابيوس في السياسة كما سبق وأشرنا فأغضب الفيلسوف واضطر ان يتنازل عن السدة الانطاكية فخلفه في السنة ٩٩٣ خرتوفيلاكس الكنيسة الكبرى كنيسة الحكمة الالهية يوحنا الخامس . ويقيد يحيى ابن سعيد الانطاكي ان باسيليوس الفيلسوف حض البطريك الجديد على اصلاح كنيسة القسيان في انطاكية على طراز كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية ثم يضيف ان اغابيوس توفي في ايلول السنة ٩٩٤ ولا يذكر شيئاً عن عودته عن التنازل قبل وفاته وعن تنازل خلفه عن اي امتياز تمتعت به كنيسة انطاكية لقاء بقائه على السدة البطريكية (١) . والإشارة هنا الى ما اورده نيقون الراهب من ان يوحنا تنازل عن استقلال مطارنسة الكرسي الانطاكي في انتخاب بطريكهم وانه وضع أمر انتقاء البطريك الانطاكي في يد البطريك المسكوني . والراهب نيقون تنسك مدة من الزمن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر في دير القديس سمعان العمودي (٢) .

وقدّر ليوحنا الخامس ان يعاصر الحاكم بأمره الفاطمي وأن يتلقى ضرباته المؤلمة في الارشيات الانطاكية الجنوبية وقد سبقت الإشارة اليها في القسم الاول من هذا الفصل . ولكن قدرله ايضاً ان يرى تراجع الحاكم عن تضيقه بعد ظهور حمزة ابن علي وقيامه بالدعوة الدرزية .

وماشى يوحنا الخامس ملوك الروم في عصرهم الذهبي فسعى معهم لاعادة

المجد الثالث . ففاوض اورستوس البطريك الاوروشيمني في اثناء مروره في انطاكية في السنة ١٠٠٠ في ما كان قد تنازل عنه ثيوفيلاكس ابن قنبر البطريك الانطاكي الى زميله الاوروشيمني في القرن الثامن من حقوق الانطاكية على كنيسة الكرج فاتفق الطرفان على اعادة ذكر البطريك الانطاكي في الذبيخة الكرجية وعلى حق هذا البطريك في ارسال اكسرخوس الى الكرج يتفقد شؤونهم الروحية ويتولى جباية الاموال من الاوقاف الانطاكية في بلاد الكرج (١) .

وفي السنة ١٠٠٤ اختلف النصارى في مصر في حساب عيد الفصح لاختلاف اليهود في حسابهم . فجعل البعض فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان وقال آخرون انه يوافق يوم الاحد في السادس من الشهر نفسه . فكتب ارسانوس بطريك الاسكندرية الى اهل اورشليم بما صح عنده جاءعلا فصح النصارى يوم الاحد في السادس من نيسان . « فكتب اهل الشام الى مصر يتعارفون منهم ما اتفقوا عليه . فلما وصلت كتب ارسانوس عيد جميع النصارى في يوم الاحد في السادس من نيسان الا قوم من اليعاقبة من اهل صعيد مصر فانهم فصحو يوم الاحد الذي يليه » (٢) .

الحاكم ومصر الأفخارستية : وجدد الحاكم في رمضان السنة ٤٠١ اي في ايار السنة ١٠١١ منع الناس عن صنع النبيذ وشربه سرّاً وجهرّاً وكسّر ما عند الناس منه من الجرار والدنان وحذّر على النصارى تقديمه « في سائر مملكته » ومنعه في قرايبنهم فقرّبوا عوضاً عنه ماء تقع فيه زبيب او عود الكرم ! (٣) .

الاعتراف ببطريكية نيقيفوروس : وفي السنة ١٠٢١ انتهى حكم الحاكم ونودي بابنه الظاهر فعاتت السيدة ست الملك الى سابق عزاها فأوفدت نيقيفوروس بطريك اورشليم الى القسطنطينية ليعلم باسيليوس « بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع

1) Vailhé, A. A., op. cit., Echos d'Orient, 1934, 136.

(٢) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٠

(١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٧٧

2) Vailhé, A. A., Echos d'Orient, 1933, 283. Grumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche du Nom de Jean, Echos d'Orient, 1933, 283 - 284.

أوقفها اليهسا واستقامة امور النصارى» ويرجوه السماح بالانجار بين البلدين والشروع في «المسألة والمواذعة» فاستكشف افسثاثيرك البطريرك المسكوني من نيقيفوروس «امانته» فأوضحها فألفهاها البطريرك المسكوني ارثوذكسية فأطلع الفسيلفس على ذلك فأمر الفسيلفس برفع اسم نيقيفوروس في القسطنطينية وانطاكية على ما كان عليه قبل وصوله . وتوفيت ست الملك فعاد نيقيفوروس الى انطاكية ومنها الى طرابلس في ايار السنة ١٠٢٤ (١) .

نقولاووس الثالث : (١٠٢٥ - ١٠٣١) وتوفي يوحنا الخامس البطريرك الانطاكي في السنة ١٠٢٢ فخلا كرسية ثلاث سنين ونصف السنة . ثم انتخب نقولاووس رئيس دير الاستوديون بطريركاً على انطاكية وصلي عليه في القسطنطينية يوم الأحد سابع عشر كانون الآخر سنة ١٠٢٥ فأقام في الرئاسة خمس سنين وثمانية أشهر وواحداً وعشرين يوماً (٢) .

«ورقي الى رومانوس ارعيروس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ان لليعقوبيين بطريكا يسمى يوحنا يقيم في بلد مرعش يسمى ببطريرك انطاكية ويسمى مطارنة وأساقفة للمدن ، فأنفذ اشخصه وأشخص معه ستة من مطارنته وأساقفته وتقدم الى الكسيوس بطريرك القسطنطينية في ان يحضرهم بمشهد ممن اتفق عنده من المطارنة والأساقفة الارثوذكسيين ويخاطبه في الرجوع عن اعتقاده والاعتراف بالسبعة المجامع المقدسة وقبول من قبلته ودفع من دفعته . واستدعى نقولاووس بطريرك انطاكية للحضور معه ومشاركته في الخطاب له لأنه كان يومئذ بالقسطنطينية . فأبى ذلك الارطوقي وجري بين الكسيوس البطريرك وبين من اجتمع معه من أصحابه خطاب في هذه المعاني . ولم يدعن يوحنا بطريرك اليعاقبة للانشاء عن رأيه . واجتمع خلق من العوام وهوا بالايقاع به فدفعوا عنه . ولما أيس الملك من عودته عن اعتقاده نفاه الى كفرنبا بالمغرب . واعترف من الستة الأساقفة والمطارنة المشخصين معه ثلاثة . وثبت ثلاثة على ما هم عليه

(١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٤ وكتابنا الروم ج ٢ ص ٦٤ ومجموعة دولغر رقم ٨٢٤

فحبسوا في الحبس . ومات يوحنا هذا بعد ثلاث سنين من نفيه وأقام اليعاقبة لهم بعد موته بطريركاً غيره . فلما عرف رومانوس الملك حاله أنفذ من يحضره فهرب الى ديار بكر من بلاد الاسلام (١) .

أيجو والمسيح : وفي تشرين الاول من السنة ١٠٣١ استولى الروم على الرها . فسار صاحبها سليمان ابن الكرجي الى خضرة رومانوس في القسطنطينية وحمل معه كتاب أيجر الى السيد المسيح وجواب السيد له . «وكان كل واحد منها في ورقة طومار مكتوبين بالسرياني . وخرج الملك والكسيوس البطريرك وجميع أهل المملكة لاستقبالها . وتسلمها الملك بخشوع وخضوع تعظيماً لكتاب السيد المسيح وأضافها الى الآثار المقدسة التي في بلاط الملك . وعني رومانوس الملك بترجمتها الى اليوناني . وترجمها الى العربي الناقل الذي تولى نقلها الى اليوناني على هيئتها ونصها .

« وهذه هي نسخة رسالة أيجر ملك مدينة الرها الى ربنا والها يسوع المسيح : من أيجر الاسود الى يسوع المسيح الطبيب الصالح الظاهر في ارض اوروشليم . سيدي سلام عليك . سمعت عنك وعن الاشفية التي تصنع انك تبرى بغير ادوية ولا عقاقير بل بالقول فقط تبصر العميان وتشفي الزمنى وتسمع الخرس والصم وتطهر البرص وتخرج الشياطين والأرواح النجسة بكلمتك وتقيم الموتى . فلما سمعت عنك يا سيدي ذلك تعجبت بالمعجزات الباهرة التي تصنع وقررت في نفسي وحملت أمرك على احدى الحالتين انك اما تكون الله الذي ينزل من السموات فتفعل هذه او ابن الله . ولذلك اكاتبك لتبصر الي لاسجد لقدسك ولكي تشفي لي مرضاً ما كما آمنت . وبلغني ايضاً ان اليهود يترمون بك ويضطهدونك ويطلبون هلاكك والهزؤ بك . ولي مدينة واحدة صغيرة حسنة جداً وهي تكفيننا لنسكنها بهدوء وسلامة معاً . فالأمر أمر منك يا سيدي والسلام عليك .

« نسخة رسالة السيد المسيح الى أيجر ملك الرها : امض فقل لصاحبك

(١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٥٢

الذي أنفذك : طوباك يا أبجر اذ آمنت بي ولم ترني لانه مكتوب من جهتي ان الذي يروني لا يؤمنون بي والذين لم يروني سوف يؤمنون بي . وكتبت الى ان أصير اليك فالامر الذي بسببه ارسلت من لدن الآب الى ههنا من الان قد حضر واصعد الى الآب الذي ارسلني فاذا صعدت انفذت اليك واحداً من تلاميذي والمرض الذي بك هو يشفي ولسائر من لك يرد الى الحياة الابدية . وبلدك فليكن مباركاً ابداً . والعدو ايضاً فلا يتسلط عليك ولا عليه الى الدهر والسلام عليك » (١) .

الياس الثاني : (١٠٣٢ - ١٠٣٣) وفي يوم السبت الكبير في اول نيسان سنة ١٠٣٢ « صلي على الياس الراهب النيقوميذي بطريركاً على انطاكية . فأقام سنة وخمسة اشهر وثمانية أيام وتنيح (٢) .

وصدرت اوامر الظاهر الفاطمي بترك الفساد وحفظ مجاورة الروم . ووافق الروم على المهادنة . واتفق الطرفان على ان ينفذ الظاهر رسولا يجتمع برسول رومانوس في ناحية انطرووس « آخر حد الروم واول بلد المسلمين » . واشترط رومانوس على الظاهر ثلاث شرائط احداها « ان يعمر الملك كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجدها من ماله ويصير بطريركاً على بيت المقدس وان تعمر النصراني جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر » . والشريطة الثانية الا يتعرض الظاهر لحلب . والشريطة الثالثة الا يساعد صاحب صقلية . وارسل نصر بن صالح بن مرداش صاحب حلب مال الهدنة الى رومانوس وشعر القديس يوحنا المعمدان . وكان هذا الشعر في سالف الزمان في كنيسة حصن فنقل منها الى كنيسة القلعة في حلب « اشفاقاً عليه من اخذ الروم له عند تردهم الى حصن » . وبقي هناك الى ان خرج منصور بن لؤلؤ من حلب . فاستعاده نصر بن صالح وتقرب به الى رومانوس فاضافه الى الاثارات المقدسة التي في بلاط الملك (٣) .

ثيودوروس الثاني : (١٠٣٤ - ١٠٤٢) وفي يوم الأحد الاول من

الصيام الكبير صير جرجس لاسكارس بطريركاً على انطاكية وصلي عليه في القسطنطينية وسمي ثيودوروس . فأقام في الرئاسة ثماني سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً وتنيح (١) . ونفذ ثيودوروس الاتفاق الذي تم في عهد يوحنا الخامس حول كنيسة الكرج فأرسل بموجب شهادة نيكون الراهب اكسرخوساً الى بلاد الكرج ليعاقب ويصلح (٢) .

باسيليوس الثاني : ولا نعلم شيئاً عن باسيليوس الثاني . ونجهل أخبار مكاريوس الفاضل والفثيريوس الصالح .

بطرس الثالث : (١٠٥٢ - ١٠٥٦) أبصر النور في انطاكية ونشأ وترعرع فيها . ثم طلب العلم في القسطنطينية فأحاط به « كله » والتحق بالبلط الملك فأصبح سكرتير رومانوس الثالث . ثم قدم النذر والتحق بكنيسة الحكمة الالهية فأسندت اليه وظائف أهمها وظيفة سكيوفيلاكس الكنيسة . فكان من الطبيعي ان يُقدم على غيره وان يرقى الى رتبة البطريركية .

وكان بطرس الثالث ورعاً تقياً واثقاً بالله معتمداً عليه وكانت امه قد نقلت اليه خبر النور البهي الذي أحاط بها يوم ولادته وما طن في أذنها من أصوات سماوية تنبئ بالمستقبل الباهر فنشأ بطرس متوكلاً على الله مستلهماً روحه عاملاً بمشيئته على الأرض كما في السماء . ومما زاده حماساً وغيره ان السيدة العذراء والدة الاله تراعت لقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤) وأومات له بترقية بطرس الى السدة البطريركية ففعل .

وتسلم بطرس عكاز الرعاية وانطلق يعمل في حقل الرب فوجه رسالة الجلوس الى كل من زميليه بطريرك الاسكندرية وبطريرك اورشليم معلناً تبوأه العرش البطريركي مبيناً ايمانه القويم راجياً ذكره في الذبيخة (٣) . واسف على انقطاع الصلة بين كنيسته وكنيسة رومة مدة طويلة كما سبق واشرنا فكتب الى لاوون التاسع

(١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٧٢

(٢) Vailhé, A. A., *Echos d'Orient*, 1934, 138.

(٣) Michel, A., *Humbert und Keroullarios*, II, 437 - 452.

(١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٥

(٣) المرجع نفسه ايضاً ص ٢٧٠ و٢٦٩

متلهفاً على هذا الانقطاع متسائلاً عن سبب ابتعاد خليفة بطرس العظيم عن جسم الكنائس وانقطاع صوته من مجامعها وامتناعه عن المساهمة في حل مشاكلها الاكليريكية مبيناً الفائدة التي تنجم عن مثل هذا التعاون من حيث التوجيه الاخوي الرسولي . ورجا بطرس زميله الروماني ان يصرح بايمانه ليتمكن من ذكر اسمه في الذبتيخة اذ لا يجوز الاعتماد على ماضي رومة القويم والافتراض قبل اعمال النظر بان ايمانه خال من الخطأ . ثم ذكر البطريرك الانطاكي ايمانه بوضوح ولكنه تحاشى البحث في قضية الانبثاق . وعاقبت الاقدار هذه الرسالة فلم تصل الى رومة الا بعد مرور سنتين على صدورها . فكتب بطرس رسالة ثانية اقصر من الاولى . فحذف معظم ما جاء في مقدمة رسالته الاولى واكد تعلقه بدستور نيقية وقرارات المجامع المسكونية السبعة ولعن من لعن من المهرطقة (١) .

وأجاب كل من بطريركي الاسكندرية واوروشليم برسالة سلام . وردَّ لاوون التاسع على رسالة بطرس الاولى برسالة سلام ايضاً ولكنه اكد بوضوح تقدم رومة وعصمة السدة البطرسية . ووضح ان كنيسة رومة ام الكنائس وان حكمتها اعلى المحاكم . ثم نبه زميله الانطاكي على تلبذ غيوم الهم والشقاق في الشرق وحثه على الدفاع عن حقوق الكرسي الانطاكي (٢) . وتسلم بطرس هذا الرد ولكنه لم يتمكن من قراءته لانه كتب باللاتينية فطيب الى الرسول الافرنجي الذي حمله اليه ان يستنسخه له . ففعل فأرسل بطرس النسخة الى ميخائيل كبير ولاريوس بطريرك القسطنطينية ليأمر بترجمتها الى اليونانية (٣) . وذكر بطرس زميله الروماني في ذبتيخة انطاكية وحذا حذوه بطريرك اوروشليم وبطريرك الاسكندرية .

الشماس عبدالله ابن الفضل الانطاكي : ولمع في افق الكنيسة في القرن الحادي عشر الشماس عبدالله ابن الفضل الانطاكي فخدم بالتأليف والتعريب واشتهر بصورة خصوصية بحسن تعبيره في تفسير الكتب الدينية وبسلامة ذوقه في اختيار المؤلفات اليونانية وتعريبها . وتنافس أبناء الكنيسة باستنساخ مؤلفاته ومعرباته .

1) Michel, A., op. cit. II, 446-448. Jugie, M., Schisme Byzantin, 222-221, n. 1.
2) P. L., Vol. 143, Col. 769 - 773; Michel, A., op. cit., II, 458 - 475.
3) P. G., Vol. 120, Col. 813.

وكان بارعاً بالعربية واليونانية والسريانية وعرب عن الاثنين وألف بالعربية واليونانية (١) .

وأهم مصنفاته كتاب المصابيح . وهو يشتمل على كلام الحكماء والانبياء والرسل القديسين بوبه تبويماً لطيفاً وأكثر من الأمثلة الكتابية وأقوال الفلاسفة . وله ايضاً كتاب المنفعة وهو مختصر ومطول ويبحث في العقائد في الخالق وجوهره ووحدته طبيعته وتثليث أقانيمه وفي المنطق والفلسفة والجدل والفقه وله كذلك كتاب الروضة في الفضائل وهو منتخبات من أقوال الكتب المقدسة والقديسين ورجال اللاهوت وكتاب تفسير ستة ايام الخلق للذهبي الفم عربيه عن اليونانية وتفسير انجيل متى ويوحنا للذهبي الفم ايضاً . وعرب عن السريانية كتاباً للآباء الأبرار انطونيوس وارسينيوس ويوحنا اقليمس واسحق وفيلوكسينس . وعرب عن اليونانية كتاب البرهان في تثبيت الايمان للقديس صفرونيوس الاوروشيمني وعرب له ايضاً احاديث الآباء القديسين والرهبان ومن اثار هذا العلامة كتاب مجموع الأمان في ابانة غلط اليعاقبة والنساطرة وميامر غريغوريوس الزياتري ومديح القديسين نقولا ووس واندراس الاقريطشي (٢) .

انطاكية والبندقية . وفي اواخر السنة ١٠٥٣ تلقى بطرس الثالث رسالة من دومينكوس رئيس اساقفة اكويلية جاء فيها ان القساوسة البنادقة في الشرق يشكون الصعوبات التي يلقونها عند ممارستهم سر الافخارستية بالفطير وان هؤلاء القساوسة خاضعون لرئيس اساقفة يستمد البركة من القديس مرقس ويتمتع بلقب بطريرك (٣) . فأجابه بطرس الثالث جواباً لطيفاً ولكنه لم يسكت عن اللقب الذي ادعى به دومينيكوس فقال : ولقد نشأت بين الكتب ودرست العلوم المقدسة منذ الطفولية والى سن الشيخوخة ولا ازال مواظباً على مطالعتها ومع ذلك ما تعلمت ولا سمعت ان رئيس اكويلية يسمى بطريركاً لان النعمة الالهية دبرت ان يكون في كل العالم خمسة بطاركة وهم الروماني والقسطنطيني والاسكندري

(١) مقدمة كتاب النحلة للبطريرك مكاريوس الحلي

(٢) النعمة ج ١ ص ١٦ و ٣٢٥ و ٧٢٦

3) P. G., Vol. 120, Col. 751 - 756.

الفصل التاسع والثلاثون

بدء الانشقاق العظيم

١٠٥٤

نفوذ الامان في رومة : وعني اوثنون الاول الملك الالماني (٩٣٦-٩٧٣)

بشؤون دولته فأدار دفة الحكم بحذق ومهارة وأخضع رجال الإقطاع فيها وكبح جماح الصقالية وصدهجمات الحجر . وقام في السنة ٩٦٢ على رأس جيش الماني الى ايطالية فدخل رومة واكره اسقفها يوحنا الثاني عشر على تنويجه امبراطوراً فأسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التي دامت حتى السنة ١٨٠٦ .

وادى تدخل اوثنون في شؤون رومة الى تطاحن في داخلها دام اربعين سنة بين عمال الامان وبين اسرة كرسنتيوس صديقه الروم ومن شد أزرها من الاشراف الرومان (١) . وشغل الشرق الروم عن ايطالية وشؤونها فتوطد نفوذ الامان في رومة وتسربت اليها آراؤهم في الاصلاح والعقيدة .

تدعيم سلطة البابا : وطالب المؤمنون في الغرب باصلاح الكنيسة وعلا صوتهم في مقاطعة لورين فأوجبوا انضباط الاكليروس وترفعهم عن السيمونية وعن الزواج واستعانوا بالسلطات المدنية الالمانية فرحبت بطلبهم ورأت في اصلاح الاكليروس اداة فعالة لتوسيع سلطانها وفرض احترامها . فصممت هذه السلطات على الاحتفاظ برومة وتدعيم سلطة اسقفها للوصول الى الانضباط المنشود . وطالب رهبان كلوني في فرنسة برفع مستوى الرهبان والرهباينة فلم يلقوا من السلطات المحلية الا التثييط والاحباط فلجأوا الى اسقف رومة ووضعوا مقدرات رهبانيتهم بين يديه . فأجمع المصلحون على تدعيم سلطة البابا والمطالبة بحقوقه وصلاحياته التاريخية (٢) .

والانطاكي والاوروشيليمي . ومن هؤلاء الخمسة البطريرك الذي يسمى بطريركاً على وجه الحقيقة هو البطريرك الانطاكي . فالروماني والاسكندري يتمتعان بلقب بابا والقسطنطيني والاوروشيليمي رئيسا اساقفة . وكيف نستطيع ان نقيم بطريركاً سادساً ما دام الجسد ليست فيه حاسة سادسة وما دامت هنالك ابرشيات اعظم من اينوريثك يديرها مطارنة ورؤساء اساقفة كبلاد البلغار وخراسان وسائر الشرق ولم يدع احد منهم بلقب بطريرك » .

ثم يشير بطرس الثالث الى رسالة الجلوس التي وجهها الى البابا الروماني مع الحجاج ويقول انه لم يتلق جواباً عنها وانه مرسل صورة عنها ليقدمها دومينيكوس الى البابا حتى اذا رضى البابا بفحواها « اتحد الجميع بنفس واحدة ليقدموا لله جميعاً ضحية واحدة » . ويعرض بطرس بعد هذا الى مسألة الفطير فيقول ان شكوى الغربيين من ان بطريرك القسطنطينية يشيع عنهم اشاعات رديئة ويقطعهم من شركة الكنيسة هي باطلة لانه يعرف حق المعرفة انكم ارتوذكسيون تؤمنون مثلنا بالثالوث القدوس وبسر التجسد ولكنه يأسف انكم تخالفون البطارقة الاربعة في تقديم الذبيحة الغير الدموية » (١) .

انطاكية والقسطنطينية : ولم يرض بطرس الثالث عن تدخل بطريرك القسطنطينية في شؤون بطريركية انطاكية . فاحتج بشدة على ترقية شماس انطاكي في القسطنطينية بدون موافقة رئيسه الانطاكي (٢) وعلى توسيع النفوذ القسطنطيني في الولايات الارمنية مبيناً ان هذه الولايات كانت لسلطة انطاكية الروحية لا القسطنطينية . ورأى في الحاح البطريرك ميخائيل القسطنطيني على توحيد الطقوس سياسة غير مجدية لانتشار السريانية والعربية في بعض ابرشيات انطاكية ولخضوع هذه الابريشيات عينها للسلطات الاسلامية (٣) .

1) P. G., Vol. 120, Col. 757 ; Jugie, M., op. cit., 222 - 223.

2) Grumel, V., Patriarcat d'Antioche, Echos d'Orient, 1934, 140 - 141.

3) Ranciman, S., Eastern Schism, 64 - 65.

1) Gay, J., Italie Meridionale, 218 - 228.

2) Dumas, A., Les Eglises Monastiques, Fliche et Martin, VII, 293 - 367.

مشكلة الانبثاق : وكانت كنيسة رومة قد قالت بانبثاق الروح القدس من الآب كما علم الآباء الاطهار في نيقية والقسطنطينية . فلما سيطر الامان على رومة نقلوا اليها القول بالانبثاق من الآب والابن فأثاروا بذلك مشكلة الفيليكوي Filioque . وهو لفظ لاتيني معناه « ومن الابن » . وتفصيل ذلك ان النزاع بين الاسبانين الكاثوليكين والقوط الغربيين الآريوسيين جعل الكاثوليكين في اسبانية يصرون على القول بالانبثاق من الآب والابن وعلى ادخال ذلك في دستور الايمان الاثناسيوسي الذي اقر في اسبانية في السنة ٦٣٣ . فلما تقبلوا الدستور النيقاوي بعد ذلك بقليل استمسكوا بالعبارة « ومن الابن » وأضافوها الى هذا الدستور . ويقول بعض العلماء انهم أدخلوا هذه العبارة في مجمع طليدو الاول سنة ٤٠٠ ولكنه قول ضعيف (١) . ثم تسرب هذا القول من اسبانية الى بلاط كارلوس الكبير فلتى في شخص هذا الزعيم مدافعاً مخلصاً عنه . ومن هنا في الأرجح قبوله في مجمع فرانكفورت سنة ٧٩٤ وانتقاد البطريرك تراسيوس القسطنطيني لقوله « بواسطة الابن » *per Filium* (٢) . وحاول كارلوس اقتناع رومة بالقول « ومن الابن » ولكنه لم يفلح . وفي السنة ٨٠٨ كتب توما الاول بطريرك اوروشليم الى لاوون الثالث بابا رومة يلفت نظره الى المشادة التي نشأت بين رهبان القديس سابا والرهبان الافرنج على جبل الزيتون حول القول بالانبثاق من الآب والابن . فكتب لاوون بدوره الى كارلوس الكبير ممول رهبان الافرنج على جبل الزيتون يقترح نبذ العبارة « ومن الابن » لان القول بها يشكل في حد ذاته خروجاً على الدستور الذي يقول به جمهور المؤمنين (٣) . وأمر لاوون الثالث بنقش دستور الايمان على لوحات الفضة لتعليقها في كنيسة القديس بطرس فاذا به يتفق كل الاتفاق ودستور نيقية ويخلو من العبارة « ومن الابن » (٤) . ثم شاع القول بالفيليكوي في القرن التاسع في جميع كنائس المانية ولورين ومعظم كنائس فرنسة اما كنيسة باريز فانها ثابرت على القول النيقاوي قرنين آخرين (٥) . ونقل بعض

1) Palmieri, A., *Filioque*, Dict. Théol. Cath., II, Col. 2309 ff.

2) Hefelé - Leclercq, *Hist. des Conciles*, III, 1061 - 1091.

3) P. L., Vol. 129, Col. 1257 - 1260 ; P. G., Vol. 94, Col. 205 - 208 ; Hefelé - Leclercq, op. cit., III, 1127 - 1131.

4) *Liber Pontificalis* (Duchesne), II, 26.

5) Alexander of Hales, *Summa Theologica*, I, 218.

الاكليزيكيين الالمان القول بالفيليكوي الى رومة فقبضه البابا فورموسوس (٨٩١ - ٨٩٦) وأمر به في بلغارية فلفت بذلك نظر فوطيوس العظيم وأدى الى احتجاجة كما سبق وأوضحنا . وجاء التدخل الالمانى في رومة في النصف الثاني من القرن العاشر فجر وراءه قولاً جريئاً واضحاً بالفيليكوي .

والكلام في الانبثاق عقيدة تنطوي عليها النصوص المسيحية المقدسة . فقد جاء في بشارة يوحنا الحبيب في الفصل الخامس عشر والآية السادسة والعشرين : « ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم من لدن الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق » . وجاء ايضاً في الفصل السادس عشر من هذه البشارة نفسها وفي الآية الرابعة عشرة عن روح الحق : « انه سيمجدني لأنه يأخذ مما لي » . وجاء لبولس في رسالته الى أهل غلاطية في الفصل الرابع والعدد السادس « والدليل على أنكم أبناء كون الله أرسل في قلوبنا روح ابنه » .

وظهرت بدعة آريوس فأكد الآباء المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني الاول (٣٢٥) ان المسيح ابن الله الوحيد مولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور اله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء . وقال مقدونيوس بخلق الروح القدس فاجتمع الآباء في القسطنطينية في السنة ٣٨١ وقالوا « وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجّد » ليؤكدوا لاهوت الروح القدس ومساواته بالابن ووحدته المصدر وانتشرت الآريوسية في اوروبة الشمالية الغربية بانتشار البرابرة فقال الآباء في اسبانية بانبثاق الروح القدس من الآب والابن ليؤكدوا مساواة الابن بالآب .

وبحث دفاق الذهب الدمشقي الانطاكي هذا الموضوع في النصف الاول من القرن الثامن فأكد ان الروح القدس هو روح الآب وروح الابن ايضاً (١) . وكرر آباؤنا المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) القول بالدستور النيقاوي القسطنطيني واثبتوه في أعمال المجمع معترفين بالانبثاق من

1) *De Fide Orth.*, I, 8, P. G., Vol. 94, Col. 832 ; *Lossky*, V., *Théologie*, 60.

الآب . ووجهوا الرسائل الى البطارقة الشرقيين وبحثوا هذا الموضوع وفسروا فقالوا بالانثاق من الآب « بالابن » *per Filium, dia Igoun* (١) .

وعلى الرغم من هذا كله فانا لا نزال شرقيين وغربيين متفقين على اثبات وحدانية الثالوث الاقدس اثباتاً تاماً كاملاً صريحاً وعلى تأكيد شخصية كل من الاقانيم وعلى التساوي بينهم وعلى وحدة الجوهر .

اتصال واحتكاك : واختلف المؤمنون في أمر الانثاق وتعارضت آراؤهم ولكنهم ظلوا أبناء كنيسة واحدة جامعة مقدسة ولم تتفرق وحلتهم ولم تنقض عقدهم ثم استولى الروم على جزيرة كريت في السنة ٩٦١ وعلى قبرص في السنة ٩٦٥ وعادوا الى انطاكية في السنة ٩٦٩ ودخلت فلسطين في حوزة العزيز المتساهل المتسامح ولم يطل عهد الحاكم فخلت مياه المتوسط الشرقي من قرصنة المسلمين وتسهلت سبل الاتصال بالشرق فتوافد التجار الايطاليون الى الجزر والسواحل وأقاموا فيها . وبسط الفسالة نفوذهم على البلقان وعظم أمرهم فهابهم الصقلية والبلغاريون وتفتحت أمام الحجاج طرق برية قليلة النفقة خالية من عراقيل الحدود فتدفقوا زرافات وزرافات القسطنطينية للتبرك بذخايرها والاستراحة فيها قبل متابعة السفر الى الأراضي المقدسة (٢) . وانشأ الفسالة في هذا العصر حرسهم الافرنجي . فازداد عدد الغربيين المقيمين في القسطنطينية ومرافق الامبراطورية وجزرها وكثر عدد المتجولين في أراضيها من الدانوب في أقصى الشمال حتى مداخل طرابلس وحمص ودمشق . ولم تخل ايطالية نفسها من تجار الروم ورهبانهم وعمالهم ولا سينا جنوبها . وأشهر رهبان الروم فيها في هذا العصر القديس نيولوس ويوحنا فيلاغاثوس (٣) .

البطريرك افسستايوس والبابا يوحنا التاسع عشر : ورافق هذا التطور في العلاقات بين فرعي الكنيسة الجامعة اهتمام شديد في الحج والحجاج في الأوساط الرهبانية في الغرب ولا سيما رهبانية كلوني . وكان الاهتمام في توطيد سلطة اسقف

1) Mansi, XII, 1122.

2) Runciman, S., Hist. of the Crusades, I, 38 ff.

3) P. G., Vol. 120 ; Gay, J., Italie Meridionale, 391 - 395.

رومة من أبرز النقاط في برنامج هذه الرهبانية . وهب أفرادها للتبشير به والدعاية له في كل مكان وزمان فأقضوا بذلك مضجع البطريرك المسكوني ولا سيما في الأبرشيات الخمس الايطالية الخاضعة له .

فبحث البطريرك المسكوني هذه القضية مع الفيلسوف باسيليوس الثاني واتفق الكبيران على الكتابة الى يوحنا التاسع عشر في هذا الموضوع . فعرض افسستايوس في السنة ١٠٢٤ حلاً على زميله الروماني قضى بالاعتراف بتقدم رومة في الكرامة والاحترام وبعدم تدخلها في شؤون القسطنطينية الداخلية وسائر الأبرشيات الشرقية الداخلة في حوزة الامبراطورية . والمقصود هنا بنوع خصوصي شؤون الأبرشيات الايطالية الخمس . ولا يجوز القول في هذا العرض أكثر مما تقدم لأن النص اليوناني مفقود ولأنه لم يبق عنه سوى الترجمة اللاتينية كما رواها رادولف غلابير (١) . فوافق يوحنا التاسع عشر (٢) . ولكن رئيس دير القديس بنينوس في ديجون اعترض باسم رهبانيته على تمزيق سلطة هامة الرسل وكتب بذلك كتاباً شديداً اللهجة الى يوحنا التاسع عشر . فتراجع هذا البابا عما اعترف به . فلم يذكر اسمه في ذبتيخة القسطنطينية ولم يرد في سينوديون السنة ١٠٢٥ (٣) . ومن هنا قول المؤرخ الالماني المعاصر : « انه في السنة ١٠٢٨ خرجت الكنيسة الشرقية عن طاعة البابا » (٤) . وهو كلام مضلل يقصه شيء كثير من الضبط والتدقيق ويكذبه سير الحوادث بعد السنة ١٠٢٤ . وجل ما حدث ان الاكليريكيين الكبارين عادوا الى ما كانا عليه من المقاطعة في الذبتيخة اما كنائس اللاتين فانها ظلت مفتوحة في القسطنطينية وسواها من مدن الشرق وظل اللاتينيون ايضاً يتعبدون في كنائس الروم وكذلك تابع الدير اللاتيني أعماله في جبل آتوس (٥) . بيد ان ظروف الحال أصبحت قابلة للاشتعال سهلة الالتهاب . فجاءتها شرارة قوية من عالم السياسة .

1) Radulf Glaber, P. L., Vol. 142, Col. 671 ; Michel, A., op. cit., I, 25.

2) Jugie, M., Schisme Oriental, 168 - 169.

3) Michel, A., op. cit. I, 25.

4) Chronica S. Petri Erphordensis moderna, Nonumenta Germ. Hist. Vol. 30, P. 407.

5) Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 82 - 83, 100 - 101.

ازمة سياسية في ايطالية : وكان جنوب ايطالية لا يزال في قبضة الروم . وكان هذا الجنوب يشمل امارتين لومبارديتين امارة ساليرنون و امارة كابوة وبنيفنتوم . وكان يدخل في هذا الجنوب ايضاً ثلاث مدن حرة هي غايّة واملني ونابولي وولاية كالابرية اليونانية وولاية ابولية او لانغوبارديّة . وكانت هذه يونانية في ملنها لومبارديّة لاتينية في ريفها . ولم تحاول كنيسة القسطنطينية التدخل في شؤون الكنائس الرومانية القائمة في الامارتين وفي المدن الحرة . ولكنها لم ترص عن تطلع اللاتين في ابولية الى ما وراء الحدود الى رومة القرية (١) .

وفي السنة ١٠٢٠ ثار ميلو Melo على الروم في أبولية واستعان بعدد من الفرسان النورمنديين المرتقة . وقضى الروم على هذه الثورة الخلية ولكنهم تركوا النورمنديين يستقرون في أبولية ويستدعون اليها عدداً كبيراً من أصدقائهم وذويهم من شمال فرنسة . وفي السنة ١٠٤٠ طمع النورمنديون في الحكم فأخذوا يدوخون جنوب ايطالية بزعامة اسرة هوتفيل Hautevilles الشهيرة . وتدخلت المانية في شؤون رومة مرة اخرى في شخص امبراطورها هنريكوس الثالث . فرار هذا الامبراطور رومة في السنة ١٠٤٦ وخلع باباواتها الثلاثة دفعة واحدة وأجلس على سندها اقليمس الثاني ثم دماسوس . وفي السنة ١٠٤٨ وبعد وفاة هذين الحبرين جاء باسقف تول برونو اللوريني فأجلسه على العرش البطرسي باسم لاوون التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) . وشغلت هنريكوس مشاغل في المانية فعاد اليها تاركاً امور ايطالية الى لاوون يديرها ويديرها بحكمته .

رومة تمحدي القسطنطينية : وزار الامبراطور الالماني في اثناء وجوده في رومة جنوب ايطالية فقوى النورمنديين بأن اعترف بحقهم الشرعي في الأماكن التي كانوا قد سطوا عليها . وارتاح لاوون بادىء ذي بدء الى نشاط النورمنديين في جنوب ايطالية لأن نشاطهم عزز سلطته الروحية وأفسح له المجال للصمود في وجه التوسع اليوناني ولا سيما في ابرشية اوترانتو التي كان قد أنشأها نيقيفوروس فوقاس في النصف الثاني من القرن العاشر . ولكنه لم يقدم على الغاء الطقس

1) Gay, J., *Italie Meridionale*, 414 - 429.

البيزنطي (١) . ثم اضطرب لاوون عندما بدأ النورمنديون يدوخون المقاطعات اللومباردية ويقربون من حدود رومة . وكان هنريكوس لا يزال منهمكاً في امور المانية فتقرب لاوون من الروم للقضاء على نفوذ النورمنديين ولكنه أراد ان يظل محتفظاً بما جناه من توسع النفوذ النورمندي فحاول الجمع بين نقيضين وأمسى تقربه من الروم استفزازاً لسلطاتهم الروحية فآخفق في ميدان السياسة ووقع في يد النورمنديين اسيراً (١٠٥٣) ونفّر زميله القسطنطيني فجر الكنيسة الجامعة الى شقاق أليم .

موقف القسطنطينية : وكان قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ - ١٠٥٥) فيلسافاً طائشاً خاملاً مستهتراً مسرفاً مبدداً الى ان حل به فالج أقعده عن كل حركة . ولكنه كان صافي القلب بشوشاً بعيدياً عن الحقد والتكبر يجذب القلوب بلطفه وخفة روحه (٢) . وكان رومانوس اسكليروس اخو خلية هذا الفيلسوف يكره القائد الكبير جورج منياكيس . فاستدعى قسطنطين هذا القائد من ايطالية وأبعده . فثار القائد ونادى به جنوده فيلسافاً . وشملت حركته جنوب ايطالية فقاومه فيها ارجيوس ابن ميلو اللومباردي الكبير . وعند انتهاء أمر منياكيس استدعى الفيلسوف هذا اللومباردي الصديق وشمله بعطفه وأولاه ثقته . وفي السنة ١٠٥١ عينه مجيستروساً ودوقاً على ايطالية الجنوبية . فأثار بذلك سخط الأوساط المحافظة في القسطنطينية لأن ارجيوس كان لومباردي العنصر لاتيني المذهب . وكان كيرولايوس البطريك في طليعة هؤلاء المحافظين الساخطين (٣) . ووافق ارجيوس المجيستروس لاوون التاسع على سياسته في جنوب ايطالية ودخل معه في حلف نجعل شروطه فراد في وجس المحافظين في العاصمة وأقضى مضجعهم .

البطريك ميخائيل الاول : (١٠٤٣ - ١٠٥٨) وتحدر هذا البطريك

1) *Epist. ad Michaellem Constantinopol. tanum*, P. L., Vol. 143, Col. 764 ; *Jugie, M., Schisme Byzantin*, 189, n. 1. ; *Ostrogorsky, G., Byzantine State*, 296.
2) *Psellos, Chronographia*, I, 133 - 134 ; *Diehl, C., Figures Byzantines*, I, 273 - 276.
3) *Gay, J., op. cit.*, 450 472.

المسكوني كيرولاريوس من اسرة شريفة مثلت مراراً في مجلس الشيوخ . والتحق بسلك الادارة المدنية وتدخل في السياسة . ولعله ترعّم حركة الانقلاب في السنة ١٠٤٠ التي استهدفت ازال ميخائيل الرابع عن عرشه . ولعله طمع في هذا العرش آنئذ كما جاء في بعض المراجع الاولى (١) . ويروى ايضاً انه لدى اخفاقه في هذه الحركة طلب العزلة ثم قدم النذر عن اخلاص وتقوى ولبس الاسكيم (٢) . ولدى وصول قسطنطين التاسع الى العرش عاد كيرولاريوس الى الاهتمام بالبلاط وشؤونه فاستمال القسيفلس وكسب ثقته وأصبح أشد الناس أثراً في نفسه . ثم عينه البطريرك اليكسيوس الاستودي بروتوسينكيلوساً فأصبح هو البطريرك المنتظر . وتوفي البطريرك اليكسيوس في العشرين من شهر شباط سنة ١٠٤٣ فخلفه في السدة بعد شهر من الزمن كيرولاريوس باسم ميخائيل الاول .

وكان ميخائيل الاول ادارياً قديراً صارماً قاسياً ينقصه دهاء فوطيوس وتوقد ذهنه وكان عزيز الجانب لا يناله طالب ولا يطمع فيه طامع . ولم يكن ذاك العالم اللاهوتي المؤرخ الذي وجدته القسطنطينية في شخص فوطيوس . ولكنه شابه فوطيوس في اعتزازه باليونان وتعلقه بطقوسهم . وكان رفيع الأهواء بعيد المهمة فتنبى برنامج سلفه افستاثيوس وحاول قدر المستطاع تحقيقه فكان هو المقدم على بطاركة الشرق وزعيم الكنيسة الشرقية . فأوجب توحيد الطقوس والقوانين وتدخل في شؤون الكنائس الشرقية غير الأرثوذكسية محاولاً انقاذها من الضلال وارجاعها الى حظيرة الكنيسة الجامعة وخص الكنيسة الأرمنية بعنايته . وكانت هذه الكنيسة قد انفصلت عن الكنيسة الجامعة بعد المجمع الخلقيدوني فقالت مع اليعاقبة بطبيعة واحدة وخالفت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية فأكلت الدم وصامت السبت وبدأت الصوم في الأحد السبعيني الثالث قبل الصوم الكبير واستعملت الفطير في سر الافخارستية فبحث ميخائيل هذا الأمر مع القسيفلس واستدعى كبير الكنيسة الأرمنية آنئذ الكاثوليكوس بطرس الى القسطنطينية

1) Skylitzēs (Cedrenus), 106.

2) Amann, E., Rome et Const., op. cit., 138.

للتفاهم والاتحاد . فجاء بطرس في السنة ١٠٤٩ ولقي خفاوة كبيرة واکراماً من السلطات الزمنية والروحية (١) .

الكنائس اللاتينية في القسطنطينية : (١٠٥٢) وبينما كان البطريرك المسكوني وحاشيته وأصدقاؤه وأعوانه يضطرمون بهذا الروح الوثاب وهذه الخلال الأرثوذكسية النقية كان يريد ايطالية يحمل الى العاصمة الشرقية بين آونة واخرى أنباء التوسع اللاتيني في الأبرشيات الايطالية الأرثوذكسية وضغط النورمنديين على الكنائس الأرثوذكسية التي كانت قد دخلت في حوزتهم . ومما زاد في الطين بلة ان ارجيوس ممثل الروم في ايطالية كان يجادل البطريرك المسكوني في أمر الفطير ويدافع عن وجهة نظر اللاتين . فلما قاربت السنة ١٠٥٢ نهايتها أوجب البطريرك المسكوني على جميع الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ممارسة الأسرار والطقوس بموجب التقليد اليوناني الأرثوذكسي . فامتنعت هذه الكنائس فأمر البطريرك باغلاقها (٢) . وليس من العلم ان نقول مع بعض المؤرخين ان نيقيفوروس أحد رهبان البطريركية المسكونية أخذ القربان المحفوظ في كنيسة لاتينية ورمى به الى الأرض وداسه زاعماً انه غير مقدس . فهو قول ينفرّد به هومبرتو وينقصه الشيء الكثير من العدالة والضبط .

رسالة لاوون اخويده : وفي ربيع السنة التالية ١٠٥٣ كتب لاوون متروبوليت اخريده ورئيس اساقفة بلغارية الى السينكلوس يوحنا اسقف تراني في جنوب ايطالية ونائب البطريرك المسكوني فيها يوجب تجنب البدع الغربية كاستعمال الفطير وصوم السبت وأكل الدم والخنوق وغير ذلك ويوضح وجوه الخطأ فيها . ثم يرجو اطلاع اساقفة الافرنج على مضمون رسالته ويود لو ان البابا الجزيل الاحترام يحيط علماً بها ايضاً (٣) . وجاءت لمحة لاوون قاسية عنيفة

1) Every, G., The Byzantine Patriarchate, 166,

2) Leon IX, Epist. 19, 29, P. L., Vol. 143, Col. 158, 164 ; Humbert, Brevis et Succincta, P. L., Vol. 163, Col. 1002 ; Amann, E., op. cit., VII, 140 ; Jugie, M., op. cit. 189 - 190.

3) Epistola ad Ioannem Episcopum Tranensem, P. G., Vol. 120, Col. 836 ff.; Michel, A., op. cit., II, 282 - 291.

كقوله : « من يصوم السبت ويقدم على الفطير ليس يهودياً ولا وثنياً ولا مسيحياً وانما هو شبيهه بجلد النمر المرقط » فأنارت الكره والحقد والشقاق .

ووصلت رسالة لاوون في آنس الاوقات . فالنورمنديون كانوا قد قضوا على مقاومة أرجيروس في شباط السنة ١٠٥٣ وكانوا قد اسروا البابا لاوون التاسع في حزيران السنة نفسها واجبروه على الإقامة في بنيفتوم . وشاء سكرتير هذا البابا هومبرتو موموتيه *Humbert de Mourmoutiers* كاردينال سيلفة كانديدا *Silva Candida* ان يتصل بسيداه فأذن له النورمنديون بذلك . فرأى ان يذهب اولاً الى ابولية ليتصل بأرجيروس فربمدينه تراني واتصل بأسقفها . فأطلعه هذا على الرسالة التي وجهها اليه لاوون اخريدة . فقرأها ونقلها الى اللاتينية وتوجه الى بنيفتوم فأطلع سيده عليها . ورى رجال الاختصاص ان هومبرتو اساء الترجمة وانه كان يكره اليونانيين وكنيستهم فأهمل ودس فجاءت ترجمته اشد عنفاً واسوأ اثرأ من الاصل اليوناني . ومن دسائسه انه اضاف اسم البطريرك المسكوني الى الرسالة فجعلها تصدر عنه وعن رئيس اساقفة بلغاريا . ومن هنا قول البطريرك المسكوني الى بطريرك انطاكية انه لم يخاطب البابا ولم يكتب الى اي اسقف في الغرب في موضوع الفطير وان اللاتينيين « فضوليون قليلو التبصر يحبون الكذب » (١) . وكان لاوون التاسع لا يزال يجهل اليونانية فاعتمد ترجمة هومبرتو واستشاط غيظاً وأمر بالرد عليها .

رد لاوون التاسع : وأمر البابا بالرد على رسالة لاوون اخريدة برسالتين توجه احدهما الى « الاسقفين » ميخائيل القسطنطينية ولاوون اخريدة وترك الثانية بدون عنوان وترد التهم الموجهة الى الكنيسة اللاتينية (٢) .

وأعد هومبرتو هاتين الرسالتين (٣) فاستهل الاولى بالرغبة في السلام ولكنه ملأها بعبارات الصلف والترفع والاستمسك بالرئاسة . وهدد بامتيازات

- 1) Jugie, M., *Schisme Byzantin*, 193, n. 1. ; Runciman, S., *Eastern Schism*, 42 - 43.
- 2) Leon IX, *Epistola ad Michaelem Constantinopolitanum*, P. L., Vol. 143, Col. 744 - 769 ; *Adversus Graecorum Calumnias*, P. L., Vol. 143, Col. 931 - 974 ; Michel, A., op. cit., I, 43 - 76.
- 3) Michel, A., *Ibid.* ; Jugie, M., op. cit., 194.

رومة واعتبر « الاسقفين ميخائيل ولاوون » أحقين لانهما نجاسرا فحكما على السدة الرسولية التي لا يستطيع احد من المثنين ان يحاكمها . ولكي يؤيد هذه السلطة ذكر منحة قسطنطين الى سيليفستروس ورأى فيها امراً الهياً مصداقاً من المجمع المسكوني الاول . ونصح الى هذين « الاسقفين » ان يندم كل منهما على ما فعل وان يرجع عن الطريق التي مشى فيها لثلا يصبح في الآخرة من جملة المسحوبين بذنب التين الذي جرّ ثلث كواكب السماء . وضم هومبرتو الى هذه الرسالة نسخة عن منحة قسطنطين « لكي لا يرتاب احد في ان سيادة رومة على الارض لم تؤسس على الخرافات والخرعبلات وانما صدرت عن قسطنطين نفسه الذي رأى ان خضوع صاحب السلطات الساموية للسلطات الارضية غير لائق » ! .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان منحة قسطنطين هذه التي احتج هومبرتو ولاوون بها هي وثيقة مزورة صنفت في القرن الثامن لتدعيم سلطة رومة . وهو امر يجمع عليه رجال الاختصاص من كاثوليكين غربيين وبروتستانتين وارثوذكسين (١) .

توسط السنكلوس : ولمس الستراتيجوس أرجيروس درجة الاساءة التي شعر بها البابا لاوون لدى اطلاعه على رسالة لاوون اخريدة فاتصل بالسنكلوس يوحنا اسقف تراني وبحث تطورات الموقف معه فرأى الاثنان معاً ان المصلحتين السياسية والدينية تقضيان بتلافي الامر وتدارك الخطر قبل وقوعه فقام يوحنا الى القسطنطينية وأكد للبطريرك المسكوني ان البابا رجل نجيب فاضل عاقل وان التعاون معه ضروري لمصلحة الروم في ايطالية . وكان البطريرك شديد الثقة بالسنكلوس لايشك في ولائه فكتب الى زميله الروماني كتاباً رقيقاً اوضح فيه رغبته في الوثام والاتفاق ورجاه ان يذكر اسمه في ذبتيخة رومة مقابل ذكر البابا في ذبتيخة القسطنطينية . ولكنه حيا زميله الروماني اخلاً لا اباً ووقع بصفته بطريركاً مسكونياً . وكتب الفسيفس ايضاً كلاماً لطيفاً دعا به الخبر

1) Leclercq, H., *Constantin (Donatio Constantini)*, *Dict. Arch. Chret.*, III, اطلب ايضاً رأي ملاقيوس رئيس اساقفة اثينة ورأي جراسيموس متروبوليت 2676 - 2683 بروت في كتابه تاريخ الانشقاق ج ٢ ص ٨٠ - ٨١

الروماني الى التعاون المخلص في الحقل السياسي . وقد ضاع نص هاتين الرسالتين ولم يبق منها سوى ما جاء عنها في رد البابا وما اشار اليه البطريرك المسكوني في رسائله الى بطرس الثالث بطريرك انطاكية . وعاد هومبرتو فسيما يظهر الى الدس والافساد فانه جعل البطريرك المسكوني يقول بأنه يقابل ذكر اسمه في ذبيخة رومة بذكر اسم البابا في جميع كنائس العالم *in toto orbe terrarum* . ولعل البطريرك استعمل اللفظ اليوناني « المسكوني » بمعناه البيزنطي اي في جميع كنائس الامبراطورية فهاهنا البابا هذا الكلام بلفظه اللاتيني وأضرمت غيظه . وكان قد أضعفه المرض فوكل أمر الرد الى هومبرتو وليته لم يفعل !

الكردينال هومبرتو : وكان الكاردينال هومبرتو يمين البابا ورئيس اركانه على شي من العلم والثقافة وبعض الشيء من التقوى ولكنه كان ضيق الخلق جافي الطبع شديد التصلب صفيق الوجه لا يندى له جبين . وكان يكره اليونانيين فجاء وفي رأسه خطة وعزم على الذهاب بنفسه الى القسطنطينية حاملاً رد البابا . فأعد باسم سيده رسالة الى الفسيفس شكاً فيها البطريرك واخبر بسوء فعله وأنذر بالمقابلة بالمثل وخوف من العواقب . واعلم بقيام وفد باباوي الى القسطنطينية وطلب تسهيل مهمته . وكتب رسالة اخرى الى البطريرك المسكوني اكد فيها اولوية رومة وسيادتها ولام البطريرك على التقلب بالمسكوني وشك في قانونية انتخابه وأنكر عليه تناول على حقوق كنائس الاسكندرية وانطاكية وأنه على تطفله وانتقاده الطقس اللاتيني ولا سيما التقديس على الفطير ورجا الله ان يحده ممثلو البابا الداهبون الى القسطنطينية في التوبة والندامة ! (١)

الوفد البابوي المفاوض : وتألف الوفد المفاوض من الكردينال الاسقف هومبرتو والشماس فريديريكوس اللوريني حافظ الختم وبطرس رئيس اساقفة أمالفيس . وسهل النورمنديون المفاوضة . فدعا لاوون التاسع الى مجمع محلي في باري في صيف السنة ١٠٥٣ فتشاور الابهاء اللاتينيون في امر الانبثاق من الآب

1) Léon IX, Epist., P. L., Vol. 143, Col. 773 - 781 ; Runciman, S., Eastern Schism, 44 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 196, n. 1.

والابن وزودوا الوفد بما يجادلون به (١) . وفي مطلع السنة ١٠٥٤ قام الوفد الى ابولية للاتصال بأرجيروس المحيستروس والاصغاء الى ارشاداته . فنصح اليهم ارجيروس ان يتصلوا بأخصام البطريرك المسكوني في القسطنطينية وان يتعاونوا معهم في السعي لدى الفسيفس لاحباط مشاريع البطريرك المسكوني وابطالها . فجاء رأيه سخيلاً فاسداً لأن البطريرك ميخائيل الاول كان قد غيّر في وجه اخصامه في القسطنطينية وأصبح لا يباري ولا يماضي في سياسة العاصمة . والتبس على هومبرتو وجه الصواب فأخذ بهذا الرأي الطائش وقاطع من رغب في مفاوضته قبل الاتصال به (٢) .

هومبرتو في القسطنطينية : (١٠٥٤) ووصل الوفد المفاوض الى عاصمة الروم في أواخر آذار او أوائل نيسان سنة ١٠٥٤ . وعملاً برأي ارجيروس العاثر أهمل الوفد البطريرك واتصل بالفسيفس اولا فخالف العرف الكنسي . ثم عرّج على البطريركية فاستقبله البطريرك في قاعة التسجيل يحيط به رهط من المطارنة وكبار الموظفين الاكليريكيين . وقضى العرف المسيحي بأن يدخل الكردينال الاسقف على البطريرك المسكوني متواضع النفس خافض الجناح متنجحاً عن مقاعد الكبر ولكن هومبرتو أقبل شامخ الأنف رافع الرأس سموداً . وقضى البروتوكول البطريركي بأن يجلس الاسقف بعد المطارنة فجاوز هومبرتو قدره وتعدى حده وامتنع عن الجلوس . ثم نصب صدره ومط حاجبيه ودفع برسالة لاوون التاسع دفعاً وسماً بنفسه ثم خرج أزهى من الغراب . فاعتبر البطريرك هذا العمل وقاحة وخرقاً لحجاب الحشمة (٣) .

ثم قرأ البطريرك رسالة البابا ودقق في ختمها فراه امرها واعتبرها من وحي أرجيروس خصمه فامتنع عن الاعتراف بصلاحيه الوفد المفاوض وأبى ان يشترك مع اعضائه . وتوفي لاوون التاسع في الثالث عشر من نيسان سنة ١٠٥٤ وشغل الكرسي الروماني سنة كاملة ولم يرق فيكتورديوس الثاني السدة قبل الثالث

1) Michel, A., op. cit., I, 97 - 111.

2) Gay, J., Italie Meridionale, 409 ; Runciman, S., op. cit., 44 - 45.

3) Epist. Cerularii ad Petrum Antiochenum, P. G., Vol. 120, Col. 785 - 788.

من نيسان سنة ١٠٥٥ وعلم البطريك هذا كله (١) فنام عن أمر هومبرتو وتركه رهن الطوارق .

ولكن هومبرتو أسهر قلبه واستوقد غضبه وراح يتحرقق ويتلهب فعكف على ملفه وقلب أوراقه فوجد فيه الردين الأولين على رسالة لاوون اخريدة وعثر أيضاً على رسالة كانت قد وردت على رومة من اوروشليم وفيها ما يؤيد رومة في بعض طقوسها فأعاد النظر في نصوص هذه الرسائل « وهذبها » ونقلها الى اليونانية واتحف الروم برد على لاوون اخريدة افرغ فيه ذنوباً وذنوباً (١) . فهب الراهب نيكيتا ستيثاتوس الاستودي فصنف رسالة في حق اللاتين (٢) . وطعن في حالة العزوبة المفروضة على الكهنة عندهم وفي ممارسة القداس العادي في اثناء الصوم على الرغم من تحريمه في القانون الثاني والخمسين من قوانين مجمع تروللي ولكنه لم ير في هذا كله هرطقة بل انحرافاً عن التعليم الرسولي . وسمى كنيسة رومة « عين المسكونة كلها » (٣) .

فعاد الكردينال الى طيشه وخلع جلاباب الحياء فأوسع نيكيتا شتماً وسياباً وجعله سافلاً وحماراً وزانياً ورئيس المرافقة (٤) . واحتج لدى الفسيفس وأصر على الاعتذار متخذاً لنفسه صفة القاضي الروماني الذي جاء ليصدر حكماً مبرماً لا المفاوضات بالسلام والمحبة . « فاعتبر الكرسي القسطنطيني العظيم اسقفية متمردة خاضعة لبطريك رومة وعامل صاحبها معاملة رؤوس مذنب يجب عليه التماس الصفح من رئيسه الكريم . وظن ان ميل الفسيفس نحوه لاسباب سياسية يكفي لقهر البطريك والشعب » (٥) وسال لعبه من فـه فأثار مشكلة الانشقاق وادعى ان اليونانيين حذفوا من دستور الايمان النيقاوي القسطنطيني العبارة « ومن الابن » ! فأساء التصرف وكشف جهله . واضطر الفسيفس ان يطلب

1) Ibid. Col. 784 A.

2) P. L., Vol. 143, Col. 951 ff.

3) P. G., Vol. 120, Col. 1012 - 1022 ; P. L., 143, Col. 973 - 984 ; Demetracopoulos, A., Biblioth. Ecc., I. 18 - 36 ; Milhel, A., Humbert und Keroullarios, II, 322 - 342.

4) Jugie, M., op. cit., 200 - 202.

5) Contra Nicetam, P. L., Vol. 143, Col. 983-985, Jugie, M., op. cit., 202-203.

اليه شرح ذلك كتابة . ففعل وقدم مذكرة خطية بهذا المعنى قبل الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٠٥٤ . وقد عثر على نسخة قديمة عنها العلامة الالماني ميشال ونشرها في مؤلفه عن هومبرتو وكيرولاريوس (١) . وحاول الفسيفس جهده للتقريب بين الطرفين ولكن البطريك أصر على مجانبة هومبرتو واوجب دعوة بمجمع مسكوني للبت في أمر الانشقاق . فازور الكردينال وانقبض ولجأ الى الحرمان والتحرير .

حرم هومبرتو : وفي السادس عشر من تموز سنة ١٠٥٤ دخل الوفد البابوي الى كنيسة الحكمة الالهية والقداس قائم فيها واتجهوا نحو الهيكل فالمائدة ورفعوا الانجيل الطاهر ووضعوا حرماً تحتة بحضور الاكليروس والبطريك . ثم نفضوا غبار أرجلهم وخرجوا قائلين : « الرب يحكم في ما بيننا وبينكم » (٢) . ومكثوا يومين في القسطنطينية ثم غادروها حاملين الهدايا حسب العادة ! « فجاء عملهم أقرب الى التمثيل المسرحي منه الى عمل كنسي (٣) » .

والامر الذي يؤسف له هو نص الحرم ولهجته . فقد نسب الكردينال الى البطريك المسكوني سلسلة من التهم والهرطقات الخيالية . فقد جاء في هذا الحرم عن البطريك ميخائيل الاول انه ذاك الذي يزعم انه بطريك وجاء عن المؤمنين انهم تبعوا جنون هذا الذي يزعم انه بطريك وانهم كالبغلياسيين يرقون انحصيان الى درجة الكهنوت الاسقفية وكالاريوسيين يحددون عماد اللاتين وكالدوناتيين ينكرون وجود كنيسة المسيح خارجاً عنهم وكالنيقولايين يزوجون الكهنة بعد رسامتهم وكالسافاريين يلعنون شريعة موسى وكاعداء الروح القدس حذفوا من قانون الايمان العبارة والابن وكالمانيين يقولون بان الخمير حي ذو نفس كالناصرين لا يعمدون ولو في خطر الموت من كان في حالة من الاحوال التي تسمى نجاسة في شريعة موسى وانهم يرفضون تقديم القربان لمن يخلق لهجته الى ما هنالك من الافتراءات التي لا اساس لها . وجاء في الحرم اخيراً

1) Michel, A., Humbert und Keroullarios, I, 97 - 111.

2) Brevis et Succincta Commemoratio, 3, P. L., Vol. 143, Col. 1001-1002.

ان ميخائيل الاول اغلق كنائس اللاتين واضطهدهم ومنع المندوبين من اقامة القداس وانه بازاله الحرم ببعض اللاتين نجراً على حرم الكرسي الرسولي نفسه . وانتهى الحرم هكذا : « ميخائيل الحديث في الاكليروس الذي يحمل بلا حق لقب بطريك الذي اتخذ اللباس الرهباني يعامل الخوف البشري فقط ومعه لاوون الذي يزعم انه اسقف اخريدة ونيقيفوروس كاتب ميخائيل الذي انتهك حرمة القدسيات فداش برجليه ذبيحة اللاتين وكل الذين يتبعونهم في ضلالتهم المذكورة وتجاسراتهم المتغترسة كل هؤلاء فليستطوا تحت اللعنة « ما ران انا » مع السيمونييين والفالاسيين والآريوسيين والدوناتيين والنيقولاييين والسافاريين واعداء الروح القدس والمانيين والناصريين وجميع الهراطقة لا بل مع الشيطان وملائكته ما لم يتوبوا . آمين آمين آمين » ! (١) .

وخرج هومبرتو من كنيسة الحكمة الالهية وخرج شريكاه ايضاً فلاحق بهم شماس ارثوذكسي حاملاً الحرم بيده راجياً استرجاعه . فأبوا فرمى بالحرم الى ارض الشارع ثم التقط الحرم ورفع الى البطريك فأمر بترجمته . فنقله الى اليونانية كل من البروتوسبثاريوس كوزما وبيروس الروماني والراهب يوحنا الاسباني .

البطريك والفيلسوف : ووقف البطريك على الترجمة اليونانية فاتصل بالفيلسوف واطلعه عليها . وكان قسطنطين قد ودع ضيوفه بقبلة السلام والمحبة فلما اطلع على مضمون الحرم اشتعل غضباً وكاد يخرج من ثيابه . ثم رجعت أناته وخشي ان يكون البطريك قد بالغ في الامر فأرسل من لحق بالوفد الروماني وطلب نسخة عن الأصل اللاتيني . ولدى اطلاعه على هذا الاصل وضع الامر وبان الذنب فأرسل الفيلسوف يأمر الوفد بالعودة الى القسطنطينية والمثول امام السنودوس المقدس . فأبوا وتابعوا السير .

ولم يلبث خبر الحرم ان ظهر وشاع في العاصمة . فاضطربت به الألسنة

(١) واللفظ العربي مأخوذ عن الاجتهاد في سبيل الاتحاد ص ٢١ - ٢٢ راجع ايضاً تاريخ الانشقاق لجراسيموس متروبوليت بيروت ج ٢ ص ٨٦ - ٨٩ .

Jugie, M., Schisme Byzantin, 203 - 208.

وسار على الأفواه ففار فائر الشعب وثار تأثره وبات يردد من الغضب . فخشي قسطنطين سوء العاقبة فأمر بمعاينة الوسطاء بين الوفد وبين الأوساط الرسمية وألقي القبض على أقرباء ارجيوس وزجهم في السجن ثم أمر باحراق الحرم علناً . وكتب بهذا كله الى البطريك المسكوني هكذا :

« ايها السيد الجزيل القداسة . ان دولتي قد دقت في الامر الذي حصل فوجدت أصل الشر ناشئاً عن المترجم وعن ارجيوس . أما غرباء الجنس فانهم مرسلون من آخرين ولا نستطيع ان نعمل معهم شيئاً . وأما المسيبيون فقد ضربوا . ثم إنا أرسلناهم الى قداستك ليؤدب بهم آخرون . أما « الورقة » فن بعد حرمانها وحرم الذين أشاروا بها والذين أصدروها والذين كتبوها والذين لهم أقل علم بها فلتحرق أمام الجميع . وقد أمرت دولتي بسجن القيسثارشيس صهر ارجيوس وابنه القيسثاريوس ليقيا فيه تحت الشدة بحسب استحقاتهما » (١) .

السيمومة : ودعا البطريك المجمع المقدس الى النظر في قضية هومبرتو . فالتأم المجمع في العشرين من تموز بحضور رسل الفيلسوف الثلاثة الذين حملوا رسالته الى البطريك . فلعن المجمع الحرم وواضعيه وكل من عاون في اعداده . وأبى البطريك احراق الحرم لأنه رغب في « ان يبقى شهادة على العار الأيدي والذنب الدائم للذين لحقوا باولئك الذين جددوا على الهنا مثل هذا التجديف » (٢) .

وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه عاد المجمع الى الانعقاد فجلس في كنيسة الحكمة الالهية في المكان المعين للموعوظين واتخذ قراراً رسمياً في قضية هومبرتو عُرف بالسيمومة Semeiouna اي الحاشية وقرئ على المؤمنين في الوقت نفسه الذي افسح لتلاوة قرارات المجمع المسكوني الخامس . وكانت العادة قد جرت بقراءة هذه القرارات في مثل ذلك اليوم (٢٤ تموز) من كل عام .

« لقد جاء الان رجال ارباء الايمان وكرهون رجال نبغوا من الظلام

(١) وقد جاء هذا النص تايماً لنص القرار الخمي . واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت : الانشقاق ج ٢ ص ٩٩ .

2) P. G., Vol. 120, Col. 748 B.

لأنهم اولاد المغرب ودخلوا هذه المدينة الحسنة الايمان المحفوظة من الله التي تتدفق منها ينابيع الرأي القويم فتجري الى اقاصي المسكونة لتسقي النفوس بالعقيدة الحسنة . وقفز هؤلاء الرجال وشرعوا يفسدون التعليم الصحيح وتمادوا فوضعوا صكاً على المائدة السرية مائدة كنيسة الله العظمى وبه وضعونا وكنيسة الله الارثوذكسية وسائر الارثوذكسية تحت الحرم لاننا نريد ان نواظب على الايمان الحسن ونعيش على استقامة الرأي . وقد طعنوا فينا ببعض المطاعن وبأننا لا نطيع ان نخلق لحانا فنحول صورة الانسان الطبيعية الى صورة غير طبيعية مثلهم وبأننا لا نرتاب في امر تناول الاسرار من قساوسة متزوجين وبأننا لم نرغب في الدس في الدستور الشريف المقدس وفي تزويره بأراء غيلة واقوال دخيلة فلم نقل مثلهم ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن بل من الآب .

« وقد تظاهروا بأنهم جاؤوا من رومة ووافدوا من البابا والصحيح انهم جاؤوا من تلقاء أنفسهم وبارشادات ارجيوس الغشاشة ولفقوا تحارير وادعوا انها صادرة عن البابا . وقد كشفنا هذا التزوير بتدقيق الاختتام وامور اخرى وجاء الصك بأحرف ايطالية ووضعه هؤلاء الاردياء اولاً على مائدة كنيسة الله العظمى بحضور سبعة ايبوذياكونة القسم الثاني . فرفضه ايبوذياكونة ورموه عن المائدة الالهية وقالوا لواضعيه ان يأخذه . فامتنعوا . ثم تناقلته الايادي فأخذته حشمتنا وحفظته كي لا تنشر التجاديف التي فيه . ثم اتنا دعونا من يجيد الترجمة وسمحنا بنقل الصك الى اليونانية . فتبين منه ان كل من يقاوم ايمان السدة الرومانية وذبيحتها فليكن اناثياً وليدع خبيراً وضداً جديداً للمسيح . فاعلنت حشمتنا هذا الامر للملكنا صاحب القدرة والقداسة . فأرسل يستدعيهم الى المدينة العظمى لانهم كانوا قد سافروا قبل ذلك بيوم واحد . فعادوا ولكنهم لم يريدوا ان يحضروا امامنا ولا ان يواجهوا المجمع العظيم المقدس ويحييوا عما فاضت به بطونهم من الكفر . ولم يرض ملكنا العظيم ان يجبرهم على ذلك لانهم يتقلدون رتبة السفارة بحسب الظاهر . ولكن بما انه لا يلبق ايضاً ولا يتحق ان تبقى هذه السفاهة بلا قصاص فقد دير الملك علاجاً ناجحاً وارسل الى حقارتنا كتاباً

شريفاً محترماً . وهذه صورته بالحرف الواحد : « (١) .

البطريك المسكوني وسائر البطاركة : وسارع ميخائيل الى الاتصال بزملائه البطاركة الشرقيين لاطلاعهم على واقع الحال وحثهم على اتخاذ موقف مماثل لموقفه فحرر رسالتين الى بطرس الثالث بطريك انطاكية . وكتب الاولى فور انتهائه من اصدار السيميومة فذكر أعمال هومبرتو باختصار وبتين موقفه منها ولا سيما من قضية الفيليكوي ووعد بارسال نسخة عن حرم هومبرتو ورجا زميله الانطاكي ان يتصل بزميله الاوروشليمي والاسكندري ويحضرها على الدفاع عن الارثوذكسية (٢) . ثم عاد الى الكتابة فأسهب وتكلم في موقف الكنيسة اليونانية الارثوذكسية من الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية . ومما قاله ما معناه .

« ولما علمت ما كان يتحل به البابا الذي توفي من فضائل كتبت اليه كتابة مسهبة بوجوب الاتفاق على نقاط الاختلاف في الايمان . وكنت ارجو ان استميل البابا للتعاون مع الافرنج ضد النورمانيين في ايطالية . ودفعت هذه الرسالة ورسالة من القيصر الى البستياروس ليسلمها امينة وينقل الجواب عنها . فلما وصل هذا الرسول الى ايطالية اتصل بارجيوس فخذعه واخذ الرسائل منه مدعياً انه بإمكانه ان يقدمها للبابا بسرعة اكثر منه . واخذ ارجيوس الدراهم الملوكية المرسلة الى البابا وتصرف بها لمنفته الشخصية . ودعا اليه تابعيه وبينهم واحد كان اسقفاً على مدينة أملفيينا فطرد من كنيسة لاسباب شرعية . وبينهم ايضاً الكردينال هومبرت له اسم رئيس اساقفة فقط ولم تكن ابرشيته معروفة . اما الثالث فان ارجيوس لقيه كانكيلايوس الكنيسة الرومانية ليجعله برجاً حصيناً لمقاصده . ثم فتح ارجيوس رسالتي وكتب الي جواباً متسترأ تحت اسم البابا . ثم جعل هؤلاء الثلاثة يحملون هذا الجواب الى القسطنطينية . ولما وصلوا الى هنا حضروا اولاً امام القيصر بعنفوان غريب . ثم زاد هذا العنفوان حين جاؤوا الي . فانهم لم يقولوا لي كلمة واحدة ولم يخشوا رأسهم ولم يسلموا السلام العادي ولم يرضوا بالجلوس بعد المطارنة . وما لي وللقول عن نفسي فانهم دخلوا على القيصر حاملين بأيديهم الصليبان والمكاكيز . واكتفوا بأن سلموني الرسالة المختومة وابتعدوا ولاحظت الرسالة قبل فضاء فرأيت ختمها مزوراً . اما فحواها فانه كان علوماً عالقة وخبيثاً لانه شمل جميع المواضيع التي كان ارجيوس قد ذكركني بها يوم كان في القسطنطينية ولا سيما موضوع القطير . وكنت قد اضطررت الى حرمه اربع مرات . واني مرسل اليك نسخة عن رسالتي الى البابا وترجمة يونانية لجوابه الذي حله الي اولئك الكفرة لكي تعلم الحقيقة حق علمها . ثم ان خبيثهم ظهر بجلاء بعد حضور رئيس اساقفة تراني فانه كشف لنا كل شيء فاذا به يتفق وما كنت قد سرته للقيصر .

(١) وهو ما ورد نصه قبل هذه السيميومة اطلب ايضاً :

ولام ميخائيل زميله الانطاكي فراجعته بذكر اسم لاوون التاسع في الذبيخة مؤكداً ان اسماء الباباوات حذفت من ذبيخات الكنائس بعد البابا فيجيليوس . وطعن في استعمال الفطير في كنائس اللاتين وفي امور اخرى انحرفوا بها عن التسليم الابوي القديم وخالفوا القوانين المسنونة ولا سيما اكل الخنوق والدم وحفظ صوم السبت بدلا من الاربعاء ومنع زواج الكهنة والسماح بالزيجة بين الاقرباء والتعميد بغطسة واحدة والزيادة على دستور الايمان والقول بالانثاق من الآب والابن والخالق الذي يلبسه اساقفتهم وخروجهم في الحروب كالعسكر وهرق الدم لهلاك النفوس . وأضاف ميخائيل ان الذين يرسلون من الغرب يسعون لبث تعاليمهم المنحرفة ويكرهون الناس على قبولها (١) .

انطاكية تذكر بالحجة : وقال بطرس الثالث بطريرك انطاكية قول سلفائه بطاركة انطاكية بالبنترخية اي برئاسة البطريركيات الخمس على الكنيسة وصارح رومة بذلك في رسالة الجلوس التي وجهها الى لاوون التاسع حين تسلم عكاز الرعاية . وكرر هذا القول في رده على دومينيكوس رئيس اساقفة اكويلية . وقد سبقت الاشارة الى هاتين الرسالتين في بحث سابق . واعتبر بطرس زميله الروماني مقدماً على البطاركة عملاً بقرارات المجامع المسكونية . ووضح لميخائيل البطريرك المسكوني ان موقفه من ذكر البابا في الذبيخة لا يتفق والواقع . فأكد انه يذكر ان اسم البابا كان مكتوباً في ذبيخة انطاكية في عهد بطريركها يوحنا وانه عندما زار القسطنطينية قبل اربعين سنة سمع اسم البابا يوحنا يذكر مع اسماء سائر البطاركة .

ورأى بطرس الثالث ان اضاليل رومة التي ذكرها ميخائيل ثلاثة : منها ما يجب تجنبه ومنها ما يجب اصلاحه ومنها ما يجب السكوت عنه « لأنه ماذا يهمنا اذا كان الاساقفة اللاتينيون يخلقون لحاهم ويلبسون الخواتم . الا نقص نحن شيئاً من شعرة الرأس اكراماً لبطرس ونلبس ألبسة مذهبة . ولا حرج فيما يتعلق بالطعمة واللحوم الغير الطاهرة لان رهباننا يفعلون ذلك . ولا يجب ان يكره

1) P. G., Vol. 120, Col. 789 - 793.

الانسان شيئاً مما خلقه الله بل يجب ان يقبل كل شيء بالشكر . اما « الشر العظيم الذي استحق الاناثا » في نظر البطريرك الانطاكي فانه كان تلك الاضافة الى نص الدستور المقدس اي القول بالفيلوكوي . ولكنه رأى انه من الواجب « ان ننظر بانتباه الى الطوية الصالحة . فان لم يكن الايمان على خطر فعلينا حينئذ ان نرجع السلام والمحبة على غيرهما لان الغربيين اخوتنا وان كانوا يخطئون احياناً كثيرة بسبب توحشهم وجهالتهم . ولا يجوز ان نطلب من البربر الكمال الذي عندنا نحن الذين منذ نعومة الاظفار نشأ في مطالعة الكتب المقدسة . ويكفي ان يحفظ الغربيون التعليم القديم في الثالوث القدوس وسر التجسد » .

ولم يستحسن بطرس الثالث منع القسوس المتزوجين عن مسك القدسات ولم يرض ايضاً عن عدم حفظ الاصوام كما حفظها هو . وأسهب في الكلام عن الفطير . ومما قاله في هذا الموضوع ما يلي : « ان من يقدم الفطير يقدم جسداً ميتاً لا حياً وان من يأكل الفطير لا يستفيد من المسيح » .

وأنتهى بطرس رده على ميخائيل قائلاً : « فان كنت تكتفي بالتشبث في موضوعي دستور الايمان وزواج الكهنة فقط فحسناً تفعل . واما ما بقي فيمكنك غض النظر عنه . وعلينا ان لا نكون سريعين في تصديق الوشايات . وانت ستكتب حسب الواجب الى البابا الجديد بعد انتخابه وربما يحبك بأن المطاعن كاذبة . ومن يستطيع ان يصدق انهم لا يكرمون الدخائر وهم يفتخرون بأن عندهم جسدي بطرس وبولس . وكيف لا يحترمون الايقونات ما دام البابا وقع على قرارات المجمع السابع المسكوني ولعن محاربي الايقونات » .

« وبناء عليه اترامى على اقدامك واتضرع اليك ان تتساهل اكثر مما فعلت لكي لا تكون وانت راغب في اقامة الساقط قد جعلت سقوطه اكثر ثقلاً . وانا اظن ان هؤلاء اذا اصلحوا زيادتهم في دستور الايمان فلا يبقى لنا شيء نطلبه بل يمكننا ان نغض النظر عن مسألة الفطير . فأتضرع اليك الا نطلب كل شيء لكي لا نخسر كل شيء » (١) .

1) P. G., Vol. 120, Col. 796 - 816 ; Runciman, S., op. cit., 65 - 66 ; Jugie, M., op. cit., 225 - 229.

أهمية الحرم والسيميوومة : ولم يشتمل الحرم الكنيسة الارثوذكسية بأسرها وإنما اطلق ضد بطريرك واحد من بطاركتها وعدد معين من رجال الكليروسها . واعلان بعد وفاة لاوون التاسع وقبل وصول خلفه فيكتور يوس الثاني الى السدة الرومانية . ولا يجوز القول ان لاوون وافق مسبقاً على القرارات الخطيرة التي تتضمنها هذا الحرم ولم يصدق احد من الباباوات التابعين محتوياته (١) ولم تشمل السيميوومة الكنيسة اللاتينية ولم تذكر احداً من رؤسائها وإنما نظمت في حق هومبرتو ورفيقه « لتسجل خجلاً ابدياً للذين تجرأوا فجحدوا على الله » .

ولا اساس فيما يظهر لما جاء في تاريخ العقيدة لجاورجيوس الميتوخيقي من ان ميخائيل الاول اذاع ، بعد ان تسلم جواب بطرس الثالث ، منشوراً بطريركياً عاماً اعلن فيه اضمحلال تفوق رومة ووصوله المقام الاول بين البطاركة (٢) . ولا يخفى ان جاورجيوس هذا من اعيان القرن الرابع عشر وانه بالتالي بعيد جداً عن الحادث الذي يروي . وقل الامر نفسه عما جاء في مصنفات ميخائيل بلاستارس وجاورجيوس فرانجيس الذين ادعيا بأن ميخائيل الاول رأس مجمعاً عاماً في السنة ١٠٥٧ وان هذا المجمع « حرم اللاتين واطريركهم » . فالتفتيش الذي جرى بأمر الفيلسوف اليكسيوس في السنة ١٠٨٩ في سجلات البطريركية المسكونية واوراقها لم يظهر للوجود اي قرار اتخذته كنيسة القسطنطينية لاقضاء عن كنيسة رومة (٣) .

والحرم والسيميوومة في نظرنا عرض من اعراض علة مزمنة كانت ولا تزال تنتاب الكنيسة الجامعة بفرعها اليوناني واللاتيني حتى يومنا هذا . فكنيسة رومة ما فتئت منذ القرون الاولى تطالب بالسلطة العليا على جميع الكنائس في الغرب وفي الشرق . وكنائس الشرق ما فتئت منذ القرون الاولى ايضاً ترد هذا

1) Jugie, M., Schisme Byzantin, 230.

2) Metochile, G., Hist. Dog., Nova Patrum Bibliotheca (Mai), VIII.

3) Laurent, V., Notes Critiques, Echos d'Orient, 1932, 104 ; Jugie, M., op. cit., 242.

الطلب مؤكدة تساوي الرسل والاساقفة والبطاركة مبنية ان السلطات العليا في الكنيسة الجامعة هي في يد المجمع المسكوني وان المجمع المسكونية اجمعت على هذا الامر وان شرائع الامبراطورية الرومانية ولا سيما قوانين يوستينيانوس اثبتت هذا التساوي بشكل لا يحتمل الشك .

وليس من العلم او الانصاف بشيء ان نقول مع اخواننا الغربيين ان ميخائيل الاول اراد الانشقاق ومهد له السبيل ودبر التدابير للوصول اليه ودفع لاوون البلغاري وغيره الى العمل والظهور واختبأ هو وراء هؤلاء ليوجد منفذاً عند اللزوم يستطيع الخروج منه عند تأزم الحال . نقول ليس من العلم او الانصاف ان نقول هذا القول وننسى مطلب رومة التاريخي واقدامها على تزوير منحة قسطنطين واستعمال هذا المزور في السنة ١٠٥٤ واندفاع لورين وكولوني في سبيل تدعيم سلطة اسقف رومة وانتشار الرهبان اللاتين في ابرشيات ايطالية الجنوبية الارثوذكسية الخمس للدعاية لكنيسة رومة وطقوسها . فالمبادرة في سير الحوادث التي ادت الى ازمة السنة ١٠٥٤ جاءت من الغرب لا من الشرق . وموقف ميخائيل الاول على ما أخذه كان موقفاً دفاعياً لا هجوماً .

وليس من المسيح بشيء ان نفتش مع الأب مرتينوس جوجي الصعودي والأب إيف كونغار الدومينيكاني وغيرهما من الآباء الغربيين العلماء (١) عن الاسباب الحقيقية التي ادت الى الانفصال في الكنيسة الجامعة فنجدها عرقية وثقافية وحكومية وسياسية وننسى ان جميع هذه الاسباب توفرت في القرون الاولى ولم ينتج عنها مثل هذا الانشقاق . ونحن نرى ان الذين مهدوا لهذا الانشقاق في الشرق وفي الغرب معاً لم يفسحوا المجال لعمل الروح القدس فخلت قلوبهم من المحبة المسيحية التي تتأني وترفق ولا تحسد ولا تنباهي ولا تنتفخ ولا تأتي قباحه ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح

1) Jugie, M., Schisme Byzantin, 3 - 45 ; Congar, Y., Après Neuf Cents Ans, Proche — Orient Chrétien, 1954, 3 - 25 ; Amann, E., Rome et Constantinople, Fliche et Martin, VII, 111 - 125.

بالظلم بسل تفرح بالحق وتتغاضى عن كل شيء وتصدق كل شيء وتصير على كل شيء وانهم لم يصلوا بجرارة وانكسار قلب وانسحاق نفس « من أجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل » !

أز بصيرتي وافتح في لأهداً بأقوالك ، وأفهم وصاياك
واعمل بمشيئتك ، وارنم لك باعتراف القلب ، واشيد
لإسمك القدوس ، أيها الآب والإبن والروح القدس ،
الآن وكل أوان والى دهر الداهرين . آمين .

الفصل الأربعون

صَدَى الانشقاق

١٠٥٤ - ١٠٩٨

في انطاكية : وتولى السدة الانطاكية بعد بطرس الثالث البطاركة يوحنا السادس فاميليانوس ثيودوسيوس الثاني فنيقفوروس فيوحنا السابع (١) . وجاء في السينوديون بعد بطرس كل من ثيودوسيوس فنيقفوروس فيوحنا . وجاء في مجموعة لوكيان تحت الرقم المتسلسل ٩٦ ثيودوسيوس الثالث ثم باسيليوس الثاني ٩٧ ثم بطرس الثالث ٩٨ ثيودوسيوس الثالث ٩٩ فاميليانوس ١٠٠ فنيقفوروس ١٠١ فيوحنا الرابع ١٠٢ . وتختلف هذه المراجع في تعيين سني الرئاسة ولكنها تتقارب في تحديد بداية عهد يوحنا السابع (الرابع في المراجع الغربية) . ويرى رجال الاختصاص ان رئاسة يوحنا السادس امتدت من السنة ١٠٥٦ حتى السنة ١٠٥٧ وان ثيودوسيوس الثاني تولى من السنة ١٠٥٧ حتى السنة ١٠٥٩ وان رئاسة اميليانوس انتهت في السنة ١٠٧٩ وان نيقيفوروس جاء بين اميليانوس وبين يوحنا السابع وان هذا رقي العرش البطريركي في حوالي السنة ١٠٨٨ (٢) . وقضى التقليد الكنسي بالقول بتساوي البطاركة الخمسة في السلطة وبعدم تدخل أحدهم في شؤون غيره المحلية (٣) . وأعلن بطرس الثالث هذا الموقف قبل حوادث السنة ١٠٥٤ . وبعدها . وكان ثيودوسيوس الثاني خيرزوفرجيس صديق ميخائيل الاول كيرولاريوس فلا عجب اذا امتنع هو وخلفاؤه في هذه الفترة عن توجيه رسائل الجلوس الى رومة وعن ذكر اخبارها في الذبيخة الانطاكية . ولكنهم لم يذهبوا الى ابعد من هذا ولم يتخذوا فيما يظهر اي قرار

1) Constantius, op. cit., 172 - 173.

2) Grumel, V., *Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient*, 1934 ; Grumel, V., *Patriarches Grecs d'Antioche, du Nom de Jean, Echos d'Orient*, 1933.

3) Jugie, M., op. cit., 219 - 229.

مجمعي بشأن مشكلة هومبرتو وحرمة . وهو ما يجمع عليه كبار الثقات في تاريخ الروم (١) . وجاء في سيرة القديس جاورجيوس الاثوني ان ثيودوسيوس الثاني بطريرك الانطاكي هدد ملك الكرج في نزاع نشب بينها حول حقوق الكرسي الانطاكي بأخبار البطارقة « الاربعة » بسوء فعله (٢) .

في اوروشليم : واتخذ بطارقة الكرسي الاوروشليمي الموقف نفسه الذي وقفه بطارقة الكرسي الانطاكي . وتأثروا بالعوامل نفسها التي دفعت زملاءهم فقالوا بتساوي البطارقة الخمسة في السلطة . ووقفوا الى جانب بطريرك القسطنطينية فامتنعوا عن ارسال رسائل الجلوس الى رومة وعن ذكر أحبارها في الذبيحية . وكتب سمعان الثاني بطريرك اوروشليم رسالة في هذه الفترة عينها في موضوع الخلاف بين رومة والكنايس الشرقية أبان فيها بوضوح عدم موافقته على زيارة الفيليكوي واعتراضه على استعمال الفطير (٣) . وقد أوضح العلامة الالماني ميشال أمر هذه الرسالة فأزاح عنها حجاب الريب الذي اسدله زميله لايب وأكد ان هذه الرسالة هي من قلم البطريرك سمعان وتعود الى القرن الحادي عشر (٤) .

وقد سبقت الإشارة الى الاضطهاد الذي أنزله الحاكم بأمره الفاطمي بالمسيحيين ومعاييدهم في الربع الاول من القرن الحادي عشر . ولم يكن من يجدد كنيسة اوروشليم ويقلها من عثرتها سوى ملوك الروم قسطنطين التاسع هو نفسه جدد كنيسة القيامة بعد تدميرها .

ونرى بطارقة اوروشليم يكتفون بما اكتفى به زملاؤهم في انطاكية . ففي السنة ١٠٦٤ توجه عدد من اساقفة الغرب يتقدمهم سيفغريد رئيس اساقفة ماينز وعدد من الاشراف وغيرهم الى زيارة الاماكن المقدسة . ومروا

- 1) Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 338 - 339 ; Bréhier, L., Schisme Oriental, 232 - 241 ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 297 ; Amann, E., Rome et const., Fliche et Martin, VII, 150.
- 2) Grumel, V., Patriarches d'Amtioche, Echos d'Orient, 1934, 142 - 144.
- 3) Leib, B., Deux Inédits Byzantins, Orientalia Christiana, IX, 85 - 107.
- 4) Michel, A., Amalfi und Jerusalem im Griechischen Kirchenstrieit (Orientalia Christiana No. 121), 34-47 ; Runciman, S., Eastern Schism, 75, n. 3.

بالقسطنطينية فأكرمهم قسطنطين العاشر وزاروا كنيسة الحكمة الالهية . ولدى وصولهم الى المدينة المقدسة خرج صفرونيوس البطريرك الاوروشليمي بنفسه لملاقاتهم ومعه الاكليروس والشعب بالمباخر والشموع وأدخلهم باحتفاء عظيم كنيسة القبر المقدس (١) . وهو امر ذو بال في موقف رجال الدين في الغرب والشرق معاً من حرم هومبرتو وسيميومة المجمع القسطنطيني .

في الاسكندرية : ونكاد لا نعلم شيئاً عن كنيسة الاسكندرية في هذه الفترة . ولا نعلم اسم البطريرك الذي جلس على كرسي مرقس سنة ١٠٥٤ . ولا يجوز التكهن عند سكوت المصادر الاولى . وان لا ادري لمن العلم !

يوحنا متروبوليت كييف : ودخلت كنيسة رومة في نزاع داخلي حول الخلافة فادعى اقليمس الثالث حق تولي السدة ثلاثين عاماً (١٠٧٠ - ١١٠٠) فخاصم كلا من غريغوريوس السابع وفيكنتوريوس الثاني واوربانوس الثاني . وحوالي السنة ١٠٨٠ وفي عهد غريغوريوس السابع كتب اقليمس الثالث رسالة الى يوحنا الثاني متروبوليت كييف راجياً تدخله في القسطنطينية للاعتراف به بطريركاً وبابا على رومة . وكانت كنيسة روسية لا تزال خاضعة لرئاسة البطريرك المسكوني وكان يوحنا الثاني رئيسها متروبوليت كييف يونانياً يمت بصلة الى الشاعر البيزنطي ثيودوروس بروذوموس . فكتب يوحنا الثاني الى اقليمس الثالث يأسف لانحراف رومة عن قرارات المجامع المسكونية السبعة في امر الفطير والصوم والمعمودية والفيليكوي ونصح الى اقليمس ان يرسل من يمثله الى القسطنطينية ليعلم انسجامه مع التقليد القويم (٢) . وبعد ذلك بقليل كتب الى يوحنا احد ابنائه الروحانيين راجياً تبيان موقف المؤمن الروسي من الوثنيين واليهود واللاتين . فأجابه المتروبوليت يوحنا بأنه لا يجوز تناول مع من يقدس على الفطير او مع اولئك الذين لا يطبقون قرارات المجامع المسكونية في الصوم . ولكنه اجاز الاشتراك مع هؤلاء في الاعياد اذا ادى عدم الاشتراك الى

1) Annales Altahenses Majores (M. B. SS, XX) ; Lambert de Hersfeld, M. G. SS., V, 168 - 169.

2) Pavlov, A., Essai Critique Sur l'Ancienne Polémique Gréco - Russe Contre les Latins, 168 - 186 ; Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 32 - 37.

العداوة والحق. لم يشجع الزواج مع اللاتين (١).

ثيوفيللاكتوس متروبوليت اخريدة : وفي السنة ١٠٩٠ كتب الشماس نيقولاووس القسطنطيني الى ثيوفيللاكتوس متروبوليت اخريدة يسأل رأييه في اخطاء اللاتين . وكان ثيوفيللاكتوس اعلم علماء زمانه درس على بسلوس في جامعة القسطنطينية وعني في تهذيب ميخائيل السابع ابن قسطنطين . ثم اضطر ان يقبل التسقف على كنيسة اخريدة تنفيذاً لرغبة صديقه البطريرك المسكوني نيقيفوروس الثالث وقياماً بواجب ارثوذكسي كبير نظراً للمشادة حول تبعية كنيسة بلغارية . وساءه تطرف الشماس نيقولاووس فكتب اليه يوجب الاعتدال والمحبة . وأكد ان الاختلاف في الصوم وفي الزواج وفي المعمودية لا يشكل خطأ مهماً . وقال انه من المضحك ان نقاطع اللاتين لان اكليروسهم يحلق اللحى ويلبس الخواتم ويرتدي الاثواب الحريرية الملونة . ولم ير في عدم زواج الكهنة خطيئة مميتة كما انه لم يجد في الاسفار المقدسة وقرارات المجامع السبعة ما يمنع التقديس على الفطير . وآله جداً ان يستمر الروم في التفتيش عن اخطاء غيرهم والا يعترفوا بامكانية وقوعهم في مثل هذه الاخطاء .

ولكن ثيوفيللاكتوس خشي ان يؤدي ادعاء رومة بالسلطة على جميع الكنائس واستمساكها بهذا الادعاء وخروجها عن قرارات المجامع المسكونية باضافة الفيليوكوي الى الدستور المقدس نقول خشي ثيوفيللاكتوس ان يؤدي هذا كله الى انشقاق أليم . وعزى هذا العلامة قول اللاتين بالانثاق من الآب والابن الى فقر في الاصطلاحات اللاهوتية اللاتينية وأبان ان اللفظ اللاتيني للتعبير عن الانثاق يشمل اربعة معان يعبر عنها اليونان بأربعة الفاظ مختلفة . فاذا شاء اللاتين ان يحتفظوا بالفيليوكوي لاغراض تفسيرية داخلية فلا مانع شرط ان يذكروا دائماً ان هذا اللفظ لم يرد في الدستور المقدس الذي يقول به جمهور المؤمنين (٢).

1) *Canonic Answers to the Monk James, Goetz, Kirchenrechtliche und Kulturgeschichte Denkmaler Altrusslands, 98 ff. ; Golubunsky, E. E., Hist. of Russian Church, I, 820 - 828 ; Jugie, M., op. cit., 236 - 238.*

2) *De Iis in quibus Latini Accusantur, P. G., Vol. 126, Col. 221 ff.*

ورأى ثيوفيللاكتوس لمناسبة اخرى ان ادعاء رومة بصحة قول ما مجرد صدور هذا القول عن اسقفها في ظرف رسمي ادعاء مردود « ولو تكلم البابا بصوت بطرس وهز مفاتيح السماء في وجوهنا » . و اضاف انه من الهزء ببطرس ان نستند الى السلطة المستمدة منه لنعلن عقيدة لم تقرها مجامع الكنيسة (١) .

ويتضح مما تقدم ان ثيوفيللاكتوس لم ير الكنيسة الجامعة منشقة في السنة ١٠٩٠ ولكنه خشي ادعاء رومة بالسلطة وقولها بالفيليوكوي ورجا الا تتدخل الكنائس في شؤون بعضها الداخلية .

نهاية ميخائيل الاول : وتوفي قسطنطين التاسع بعد صدور السيميوومة بخمسة أشهر أي في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٠٥٥ فنودي بالعقب الوحيد الباقي من الاسرة المقدونية بشيودورة ابنة قسطنطين الثامن الصغرى . وكانت قد مضت معظم حياتها في الدير فنشأت تقية فظة بقدر ما كانت اختها زوية متيمة بالحب . ورأى البطريرك ميخائيل ان تزوج فتشرك معها في الحكم من كان اهلاً لذلك ولا سيما وانها كانت قد ناهزت السبعين . ورأى الخصيان حولها غير ذلك فحكمت ثيودورة وحدها . وفي صيف السنة ١٠٥٧ أشرفت الفسيلسة على الموت فاتخذت ميخائيل استراتيوتيكيوس خليفة لها وتبنته قبل وفاتها . ودام حكم ميخائيل السادس سنة وعشرة ايام . واشتد في اثنا النزاع بين العسكريين والخصيان . وتفجر الخصام يوم عيد الفصح في الثلاثين من اذار سنة ١٠٥٨ . وكانت مؤامرة وتدخل البطريرك ميخائيل فأرسل وفداً من المطارنة يشيرون على ميخائيل السادس بالتنازل . فسأل الفسيلفس المطارنة ماذا تعطوني بدل المملكة فقالوا ملكوت السماوات . فرمى شعار الملك والتجأ الى الدير وتوفي بعد ذلك بقليل . فوصل الى عرش رومة الجديدة زعيم العسكريين اسحق كومنينوس .

وكافأ اسحق البطريرك فنحبه حق انتقاء ايكونوموس كنيسة الحكمة الالهية وسكيفوفيلاكسها . وكان ميخائيل الاول قد طلب ذلك من ثيودورة وميخائيل فلم يفلح . وظن البطريرك انه سيتمكن من ارشاد الفسيلفس الجديد

1) *Ibid. Col. 241 ; Runciman, s., Eastern Schism, 71 - 74.*

وتوجيهه . ولكن اسحق استنقل هذا الارشاد فنشأ شيء من الكره بين الاثنين ما لبث ان تحول الى عداء . فهدد البطريرك القسيفلس واحتذى الحذاء الارجواني مدعيًا ان الاحتذاء بالارجواني حق من حقوق السدة البطريركية . وكان الاقدام على الاحتذاء بالارجواني في عرف الروم آنشد اول دليل على الطمع في السلطة العليا . وفي الثامن من تشرين الثاني سنة ١٠٥٨ حين كان البطريرك متوجهاً ليقدم القداس في دير الملائكة ألقى القسيفلس القبض عليه ونفاه مع اولاد اخيه الى جزيرة ايمروس . فهاج الشعب فاستحضر القسيفلس البطريرك وجمع مجمعاً وطلب محاكمته لانه عطف على راهبين كانا يتعاطيان الشعوذة ولأنه كان يقرأ اشعار الشعراء وقت الخدمة ولأنه ايضاً ثار على القسيفلس السابق . والتزم البطريرك الصمت وقام في النهاية وسامح القسيفلس والقضاة ودعا للشعب ولاعدائه وسقط ميتاً وهو يقول : السلام لجميعكم مشيراً بيده اليمنى اشارة البركة . فأمر القسيفلس بدفنه بحفاوة فائقة واشترك بنفسه في تشييع الجثمان . وورقي الكرسي المسكوني بعده قسطنطين الثالث ليخوذي (١٠٥٩ - ١٠٦٣) .

رومة تدعو الى الوثام : (١٠٥٧ - ١٠٦١) وأدى اقصاء ميخائيل

الاول عن العمل في حقل السياسة الى تقريب ارجيوس والاصغاء اليه ففتحت كنائس اللاتين في القسطنطينية بعد اغلاقها وأرسل وفد الى المانية ليفاوض هنريكوس الثالث في امر التعاون في ايطالية الجنوبية ووضع حد لمطامع النورمانيين فيها (١) . وكتب البابا فيكتوروس الثاني (١٠٥٥ - ١٠٥٧) الى القسيسة ثيودورة بألطف العبارات وارقها راجياً تخفيض الضرائب عن الحجاج الغربيين الساعين الى اورشليم بالتوبة وانسحاق النفس (٢) . وما كاد البابا اسطفانوس التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يعلم بخلع ميخائيل الاول حتى بادى بالتعاون مع الروم في السياسة ويوفد الى القسطنطينية ديسيديريوس ليعالج الوضع الكنسي . وقام هذا الوفد من رومة قاصداً القسطنطينية . ولدى وصوله الى باري علم بوفاة البابا

1) Gay, J., *Italie Méridionale* 508 - 509; Chalandon, F., *Domination Normande*, I, 160.

2) P. L., Vol. 149, Col. 961 - 962; Runciman, S., *Eastern Schism*, 56, n. 2.

(كانون الثاني سنة ١٠٥٨) فعاد الى رومة (١) .

ونجح البابا نيقولاووس الثاني (١٠٥٩ - ١٠٦١) نهجاً معادياً . فصالح النورمانيين في امالقيس سنة ١٠٥٩ واعترف بسلطة زعيمهم غيسكار على ابولية وكلايرية والامارات اللومباردية شرط ان يعترف هذا بدوره بسيادة الحبر الروماني على هذه المقاطعات جميعها (٢) . فأثار عمله هذا حقن الروم وأضرهم غيظهم . فتعاون قسطنطين العاشر القسيفلس مع الامبراطورة الوصية الغربية فدفعوا كاذلوس اسقف بارمة للمطالبة بالسدة الرومانية . وخشي البابا الجديد الكسندروس الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) هذا التعاون بين البلاطين الشرقي والغربي فانتهز فرصة وصول القسيفلس ميخائيل السابع الى العرش (١٠٧١ - ١٠٧٨) فأرسل وفداً الى القسطنطينية في السنة ١٠٧٢ برئاسة بطرس اسقف اناغني للتهنئة والتبريك وللمعالجة التواعد بين الكنيستين (٣) . وكان الرأي الغربي في سلطة اسقف رومة قد بدأ يفعم الجو في رومة فلم ير البطريرك المسكوني يوحنا الثامن (اكسيفيلينوس) مجالاً للتفاهم على هذا الاساس : ورأى ميخائيل بسلوس كبير البلاط رأي البطريرك فسا طل الاثنان وسوفاً وأجلا البحث في موضوع الاتحاد الى امد غير معين (٤) .

البابا غريغوريوس السابع : (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وتوفي طغرل بك زعيم الاتراك السلاجقة في السنة ١٠٦٢ . فخلفه السلطان ألب ارسلان واستولى على آني الارمنية في السنة ١٠٦٤ وذبح ونقى . ثم قام الى الرها فصدّه عنها دوق انطاكية في السنة ١٠٦٥ . وفي ربيع السنة ١٠٦٧ هاجم ألب ارسلان الروم من الشرق والجنوب في آن واحد فدخل جيشه البونط وقيليقية ووصلت طلائعه الى قيصرية قبدوقية فخربتها . واستولى رومانوس الرابع على عرش الروم (١٠٦٨ - ١٠٧١) وقاد الى الميدان كل رجل استطاع ان يجنده في اوروبة وآسية . وانتصر على

1) Leo of Ostia, *Chron. Monast. Casinensis*, M. G. H. S., VIII, 702 - 703.

2) Gay, J., op. cit., 516 - 519; Chalandon, F., op. cit., I, 170 - 172.

3) Bruno of Segni, *Vita S. Petri Ananiensis*, *Acta Sanctorum Bollandiana*, Aug. 3, 230.

4) Salaville, « Jean Xiphilin » *Dict. Theol. Cath.*, XV, Col. 3618 - 3620.

السلامة في سورية الشمالية عند منبج (١٠٦٩) وحرر غلاطية . ثم عاد السلاجقة الى الهجوم فقام رومانوس الى الجبهة . ولدى وصوله الى متزيكرت (ملاذكرد) على الفرات الاعلى وجد نفسه وجهاً لوجه امام جيوش من السلاجقة . فكانت موقعة ملاذكرد الشهيرة في آب السنة ١٠٧١ وجرح رومانوس وسقط عن حصانه ووقع اسيراً .

وتولى ميخائيل السابع عرش القسطنطينية (١٠٧١ - ١٠٧٨) وترامى اليه ان النورمنديين يعدون العدة للتوسع في البلقان فكتب الى غريغوريوس السابع بابا رومة يطلب المعونة في ردع هؤلاء واعدأ بالسعي لاعادة العلاقات بين الكنيستين الى ما كانت عليه قبل الانشقاق . وارسل وفداً الى رومة للمفاوضة على هذا الاساس . فوافق البابا واقنع غيسكار زعيم النورمنديين بوجوب التعاون مع الروم وذهب الى ابعد من هذا فأزواج هيلانة بنت غيسكار من قسطنطين ابن ميخائيل وولي عهده . وأعلن انه مستعد للقيام بنفسه الى القسطنطينية على رأس خمسين ألفاً لصد الاتراك السلاجقة وجمع مجمع يحل جميع المشاكل الدينية . فخشي الروم حل هذه القضايا في جو عسكري وماطلوا وسوقوا طوال السنة ١٠٧٤ ونشبت مشاكل في ايطالية شغلت غريغوريوس أهمها مطامع غيسكار النورمندي نفسه (١) .

وفي السنة ١٠٧٦ شهر غريغوريوس رأيه في الباباوية والكنيسة بقرار رسمي عرف بالديكتاتوس *Dictatus Papae* . واستقل بهذا الرأي وانفرد به دون اخوانه البطارقة الاربعة ودون عرضه على مجمع مسكوني فباعده بسين الكنائس وانحرف عنها فزاد الشقاق اتساعاً . وتألف الديكتاتوس من سبعة وعشرين بنداً .

(١) ان الكنيسة الرومانية وحدها مقامة من الله .

(٢) ان الحبر الروماني وحده يستحق لقب المسكوني .

(٣) وهو وحده يستطيع عزل الاساقفة وحلهم .

1) Anna Comuena, *Alexiad.* I, 10, 12 ; *Reg. Greg.*, II, 31, 37 ; *Fliche, A., Grégoire VII, Fliche et Martin, VIII, 74 - 75 ; Runciman, S., op. cit., 58 - 59.*

(٤) يتقدم نائبه سائر الاساقفة في المجمع ولو كان دونهم رتبة . وهو وحده يصدر احكام العزل .

(٥) يستطيع البابا عزل الغائبين

(٦) ولا تجوز السكنى تحت سقف واحد مع من يحرمه البابا

(٧) وهو وحده يسن شرائع جديدة مراعيًا في ذلك الظروف . وهو وحده يضم الرعايا الجدد ويحول جماعة من الرهبان الى رهبنة ويقسم الابريشيات الغنية ويضم الابريشيات الفقيرة .

(٨) وهو وحده يلبس شاربات الملك

(٩) وهو الرجل الوحيد الذي يقبل الامراء رجلاً

(١٠) وهو الوحيد الذي يجب ذكر اسمه في جميع الكنائس

(١١) واسمه فريد في العالم

(١٢) وهو وحده يعزل الاباطرة

(١٣) ويجوز له عند الضرورة ان ينقل اسقفًا من كرسي الى آخر

(١٤) ويجوز له عندما يشاء ان يشرطن أي اكليريكي من أية كنيسة

(١٥) ومن يشرطه البابا يحق له ان يدير شؤون كنيسة اخرى ولكن لا يجوز له ان يسام من اسقف آخر الى رتبة أعلى .

(١٦) ولا يصبح مجعاً من المجامع عاماً بدون أمره

(١٧) ليس هناك أي نص قانوني خارج سلطته

(١٨) حكمه لا يرفض . وهو وحده يقدر ان يرفض احكام الجميع .

(١٩) لا يجوز لاحد ان يحاكمه

(٢٠) لا يجوز لاحد ان ينكر حكم الكرسي الرسولي

(٢١) يجب رفع كل الاختلافات الهامة في كل كنيسة اليه

(٢٢) ان الكنيسة الرومانية لم تغلط ابداً . وهي بموجب شهادة الاسفار المقدسة لن تغلط البتة .

(٢٣) ان الحبر الروماني متى كانت شروطه قانونية يصبح قديساً باستحقاقات القديس بطرس كما قال القديس اينودوريوس اسقف بانيسه وآباء آخرون وكما جاء في قرارات البابا سياخوس السعيد ذكره .

(٢٤) يستطيع الرعايا ان يشكوا ساداتهم باذنه وأمره

(٢٥) يستطيع قطع الاساقفة والصفح عنهم بدون دعوة مجمع

(٢٦) من لا يوافق الكنيسة الرومانية لا يكون ابن الكنيسة الجامعة

(٢٧) يستطيع البابا أن يحرر ريعاً الاشرار من بين الولاء لهم (١) .

وبينا كان السلاجقة يزدادون قوة وتقدماً في أراضي الروم كان كل قائد من قادة الروم العسكريين ينادي بنفسه فسيلفساً . وكان أهم هؤلاء القادة الطامعين نيقيفوروس بوتانياتس . وقبل هذا في صفوفه عدداً كبيراً من الأتراك السلاجقة . وكان ميخائيل السابع خوّاراً متردداً بعيداً عن الجيش لا يرغب في الحرب والقتال فتدخل الشعب في العاصمة لوضع حد لهذه الفوضى . واهتم رجال الدين للامر نفسه فنادى اميليانوس بطريرك انطاكية الذي كان آنثذ في العاصمة بنيقيفوروس فسيلفساً (٢) . ونزل ميخائيل السابع عن العرش ولبس ثوب الرهبنة وتوفي . وأكره نيقيفوروس الكنة النورمندية هيلانة على الإقامة في دير (١٠٧٨) . فغضب لميخائيل السابع وهيلانة كل من غيسكار النورمندي والبابا غريغوريوس السابع . وجعل غيسكار من احد اليونانيين الموجودين في رومة آنثذ ميخائيل سابعاً . ووافق غريغوريوس السابع على هذا الدجل والاحتيال وسوّغ لغيسكار الدفاع عن حقوق الفسيلفس الدجال وحرم نيقيفوروس الثالث . وشغلت الروم مشاغل داخلية هامة فلم يعبأوا بهذا الحرم . ثم استقرت امورهم وتولى الاريكة اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١) فتسرع البابا وعاد فرشق اليكسيوس نفسه بحرم ثقييل وشاطر النورمنديين المسؤولية في هجوم على البلقان بسداً في السنة ١٠٨١ (٣) . فغضب اليكسيوس لكرامته وكرامة الكنيسة وكان تقياً غيوراً فأمر باقفال كنائس اللاتين مستنئياً كنائس حلفائه البنادقة وتعاون مع امبراطور الغرب هنريكوس الرابع عدو غريغوريوس ولكنه لم يؤيد مرشح هنريكوس للكرسي الباباوي اقليمس الثالث . واستمرت المشادة بين القسطنطينية ورومة حتى وفاة غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٥ . وتولى السدة الرومانية فيكتوروريوس الثالث (١٠٨٦ - ١٠٨٧) فلم يخفص

- 1) Peitz, W., Das Original register Gregors VII, 265 ff. ; Blaul, O., Studien zum Register Gregors VII, 5. Sonderuntersuchung, Der Dictatus Papae, II, 55 a, 29 ff ; Hofmann, K., Der Dictatus Papae, Paderborn, 1933.
- 2) Bréhier, L., Byzance, 275 - 287.
- 3) Chalandon, F., Règne d'Alexis Comnène, 62 - 65 ; Runciman, S., op. cit., 60, n. 1.

من غلواء غريغوريوس ولم ينته عما كان فيه .

اوربانوس واليكسيوس : وفي السنة ١٠٨٨ رقي كرسي رومة الرسولي اوربانوس الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) . وكان شديد الرأي حسن التدبير تقياً محباً غيوراً فلولى العنان وردّ الجحاح وواصل وأحسن الصلوة . وكان اليكسيوس مهذباً متقفاً متضلعاً من الفلسفة واللاهوت شديد التمسك « بالعبادة الحسنة الارثوذكسية » ولكنه كان دمث الاخلاق سلساً يؤثر السياسة على العنف . وكان قد نجح في صد النورمنديين عن مطامعهم في البلقان وأزل في الثوار الماناويين والبقتشاغ الهزيمة تلو الهزيمة . وكان البطريرك المسكوني نيقولاوس الثالث النحوي (١٠٨٤ - ١١١١) عالماً كبيراً وراغباً باراً ودعياً تقياً . فأوفد اوربانوس لدى وصوله الى السدة الرومانية الكردينال الشماس روجه والاب نيقولاوس الى القسطنطينية حاملين رسالة الى الفسيلفس ملؤها المحبة والرجاء بأن يصار الى فتح ما اغلق من كنائس اللاتين والسباح لهؤلاء بالتقديس على القطير . فرضي الفسيلفس وأصدر خريسوبولوناً دعا فيه اوربانوس الى القسطنطينية للاشتراك في مجمع يبحث قضية القطير ويحلها . ووافق البابا وأجاب بالقبول وبدأ يعد العدة للقيام الى القسطنطينية لحل المشا كل الراهنة .

واشتدت معارضة اقليمس الثالث وتفاقم شرها فاضطر اوربانوس ان يبقى في ايطالية ليرقب تطور الحوادث عن كثب . ولكنه أرسل وفداً ثانياً الى القسطنطينية في السنة ١٠٨٩ ليمثله في المجمع المقترح . ولدى وصول هذا الوفد أعلن رئيسه رفع الحرم عن اليكسيوس فقابل الفسيلفس هذه البادرة الطيبة بالطلب الى البطريرك نيقولاوس الثالث ومجمعه الدائم ان يذكروا اسم اوربانوس في ذبيخة كنيسة الحكمة الالهية . فأمسك البطريرك مشيراً الى بعض الاختلافات القانونية القائمة بين الكنيستين . ولكن اليكسيوس أوجب الرضوخ ولاسيما بعد ان تبين له ان محفوظات البطريركية كانت خالية من أي قرار رسمي يفصل الكنيستين الشقيقتين . فوافق البطريرك ومجمعه على اقتراح الفسيلفس وطلبوا الى اوربانوس ان يحضر بنفسه جلسات المجمع المنتظر او ان يرسل من يتوب عنه لهذه الغاية وان يبين اعترافه بالايمان حسب العادة .

وكتب نيقولاووس الثالث الى اوربانوس الثاني كتاباً نفى فيه ان يكون قد منع اللاتين في القسطنطينية عن ممارسة طقوسهم بحرية وأكد ان هذا الخبر مجرد افتراء . ثم أشار بلطف ولباقة الى تأخر اوربانوس عن اعلامه بانتخابه وعن ارسال الاعتراف بالايمان . وخالف فوطيوس في انه دعا اوربانوس اخاً لا اباً كما فعل فوطيوس . وأكد المساواة بين البطارقة وأوجب العمل بمقررات مجمع ترولي المسكوني (١) .

وكان اوربانوس سهل الاخلاق سلس الطباع ظريفاً كيساً لبقاً فتعاضى عن بعض ما جاء في كتاب نيقولاووس ولا سيما اعتباره أخاً لا اباً . ولم يرسل اعترافاً بالايمان كي لا يثير قضية الفيلوكوي . ولم يذكر اسمه في ذبيحة الحكمة الالهية . ولكن المياه عادت الى مجاريها الى ما كانت عليه قبل السنة ١٠٥٤ وحل الوفاق والوثام محل التراشق والتخاصم (٢) .

الفصل الحادي والأربعون

الحروب الصليبية

١٠٩٨ - ١٢٠٤

اخطو التركي : وانطلق الاتراك السلاجقة من فدادق اسية الوسطى . ثم قدر لرعيهم طغرل بك (الامير الصقر) ان يفرض نفسه في السنة ١٠٥٥ على الخليفة العباسي القائم بأمر الله وان يبطن الخلافة العباسية بالسلطة السلجوقية ثم ان يستبدل الامبراطورية العربية بامبراطورية تركية ثم ان يأخذ على عاتقه الصمود في وجه الروم والحرب ضدهم . وكان العرب قد كفوا عن هذه الحرب منذ زمن بعيد . ولقيت طبيعة الاتراك الحاربة مجالا فسيحاً للفتح . فسقطت أرمينية في يد الاتراك في السنة ١٠٦٤ واكتسح ألب أرسلان (الاسد المظفر) الموقف في موقعة ملاذكرد في السنة ١٠٧١ واسر الفسيلفس رومانوس وشتت جيشه . وكان هذا الاندحار من أسوأ الكوارث لان البلقان كانت قد أصبحت صقلية واليونان كانت قد دخلت من السكان وافتقرت ولأن آسية الصغرى وحدها كانت معقل الروح الهلينية فنما كان الفسيلفس يجمع جيوشه وفيها كان يجد أكبر قواده وأنشط ضباطه . واحتل الاتراك ما بين السنة ١٠٧٨ والسنة ١٠٨١ مدناً داخلية كأيقونية وثغوراً متطرفة كازمير وسيجوا خيولهم في مرمرار وارتقبوا القرص للعبور الى تراقية واوروبا . وأسوأ ما كان في الامر ان هذا الفتح الجديد لم يقتصر على السياسة والسلطة بل تعداهما الى استملاك الأرض فحل القروي التركي محل القروي اليوناني فأضاعت الهلينية قواعدها ومكانتها (١) .

وتوفي ألب أرسلان بطعنة خنجر في السنة ١٠٧٢ وخلفه ابنه ملكشاه واستمر ازدهار الدولة الفتيية بفضل الخوجه حسن نظام الملك . ثم خرب نظام

1) Holtzmann, W., Unionsverhandlungen Zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089, Byz. Zeit., 1928, 38 - 67 ; Grumel, V., Jerusalem entre Rome et Byzance, Echos d'Orient, 1939, 104 - 117.
2) Runciman, S., op. cit., 62 ; Jugie, M., op. cit. 241 - 243.

الملك صريعاً في السنة ١٠٩١ على يد الحشاشين ولحق به ملكشاه فاضمحت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت اواصرها ولكن سيل السلاجقة ظل يتدفق على آسية الصغرى وظل خطرهم يحدق بدولة الروم ويهددها بالانهيار (١).

يجمع بياتشنزا (١٠٩٥) وكان اقليمس الثالث لا يزال يطالب بالسدة الرومانية وكان الامبراطور هنريكوس الرابع لا يزال يدعمه فرأى البابا اوربانوس الثاني ان يجمع مجمعاً للنظر في هذا الشقاق فدعا الاساقفة الى الاجتماع في بياتشنزا Piacenza في اذار السنة ١٠٩٥ لمعالجة الانشقاق *contra schismaticos* وكان اوربانوس لا يزال يولي الكنيسة الجامعة اهتمامه فبرعاها بعناية. وكانت اتصالاته بالقسطنطينية قد لطفت الجو وقربت القلوب. وكان اليكسيوس القسيلفس يوالي اتصالاته بهذا الخبر الصالح وينقل اليه مخاوفه من تفاقم الشر في آسية الصغرى وتزايد عدد الاثراك فيها وانتشارهم في سهولها ووديانها.

وبعد وفاة ملكشاه تنازع اولاده محمود وبركياروق ومحمد وسنجر السلطة فعمت الفوضى العراق وسورية وفلسطين. وانطلق رعاك التركمان وامثالهم يقتلون وينهبون. وكانوا يدخلون الكنائس في اثناء الصلوات ويضجون. وقد يجلسون على الموائد المقدسة ويهينون الكهنة ويرتكبون كل ما اقتضاه طبعهم! وقد يحربون بعض الكنائس وقد يحولون بعضها الى مساجد (٢). وشاهد الحجاج الغربيون هذه الأعمال وخبروها بأنفسهم واضطروا في بعض الأحيان ان يقاتلوا للوصول الى القبر المقدس (٣). وكان ملكشاه قد أمر أخاه تنش ان يطرد الفاطميين من اوروشليم وسائر فلسطين ففعل. فثار أهلها على السلاجقة فكانت مذبحه قبة الصخرة (١٠٧٦). فعاد الفاطميون الى النزاع. فأصبحت اوروشليم هدفاً لنزاع مستمر بين الاثراك السلاجقة وبين الفاطميين. واقطع تنش اوروشليم ليمينه أرتق ابن اكساب. فلما توفي أرتق (١٠٩١) تنازع السلطة ابنه سقمان

- 1) Zettersteen, K. V., « Suleiman ben Qutulmush » *Enc. of Islam*.
- 2) Michel le Syrien, *Chron.*, III, 182; William of Tyre, *Hist. Rer.* I, 8; Grousset, R., *Hist. des Croisades*, I, 2; Cahen, C., *Syrie du Nord* 199.
- 3) Alphandery, P. *La Chrétienté et l'Idée de Croisade*, 27; Joranson, E., *The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065*; Vita Lietberti, Achery, *Spicilegium*, IX, 706 - 712.

وغازي فحل ضيق شديد بالنصارى. فاضطر البطريرك سمعان الاوروشليمي ان يفر الى قبرص مع كبار رجال الاكليروس (١). وعاد الحجاج الى بلدانهم وشكوا. وأصغى رهبان كلوني الى هذه الشكاوي فرفعوها بدورهم الى المقامات العالية الى رومة نفسها.

ووافق اجتماع الاساقفة في بياتشنزا وصول لجنة عسكرية بيزنطية الى ايطالية لتشويق المسيحيين وحضهم على الدخول في خدمة القسيلفس للذود عن الكنيسة والصمود في وجه الاثراك السلاجقة. وعلم اوربانوس بقدومهم فدعاهم الى بياتشنزا ليخطبوا في الآباء المجتمعين ويبينوا لهم الخطر الذي يهدد الكنيسة في الشرق. ووصلت اللجنة الى بياتشنزا وارتقى اعضاؤها منبر الجميع فنقلوا الى الاساقفة ما كان يعانيه النصارى من ضيق واضطهاد وما كان يحدق بالنصرانية من خطر. فأعارهم الاساقفة آذاناً صاغية ووعوا كلامهم فخشعت أبصارهم وخفقت قلوبهم خشية ورقة (٢).

وكان القديس اوغوستينوس قد أجاز الجهاد في سبيل الله (٣) فتبعه البابا لاوون الرابع (٨٤٧-٨٥٥) فأكد الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة (٤) وجاء يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) فاعتبر المجاهدين شهداء (٥). وأباح البابا نيقولاووس الاول (٨٥٨-٨٦٧) حمل السلاح في وجه الكفرة لكل من اخطأ ووقع تحت الحرم (٦). ولم يعأ الآباء الغربيون باجتهاد باسيليوس الكبير وامتناعه عن مناولة المخاريب ثلاث سنوات متتالية (٧) فحضوا المؤمنين على حمل السلاح في وجه المسلمين. ومنح البابا الكسندروس الثاني الغفران (١٠٦١-١٠٧٣) لجميع المجاهدين في اسبانية (٨). وشجع غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٠ حملة غوي

- 1) Grousset, R., *Hist. des Crois.* I, *Introd.*, 47; Runciman, S., *Hist. of Crousades*, I, 78.
- 2) Bernold of Constance, a. 1095, 161; Hefelé - Leclercq, *Hist. des Conciles*, V, 394 - 395; Munro, D. C., *Did Alexius Ask for Aid at Piacenza*; *Amer. Hist. Rev.*, XXVII, 731 - 733.
- 3) *De Civitate Dei*, P. L., Vol. 41, Col. 35.
- 4) Mansi, *Concilia*, Vol. XIV, p. 888.
- 5) *Epist.*, P. L., Vol. 126, Col. 696, 717, 816.
- 6) *Epist.*, *Mon. Germ. Hist.*, VI, 658.
- 7) *Epist.*, P. G., Vol. 32, Col. 681.
- 8) Fliche, A., *Europe Occidentale*, 551 - 552.

دامية فهتف الناس *Deus le volt* ومعناه هذا ما يريد الله . وأعلن اوربانوس حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين وأملاكهم وأوجب حمل شارة الصليب بقماش احر على كتف المجاهد او صدره . وجعل القسطنطينية ملتقى المجاهدين وحدد موعد الانطلاق من الغرب فجعله يوم عيد انتقال العذراء الخامس عشر من آب سنة ١٠٩٦ (١) .

وكان الاسقف اديمار *Adhemar* راعي أبرشية لوبوي *Lepuy* أول الصليبيين . فانه ما كاد اوربانوس ينتهي من ندائه في كليرمون حتى تقدم الاسقف منه فجثى أمامه ونذر نفسه للخدمة المقدسة . وتبعه في ذلك مئات المؤمنين . ثم تلا الجميع صلاة الاعتراف (٢) .

وأراد اوربانوس العظيم ان يجعل الحملة كنسية فعين اديمار قائداً أعلى وزعيماً أوحده وخوله البت في جميع الاختلافات التي قد تنشأ بين الصليبيين . وكان اديمار شريفاً من أشرف فرنسة يجيد الخطابة ويحسن السياسة هادئاً لطيفاً واسع الافق بعيد النظر (٣) . وكان قد حج قبل عشر سنوات فأضاف الى مؤهلاته العامة خبرة في امور الشرق ومعرفة لسكانه . وأعلن اوربانوس في كليرمون ايضاً موقفه من كنائس الشرق فأوجب اعادة جميع أوقافها اليها واحترام جميع حقوقها (٤) . ويرى بعض رجال الاختصاص ان البابا اعتبر منذ اللحظة الاولى جميع ما قد يتم من فتوحات في الأراضي المقدسة فتحاً باباوبياً (٥) .

جميع جيوش خمسة : وجاب بطرس الناسك الفرنسي البلاد وخطب في الناس وحضهم على الحرب المقدسة . وكان حاد الذكاء قوي الارادة طلق اللسان ضئيل الجسم طويل اللحية براق العينين . وكان يرتدي الصوف الخشن ويركب حماراً حقيراً كاشف الرأس حافي القدمين . فقوبل بحماس شديد والتف حوله الوف من المحاربين (٦) . وجاء موسم السنة ١٠٩٦ جيداً . فتفاهل الناس خيراً

1) Chalandon, F., op. cit., 44 - 46 ; Runciman, S., op. cit., I, 106 - 109 ; Grousset, R., op. cit., I, 2 - 5.

2) Robert the Monk, I, 15 - 16.

3) Chevalier, U., Cartulaire de Saint - Chaffre, 13 - 14, 139, 161 - 163.

4) Hefelè - Leclercq, op. cit., V, 339 ; Chalandon, F., op. cit., 44 - 46.

5) Grousset, R., op. cit., I, 4.

6) Hagenmayer, H., Peter der Eremit, 127 - 151 ; Chalandon, F., op. cit. 57 - 59.

جوفروا على اسبانية . وحذا حذوه اوربانوس الثاني فحضر حجاج القبر المقدس على استبدال الحج بالعمل المثمر لتحرير اسبانية من المسلمين واعادة بنائها (١) . وهكذا فانه عندما دعا الوفد البيزنطي الآباء الى التعاون في سبيل الدفاع عن الكنيسة الجامعة في الشرق كانت فكرة الحرب المقدسة قد ظهرت الى حيز الوجود في الغرب وكانت الكنيسة الغربية قد باركتها ونشطتها . فوقع نداء الشرق في نفس اوربانوس الكبيرة موقفاً جليلاً . وأطرق يفكر فرت مواقف اسلافه امام عينيه مرور البرق فصمم ان يقدم للمسيحية في الشرق اكثر بكثير مما طلب وفد اليكسيوس القسيفلس (٢) .

مجمع كليرمون : (١٠٩٥) كان من المقرر عقد مجمع في كليرمون *Clermont* الفرنسية للنظر في شؤون كنيسة فرنسة وغير ذلك من الامور الروحية . فقام اوربانوس الثاني الى فرنسة بلاده الام في اخر صيف السنة ١٠٩٥ . فاستقبله مواطنوه بمنتهى الحفاوة والاحلال . وزار جنوب فرنسة منظماً مصلاًحاً موجهاً ومادحاً وأصغى الى ما قاله رهبان كلوني عن شؤون الحج والحجاج . ولعله اتصل بريمون كونت تولوز ثم قام الى كليرمون فوصلها في تشرين الثاني وعقد فيها مجمعاً بين الثامن عشر والثامن والعشرين من هذا الشهر نفسه . فحرم الملك فيليب لعة الزنى وقطع اسقف كامبري لعة السيمونية واعاد النظر في حدود ابرشية ليون . ثم خصص جلسة السابع والعشرين لبيان هام وأباح الحضور للجمهور . فأقبل المؤمنون زرافات زرافات واقم للبابا منصة خارج الكاتدرائية . وكان اربانوس جليلاً وقوراً وخطيباً مفوهاً . فذكر الاتراك السلاجقة وما ارتكبه من الفظائع في الشرق . وأظهر قدسية اوروشليم وأوجب المحافظة عليها وتأمين وصول الحجاج اليها . وحض الأغنياء والفقراء على الجهاد في سبيل الله وأكد الغفران للشهداء المجاهدين (٣) . فلاق كلامه آذاناً صاغية وقلوباً

1) Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, 68 - 69.

2) Chalandon, F., Hist. de la Première Croisade, 20 - 37 ; Runciman, S., Hist. of the Crusades I, 88 - 92 ; Hagenmayer, H., Der Brief des Kaisers Alexios an dem Grafen Robert, Byz. Zeit., VI, 1 - 32.

3) Fulcher of Chartres, I, 130 - 138 ; Robert the Monk, I, 727 - 729 ; Munro, D. C., Speech of Urban II at Clermont, Amer. Hist. Rev., XI, 231 ff.

واعتبروه رضاً ربانياً . وتساقطت النيازك بكثرة فاعتبرها اسقف ليزيو *Lisieux* إشارة سماوية تنبئ بزحف الجاهل على الأراضي المقدسة (١) .

وكان كبار الملوك آتتد على خلاف مع البابا فلم يشترك أحد منهم في الحملة الصليبية الأولى . وشاء فيليب ملك فرنسا ألا يُحرم من شرف الانتباه إلى هذا العمل المقدس فأوعز إلى أخيه أمير فرمندوا *Hugues de Vermandois* أن يحمل شارة الصليب ففعل . وتألف جيش من أهل اللورين وريمانية وشمال فرنسا بقيادة غودفروا ده بويون *Godefroy de Bouillon* وأخويه أوستاش الثالث كونت بولونية *Eustace de Bologne* وبودوان (بردويل) *Baudouin* . وترعم روبير أمير الفلمنك *Robert de Flandre* وروبير دوق نورمندية واسطفانوس كونت بلوا جيشاً آخر . وقاد ريمون الرابع كونت تولوز وسان جيل *Toulouse* *et Saint - Gilles* جيشاً رابعاً والتف حول بوهيموند ابن غيسكار النورمندي فرسان نورمنديون وإيطاليون . وعاون بوهيموند ابن عمته تنكريد (٢) .

موقف الروم : وقضت الحجة الجامعة التي كانت تنقد في فواد اوربانوس بجمع الشمل في القسطنطينية والانطلاق منها لتحرير الكنائس الشرقية وتأمين الحج والمحافظة على حرمة القبر المقدس وسائر الآثار والشعائر النصرانية .

وفي تموز السنة ١٠٩٦ وصلت إلى البلقان طلائع بطرس الناسك ناهية مقتلة مخربة . ثم تكاثرت الجموع فتقدموا نحو القسطنطينية . فرحب بهم القسيفلس اليكسيوس وأكرمهم . واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان . وكانت جموع بطرس قد أقامت خارج أسوار المدينة فعاثوا في الضواحي فساداً وخرقوا حرمة الكنائس . فرأى اليكسيوس أن يجابههم بجيرانه الأتراك عبر البوسفور لعلهم يفقهون . وما أن حظت رحالهم في آسية حتى هاجموا الأتراك فبدد هؤلاء شملهم . فارعوا وكفوا عن القبيح ورضوا أن يعودوا إلى ضواحي القسطنطينية عزلاً .

1) Orderic Vitalis, III, 461 - 462.

2) Runciman, S., op. cit., I, 142 - 171.

وقذف البحر إلى شاطئه إيبروس في صيف هذه السنة نفسها أخا ملك فرنسا هوغ ده فرمندوا . فوقع في أيدي الروم ونقل إلى القسطنطينية . فأحاطه اليكسيوس بشيء كثير من الأكرام والاحترام ورأى فيه خير وسيط بينه وبين زعماء الصليبيين . وزاد في أكرامه فتعلق الأمير الافرنسي بالقسيفلس وبايعه على الطاعة والولاء .

ثم جاء في كانون الأول غودفروا ده بويون . وكان اليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه فأكرمه . ولكن غودفروا امتنع عن مبايعة القسيفلس . فتوترت العلاقات بين الاثنين . ثم قلت المؤونة لدى جموع غودفروا خارج أسوار العاصمة فلجأوا إلى العنف وأرادوا اقتحام أحد مداخل القسطنطينية . فصدّهم الروم بالقوة وتغلبوا عليهم فأخلدوا إلى السكينة . ودعا اليكسيوس الزعيم الصليبي الممتنع إلى مأدبة أقيمت في القصر على شرفه . فبايع غودفروا القسيفلس على الطاعة والولاء ومضى في نيسان السنة ١٠٩٧ بجموعه إلى آسية .

وأطل بوهيموند النورمندي الإيطالي في ربيع السنة ١٠٩٧ فأعلن فور وصوله استعداداً لمبايعة القسيفلس وأكد رغبته في التعاون مع الروم إلى أقصى الحدود . وكان بوهيموند قد حارب اليكسيوس في البانية وفي اليونان فاعتور علاقته مع الروم في بادئ الأمر شيء من الحذر والبرودة . ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ونجاحه في الظاهر بالصدق والاخلاص عاونت على إزالة هذا الحذر وذلك الفتور . وزال الشك وتفاهم الكبيران . فاغتنب بوهيموند وطلب أن يدخل في خدمة القسيفلس ويتولى قيادة جيوشه . فأجابته اليكسيوس أن كل آت قريب وأنه بانتظار ذلك سيقطعه أراضي قسيحة في منطقة انطاكية (١) .

وجاء روبير ده فلاندر فدخل في طاعة القسيفلس . أما ريمون دوسان جيل فانه وصل مستاء مكدر غير مستعد للدخول في طاعة الروم . فاقنعه بوهيموند ففعل وأصبح من أخلص أصدقاء اليكسيوس وأشدّهم وفاء له . وأعجب اليكسيوس بحكمة هذا القومس وأترانه وصدقه واستقامته . أما تنكريد الصقلي

1) Anne Comnène, Alexiade, II, 224 - 226, 234.

فانه لم يرض أن يمر بالقسطنطينية أو أن يقسم يمين الولاء لسيدها . وأعلن أن هذا القسم لا يفرض عليه إلا نحو سيده بوهيموند (١) .

وتمكن اليكسيوس بصبره ودهائه ولطفه وكرمه من التوصل إلى تفاهم تام مع زعماء الصليبيين . ويرى بعض رجال الاختصاص أن الطرفين وقعا معاهدة في منتصف أيار سنة ١٠٩٧ قضت بأن يرفع الفيلسوف علم الصليب وأن يضع تحت تصرف الزعماء الصليبيين فرقة محاربة وأن يحمي طريقهم في أثناء مرورهم مقابل دخول هؤلاء في طاعته وإعادة جميع الأراضي البيزنطية إليه التي وقعت بين نيقية وانطاكية (٢) .

وقام الصليبيون من القسطنطينية وحاصروا نيقية . فسقطت في يدهم فأعادوها إلى اليكسيوس الفيلسوف . ثم اتجهوا جنوباً مذهباً الصعاب في قلب دولة السلاجقة متعاونين في ذلك مع فرقة بزنطية بقيادة تتيكيوس Tatikius وجهاز اليكسيوس حملة برية بحرية بقيادة يوحنا دوقاس فاستولى على أفسس وساردس وأزمير واضالية . وقام الفيلسوف بنفسه فأخضع جميع بيثينية . وغلب قلع ارسلان وتقوض ملكه واستعاد اليكسيوس قلب آسية الصغرى وشواطئها الغربية (٣) . ونفذ كل من الطرفين ما نص عليه الاتفاق وساد الحب والوثام . وقام اليكسيوس على رأس جيش قوي ليلتحق بالصليبيين . ولكن بودوان استأثر بالرها وجهاتها ولم يعدها إلى الفيلسوف .

انطاكية : وبينما كان بودوان يوطد فتحه في الرها وما جاورها كانت الحملة الرئيسية تتجه نحو انطاكية لمنع مدن سورية الشمالية وأغرقها شرفاً بالنصرانية . وكان سليمان ابن قطلمش قد استولى عليها خلسة في أوائل السنة ١٠٨٥ . فلما انتحر في السنة ١٠٨٦ استولى عليها ملكشاه واقطعها أحد أمرائه ياغي سيان . ونهافت المسلمون إلى سكنائها ولكنهم ظلوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى اليونان والارمن والعرب المسيحيين (٤) . ولما شاعت أخبار الصليبيين وتواردت

1) Diehl, C., *Europe Orientale*, 19 - 21.

2) Hagenmeyer, H., *Epist. et Chart. ad Hist. Primi Belli Sacri*, XII, 154 ; Chalandon, F., *Alexis Comnène*, 188.

3) Anne Comnène, *Alexiade*, III, 3 - 27.

4) Honigman, E., *al - Ladhiqiyya, Enc. of Islam*.

أبناء انتصاراتهم في آسية الصغرى تحصن ياغي سيان وأذخر كثيراً من المؤونة والسلاح ودخل المدينة كثيرون من القرى المجاورة .

وانطلق الصليبيون من مرعش في السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٠٩٧ فاستولوا على عزاز ومعراتا وأرتاح . وفي العشرين من الشهر نفسه وصلوا إلى جسر الجديد فوجدوه محصناً مشحوناً بالرجال فاستولوا على برجيه عنوة بقيادة الاسقف اديمار نفسه وغنموا « خيلاً وجمالاً وبغالاً وخيراً محملة حنطة » . وكانت قد أرسلت من حلب لثمنين ياغي سيان في انطاكية وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول دنا الصليبيون من انطاكية ونصبوا خيامهم أمام الاسوار . وتشاور الأمراء والقادة فأوجبوا المحاصرة نظراً لمتانة الاسوار وتعدد الابراج ونقص العتاد . فنفق القواد بجيوشهم حول الاسوار ولاسيما المداخل وأخذوا بالاهبة للقتال . أما ياغي فانه لم يبد حركة ولم يظهر من رجاله ولا مقاتل فوق الاسوار . وخشي أن يخونه النصاري وكانوا قد عاونوا الصليبيين في معرنا وأرتاح وغيرهما « فأخرج المسلمين من اهل انطاكية ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق . ثم أخرج من الغد النصاري ليس معهم مسلم فعملوا في الخندق إلى العصر . فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم انطاكية لكم تهبوا لي حتى انظر ما يكون مني ومن الفرنج . فقالوا له من يحفظ ابنانا ونساءنا . فقال انا اخلفكم فيهم . فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج » (١) وجاء في بعض المراجع الغربية أن الارمن والسوريين تظاهروا بالفرار من وجه ياغي وأبقوا نساءهم واولادهم في المدينة ثم وصلوا ياغي بأخبار المحاصرين (٢) . وكان ياغي قد أمر بالبطريك الانطاكي يوحنا السابع فسجنه سجنًا وكان قد حول كتدرائيته إلى اسطبل لخياله . فلما بدأ الحصار أمر ياغي بوضع البطريك الجليل في قفص من حديد وبعرضه على المحاصرين من الاسوار (٣) . وحل الشتاء وقلت المؤونة واشتد الحال جداً ففتزت همة بعض

1) William of Tyre, I, 161 ; Albert d'Aix, IV, 358, I, 363.

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٨٦ سنة ٤٩١ هـ .

3) Hist. Anonyme, 69 ; Grousset, R., *Hist. des Crois.*, I, 73 - 74.

4) Aboul Fida, *Annales*, 3 ; Kamal al Din, *Chron.*, 578 - 579 ; Runciman, S., *op. cit.*, I, 214 - 215, 222.

الصليبيين وادبروا ومن غريب الامور ان بطرس الناسك نفسه وليّ مدبراً . فأدركه تنكريد الصقلي فعاد فأقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب (١) . ونهض بوهيموند وروبير على رأس عشرين الف مقاتل للتفتيش عن القوات الضرورية في قرى وادي العاصي . فاتجها جنوباً . ولدى وصولها الى حماه التقيا بتقاق وطغتكين وشمس ابن ياغي آتين لنبذة انطاكية . فكانت موقعة عند قرية البارة أسفرت عن هزيمة المدد الاسلامي (٢) . وعلم ياغي بخروج بوهيموند وروبير ورجلها فانقض على ريمون عند الجسر ولكنه عاد منكسراً مذعوراً (٣) .

وغم بوهيموند وروبير برؤوس اعدائهما ولكنها عاذا فارغي اليدين دون الزاد المطلوب . واشتد الجوع في صفوف الصليبيين وفلك بهم . وقدم رهبان الامانوس والنصارى في القرى المجاورة جميع ما لديهم ولكنه لم يكف . فكتب اديمار الاسقف الى بطريرك اورشليم ، وكان لا يزال في قبرص ، فأمدّه بالقوت والخمر ولكن الجزيرة لم تتمكن من اشباع الوف المحاربين . وتعاون الاسقف اللاتيني اديمار ممثل البابا في الشرق والبطريرك الاوروشليمي سمعان تعاوناً وثيقاً فحررا رسالتين الى الغرب يحضنان فيها المؤمنين على القيام بالواجب . وتكلم سمعان في احدهما بصفته زعيم اساقفة الشرق اليونانيين واللاتينيين وهدد كل من يتوانى عن تنفيذ النذر الصليبي بالحرم (٤) .

وبينا كان اديمار يؤلف القلوب ويجمع الكلمة باسم سيده الكبير اوربانوس كان بوهيموند يبت ثمائه ويزرع الاحقاد بين الروم واللاتين . ففي شباط السنة ١٠٩٨ اتصل بتيكيوس ممثل اليكسيوس في معسكر الصليبيين ونم على رفاقه في السلاح وادعى انهم يضمرون السؤ لتيكيوس لانهم يعتقدون ان اليكسيوس يشجع الاترك على محاربتهم . ونصح بوهيموند الى تيكيوس ان ينجو بحياته . فقبل تيكيوس النصيحة ونزل الى مرفأ السويدية وأبحر الى قبرص .

1) William of Tyre, I, 188.

2) Gesta Francorum, V, 70 - 72 ; Kamal al - Din, 580.

3) Raymond d'Aguilers, V, 243 - 244.

4) Hagenmeyer, H., op. cit. 141 - 142, 146 - 149 ; Runciman, S., op. cit. I, 222 - 223.

وما ان توارى تيكيوس عن الانظار حتى دبّت عقارب بوهيموند مرة ثانية فقال رجاله وعماله ان تيكيوس فرّ خائئاً . وكان بوهيموند بطمع في امارة انطاكية فرأى من المصلحة ان يتجنّى على اليكسيوس ويتقول على مثله ليفجر في عين الطاعة والولاء ويتحرر من العقد الذي قضى باعادة انطاكية الى سيدها الشرعي اليكسيوس (١) . ثم عاد فلجأ الى المراوغة والمداورة فادعى امام رفاقه في السلاح ان ابتعاده عن ممتلكاته في ايطالية سيفلتها من يده وان مصلحته تقضي بالعودة الى ايطالية . فاذا كان لا بد من بقاءه في صفوف المحاربين المجاهدين فعلى هؤلاء ان يعرضوه انطاكية . فتشغل اقرانه عن سماعه ولكن الجنود مالوا اليه بالسمع ورأوا في ذلك رأيه (٢) .

واستجار ياغي جازه رضوان صاحب حلب من الصليبيين واعترف بسلطته فأغاثه رضوان وجاءه على رأس قوة كبيرة يعاونه فيها صاحب ديار بكر وامير حماه . وقطع الفرسان الصليبيون العاصي وكنوا للخصم عند جسر الحديد . وفي التاسع من شباط سنة ١٠٩٨ ناول الصليبيون المسلمين عند الجسر ثم استندرجوهم الى ميدان ضيق بين العاصي وبحيرة انطاكية فانقضوا عليهم وشتوا شملهم . وكان ياغي قد خرج الى القتال في الوقت نفسه وكاد ينتصر . فلما أبصر الفرسان عائدتين متصرين تراجع فدخل المدينة مدبراً (٣) .

وفي الرابع من اذار وصل اسطول انكليزي حاملاً حجاجاً ايطاليين وعتاداً رومياً من القسطنطينية . فانشأ الصليبيون ابراجاً عند مداخل انطاكية وضيقوا الحصار . وكان اليكسيوس قد أوصى الزعماء الصليبيين بوجوب التفاهم مع القاطمين اعداء الاترك . فلما بدأت أسهم الصليبيين ترتفع بعث المستعلي بالله العلوي وفداً من مصر يعرض الصلح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس ويحامي عنهم ويفتح ابواب اورشليم للزوار على ان يدخلوها بلا سلاح والا يقيم الواحد

1) Anne Comnène, Alexiade, XI, 4 ; Gesta Francorum, VI, 16 ; Runciman, S. op. cit., I, 224.

2) Raymond d'Aguilers 254 - 256.

3) Gesta Francorum, VI, 17.

فيها أكثر من شهر . فرحب الصليبيون بالوفد العلوي وقدموا الهدايا ولكنهم لم يبتوا في شيء (١) .

وطال أمد الحصار . وترامى للصليبيين ان كربوغا صاحب الموصل جيش جيوشاً ونهض بها لاغاثة ياغي سيان . فاندفع بوهيموند بعجل الاستيلاء على انطاكية تعجيلاً . ففاوض فيروز الزرّاد أحد امراء الأبراج في انطاكية وبذل له مالا واقطاعاً . وكان فيروز ارمينياً فأسلم وتقرب من ياغي فأصبح اميراً على ثلاثة من الأبراج الكبيرة . وكان على جانب عظيم من التقلب وحب الرفعة والمال . فعقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة . ثم تواترت الاخبار بقدوم صاحب الموصل بالوف من الرجال لنجدة المدينة . فخاف الصليبيون فخطب بوهيموند بوجوب الخيانة لامتلاك المدينة . فأذن الرفاق فاجتمع بوهيموند وفيروز واتفقا على وقت وظرف . وفي اليوم الثاني جمع الافرنج خيامهم واغراضهم وانسحبوا عن ساحاتهم وأعلنوا السير نحو اوروشليم . وما زالوا سائرين نحو اوروشليم حتى تواروا عن العيون . ثم انعطفوا راجعين في الليل . وقبيل الفجر أنفذ قوة صغيرة الى برج الاختين الذي كان يخرسه فيروز . وصعدوا على السلم الى هذا البرج وانطلقوا منه الى غيره . وقتلوا الحراس وهيجوا النصارى وكسروا الابواب وامتلكوا المدينة في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ وقتلوا بالاهلين فتكاً ذريعاً . وفر ياغي سيان فقتله الارمن وجاءوا برأسه الى انطاكية . اما القلعة فانها بقيت بيد شمس الدولة ابن ياغي (٢) .

وفي السابع من حزيران وصل كربوغا صاحب الموصل بجنود كثيرة من الترك والعرب . فاضطرب الافرنج وأخذ الضيق منهم كل مأخذ . ولم يعد عندهم زاد كاف ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى المجاورة كانت قد أمست مدمرة او مهجورة . واتصل شمس الدولة بكربوغا ورجاه الاحتفاظ بقيادة القلعة الى ان يتم النصر فأبى كربوغا وأرسل احمد بن مروان فاحتلها باسمه . وفي العاشر من حزيران طوق كربوغا انطاكية وشدد الحصار . ونضايق

1) Raymond d'Aguiles, 247; Gesta Francorum, VI, 17, VII, 19; Hagenmeyer, H., op. cit., 151, 160.

2) Gesta Francorum, VIII, 20; William of Tyre, V, 18 - 23.

الصليبيون ونفذ قوتهم وخارت قواهم وضعفت وفرّ بعضهم طلباً للنجاة وفي العاشر من هذا الشهر نفسه ايضاً دخل فلاح افرنسي اسمه بطرس برتلماوس الى خيمة بوهيموند وطلب مقابلة الاسقف اديمار ممثل البابا وزعيم الحملة الاكبر . وأذن له بذلك فقال ان القديس اندراوس ظهر له ثلاث مرات وبين له المكان الذي دفنت فيه الحربة التي طعن بها السيد وقت الصلب . فلم يكثر الاسقف لسببين اولهما ان بطرس هذا لم يكن من ذوي السيرة الحسنة والثاني ان الاسقف نفسه كان قد شاهد الحربة في القصر المقدس في القسطنطينية في اثناء وجوده فيها . وبعد هذا بقليل دخل قس اسمه اسطفانوس على الامراء القادة وقال ان السيد والعذراء ظهرا له في اثناء الليل في كنيسة السيدة . وان السيد له المجد أمره ان يقول للاسقف اديمار ان جموع المحاربين المجاهدين وقعوا في الخطيئة وأنهم ان تابوا أرسل لهم في ظرف خمسة ايام المعونة الكافية لحمايتهم . فاعتظ اديمار وطلب الى الامراء ان يقسموا بأنهم لن يتخلوا عن انطاكية الا باجماع الرأي ففعلوا . وفي الرابع عشر من حزيران شاهد الصليبيون نيزكا يتساقط على معسكر الاتراك . فهبوا في الغد يفتشون عن الحربة في كنيسة القديس بطرس ومعهم الفلاح بطرس برتلماوس . « وحفروا عليها في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر الفلاح . فقال لهم ابشروا بالظفر . فقويت عزيمتهم وخرجوا في اليوم التالي من باب المدينة متفرقين من خمسة وستة . فقال المسلمون لكربوغا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من خرج . فقال لا تفعلوا لكن أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم . فلما تكاملوا ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين » (١) وغنم الصليبيون غنائم لا تحصى وجمعوا مالا غزيراً وعادوا الى انطاكية بثروة عظيمة . وكان ذلك في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من حزيران سنة ١٠٩٨ .

وشاهد احمد ابن مروان هذا النصر من أبراج القلعة فأرسل من يعلن استعدادة للتسليم . ودخل رسوله خيمة ريموند . فأرسل هذا الامير من رفع أعلامه على القلعة . فلما علم احمد ان الاعلام ليست أعلام بوهيموند امتنع عن رفعها

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العربي ص ٣٤١ - ٣٤٢

ولم يفتح الأبواب قبل وصول بوهيموند نفسه ودخل بوهيموند القلعة واستولى عليها وأذن بخروج الحامية سالمة فدخل بعض زعمائها في النصرانية وعلى رأسهم أحمد ابن مروان (١). وتوفي الأسقف أديمار ودفن في كنيسة القديس بطرس فخلا الجو لبوهيموند فحدث في يمين الطاعة والولاء للفيلسوف ولم ير في ما وعد فنشأت مشادة بينه وبين الروم كان لها أسوأ الأثر في علاقة كنيسة انطاكية بكنيسة رومة (٢).

القبر المقدس: وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٠٩٨ قام الصليبيون من انطاكية وما جاورها وساروا إلى كفرطاب فراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها وسهل عبورهم بين شيزر وحماه ووصوهم إلى مصياف. وسالمهم صاحب مصياف فتقدموا إلى رمنية وانحدروا منها إلى البقيعة. وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٩٩ هجموا على حصن الأكراد واستولوا عليه. فراسلهم صاحب حماه. ورجاهم صاحب طرابلس جلال الملك أبو الحسن ابن عمار أن يرسلوا وفداً للمفاوضة وأكد استعداداه لرفع علم ريمون التولوزي. ففعلوا وعاد أعضاء الوفد المفاوض وأشادوا بثروة أبي الحسن ووفرة الغلال في أمارته وأشاروا بالحرب طمعاً. فقام الجمع إلى عرقة في السادس عشر من شباط وضربوا الحصار عليها. وقام بعضهم إلى طرطوس ففر صاحبها فدخلوها بدون قتال. ورأسلهم صاحب المرقب وبانياس ودخل في طاعتهم.

وطال أمد حصار عرقة وألح جمهور المحاربين على رفع الحصار والتقدم نحو اوروشليم. وتلقى ريموند رسالة من اليكسيوس الفيلسوف يفيد فيها أنه سيلحق بهم في الصيف على رأس جيش قوي وأن المصلحة تقضي بانتظاره قبل الهجوم على فلسطين. ولكن معظم الأمراء وأغلبية المحاربين آثروا التقدم وعدم الانتظار. وصالحهم أبو الحسن ابن عمار على مبلغ كبير من المال وقدم لهم

1) *Gesta Francorum*, IX, 29 ; *Raymond d'Aguilers*, XII, 259 - 261 ; *Fulcher de Chartres*, XXII - XXIII ; *Runciman*, S., op. cit., I, 236 - 249.

2) *Albert d'Aix*, V, 2 ; *Runciman*, S., op. cit., I, 249 - 250.

الدواب لحمل الأثقال والعلف للجيش كله ووعد بتقبل النصرانية لدى انتصارهم على الفاطميين. ثم سهل خروجهم من طرابلس وبعث أمامهم من أوصلهم إلى نهر الكلب الحد الفاصل بين أمارته وبين دولة الفاطميين. وواصلوا السير فبلغوا بيروت في العشرين من أيار. وكان يأمر فيها أحد الأمراء التنوخيين فطلب إلى زعماء الصليبيين أن يكفوا عن أذى المدينة وأهلها ولا يعبثوا بغلات بساينها. فرفضوا بذلك شرط أن يقدم للجنود حاجتهم من القوت والخيرة ففعل. ثم سار الأفرنج إلى صيدا. فنازلهم صاحبها فقاتلوا وخرّبوا وتابعوا السير إلى صور ومنها إلى عكة فبلغوها في الرابع والعشرين من أيار. وما فتثوا يتقدمون في ساحل البحر حتى أرسوف. ثم تحولوا نحو الرملة فوجدوها خاوية خالية فأخذوا يتسلقوا التلال حتى البيت المقدس في اليوم السابع من حزيران.

وكانت اوروشليم قد أصبحت بيد الفاطميين منذ أمد وجيز. وكان يتهمهم فيها الفضل ابن بدر الجمالي. وكانت حاميتها عربية سودانية. فحاصرها الأفرنج نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليها برجين. ثم اقتحموها من الجانب الشمالي واستباحوها أسبوعاً كاملاً. واحتفى جماعة من المسلمين بمحارب داود فاعتصموا به. فبذل لهم الأفرنج الأمان فسلموه اليهم وخرجوا إلى عسقلان آمنين. وقتل الأفرنج بالمسجد الأقصى عدداً كبيراً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم. ووافق دخول الصليبيين اوروشليم في منتصف تموز من السنة ١٠٩٩ (١).

الصليبيون وكنيسة انطاكية: وأحب اوربانوس المسيح فأحب الكنيسة. وأرادها واحدة لان المسيح واحد. ولأن لاهيه يسوع بطريرك القسطنطينية نيقولاوس الثالث وخطب وده. ثم هاله تقدم الأتراك السلاجقة في الشرق وراعه ضعف الروم فخفف لنجدة النصرانية وأعلن الجهاد المقدس وحض المؤمنين على القتال وأوجب بقرار مجعني احترام حقوق الكنائس الشرقية وإعادة

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٩ :

Gesta Francorum, X, 34 - 37 ; *Raymond d'Aguilers*, XIV - XX ; *William of Tyre*, VII, 19 ; *Fulcher de Chartres*, XXV, 13 - 17 ; *Runciman*, S., op. cit., I, 265 - 288 ; *Grousset*, R., op. cit., I, 116 - 163.

أوقافها إليها (١). وانتقى اسقفاً صالحاً تقياً واسع الصدر لين العريكة بعيد النظر أديمار ليمثله في الحملة ويسهر على تنفيذ الخطة المرسومة .

وكان البطريرك الانطاكي يوحنا السابع تقياً صالحاً جليلاً وقوراً. وكان قد أبصر النور في جزيرة او كسية وقدم النذر في القسطنطينية . فلما رقي العرش الانطاكي خف للعمل المثمر فسعى لاصلاح الرهبان والرهبانيات . وراسل توما الكفرطابي اسقف الموارنة على كفرطاب وكورة حلب وجادله في المشيئة الواحدة محاولاً صرفه عن القول بها (٢) . ومن آثاره رسالة في الحياة الرهبانية احتج بها على تدخل السلطات في شؤون الرهبان وتلزم الأديار للعلمانيين (٣) . وله أيضاً رسالة في التقديس على الفطير اتخذ فيها موقف المدافع عن التقليد الأرثوذكسي (٤) .

ولدى استيلاء الصليبيين على انطاكية أسرع زعمائهم الى الافراج عن هذا الاب الجليل واعادته الى سابق حريته وكرامته . ثم أمروا بتنظيف كاتدرائية انطاكية وكنيسة السيدة فيها مما لحق بها من الأقدار في عهد الاتراك السلاجقة . ثم ترأس يوحنا السابع حفلة التطهير والتكريس وعاونه في الخدمة عدد من الكهنة والاساقفة اللاتينيين . وأعجب الصليبيون بهذا الرجل البار فأشاروا اليه في كتاباتهم بالعبارة *Virum Christianissimum* (٥) . ومعناه المسيحي المسيحي واعتبر أديمار مثل البابا في الشرق البطريرك الاورشليمي سمعان بطريركاً رسولياً . وحيثما سمح الظرف برفع تقرير عن سير الأعمال في الشرق وضع أديمار هذا التقرير باسم سمعان بطريرك اورشليم وباسمه (٦) . ثم قضت الظروف بطلب النجدة من

1) Hefelè - Leclercq, op. cit. V, 339 ; Chalandon, op. cit., 44 - 46 ; Runciman S., op. cit., I, 109.

(٢) المقالات العشر لتوما الكفرطابي : لباب البراهين المطران يوسف دريان ص ٢٥٢

3) P. G., Vol. 132, Col. 1128 ff. ; Brehier, L., Institutions, 556 - 557 ; Delahaye, H., Byz. Monast., Byzantium, 156.

4) Orientalia Christiana, II, 244 - 263 ; Grumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche, Echos d'Orient, 1933, 286 - 298.

5) Albert d'Aix, IV, 3. ; Rec. Hist. Crois. IV, 433 ; Musset, H., Hist. du Christianisme, I, 442 - 443.

6) Hagenmeyer, H., Die Kreuzzugsbriefe, 141 - 142.

الغرب فكتب أديمار باسم سمعان الاورشليمي أيضاً . وظهر سمعان في هذه الرسالة بطريركاً رسولياً وتكلم باسم جميع الاساقفة في الشرق لاتينيين ويونانيين . وهدد بالحرم كل من حث بالنذر الصليبي (١) .

وتوفي أديمار الصديق في اليوم الاول من آب سنة ١٠٩٨ فخمرت الكنيسة الجامعة بوفاة أباً باراً صالحاً محباً حكيماً . ولم توفق الكنيسة اللاتينية الى خلف مصاف مسالم يتابع العمل الصالح الذي سعى اليه اوربانوس وأديمار .

وفي الحادي عشر من ايلول من السنة نفسها حرر الامراء الصليبيون المحتمعون في انطاكية رسالة الى البابا اوربانوس الثاني . وذكروا خبر وفاة أديمار ورجوا الاب الاقدس ان يجيء الى انطاكية ليرعى أبرشية بطرس الاولى . والغريب في هذه الرسالة ان الامراء تناسوا وجود يوحنا السابع بطريرك انطاكية الشرعي ولم يذكروه لمناسبة هذا الطلب . ولكنهم أشاروا الى الصعوبات التي لاقوها على يد النصارى المراطقة يونانيين وارمن وسوريين ويعاقبة . واليونانيون المراطقة في هذه الرسالة هم جماعات من اليونانيين البولسيين الذين كانوا يزاوون يمارسون نصرانيتهم على طريقتهم الخصوصية في جوار انطاكية (٢) .

وفي الشهر التالي أي في تشرين الاول سنة ١٠٩٨ انطلق ريموند امير تولوز من ريجا على رأس رجاله في طلب المؤونة والعلف . فاستولى على البارة عنوة وقتل وسبى . ورأى ان يجعلها مدينة مسيحية فحضر المسيحيين على سكنائها وحول مسجدها الى كنيسة وأقام عليها اسقفاً بطرس النربوني . وكان لا بد من سيامة بطرس سيامة مسيحية فطلب ريموند الى البطريرك الانطاكي يوحنا السابع ان يرثس حفلة السيامة ففعل هذا البطريرك الارثوذكسي اليوناني وسام اسقفاً لاتينياً ليخدم على الطريقة اللاتينية (٣) .

وكان بوهيموند منهوماً بالسلطة مسهباً بطبيعته فاشتد حرصه على امارة

1) Hagenmeyer, H., op. cit., 146 - 149.

2) Anonymi Gesta Francorum, X, 30 ; Raymond d'Aguilers, XIII, Hagenmeyer, H., op. cit., 164.

3) Raymond d'Aguilers, XIV. ; Gesta Francorum, X, 31 Runciman, S., op. cit., I, 257 - 258.

انطاكية واستمات واستهلك إليها . فلجأ إلى بطرس برثلماوس فزعم هذا أن اندراوس ظهر له وقال أن أديمار قضى وقتاً في الجحيم وأنه لم يفلت لولا صلوات زملائه وصلاته بوهيموند من أجله . وزعم بطرس أيضاً أن اندراوس أمره أن يقول إلى ريموند بأن انطاكية لبوهيموند ما دام تقياً صالحاً وأنه لا بد من مقاطعة الروم والكنائس الأرثوذكسية المحلية وانتخاب بطريك لاتيني على كنيسة انطاكية (١) .

ثم كاشف بوهيموند الروم بالعداوة فحاول في حزيران السنة ١٠٩٩ أن يخرجهم من اللاذقية . وتوفي اوربانوس الثاني في التاسع والعشرين من تموز التالي فتمادى بوهيموند في ضلاله وبسط عنانه في الجهل فهجم في السنة ١١٠٠ على مرعش وكانت هذه قد أعيدت إلى الروم بموجب شروط المعاهدة بينهم وبين الصليبيين . واستولى تنكريد نسيب بوهيموند على طرسوس وأدنه . ووقع بوهيموند اسيراً في يد الأتراك في تموز السنة ١١٠٠ فتجنى على البطريك الانطاكي يوحنا السابع ورماه بالتواطؤ مع الأتراك وأكرهه على الخروج من انطاكية . ثم جعل من برناردوس والنسبة اسقف ارتاح بطريكاً لاتينياً على انطاكية . ولا صحة في القول بأن يوحنا السابع استقال فشعر كرسيه فنصب برناردوس (٢) . ولا في القول بأن استعفاء يوحنا تم في أثناء الأسر الذي وقع فيه بوهيموند (٣) . فيوحنا السابع لم يستقل قبل وصوله إلى القسطنطينية . واستقالته هذه ارتبطت منذ لحظتها الأولى بانتخاب خلف أرثوذكسي له يوحنا الثامن وذلك بالطريقة القانونية المرعية الاجراء آنثذ (٤) .

الصليبيون وكنيسة اوروشليم : وكان سمعان الثاني بطريك المدينة المقدسة الشرعي قد فر منها لان الأتراك السلاجقة كانوا قد جحدوا الدمام لأهل العهد من النصارى وغدروا وخثروا وانتهكوا حرمة الكنائس . وكان

هذا البطريك العالم الصالح وقد رحب بالصليبيين وقدم لهم الزاد والمؤونة في أبان محتهم أمام اسوار انطاكية . وكان أيضاً قد اشترك مع أديمار الصالح في كل ما يؤول للخير . فكان له مع الصليبيين اخوة واسباب ترمي . ولكنه توفي قبيل استيلاء الصليبيين على اوروشليم (١٠٩٩) . ولا عبرة لما جاء في تاريخ ميخائيل السرياني من أن سمعان شهد الاستيلاء على اوروشليم وأنه اشترك بنفسه في أعمال القتل . فشهادته هذه ينقصها الشيء الكثير من العدالة والضبط (١) . وكانت المدينة قد خلت من الاساقفة لقرار هؤلاء مع بطريكهم إلى قبرص فأقام بعض الامراء الصليبيين والكهنة اللاتينيون أرنولفوس روهيز بطريكاً على اوروشليم . وكان أرنولفوس واعظاً وأديباً ولكنه لم يكن زاهداً تقياً ولم يحظ بأصغر درجات الكهنوت فاعترض ريمون امير تولوز وعدد من الكهنة الافرنسيين الجنوبيين على ارتقائه السدة البطريكية وامتنعوا عن التعاون معه (٢) . وماشى البطريك الجديد بوهيموند في السياسة الكنسية فأبعد الكهنة الأرثوذكسيين والارمن والبيعاقة والاقباط عن كنيسة القبر المقدس وعين عشرين كاهناً لاتينياً للخدمة في هذه الكنيسة . ثم قبض على الكهنة الأرثوذكسيين مطالباً بعود الصليب وأمر بتعذيبهم فقبلوا مكرهين وقدموا الاثر المقدس له (٣) . فأثار هذا البطريك اللاتيني باستبداده واستفزازه غضب الشعب الأرثوذكسي وكهنته . وشاع خبر تعصبه وتصلفه واضطربت به الالسة فوصل إلى القسطنطينية وزاد في النفور والتباعد (٤) .

المملكة اللاتينية والامارات الصليبية : وفي ربيع السنة ١١٠٠ تجددت الاعمال الحربية فاستولى الصليبيون على ساحل فلسطين من عسقلان حتى عكة . وقضت الضرورة العسكرية بتأمين الاتصال بين الصليبيين في فلسطين وبين اخوانهم في انطاكية والرها . وكان ريموند امير تولوز طامعاً في اماره له فانطلق

1) Michel le Syrien, III, 329 ; Musset, H., Hist. du Christ., I, 440, n. 3.
2) Raymond d'Aguilers, XX - XXI ; William of Tyre, IX, 1.
3) Raymond d'Aguilers, loc. cit. ; Fulcher de Chartres, I, 30 ; William of Tyre, loc. cit.
4) Runciman, S., op. cit., I, 294 - 295.

1) Raymond d'Aguilers, XIII.
2) William of Tyre, VI, 23.
3) Orderic Vitalis, IV, 141.
4) Leib, B., Deux Inédits Byzantins, 59 - 69 ; Benechevitch, Cat. Cod. Manus. Graec., 279 ; Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1933, 286 - 298.

من اللاذقية في مطلع السنة ١١٠٢ واحتل طرطوس . ثم تقدم منها نحو طرابلس على رأس ثلاثمائة فارس وكان فخر الملك محمد ابن عمار قد طلب معونة الامير ياخر خليفة جناح الدولة على حمص ومعونة تقاق او دقاق ابن تنش امير دمشق فأعانه . واجتمع هؤلاء في السهل عند مدخل طرابلس . فجرت معركة حامية تغلب فيها ريموند . فوقع الصلح على مال حمله اهل طرابلس اليه . وفي السنة ١١٠٣ عاد ريموند الى القتال وقد وصله مدد من البحر فحاصر طرابلس برأً وبحراً فلم يجد فيها مطعماً فعاد عنها الى جبيل وتسلمها بالامان . واستولى ريموند على جبلة وتقدم في السنة ١١٠٥ نحو طرابلس واقام على حصارها وبني حصناً يطل عليها (حصن صنجيل) وبني تحته ربضاً فخرج ابن عمار واحرق الربض . ووقف ريموند على بعض سقوفه فانخسف به فرض ومات وحمل الى المدينة المقدسة ودفن فيها . وانتخب الضباط غيلوم يوردانوس قائداً وتابعا الحصار . وقلت الاقوات في طرابلس فتوجه فخر الملك الى بغداد مستنقراً واجتمع بالسلطان محمد وبالخليفة المستظهر فلم يحصل منها على غرض . فعاد الى دمشق واقام عند طغتكين واقطعه الزيداني . واما اهل طرابلس فانهم دخلوا في طاعة خليفة مصر راجين الفرج . وفي السنة ١١٠٨ أطل برتران ابن ريموند غير الشرعي على رأس اربعة الاف فارس قادماً من جنوب فرنسا . فامتنع يوردانوس عن التنازل له عن القيادة ولا سيما وانه كان قد انتصر منذ برهة على جموع دمشق وحصن عند عرقه وان عرقه كانت قد سقطت بيده . فاجتمع كبار الصليبيين من انطاكية واوروشليم وغيرها في قلعة صنجيل الصليبية التي تطل على طرابلس للتوفيق بين الاميرين المتنافرين . وترأس الاجتماع بودوان الاول ملك اوروشليم وذلك في صيف السنة ١١٠٩ . فاتفق الطرفان على ان يتولى يوردانوس طرطوس وعرقه مقسماً الولاء لاميير انطاكية وان يستحوذ برتران على طرابلس وجبيل مقسماً الولاء والطاعة لبودوان الاول ملك اوروشليم وعلى ان يرث احدهما الآخر عند وفاته . ونزلوا جميعاً على طرابلس والصقوا أبراجهم بسورها . وتأخر المدد من مصر فاقتحمها الافرنج عنوة ودخلوا اليها في الثاني عشر من تموز سنة ١١٠٩ . وأصبح برتران قومس طرابلس متسلماً سلطته بالاقطاع من ملك اوروشليم . واحتل الجنويون حياً من

احياء طرابلس وقلعة الكونستابل على بعد خمسة عشر كيلومتراً الى الجنوب وثلاثي مديسة جبيل . ثم تنازل هؤلاء عن حقهم في جبيل الى الاميرال هونغ امبرياكو Hugue Embriaco فجعل من جبيل اقطاعاً وراثياً له ولذريته من بعده . وأصيب يوردانوس بسهم طائش وتوفي فأصبح برتران ابن ريموند قومس امارة امتدت من طرطوس الى نهر الكلب ومن البحر حتى مداخل حمص وشملت رفية والبقية وما جاورهما (١) .

وكانت بيروت وصيدا وصور قد تعاونت مع جيوش دمشق وحصن لصد بودوان الاول عن الوصول الى اوروشليم . فرابطت في منتصف تشرين الاول من السنة ١١٠١ عند نهر الكلب مستعينة بضيق الطريق ووعورة المسلك . فتظاهر بودوان بالتراجع واتجه نحو جونبة . فلحق به العدو وما زال حتى وصل بودوان ورجاله الى مضائق المعاملتين . فصمد بودوان بدوره مستعيناً بطبيعة الأرض ثم انقض على الدمشقيين والحمصيين وأتباعهم من سكان بيروت وصيدا وصور . فراجعوا مذعورين ثم تشتتوا . فتابع بودوان سيره الى اوروشليم ليستوي على عرشها خلفاً لغودفروا (٢) .

ولمس بودوان لمس اليد ضرورة الاستيلاء على بيروت وصيدا وصور لتأمين المواصلات بين الشمال والجنوب فعاد الى بيروت في ربيع السنة ١١١٠ مستعيناً ببرتران وبأربعين مركباً جنوباً وبيزياً . واشتد القتال فقتل مقدم الاسطول الفاطمي وخلق كثير من المسلمين . وهجم الصليبيون على البلد فلكوه بالسيف قهراً (٣) . واقطع بودوان بيروت لأحد أشراف دولته فولك ده غين Foulques de Guines وخلفه عليها سادة من ذريته حتى السنة ١١٨٧ .

- 1) Albert d'Aix, VIII, - XI ; Fulcher de Chartres, II, 11, 17, 41 ; Caffaro, Liberalio, 69 - 73 ; Sibl. ibn al - Jauzi (R. H. C.) 525 - 536 ; Ibn al Qalanisi, 60, 83 - 90 ; Sobernheim, Art. Ibn Ammar, Enc. of Islam ; Runciman, S., op. cit., II, 56 - 70 ; Grousset, R., op. cit., I, 333 - 364 ; Richard, J., Comté de Tripoli, 12 - 14.
- 2) Fulcher de Chartres, II, 1 ; Albert d'Aix, VII, 32 - 35 ; Runciman, S., op. cit., I, 323 - 324.
- 3) Grousset, R., op. cit., I, 253 - 255.

ونهب بودوان من بيروت الى عكة فوافق مروره فيها وصول اسطول نروجي بقيادة سيغورد Sigord اخي ملك نروج . وكان سيغورد اول متوج يزور المملكة اللاتينية فاستقبله بودوان بحفاوة فائقة وواكبه حتى المدينة المقدسة . فارتاح سيغورد وقال ان رجاله راغبون في الاشتراك في الجهاد المناسبة وجودهم في الاراضي المقدسة . فشكر بودوان لضيفه الملكي هذه البادرة الطيبة وقال ان الظروف العسكرية تقضي باحتلال صيدا . وفي اوائل تشرين الاول من السنة ١١١٠ ظهر الاسطول النروجي أمام صيدا وأحاط جيش بودوان بها من البر . واشتد القتال وأقبلت عمارة فاطمية مصرية من صور فكادت تقضي على المراكب النروجية لولا وصول نجدة بندقية بحرية بقيادة الدوج نفسه اورديلافو فاليري Ordelafo Falieri . ودير الصيدايون خطة لاغتيال بودوان بواسطة شاب مسلم كان قد دخل في النصرانية والتحق بخدمة الملك الصليبي . فعلم نصارى صيدا بذلك فأطلقوا سهماً حاملاً الخبز الى مقر القيادة الصليبية . فأمر بودوان بهذا الشاب فقتل عند اسوار المدينة . وفي الرابع من كانون الاول سنة ١١١٠ سلمت صيدا فرحل عنها أعيانها الى دمشق . فجعلت بارونية واقطعت الى البارون اوستاش غارنيه Eustace Garnier . ووهب بودوان البنادقة كنيسة واراخي في عكة (١) .

وحاول بودوان في السنة ١١١١ ان يستولي على صور ولكنه لم يفلح لضغفه في البحر . فعاد عنها وانشغل بمشاغل اخرى . فظلت صور في يد المسلمين فترة من الزمن . وحاول أعيانها التوفيق بين الولاء للفاطمين للاستعانة باسطولهم وبين الولاء لامراء دمشق للاستعانة بجيشهم عند الحاجة . فقبلوا اميراً دمشقياً اسمه مسعود حكم باسم طغتكين وداوموا على الدعاء في الخطبة للخليفة الفاطمي . وفي السنة ١١٢٢ وصل اسطول فاطمي الى مياه صور فاستقبل فيها أحسن استقبال . فدعا قائد الاسطول الامير حاكم البلد لزيارة الاسطول . ففعل فقبض عليه ونقل الى القاهرة ثم اطلق سراحه . فاعترف طغتكين الدمشقي بالحكم الفاطمي في صور .

1) Fulcher de Chartres, II, 44 ; Albert d'Aix, XI, 26, 30 - 34 ; William of Tyre, XI, 14 ; Ibn al Qalanisi, 106 - 108 ; Riant, Scandinaves en Terre Sainte, Ch. IV.

وفي منتصف شباط سنة ١١٢٤ وصل الصليبيون برأ وبحراً الى صور وضربوا الحصار عليها باسم الملك الاوروشليمي بودوان الثاني وبقيادة البطريرك غورموندو Gormand . فقطعوا مياه رأس العين عنها وتناولوها بالحنايق . فرد الصوريون الحنايق بمثلها ورموا المحاصرين بالنار الاغريقية . ولكنهم كانوا قليلين فلم يجرأوا على الهجوم . واستغاثوا بالقاهرة ودمشق فلم يلب الخليفة الأمر النداء لعدم توفر المراكب . وانفذ طغتكين جيشاً كبيراً الى بانياس وبات ينتظر قدوم المراكب الفاطمية . ثم أطل الصليبيون من معسكر صور فعاد الى دمشق بدون قتال . وطال الحصار وقل الزاد والماء فصالح طغتكين وسلم صور على شروط أهمها ان يسمح لأهلها بمغادرتها وان يؤمن الباقون فيها على حياتهم . وفي السابع من تموز سنة ١١٢٤ فتحت صور أبوابها للصليبيين فاستولوا عليها باسم بودوان الثاني (١) .

واقصر الحكم الصليبي في الغالب على السواحل والجبال الغربية حتى مقلب المياه . وظل الداخل كحلب وحماة وحمص وبلبك ودمشق بيد الامراء المسلمين السلاجقة . ونشأ في البلاد ثلاث امارات صليبية ومملكة : امارة الرها وامارة انطاكية وامارة طرابلس والمملكة اللاتينية . وكان نظام الحكم فيها اقطاعياً على الطريقة الاوروبية . وجاء الملك الاوروشليمي صاحب التاج المقدس على قمة هذا النظام في المملكة اللاتينية وفي الامارات الثلاث . فكان عليه ان ينجذ الامير المقطع اذا اعتدي عليه او هدد بثورة داخلية وان يكون وصياً على الامير اذا كان قاصراً وان يكون الحكم بين الامراء . وكان على الامراء ان يقسموا بين الطاعة والولاء ويهبوا لمعونة الملك بعدد معين من المحاربين . واقطع كل امير من الامراء غيره اراضي في امارته بالشروط نفسها . وشمل هذا الاقطاع الاساقفة والرهبان ايضاً . فكان على هؤلاء ان يقسموا بين الطاعة والولاء للامير الكبير وان يلبوا نداءه في الملمات فينجدوه بعدد معين من رجال الحرب او مبلغ محدد من المال او الاثنين معاً .

1) Fulcher de Chartres, III, 1 - 34 ; William of Tyre, XIII, 13 - 14 ; Qalanisi, 170 - 172 ; Mathew of Edessa, 244, p. 314 ; Runciman, S., op. cit., II, 168 - 171.

الرهبان الفرسان : وكان بعض الاغنياء الاتقياء من سكان أمانلي قد رفقوا للحجاج الفقراء فانشأوا في السنة ١٠٧٠ نزلاً لهؤلاء في اورشليم ووقفوه على اسم القديس يوحنا الرحوم البطريرك الاسكندري . ورثى لهؤلاء الفقراء آخرون من أبناء أمانلي فوقفوا حياتهم لخدمتهم رهباناً لا يستكبرون . وخضع هؤلاء الرهبان ورئيسهم للسلطات البندكتية في الارض المقدسة . فلما خشي الاتراك السلاجقة قدوم الصليبيين في السنة ١٠٩٨ طردوا هؤلاء الرهبان من الدير والنزل ومن المدينة المقدسة ايضاً . وكان ما كان من أمر الحملة الصليبية الاولى . فلما سقطت اورشليم في يد الصليبيين أشفق الامراء على الحجاج والرهبان الأملفيين وحبسوا عليهم الاملاك . وعظم شأن هؤلاء الرهبان وكثر عددهم فاستقلوا عن البندكتيين واعترف البابا بهم رهبنة مستقلة باسم الرهبان المضيفين *Hospitaliers* . فسماهم المؤرخون المسلمون « الاسبتالية » او « الاسبتارية » . وفي السنة ١١١٨ تولى رئاسة هذه الرهبنة راهب افرنسي واسع الصدر بعيد النظر اسمه ريمون ده بوي *Raymond du Pay* . فلم يكتف بايواء الحجاج ومواكبتهم والعناية بهم بل تطلع الى ما كان اهم من ذلك الى حماية الحجاج والحفاظ على سلامة وصولهم فبدل شفاعته يوحنا الرحوم بشفاعة يوحنا الحبيب واوجب التدريب على القتال واستعمال السلاح ورسم صليب ابيض على الجيب .

وفي السنة ١١١٨ ايضاً تقدم الفارس هوغ ده بان *Hugues de Payns* ورفاقه السبع من بطريرك اورشليم اللاتيني ناذرين العفة والطاعة واضعين انفسهم تحت تصرف البطريرك لحاية الحجاج من اللصوص وقطاع الطرق . فوافق البطريرك وأنزلهم الملك جناحاً من اجنحة قصره في هيكل سليمان (المسجد الأقصى) فعرفوا بالرهبان الهيكلين *Templiers* . وهم « الداوية » في مصنفات العرب المعاصرين . ونظر مجمع تروا *Troges* في نظامهم في السنة ١١٢٨ فأقره باسم «جنود المسيح» وانتظم جنود المسيح طبقات ثلاثاً : طبقة الفرسان من الاشراف وطبقة الرقباء من أبناء التجار واصحاب المهن الحرة وطبقة الكهنة من خدام الكنائس . وارتدى الفرسان الاشراف الأبيض وعليه صليب احمر ولبس الرقباء الأسود وعليه صليب احمر . وقضى واجبه الأول بأن تبقى طريق الحجاج حرة آمنة من الساحل حتى المدينة

المقدسة . ثم اندفعوا في سبيل الصليب فاشتركوا في معظم الحروب .

وأيد بودوان الاول وغيره من خلفائه هؤلاء الرهبان الفرسان لأنهم وجدوا فيهم اداة عسكرية فعالة مستعدة دائماً للنضال في سبيل الجهاد . فحبسوا عليهم الاملاك لتأمين الدخل ثم اقطعوهم الأراضي ووكّلوا اليهم حماية الأبراج والقلاع عند الحدود . ففي السنة ١١٣٧ تولى الاسبتاليون حماية قلعة بيت جبرين وتولى الهيكليون الدفاع عن غزة . وفي السنة ١١٤٢ أقطع امير طرابلس ريمون الثاني الاسبتاليين حصن الأكراد وكل ما وقع بين هذا الحصن وبين رفنية وبعرين واقطع الهيكلين طرطوس وصافيتا وعرة . وحذا امراء انطاكية حذو امراء طرابلس وملوك فلسطين . فتولى الهيكليون الدفاع عن حدود الامارة الشمالية الشرقية واحتل الاسبتاليون حدودها الجنوبية (١) .

الهيرواخية اللاتينية : وهدف الصليبيون الى القبر المقدس فغدت اورشليم أهم مدن الشرق عندهم وأصبح بطريركها مقدماً على بطريرك انطاكية وذكر الصليبيون فضل اوربانوس الثاني واندفاعه وتنشيطه وتشجيعه فحفظوا حق الكنيسة واعتبروها صاحبة السلطة في الأراضي المقدسة . فلما توفي اديمار في انطاكية عين اوربانوس دمبرتوس *Daimbert* رئيس أساقفة بيزا خلفاً لاديمار وممثلاً لسلطة رومة في الأراضي المقدسة (٢) . ووصل دمبرتوس الى اورشليم في الحادي والعشرين من كانون الاول سنة ١٠٩٩ فاعتبر ارنول اورنولفوس قائماً بطريركياً *Locum Tenens* وفاوض الزعماء في وصوله الى العرش البطريركي واغذودقت الهدايا الثمينة فخلع ارنول خلعاً وانتخب دمبرتوس بطريركاً على اورشليم . وخضع غودفروا « وكيل القبر المقدس » وبوهيموند امير انطاكية للبطريرك وأقسما بيمين الطاعة والولاء له . فأصبح البطريرك الاورشليمي سيد انطاكية واورشليم وحقق في الأراضي حلم غريغوريوس السابع . اما بودوان

1) Cahen, C., *Syrie du Nord*, 511 ff. ; Richard, J., *Royaume de Jérusalem*, 104 - 112 ; Comté de Tripoli, 62 - 70 ; Delaville Le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte* ; Melville, M., *La Vie des Templiers* ; La Monte, J. L., *Feudal Monarchy*, 217 - 225 ; William of Tyre, XII, 7, XVIII, 4 ; Michel le Syrien, III, 201 - 203.

2) *Annales Pisani*, (Tronci), I, 178 ff.

أمير الرها فإنه امتنع عن الخضوع لأنه لم يثق بشخص البطريرك الجديد (١).
وجلس بين السنة ١٠٩٩ والسنة ١١٩٩ أحد عشر بطريركاً لاتينياً على
السدة الأورشليمية . واليك أسمائهم وتواريخهم :

<i>Arnoul Malecorne</i>	1099	<i>Etienne de Chartres</i>	1128 - 1130
<i>Daimbert</i>	1099 - 1101	<i>Guillaume de Messines</i>	1130 - 1146
<i>Ebreward</i>	1101 - 1108	<i>Foucher d'Angoulême</i>	1146 - 1157
<i>Gibelin de Sabran</i>	1108 - 1112	<i>Amaury de Nesles</i>	1158 - 1180
<i>Arnoul Malecorne</i>	1112 - 1118	<i>Heraclius</i>	1180 - 1190
<i>Gormond de Picquigny</i>	1118 - 1128		

ويجمع الثقات على انصراف معظم هؤلاء البطارقة الى حب المجد الفارغ
واهتمامهم بجمع المال وانفاقه في سبيل أهوائهم وأغراضهم الشخصية وعلى ان
السيمونية لعبت دوراً هاماً في سياسة كنيسة اورشليم طوال قرن كامل
من الزمن (٢).

وجلس على السدة البطريركية بين السنة ١١٠٠ والسنة ١٢٠٨ اربعة
بطارقة وهم : برناردوس (١١٠١-١١٣٥) ورؤول (١١٣٥-١١٤٢) وإيماري
Aymeri (١١٤٢ - ١١٩٦) وبطرس (١١٩٦ - ١٢٠٨) ولم يكن هؤلاء اسعد
حظاً من زملائهم في اورشليم . فاشتهر برناردوس بتدخله في السياسة والحرب
في عهدي تنكريد وروجه (٣) . وتميز رؤول برجاله الاشداء واستثنائه بالسلطة
البطريركية واستخفافه بأوامر رومة وبخلعه وموته مسموماً (٤) . وفضل إيماري
في نظر غيليموس الصوري انه انقذ انطاكية في السنة ١١٤٩ من السقوط في يد
نور الدين وفي نظر غيره انه عظم شأن اليعاقبة والارمن نكاية بالروم
الارثوذكسيين (٥).

- 1) Grousset, R., op. cit., I, 194 - 196 ; Runciman, S., op. cit., I, 299 - 307 ;
Albert d'Aix, VII, 7 ; William of Tyre, IX, 15.
- 2) Grousset, R., op. cit., II, 745 ; Richard, J., Royaume de Jérusalem
93 - 95 ; Musset, H., Hist. du Christ., I, 441.
- 3) Grousset, R., op. cit., I, 385 ; Cohen, C., op. cit., 288, 299, 308, 310, 318.
- 4) Grousset, R., op. cit., III, 35, 46.
- 5) Cahen, C., op. cit., 566, 567.

وقضت ظروف المملكة اللاتينية بأن تنحصر سلطة بطريرك اورشليم
ضمن حدود هذه المملكة وان يعاد النظر في تقسيم أبرشيات . فنشأت تدريجياً
أبرشيات خمس كبرى يرأس كل منها رئيس اساقفة . وهي أبرشيات صور
وقيصرية وبيسان وبصرى وعمان . وخضع لرئيس اساقفة صور كل من اسقف
بيروت واسقف صيدا واسقف بانياس واسقف عكة . وخضع لرئيس اساقفة
قيصرية اسقف سبطية ولرئيس اساقفة بيسان اسقفا طبرية وجبل الطور .

وشملت بطريركية انطاكية ست عشرة أبرشية . وهي أبرشيات مصيصة
والبارة وأبامية ومنبج والرها وبانياس وجبله وطرابلس واللاذقية وحارم او
(ارتاح) ومرعش وقيسون وقوروش ورفنية وطرطوس وجبيل (١) . ولم ترض
هذه البطريركية عن سلخ أبرشيات صور وسائر فينيقية الساحلية وضمها الى
بطريركية اورشليم وطالبت باعادتها الى كنيسة الام . فنشأت مشادة عنيفة
بين البطريركيتين دامت أعواماً طويلاً . فقالت بطريركية اورشليم بوجود
الملاءمة بين الحدود السياسية والحدود الكنسية مستندة في ذلك الى التعليمات الصادرة
عن اوربانوس الثاني . واستمسكت بطريركية انطاكية بقرارات المجامع المسكونية
ووجوب ابقاء القديم على قدمه . واتخذت هذه المشادة شكلاً فعلياً لأول مرة في
السنة ١١١٠ عند سقوط بيروت في يد بودوان ملك اورشليم . فاستسمح هذا الملك
البابا باسكال الثاني في ضم بيروت الى كنيسة اورشليم فوافق باسكال . فاحتج
برناردوس بطريرك انطاكية فاعتذر باسكال وقال قولاً مبهماً . فطلب برناردوس
الى مجمع بنفنتوم (١١١٢) ان ينظر في هذا الامر فارتأى المجمع ان يكون الحد
الفاصل بين طرطوس وطرابلس . فلم يرض باسكال الثاني . ولدى دخول صور في
حوزة ملك اورشليم سنة ١١٢٨ قام رئيس اساقفتها اللاتيني الى رومة لتسلم درع
التثبيت من البابا اونوريوس الثاني . فأمر هذا البابا بضم طرابلس وطرطوس وجبيل
الى بطريركية اورشليم . فلم يذعن برناردوس بطريرك انطاكية وظل محتفظاً
بطرطوس وطرابلس وجبيل . وفي السنة ١١٣٨ طلب البابا انوشتوش الثاني الى

1) Cahen, C., op. cit., 319 - 323.

بطريرك انطاكية رؤول ان يلحق طرطوس وطرابلس وجبيل بابرشية صور . فأجاب رؤول انه فاعل حالما تعود صور نفسها الى كنيسة الام انطاكية . وظلت المشادة قائمة ونظر فيها كل من انوشنتوش الثالث وانوريوس الثالث وغريغوريوس التاسع ولكن دون جدوى . وظل الحد الفاصل بين البطريركيتين الحد السياسي بين المملكة اللاتينية وقومية طرابلس (١) .

الهيرارخية اليونانية الارثوذكسية : ولم يعترف الاحبار الارثوذكسيون بالبطريركيتين اللاتينيتين واعتبروا الاقدام على تنظيمها عملاً مخالفاً لنصوص المجامع المسكونية اذ لا يجوز ان يكون للابرشية الواحدة أكثر من رئيس واحد . ورأوا في تدعيم السلطات لهذا العمل الشاذ اغتصاباً لا مبرر له .

واجتمع الاحبار الاوروشليميون بعد وفاة سميان الثاني وانتخبوا اغابوس الاول خلفاً له . ثم انتقلوا من قبرص الى القسطنطينية وثاروا على الاحتفاظ بالسلطة الروحية في اوروشليم وسائر فلسطين فانتخبوا سابا بعد اغابوس ثم اخيريوس الاول فكاربيوس الثالث فيعقوب الثاني فارسانبيوس الثاني فيوحنا السابع فينيقيفوروس الثاني فاثناسيوس الثاني (٢) . ولا مجال للظن في صحة هذه الرواية فذبتيخة دير القديسة كاترينة في طور سيناء المؤرخة في السنة ١١٦٦ تذكر اسمي يوحنا ونيقيفوروس بطريركي اوروشليم (٣) واعمال المجمع القسطنطيني في السنة ١١٥٧ تثبت اشتراك يوحنا بطريرك اوروشليم في جلساته كما تبين اعمال مجمع السنة ١١٦٦ ان نيقيفوروس مثل كنيسة اوروشليم . وصنف يوحنا رسالة في السنة ١١٦٠ بحثت في الطقوس اللاتينية (٤) . وعند خروج اللاتينيين من اوروشليم في السنة ١١٨٧ كان هنالك بطريرك ارثوذكسي مستعد لتسلم السلطات الروحية هو اثناسيوس الثاني (٥) .

- 1) Rohricht, R., *Gesch. des Konigreichs Jerusalem*, 98 - 99, 184 ; Cahen, C., *op. cit.*, 314 - 317 ; Richard, J., *op. cit.* 97 - 98.
- 2) Dositheus, *Istoria Ierosolymois Patriar.*, II, 1243 ; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, 498 - 503.
- 3) Brightman, F. E., *Liturgies Eastern and Western*, I, 500 - 502.
- 4) Cha'andon, F., *Les Comnènes*, 642, 648, 651, 653 ; Krumbacher, K., *Gesch. der Byzant. Litt.*, 91.
- 5) Runciman, S., *East. Sch.*, 90.

ولجأ يوحنا السابع البطريرك الانطاكي الى القسطنطينية كما سبق وأشرنا . ثم استقال فأوعز الفيلسوف الى الأساقفة الانطاكيين الذين فروا مع بطريركهم ان ينتخبوا خلفاً له فأجمعوا على تسليم عكاز الرعاية الى يوحنا الثامن (١١٠٦ - ١١٣٧) فلوفاً (١١٣٧ - ١١٥٥) . ولا بد ان يكونوا قد حذوا حذو زملائهم الاوروشليميين فتابعوا انتخاب البطارقة في الغرب . فقد جاء في لأئحة قسطنديوس القسطنطيني ان يوحنا التاسع تسلم عكاز الرعاية في القسطنطينية في السنة ١١٥٥ وان افثيميوس خلفه في الكرسي الرسولي في السنة ١١٥٩ وان مكاريوس الثاني تولى السدة الانطاكية في السنة ١١٦٤ فتبعه في الرئاسة اثناسيوس الثاني سنة ١١٦٦ فيثودوسيوس الثالث سنة ١١٨٠ فالياس الثالث سنة ١١٨٢ فخريستوفوروس الثاني سنة ١١٨٤ فيثودوروس الرابع (بلسامون) سنة ١١٨٥ فيواكيم سنة ١١٩٩ فدوروثيوس في السنة ١٢١٩ فسمعان الثاني سنة ١٢٤٥ فافثيميوس الثاني سنة ١٢٦٠ . وفي عهده أخرج المالك الصليبيون من انطاكية (١) .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان الروايات في هذا الموضوع متضاربة متخالفة وان احداً من العلماء الباحثين لم يعالج هذه الروايات معالجة علمية فنية . ولكن الثابت الراجح هو ان الاكليروس الارثوذكسي لم يعترف بسلطة اللاتين على كنيسة انطاكية وانه أقام بطارقة ارثوذكسيين يونانيين في الفترة التي تولى الصليبيون فيها انطاكية وتوابعها . ولكن هذه الروايات تتداخل وتتألف حول رئاسة اثناسيوس الثاني ونيودوروس الرابع وسمعان الثاني وتتفق الى حد بعيد في تعيين ظروفها .

اثناسيوس الثاني : (١١٦٥ - ١١٧٠) وظلت انطاكية وجهة آمال الروم وحديث أحلامهم وظلوا يرقبون تطور الظروف ويترصدون سوانح القرص للظفر بها . وتوفي بوهيموند الاول في ايطالية في السنة ١١١١ . وقتل تنكريد الصقلي في الميدان في السنة ١١١٢ . وخرّ بوهيموند الثاني صريعاً في قيليقية سنة ١١٣٠ وتولى الوصاية على ابنته قسطنديا روجه الساليرني . فارتأى الفيلسوف يوحنا الثاني ان

1) Constantius, *Patriarch of Const., Patriarchs of Antioch*, (Neale, J. M., *Patriarchate of Antioch*), 174 - 177.

يُزوج ابنه عمانوئيل من قسطندية . ووافقت والدتها . ولكن فولك دانجو ملك اوروشليم أزواج قسطندية من ريمون قومنس بواتيه . فغضب يوحنا الثاني القسيفلس لكرامته وانتهز فرصة الحرب القائمة بين عماد الدين زنكي والافرنج فظهر امام اسوار انطاكية فسقطت في يده في آب السنة ١١٣٧ فأقسم ريمون اميرها ولاء الطاعة للقسيفلس . ثم اضطر القسيفلس ان يحاصر انطاكية في السنة ١١٤٢ . وأصيب بسهم مسموم في اثناء الصيد في قيليقية فولى ابنه عمانوئيل وقام الى القسطنطينية وتوفي فيها سنة ١١٤٣ . واتسعت آفاق عمانوئيل (١١٤٢ - ١١٨٠) وطمع في ايطالية وصقلية وفي امارات الشرق اللاتينية . وتعدى ريمون امير انطاكية واغار على قيليقية فانفذ عمانوئيل حملة واكره ريمون على الذهاب الى القسطنطينية في السنة ١١٤٥ ليطلب العفو . وقتل ريمون في حرب ضد المسلمين في السنة ١١٤٩ فشمّل عمانوئيل ارملة قسطندية بعطفه وحايته . وعلى الرغم من عدم انصياعها له في أمر زواجها من رينو دي شاتيون فإنه ظل يعتبر نفسه سيد انطاكية وتوابعها وفي السنة ١١٥٢ ثار طوروس ابن لاوون الارمني على عمانوئيل واعتصم بتلال قيليقية فاستعان عمانوئيل برينو ووعدته بمكافأة مالية جزيلة . فجرد رينو حملة على طوروس ثم قلب ظهر الحن وانضم الى طوروس وتعاون معه في اغارة كبيرة على قبرص سنة ١١٥٦ . فاستشاط القسيفلس غيظاً وقام بنفسه الى قيليقية . فأمر رينو بمصيصة مقر عمانوئيل أعزل عاري القدمين حاسر الرأس ممسكاً بسيفه من طرف نصلته وارتمى عند قدمي القسيفلس . وما فتى حتى أمره عمانوئيل بالنهوض فاعترف بسيادة القسيفلس ورضي بتسليم قلعة انطاكية وباقامة بطريرك ارثوذكسي في المدينة (١) . وفي السنة ١١٦٢ بلغ بوهيموند الثالث اشده فانتهدت وصاية رينو . وفي السنة ١١٦٤ وقع بوهيموند الثالث اسيراً في يد نور الدين ثم اطلق سراحه لقاء مبلغ كبير من المال . وكان عمانوئيل قد تزوج من مريم اخت بوهيموند فقام هذا الى القسطنطينية يرجو صهره القسيفلس امداده بالمسال اللازم . فصدقه القسيفلس السعي ولبى مبتغاه . فعاد بوهيموند الى انطاكية يرافقه بطريرك ارثوذكسي يوناني هو اثناسيوس الثاني (٢) .

1) Dolger, F., Regesten, 1430 - 1431.

2) William of Tyre, XIX, 11 ; Michel le Syrien, III, 326 ; Chalandon, F., Les Comnènes, II, 531 ; Grousset, R., op. cit., II, 470 - 474.

واعتبر بوهيموند البطريرك اليوناني الارثوذكسي مساوياً لبطريرك اللاتين بالحقوق والكرامة . فامتعض ايماري بطريرك اللاتين واحتج ثم لعن المدينة وخرج منها وأقام في برج القصير (قلعة الضو) بين كنوزه وامواله . وكانت السلطات الارثوذكسية العليا لا تزال تسعى لردّ اليعاقبة والارمن عن القول بالطبيعة الواحدة والعودة بهم الى حضن الكنيسة الجامعة . فلما اطلت السنة ١١٦٦ وانتخب اليعاقبة ميخائيل السرياني بطريركاً عليهم انتهز اثناسيوس الثاني فرصة قدوم البطريرك الجديد الى انطاكية وبحث معه أمر توحيد الكلمة وجمع الصفوف . ودخل اللاهوتي اليوناني ثوريانوس الارثوذكسي في جدل لاهوتي مع ميخائيل . واطلع البطريرك اثناسيوس القسيفلس على ما جرى فاستدعى عاهل الروم البطريرك السرياني الى القسطنطينية للنظر في صلب الموضوع . ولكن ايماري بطريرك اللاتين كان قد اظهر استعداداً للتعاون مع السريان دون قيد او شرط فامتنع ميخائيل عن الذهاب الى القسطنطينية ولم تسفر محاولات اثناسيوس عن اية نتيجة ايجابية . وظل ايماري متمتعاً في برج القصير وواظب كهنته على مقاطعة الروم الارثوذكس وعلى التودد الى اليعاقبة والارمن . وعاد الطرفان السرياني والارثوذكسي الى البحث في السنة ١١٧٨ واجتمعا في روم قلعة . وترأس الوفد السرياني الاسقف باروهيون وترعى الوفد الارثوذكسي كل من القيسوف ثوريانوس وزميله خريستوفوروس ولكن دون جدوى . وانتفخ باروهيون واستكبر من جراء هذه المحادثات فخرج على رئيسه البطريرك ميخائيل وشرط الكنيسة السريانية شطرين ببطريركين متخاصمين متراشقين (١) .

وفي التاسع والعشرين من حزيران سنة ١١٧٠ زلزلت الارض واشتد المصائب فتهدمت الدور والمباني في حلب وحماة وحمص واللاذقية وطرابلس وجبيل وغيرها . ولم تنج انطاكية من هذه الكارثة فأرجفت الكاتدرائية وتناثرت حجارتها فأصاب اثناسيوس الثاني وحاشيته في اثناء قيامهم بالخدمة الالهية . فادعى ايماري وجماعته ان الغضب حل على المدينة لخروج ايماري منها ودخول

1) Michel le Syrien, III, 301 - 304, 332, 334 - 336.

والستين التي طرحها مرقس بطريرك الاسكندرية (١) ومؤانساته الاحدى عشرة (٢).

جمهور المؤمنين : واعتبرت السلطات الصليبية الروحية والمدنية جمهور المؤمنين الارثوذكسيين ابناء كنيسة واحدة جامعة ففرضوا عليهم العشر وأوجبوا خضوعهم لاساقفة لاتينيين واحتلوا الكاتدرائيات والاديار والمباني الكنسية . ومن خضع رجع ومن امتنع امتنع . وسمحوا بعد هذا بممارسة الطقوس البيزنطية في الكنائس العادية كما أبقوا على بعض الرهبان في بعض الاديار . وظل فيلسوف الروم يطالب امراء انطاكية الصليبيين بالطاعة والولاء واشتد الاحتكاك بين الطبقات الارثوذكسية اليونانية العالية في انطاكية واللاذقية وبين الاسر الصليبية المائلة فتتقظ الصليبيون وتحذروا فنشأ عن هذا كله نفور في قلوب الارثوذكسيين الانطاكيين زاد الشقاق الذي كان قد بدأ سنة ١٠٥٤ اتساعاً وعمقاً (٣).

اللاتين والأرمن : وحاولت السلطات الروحية اللاتينية في يادى الامر فرض سلطتها على الاكليروس الارمني فامتعضوا ونفروا وايدهم في ذلك شعبهم وتعاونوا مع المسلمين (٤). ثم استتب الامر للصليبيين في الميدان السياسي ورأى هؤلاء ان لا بد من الاستعانة بالأرمن للضمود في وجه الروم والمسلمين فخفضت غلواء الرؤساء اللاتينيين وواصلوا الاكليروس الارمني واحسنوا صلتهم فاطلقوا يدهم في الروحيات والاحوال الشخصية وتركوا لهم كنائسهم وادبارهم . فحفظ الأرمن العهد وبروا في القول (٥). ثم تمكنت الألفة فاصطحب الطرفان على الغلات. وجاءت السنة ١١٣٩ فأم انطاكية الكردينال ألبريكوس فعقد مجمعا محليا للنظر في قضية رؤول بطريرك انطاكية ودعا بطريرك الأرمن غريغوريوس الثالث واخاه نرسيس لحضور المجمع ففعلا . وفي السنة ١١٤٠ قام الكردينال والبطريرك الى اورشليم فاحتفلا بعيد الفصح فيها واشتركا في اعمال مجمعها اللاتيني . ويرى

1) P. G., Vol. 138, Col. 952 - 1012.

2) Ann. Assoc. Etudes Grecques 1884, 8 - 19.

3) Runciman, S., Eastern Schism, 97 ; Cahen, C., op. cit. 331 - 332.

4) Grousset, R., op. cit., I, 412, 490, 561 ; Cahen, C., op. cit. 335, 336.

5) Grousset, R., op. cit., I, 587 - 594 ; Cahen, C., op. cit., 336.

اثناسيوس اليها . فأمر بوهيموند باخراج البطريرك الارثوذكسي من المدينة فأخرج وهو في حضرة الوفاة (١).

بلسامون ثيودوروس : (١١٨٥ - ١١٩٩) وأشهر بطاركة كنيسة مدينة الله في هذه الحقبة بلسامون القانوني الكبير . وهو ثيودوروس الرابع بموجب اللوائح الكنسية . أبصر النور في القسطنطينية ونذر نفسه صغيراً . والحق بكنيسة الحكمة الالهية والبطريركية المسكونية فكان مثال الورع والتقوى والنشاط والغيرة . وتدرج في المراتب فشغل وظيفة نوموفيلاكس فخرتوفيلاكس فبروتوسنكلوس وانتخب بطريركاً على انطاكية في السنة ١١٨٥ . ولكنه لم يوفق الى الإقامة فيها فبقي في القسطنطينية حتى أدر كته الوفاة في السنة ١١٩٩ . وليس هنالك أي دليل يؤيد اودوان في قوله ان بلسامون انتقل الى رحمة ربه في السنة ١٢١٥ (٢).

وأجبت اسيرة كومنينوس الكنيسة فنفذت كلمة الأحبار واتسعت صلاحياتهم القضائية . فعكف بلسامون خارتوفيلاكس كنيسة القسطنطينية على درس القوانين المدنية والكنسية فهاله تكاثرها وتناقضها . فانخذ أساساً لتدقيقه مجموعة عرفت بالسينتاغمه Syntagma ونسبت الى فوطيوس العظيم ثم جمع كل ما عثر عليه من القوانين المدنية والكنسية منذ عهد باسيليقة لاوون السادس (٨٨٦-٩١٢) فنسقها وفرق بين مهملاتها وما كان لا يزال ساري المفعول منها . ثم محص هذه تمحيصاً محاولاً التوفيق بين قوانين الكنيسة وقوانين الدولة . فأخرج كتاباً أسماه الدليل الى القانون Exegesis Canonum لا يزال حتى يومنا هذا منهلاً عذبا يردده أحبارنا المتبحرون (٣).

ولبلسامون مصنفات اخرى أهمها تأملاته (٤) واجوبته عن المسائل الاربع

1) Ibid., 339 ; William of Tyre, XX, 18.

2) Oudin, C., Comment. Script. Ecc., II, 1606.

3) Beveridge W. Preface to Synodikon P. G., Vol. 137, Col. 19-27 ; Mortreuil, Hist. Droit Byz., III, 432 - 445 ; Heimbach, Griech - Rom. Recht, (Encyc. Ersch et Gruber), Vol. 86, 463 - 467 ; Lingenthal, Z., Griech. Nomocanones, 16 - 17.

4) P. G., Vol. 119, Col. 1161 - 1224.

علماء اللاتين ان ممثل الكنيسة الارمنية اعترف بالطبيعتين في هذا المجمع ولكن علماء الارمن يصرون على انه قال قولاً غامضاً خلاصته ان الكنيستين لم تختلفا في الامور الجوهرية (١).

وجاء بعد غريغوريوس الثالث نرسيس الرابع ١١٦٦ - ١١٧٣ المعروف بالشرنور هالي فحاول التوفيق بين مواقف الكنائس اللاتينية واليونانية والارمنية . ولبنى دعوة الفسيفس عمانوئيل كومنينوس فجالس اللاهوتي الفيلسوف ثيوريانوس ويبحث معه الاختلاف الناشئ عن مقررات المجمع الخلقيدوني . وجاء غريغوريوس الرابع ١١٧٣ - ١١٩٣ فدعا الى مجمع في روم قلعة اشترك في اعماله ثلاثة وثلاثون جباً من مختلف الطوائف فقال الارمن فيه بالطبيعتين . ولكن اصرار الارثوذكسيين اليونانيين على تطبيق الطقوس اليونانية اضطر الارمن الى الاتجاه نحو رومة . فاتصل غريغوريوس الرابع بطريرك الارمني بلوقينوس الثالث بابا رومة فارسل له هذا درعاً وخاتماً وعكازاً (٢) . وجاءت السنة ١١٨٨ فحضر اقليمس الثالث بابا رومة الارمن على التعاون مع الصليبيين (٣) . واعترض غريغوريوس الخامس على هذا التفاهم (١١٩٣ - ١١٩٤) ولكن تدخل الامير الارمني لاوون الثاني ادى الى انعقاد مجمع في طرسوس سنة ١١٩٦ برئاسة غريغوريوس السادس اجمع رؤساء الارمن فيه على القول بالطبيعتين والتعاون مع رومة . وفي السنة ١١٩٩ تقبل لاوون الثاني تاج الملك من يد كونراد الموفد الرسولي الروماني (٤) .

اللاتين واليعاقبة : ولم يرض اليعاقبة عن هذا التآلف والتعاون بين السلطات اللاتينية المدنية والدينية وبين الارمن فاضطربوا ومالوا اكثر من مرة الى الاثراك الملاجقة . وبلغ امراء الرها ذلك فحققوا . وفي السنة ١١٤٨ تنمر جوسلان الثاني امير الرها فكاشفهم بالعداوة ونهب دير مار برصوم ووزع آتيته المقدسة على

1) Runciman, S., *Crusades*, II, 323 ; Ormanian, M., *Church of Armenia*, 48, Musset, H., *Hist. du Chistianisme*, I, 454.

2) Jaffé - Wattenbach, 15, 340.

3) Ibid., 16, 461, 463.

4) Inter Innocentii III, *Epist. P. L.*, Vol. 214, Col. 775 - 780 ; Journeise, F., *Armenie, Dict. Hist. Geog. Ecc.*, IV, Col. 311 - 316.

الارمن . وشتت رهبانه وأحل محلهم جنوداً من الارمن . (١) وجرى مثل هذا في اماره انطاكية . فقد جاء لخائيل السرياني ان جماعته مالوا نحو الاثراك بعد موقفه ابامية في تموز السنة ١١٤٩ (٢) . وتمرد باسيلوس بارصابوني رئيس اساقفة الرها على رئيسه البطريرك اثناسيوس السادس فتدخل برناردوس بطريرك انطاكية اللاتيني في النزاع فغضب اليعاقبة لكرامتهم ونقلوا مركز بطريركهم الى آمد خارج حدود اللاتين (٣) ثم تطورت الظروف السياسية فسعى الامراء الصليبيون الى استرضاء اليعاقبة وشجعت رومة الملاينة شرط الاعتراف بسلطانها . وجاءت السنة ١١٥٦ فاشترك الامراء والاشراف اللاتينيون في تدشين كنيسة مار برصوم وعاد الى انطاكية في السنة ١١٦٦ اثناسيوس الثاني بطريركها السرياني الشرعي وغضب بطريرك اللاتين فوقف اليعاقبة الى جانب اللاتين وزار بطريركهم ميخائيل بطريرك اللاتين مواسياً ثم امتنع عن تلبية دعوة الفسيفس عمانوئيل لتوحيد الصفوف كما سبق واشرنا . وفي السنة ١١٨٠ غط ابن وهبون احسان بطريركه ميخائيل واستسلم الى أربعة أساقفة مشاقين فساموه بطريركاً باسم يوحنا فاستعان ميخائيل بالسلطات اللاتينية المدنية لتأييده ففعلوا . ومن هنا اطراؤه بتسامح اللاتين .

اللاتين والموارنة : ورحب الموارنة بالصليبيين لدى وصولهم الى ابرشيات انطاكية ترحيب الأرمن واليعاقبة والروم ايضاً ورأوا في قدومهم وسيلة فعالة للخلاص من مظالم السلاجقة وغيرهم . وكانوا في تلك الآونة أربعين الفاً منتشرين في تلال طرابلس والبترون وجبيل والجبّة . فلما « خيم الافرنج فوق مدينة طرابلس هبط اليهم جماعة من المؤمنين السريان الذي يسكنون جبل لبنان فوق جبيل والبترون وطرابلس مما يلي الشرق لأجل تهنتهم وعرض خدماتهم عليهم . فرحبوا بهم وتلقوهم بعواطف الحب الأخوي واتخذوا منهم هداة ليرشدوهم الى أمن الطرق وأيسرها في تلك الجبال الهائلة » (٤) . ولم يتفرد

1) Cahen, C., *op. cit.*, 342.

2) Michel le Syrien III, 383 - 391 ; Grousset, R., *op. cit.*, II, 473 - 474, n. 3.

3) Michel le Syrien, III, 222.

4) William of Tyre, XXI, 12.

الموارنة في هذا الترحيب الأخوي الاولي . فالروم والأرمن واليعاقبة سبقوا الموارنة الى هذا الترحيب وقدموا الخدمات في حينها وتحملوا الاضطهاد لأجل الصليبيين. وقد سبقت الإشارة الى موقف البطريرك سميان الأورشليمي من الصليبيين وارساله الزاد والمؤونة من قبرص والى سجن البطريرك يوحنا في انطاكية وحجزه في قفص من حديد وعرضه على أبراجها لأنه كان بطريركاً في الكنيسة الجامعة . وقد ذكرنا تعاون الأرمن واليعاقبة مع الصليبيين في فتوحاتهم الاولي في قسطنطينية وشمال سورية .

واختلفت ظروف الموارنة عن ظروف سائر الطوائف غير اللاتينية . فانهم لم يتمتعوا بحماية الفيلسوف تمتع الارثوذكسيين ليقرفوا بالخيانة . ولم يسكنوا كبريات المدن ليحتك أساقفتهم بأساقفة اللاتين وزعمائهم ويناصوا الجرة ويسالموها . ولم يكونوا طائفة كبيرة غنية تناظر غيرها من الطوائف . وهكذا فانه لم يقارب القرن الثاني عشر نهايته حتى توثقت العرى بين الموارنة والصليبيين فاجتمعوا على النعماء والبأساء فنضج الود « فرجعوا الى رشدهم بالهام الهي وهبوا من خولهم فجاءوا الى ايماري وهو الثالث من بطاركة اللاتين . وبعد ان رفضوا الضلالة التي استمروا عليها بكل خطر مدة طويلة رجعوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية قابلين الايمان الارثوذكسي مستعدين ان يتمسكوا بتقاليد الكنيسة الرومانية وان يحفظوها بكل احترام » . هذا ما رواه غيليموس الصوري تحت أخبار السنة ١١٨٢ (١) وتاريخ غيليموس هذا هو من أفضل المراجع اللاتينية لتاريخ الصليبيين بين السنة ١٠٩٥ والسنة ١١٨٤ . ولد مؤلفه في الشرق قبل السنة ١١٣٠ فتكلم العربية واليونانية بالاضافة الى اللاتينية . ثم رحل الى فرنسا في طلب العلم وعاد الى فلسطين حوالي السنة ١١٦٠ . وفي السنة ١١٧٤ تولى ادارة المحفوظات الملكية في اورشليم وتدير سياسة المملكة الخارجية (٢) . ثم أصبح في السنة ١١٧٥ رئيس أساقفة صور . وفي السنة ١١٨٣ رشح نفسه لبطريركية اورشليم فلم يفلح فاعتزل الرئاسة الروحية وأقام في رومة فتوفي فيها في السنة

1) William of Tyre, XXII, 8.
2) Richard, J., Royaume de Jérusalem, 76.

١١٨٧ . وبدأ غيليموس تدوين تاريخه في السنة ١١٦٩ فاعتمد غيره من المؤرخين لتاريخ الحملة الاولي . واستقى أخبار السنوات ١١٢٧ حتى عودته الى الشرق من المحفوظات الملكية اللاتينية في اورشليم . اما ما تبقى من الحوادث اي ما جرى بين السنة ١١٦٠ والسنة ١١٨٤ وبينها رجوع الموارنة عن القول بالمشيئة الواحدة واتحادهم مع كنيسة الغرب فانها من مروييات عصره عن حوادث جرت في الساحل نفسه الذي أقام فيه (١) .

وتتوفر لهذه الرواية في شخص راويها غيليموس الصوري معظم شروط العدالة والضبط . فقد كان الراوي رئيس أساقفة صور عند وقوع ما يروي ودون في وقت قريب من زمن وقوع الحادث الذي يروي وكان من أدري الناس في موضوع روايته . وقد اشتهر باتزانة وعدم التطرف في الحكم والقول . وروايته هذه ليست فريدة في بابها . فبولقة البابا انوشنتيوس الثالث التي صدرت في السنة ١٢١٥ ووجهت الى بطريرك الموارنة وأساقفتهم وجمهور أكليريوسهم تذكر الموارنة بوجوب التيقظ « وتدارك الخطأ » والقول « بدون تردد » بانبثاق الروح القدس من الآب والابن وبالاكتفاء بتسمية الثالوث مرة واحدة في المعمودية وبمحصر سر التثبيت بالاساقفة . وبالامتناع عن ادخال أبة مادة اخرى غير الزيت والطيب في اعداد الميرون وبوجوب الاعتراف بالخطايا والتناول ووجوب القول « بمشيئتين في المسيح مشيئة الهية ومشيئة بشرية » والامتناع عن استعمال الاواني الزجاجية والخشبية والبرونزية في الذبيحة والاستعاضة عنها بالالاواني الفضية او الذهبية واستعمال الاجراس لاعلان المواقيت ودعوة الشعب الى الكنيسة (٢) . وفي هذا القول الرسمي الصادر عن اسقف رومة ما يكفي لتأييد غيليموس الصوري في روايته التي نبحت . ولا يجوز الانقاص من أهمية هذا النص واعتباره مجرد محاولة للبتنة الطقوس والقوانين المارونية (٣) . فانوشنتيوس أوجب التيقظ والقول بدون تردد بالانبثاق من الآب والابن وبالمشيئتين ويلاحظ

1) Runciman, S., Crusades, II, 476 - 477; Cahen, C., op. cit., 17; Prutz, H., Wilhelm von Tyrus; Lundgreen, Wilhelm von Tyrus.

2) Quia divinae Sapientiae, Anaissi, T., Bullarium Maronitarum, 2 - 3.

3) Dib, P., Eglise Maronite, 198.

هنا ان هذا البابا لم يوجب القول بالطبيعتين في هذه البولة لأن الموارنة كانوا قد قالوا بالطبيعتين منذ بداية عهدهم ولكنه اهتم بأمر المشيئتين .

ويرى علماء الموارنة ان غليلموس اسقف صور نقل رأيه في عقيدة الموارنة عن سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري وان هذا لم يكن على بيئة من امره وان ما ورد في بولة انوشنتيوس الثالث عن امر المشيئتين والمشيئة الواحدة جاء مقتضياً جداً . فلو كان هذا البابا يعلم ان الموارنة كانوا في الواقع ممن لا يزال يقول بالمشيئة الواحدة لجاء كلامه في هذا الموضوع اشد واقوى واكثر تفصيلاً . ويرون ايضاً ان الظرف الذي ظهرت فيه هذه البولة كان ظرف المجمع اللاتراني الرابع ظرف اصلاح وتثبيت لا ظرت نبذ تعاليم معينة . ولو كان هنالك نبذ للقول بالمشيئة الواحدة لظهر اثره في اعمال هذا المجمع . ويضيفون ان مساهم في طرابلس في السنة ١١٨٢ انما كان تأييد الموارنة لبابا شرعي ضد مناظر دخيل . والاشارة هنا الى النزاع بين البابا الكسندروس الثالث والبابا فيكتور يوس الرابع الذي انتهى في السنة ١١٨٠ . فيكون الاجتماع في طرابلس الذي يشير اليه غليلموس الصوري من نوع ما جرى في السنة ١١٣١ . ومما يقوله علماء الموارنة في هذا الصدد ان الموارنة ناصروا الصليبيين اللاتنيين منذ وصولهم الى لبنان ومازجهم في عز صولتهم وانتصاراتهم فهل ظلوا مخالفين حتى اذا غلب الصليبيون على امرهم وضايقهم خصمهم صلاح الدين الايوبي باتوا اشد استعداداً الى الاتحاد بكنيسة الغرب (١) .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان مراجعنا الاولية قليلة وان انوشنتيوس لا يقول بصراحة في البولة التي اصدرها ان الموارنة كانوا يقولون حتى يومه بالمشيئة الواحدة . والواقع ايضاً ان المراجع المارونية متأخرة لا يجوز الاخذ بها لاثبات ما جرى في طرابلس في السنة ١١٨٢ او قبلها . فأقدم روايتهم ابن القلاعي وهو من اعيان القرن الخامس عشر . ولا يجوز كذلك اعتماد البولات البابوية كما

1) Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 86 - 113.

لباب البراهين المطران يوسف دريان ٣١٤ - ٣٣٥ والموازنة للمطران غنايل صومط ١١ - ١٢ .

اثبتها الأب العنيسي لانه تلاعب في نصوصها (١) . ولعل المستقبل يظهر من المراجع ما يعين المؤرخ على البت في هذا الموضوع الدقيق .

دير البلمند : وليس لنا ان نبحث في آثار الصليبيين الفنية الكنسية في هذا التاريخ العام ولا ان نصف جميع الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في بعض ابرشيات انطاكية لان وصفها يتطلب استعداداً فنياً خصوصياً لنسنا من اهله . وجل ما نريده هو ان نذكر اهم الكنائس الصليبية القائمة وان نخص دير البلمند بكلمة مفصلة نظراً للمكانة التي يحتلها في قلب كل ارثوذكسي انطاكي .

وأهم الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في ابرشيات انطاكية كاتدرائية طرطوس وكاتدرائية جبيل وكاتدرائية بيروت . وبدأ الصليبيون بانشاء كاتدرايتهم في طرطوس بعد السنة ١١٢٣ فأقاموها فوق مزار السيدة والدة الاله الذي فاخرت به طرطوس منذ اوائل النصرانية وادعت انه اول كنيسة انشئت باسم السيدة . وانشأوا في جبيل في السنة ١١١٥ كنيسة باسم يوحنا المعمدان . ولا يزال نصفها الشرقي الشامي قائماً حتى يومنا . اما نصفها الغربي فانه انهدم فاعيد بناؤه في العصور الحديثة . وبابا الشامي حديث العهد اما الجنوبي فانه من آثار القرن الثاني عشر . وقبة المعمودية صليبية ايضاً وتعود في الأرجح الى حوالي السنة ١٢٠٠ . وأمر بودوان ملك اورشليم ببناء كنيسة كبيرة في بسيروت على طراز الكنائس اللاتينية . فبدأ انشاؤها في السنة ١١١٣ وانتهى في السنة ١١٥٠ . وشيدت على اسم القديس يوحنا المعمدان على شكل مصلب ذي ثلاثة اسواق . « ولما قدر الله بنزع بيروت من يد الافرنج استقرت كنيستهم جامعاً . وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا . وكان بها صور فطلاها المسلمون بالطين . وبقي الطين الى ايام الجذ فيبيضه وازال آثار تلك الصور . وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً » (٢) . والاشارة في

1) Anaissi, T., Bullarium Maronitarum, (1911); Korolevskij, C., A propos d'un Bullaire Maronite, Echos d'Orient, 1912, 462 - 473; De Clercq, C., Conciles des Orientaux Catholiques, (1949), I, 3, n. 2. Karolevskij, C., A Propos d'un Bullaire Maronite, Echos d'Orient, 1912, 462 - 473.

De Clercq, Ch., Hist. des Conciles, XI, 3, (Paris, 1949).

(٢) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى ص ٥٨ . والجند المشار اليه هو جند صالح في اواخر القرن الرابع عشر .

هذا كله الى الجامع العمري الكبير . وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل كوة مكتوب فيها باليونانية : « ان صوت الرب على المياه » (١) .

وفي الثلاثين من ايار من السنة ١١٥٧ تولى رهبان القديس برناردوس المعروف بالكيسر كيين بناء دير على التلة المشرفة على البحر بين انفة والقلمون . وجعلوه على اسم البتول الطاهرة سيدة بلمونت *Abbatia Belimontis* (٢) . وهو لفظ لاتيني منحوت من كلمتين معناها الجبل الجميل . وتم البناء فيما يظهر في السنة نفسها التي استولى فيها الصليبيون على قيصرية فيليبوس (بانياس) اي في السنة ١١٦٩ (٣) . وخص اساقفة رومه هذا الدير بعنايتهم فأصدروا باسمه عدداً من البولات الرسمية منها بولة غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٣٨ وبولة انوشنتيوس الرابع في السنة ١٢٥٠ وبولة اوربانوس الرابع في السنة ١٢٦٢ . ويظهر من هذه البولات ان دير البلمند كان أكبر أديار الافرنج في أمارة طرابلس وانه في منتصف القرن الثالث عشر كان خاضعاً لأسقفية بيروت . ومن رؤسائه الأولين بطرس الالماني . وهناك اشارات الى الاخ اسطفانوس والى الأخ سمعان الطرابلسي . وخرج الرهبان الثلاثين منه في السنة ١٢٨٩ ولعلمهم ذبحوا ذبائحاً (٤) .

ويرى الاثري الكبير الاختصاصي في الفن الصليبي كميل انلار ان بناء الدير الصليبي قام في الأرجح على آثار بيزنطية أقدم منه ويستدل على ذلك بدليلين اولهما تخطيط كنيسة ووجود تاج عمود بيزنطي في البناء والثاني خروج رهبان برناردوس عن المألوف عندهم وتشديد بناتهم هذا على ارتفاع مئتي متر عن سطح البحر . وكنيسة سيدة البلمند تتجه نحو الشرق الشمالي وتتضمن حنية كبيرة وسوقاً واحداً ومذبحاً واحداً . والاكتفاء بمذبح واحد خروج على تقاليد هؤلاء الرهبان الرجال (٥) .

(١) مزمو ٢٨ : ٢ تاريخ بيروت للاب لويس شيخو ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) *Jonghelinus, Gaspard, Notitiae Abbatiarum, Cologne, 1644; Janaschek, Originum Cisterciensium, Vienne, 1877.*

(٣) *Rohricht, R., Syria Sacra, 35; Guthe, R., Zeit der Dent. Pal. Vereins, 1897, 35, 356; Rohricht, R., Gesch. des Konigreichs Jerusalem, 320, 590, 1001 - 1002.*

(٤) *Enlart, C., Abbaye Cistercienne de Belmont, Paris, 1923, 1 - 2.*

(٥) *Ibid. 3 - 4, 6 - 7.*

ويلاحظ ان اعتماد العلامة أنلار رواية الأب ملاتيوس وقوله ان الدير اعيد انشاؤه منذ اربعمئة سنة جاء ضعيفاً . فقد رأى صديقنا المرحوم جرجي بني في دير البلمند كراساً قديماً بخطوط كثيرة تدل على افتتاح الدير مجدداً في السنة ٧١١١ لآدم وهي تعادل السنة ١٦٠٣ بعد الميلاد (١) . ومن هنا في الأرجح قول مكاتب المنسار ان الدير بقي خراباً حتى السنة ١٦٠٣ وان يواكيم ابن الخوري جرجس متروبوليت طرابلس جدد بناءه (٢) . ويلاحظ ايضاً ان لا قيمة لقول البطريك الدوميني ان اللفظ بلمند مشتق من اسم الامير بوهيموند صاحب طرابلس الذي انشأ هذا البناء منزهاً له في السنة ١٢٨٧ . فبوهيموند هذا قضى السنوات الاخيرة من عهده منحصراً في طرابلس لا يستطيع الخروج منها لما كان يلاقيه من مضايقة على يد قلاوون . وبوهيموند توفي منكشاً في طرابلس في التاسع عشر من تشرين الاول سنة ١٢٨٧ (٣) .

ويلاحظ هنا ان بعض ما يرى من نقوش وتيجان ايونية و كورنثية ومعظم الرخام المفروشة به ارض كنيسة القديس جرجس وقفه المشايخ آل زخريا حامات في حوالي السنة ١٨٤٠ ونقلوه بحراً الى البلمند من آثار كنيسة قديمة كانت لا تزال باقية في قرية حنوش بالقرب من حامات وعند ساحل البحر . ولعل هذه الآثار هي من بقايا مدينة كوشار البيزنطية . ولا يزال اسم كوشار يطلق على مضيق صغير يؤدي الى قرية حنوش .

(١) تاريخ سورية لجرجي بني ص ٣٩١

(٢) تسريح الابصار للاب هنري لافنس ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦

(٣) المرجع نفسه ص ١٥٥

الفصل الثاني والاربعون

رُومَة والقِسْطَنْطِينِيَّة
في أثناء الحروب الصليبية

رومة تجهل الوضع الراهن : وخطأت رومة في فهم الوضع الراهن في القسطنطينية فوهمت ان الحل والربط في امور الكنيسة منوطان بارادة الفيلسوف . وأراد كل من الكسيوس وابنسه يوحنا وحفيده عمانوئيل التعاون مع رومة لرغبة اكيدة في توطيد السلام بين المسيحيين ولحاجة ديبلوماسية ماسة . ولكنهم اخفقوا لاسباب اهمها ان الرأي العام في القسطنطينية كان قد نفر عن رومة وان الاكليروس الارثوذكسي كان قد أصبح اقوى من البلاط في تكييف هذا الرأي العام . ورأى هذا الاكليروس ان كنيسة العاصمة كانت اولى الكنائس علماً وعظمةً ومجداً فصعب عليه ان يخفي رأسه لمن كان اقل علماً وأخف وزناً (١) .

خوف الروم وحذرهم : وأطل الصليبيون بغلاظتهم ووعورة اخلاقهم وقلة انضباطهم واستباحاتهم فعانى الروم في مجيئهم برحاً بارحاً وتحملوا منهم رهقاً شديداً . واعتبر ثيوفيلاكثوس المتروبوليت العالم الفاضل الصالح موجة الصليبيين التي مرت في ابرشيات بلغارية اغارةً بربرية جديدة . وهال سكان القسطنطينية النهب والسلب والتخريب الذي صدر عن ضيوفهم الغربيين وازداد عدد التجار الايطاليين في عاصمة الشرق واشتد نشاطهم واتسعت اعمالهم فتوجس زملاؤهم الروم منهم خوفاً فنبض نابضهم وغلى جوفهم . اما ثيوفيلاكثوس وغيره من طبقة وجهور المؤمنين الاتقياء فانهم تغاضوا واغتفروا حباً بالمسيح وتعاونوا في سبيل هدف صالح مقدس ولكنهم لاموا زعماء الصليبيين وانكروا عليهم استهتارهم وقلة مبالاتهم . ثم جاء رئيس اساقفة بيزا لنجدة الصليبيين، ولم يكن بعيداً عن البابا، فغزا المسيحيين في كورفو وليفكاس وزنتة (٢) . وتبين

ايضاً ان رهبان الصليبيين وكهنتهم واساقفتهم كانوا يحملون السلاح ويخوضون المعارك ويسفكون الدماء . فرأى المؤمنون الارثوذكسيون في هذا كله تخديشاً لوجه المسيح وامراً لا يحط عاره ونسوا قداسة اوربانوس الثاني ومحبة المسيحية ولم يذكروا سوى تعاون غريغوريوس السابع مع اعدائهم النورمنديين واصغاء باسكال الثاني لاقاويل بوهيموند ووشاياته . وتعاونت رومة مع امراء انطاكية وملوك اوروشليم واقامت هيرارخية لاتينية في البطريركيتين الشرقيتين ووجبت خضوع الكهنة الارثوذكسيين فيها لاساقفة لاتينيين فزادت الطين بلة وجعلت من بطاركة اوروشليم وانطاكية الشرعيين المقيمين في القسطنطينية اداة دعاية دائمة ضد رومة واساقفتها واكليروسها .

داء الضرائر : ونظر التجار الايطاليون الى زملائهم الروم بعين مريضة وطرف سقيم لان هؤلاء كانوا قد بلغوا من التقدم الفني وجمع الثروة رتبة تقاصرت عنها الاقران وشأوا تقطعت دونه اعناق الايطاليين . فزرع التجار الايطاليون الاحقاد ودرجوا بالنميمة فأصبحوا من سماسة الشقاق ونجسار الفساد وزراع العداوات .

وطمع بوهيموند وتنكريد وغيرهما من رجالات الصليبيين واضطرم صدرهم حسداً وانتشر بينهم داء الأثرة فنصبوا للروم الحبائل ووقفوا لهم بالمرصاد والحاسد مغتاط على من لا ذنب له .

واستصغر الصليبي العادي الرومي واستهان به فراه مخشاً ضعيفاً حقيراً (١) . وتأخر اليكسيوس عن مساندة الصليبيين لاسباب قاهرة اهمها الخطر التركي فأصبح هو ومن حوله مخادعاً مراوغاً . ونشأ كره لاليكسيوس وخلفائه دام في الغرب قرناً طوالاً . وعلى الرغم مما قام به علماء اوروبة من بحث وتدقيق واجلاء وتوضيح فان هذا الكره وما يتبعه من حقد لا يزالان يخران في صدور بعض المؤرخين الغربيين حتى يومنا هذا (٢) .

اليكسيوس وباسكال : (١٠٩٩ - ١١١٨) ورغب اليكسيوس رغبة

1) Guibert de Nogent, Hist. Hieros., Rec. Hist. Grois., IX, 154.

2) Grousset, R.,

1) Runciman, S., East. Schism, 102 - 103; Diehl, C., Byzantium, 217.

2) Anne, Alexiade, XI, 10.

أكيدة في اجلاء الأتراك عن آسية الصغرى فسعى سعيًا حثيثًا للسلم والمسالمة في ساحل الادرياتيک . ولم يكتفِ بمواصلة أساقفة رومة بل حاول اجتذاب بعض الشخصيات الكبيرة في الأوساط الكليريكية الإيطالية كأوديريسيوس *Oderisius* رئيس دير جبل كسينو . فانه كتب الى هذا الرجل البار وأكد رغبته في مساندة الصليبيين ولكنه أوضح ان مثل هذه المساندة لا تكون دائماً ممكنة (١) . وقدر رهبان كسينو اليكسيوس قدره فاعتبروه صديقاً مخلصاً وحامياً أميناً وتابعوا تبادل الرأي والمحبة معه بعد وفاة أوديريسيوس (٢) . ثم طمع بوهيمند بانطاكية وحث في عین الولاة والطاعة لاليكسيوس ولم يبر فيها وقام الى ايطالية ودب عقاربه بين باسكال وبين الفيلسوف وطاف اوروبا يزرع الاحقاد ويضرب ويحرق فامتنع الكسينيون عن مواصلة الفيلسوف ولكن اليكسيوس ظل يألف الكنيسة اللاتينية ويمارجهما ويؤانسها . فانه انشأ في هذه الفترة عينا مأوى كيفيتوت *Civetot* واستودعه رهبان كلوني (٣) .

وتوفي بوهيمند وغيره من زعماء النورمنديين في جنوب ايطالية وتولت الحكم فيها ارامل ثلاث بريثات غير مقلقات أدلة في نابولي وقسطنسة في ترنتو وأدليدة في بالرمو . وفي السنة ١١١١ هجم هنريكوس الخامس على رومة وسجن اسقفها باسكال الثاني واكرهه على تنويعه امبراطوراً وعلى الاعتراف بتدخل الامبراطور في امور الكنيسة . فحرر اليكسيوس كتاباً الى جيراردوس رئيس رهبان كسينو اظهر فيه اسفه الشديد لما حل بالبابا (٤) . ثم كتب الى السلطات في مدينة رومه يشكر لهم ثباتهم في تأييد البابا ويومئ الى استعدادة لقبول التاج الغربي . فأرسل الرومان وفداً الى القسطنطينية فوعد اليكسيوس بالقيام بنفسه الى رومة في صيف السنة ١١١٢ . ثم ألم به مرض أقمعه عن الذهاب الى رومة فأرسل من ناب عنه في هذه المهمة (٥) .

- 1) Hagenmeyer, H., *Kreuzzusbriefe*, 140 - 141, 152 - 153.
- 2) Peter Diaconus, *Chronica Monasterii Casinensis*, Mon. Germ. Hist., VII, 770, 792.
- 3) Anne, *Alexiade*, X, 6.
- 4) Riant, P., *Inventaire Critique*, 138 - 140.
- 5) Peter Diaconus, op. cit 185; Chalandon, F., *Règne d'Alexis*, 261.

وفي اواخر السنة ١١١٢ كتب باسكال الى اليكسيوس يوجب تسوية الناحية الكنسية من علاقاتها اولا . ويشير الى امتناع بطريرك القسطنطينية عن تقبل رسله ورسائله فيطلب اعتراف « أخيه » هذا بتقدم رومة واحترامه لها قبل الشروع في الدعوة الى مجمع مسكوني ينظر في حل المشاكل المعلقة (١) . ويلاحظ هنا ان باسكال طالب بالعودة الى ظروف القرنين السادس والسابع حينما كان الفيلسوف يفرض على بطريرك عاصمته الحلول فرضاً وانه جهل التطور الذي كان قد تم في علاقات السلطين الزمنية والروحية في عاصمة الشرق وتبلور الرأي العام فيها وكره الاوساط الكليريكية والمتنفذة لرومة وسياستها . والواقع ان اليكسيوس رد على الوفد البابوي الذي حمل رسالة باسكال هذه رداً مبهماً غامضاً (٢) .

بطرس غروسولانوس : (١١١٤) وفي اواخر السنة ١١١٣ او أوائل السنة ١١١٤ وفد على القسطنطينية بطرس غروسولانوس *Grosolano* رئيس اساقفة ميلان . فأحب اليكسيوس ان يقرب وجهتي النظر في أمر الانشقاق واستعمال الفطير فدعا الى طاولة مستديرة غروسولانوس وبعض كبار رجال اللاهوت في العاصمة . فقدم غروسولانوس وجهة نظر رومة (٣) فأثار بذلك عاصفة من الرد شديدة سجل فيها افستراتيوس متروبوليت نيقية ونقيطاس قونية والرهبان يوحنا فورنس ويوحنا زوراس والشاعر ثيودوروس بروذروموس والفيلسوف ثيودوروس ازميز أدلتهم على صحة موقف الكنيسة اليونانية (٤) . وأظهر غروسولانوس وضوحاً في التفكير والتعبير فيما يتعلق بأمر الانشقاق ولكن حجج زملائه اليونانيين كانت أدق وأكثر اتزاناً . واستشهد هؤلاء بأقوال الآباء في استعمال الخمر ولكنهم لم ينجحوا في اقناع زميلهم اللاتيني . وانفرط العقد دون الوصول الى نتيجة مفيدة (٥) .

أفيمسوس زيغابنوس : وأدرك أليكسيوس انه ابتسر حاجته قبل

- 1) Paschal II, *Epist.*, P. L., Vol. 163, Col. 388 - 390.
- 2) Chalandon, Alexis I, 262.
- 3) P. G., Vol. 127, Col. 911 - 920.
- 4) Demetracopoulos, A., *Biblioth. Ecc.*, I, 36 - 198, *Graecia Orthodoxa*, 11 - 12; Krumbacher, K., *Gesch. der Byz. Litt.*, 85 - 87.
- 5) Runciman, S., *East. Schism*, 108 - 110.

أوانها فأوعز الى لاهوتيه افثيموس زيغابينوس *Zigabenos* ان يتحاشى في كتابه البانوبليسة *Panoplia Dogmatica* (١) البحث في الانبثاق وان يقصر خطاه في جولاته في الفطير والخمير ويذكر ذلك في اثناء الكلام عن سوء تصرف الارمن . ويرى بعض رجال الاختصاص ان ما جاء في البانوبلية عن الانبثاق هو لفوطيوس وقد دس دساً على مصنف زيغابينوس (٢) .

حنة كومنينوس : ولا تمثل حنة كومنينوس الكنيسة الارثوذكسية في تهجمها على احوار رومة كما انها تعترف الامور اعتنائاً عندما تقول ان المجمع الخلقيدوني رفع اسقف القسطنطينية الى اعلى الدرجات وأخضع له جميع اسقفيات المسكونة (٣) .

بطرس المحترم : وتوفي اليكسيوس وباسكال في السنة ١١١٨ . وتبنى الفيلسوف يوحنا الثاني سياسة والده اليكسيوس . فلاطف الغرب ولاينه وأظهر استعداداً حقيقياً للتعاون مع حبر رومة وامبراطور الغرب وحاول ربط اسرته بالاسرات المالكة في الغرب بالتزواج . وتودد في اوائل عهده الى احوار رومة وتمنى التفاهم بين الكنيستين ولكنه لم يطلق لنفسه العنان في ذلك ولم يربط اكليروسه بشيء .

وبادل بعض كبار الاكليروس في الغرب اخوانهم في الشرق هذا اللطف وهذه الملاينة ولم يتعرفوا فيما يظهر الى شيء من الانشقاق عنيف عميق . فبطرس المحترم رئيس رهبان كلوني كتب في السنة ١١٢٠ كتاباً الى الفيلسوف يوحنا الثاني راجياً متابعة العطاء لدير كفيوتوت . وحرر في الوقت نفسه الى بطريرك القسطنطينية مؤكداً رغبته في زيارة القسطنطينية « المدينة التي أسسها المسيح وقسطنطين » ليزور كنائسها ويترك بذخاتها . ثم يضيف فيقول :

« وعندئذ ارى وجهك فاحترم في شخصك جميع احوار مدينتك المباركين وتعاقد برضاك تعاقد لا ينفك ونقسم بين الحبة المتبادلة . وارجو عندئذ وجهاً

1) P. G., Vol. 130.
2) Runciman, S., *East. Schism*, 110, n. 1.
3) *Anne, Alexiadé*, I, 12.

لوجه ما اطلبه الان عن بعد ان تذكرونا نحن قطع كلوني بالحجة في صلواتكم وصلوات شعبكم فنبادلهم الحبة والصلاة » (١) .

أنسلموس ونيقيطاس : (١١٣٦) ووفد على القسطنطينية في السنة ١١٣٦ أنسلموس اسقف هافلبرج ليفاوض يوحنا الثاني باسم لوثر الثالث امبراطور الغرب في امر التعاون ضد روجه الثاني الصقلي . فاستقبل هذا الاسقف الغربي استقبالا حاراً وأجيب سؤله السياسي ثم أفسح له المجال للبحث في الخلاف بين الكنيستين مع نيقيطاس متروبوليت نيقوميذية وبحضور الفيلسوف . وتم الجدل في جو هادئ لطيف . وقام بعمل الترجمة موسى برغامو الايطالي فنقل الكلام بدقة ووعي وإخلاص . فسر أنسلموس . ثم رفع تقريراً بما جرى الى البابا اوجينيوس الثالث ضمنه دفاعه عن موقف رومة وأبان فيه وجهة نظر القسطنطينية (٢) .

وبحث الاسقفان أمر الانبثاق واستعمال الفطير . فأظهر نيقيطاس استعداد القسطنطينية للقول بالانبثاق من الآب « بالابن » لا « والابن » وأكد في الوقت نفسه وجوب اعتبار ذلك تفسيراً للدستور لا اضافة عليه . وأظهر نيقيطاس تناقضاً في موقف بابوات رومة من الفطير فاستعان بمقاطع من كلام البابوين ميلخيادس وسيريكيوس مستدلاً بذلك على استعمال الخمير في رومة في القرن الرابع (٣) . وخلص الى القول : « نحن لا ننكر تقدم كنيسة رومة بين البطريركيات الاخوات الخمس ونعترف بوجوب اعطائها مقعد الشرف في المجمع المسكوني ، ولكنها فصلت نفسها عنا بأعمالها . فانها أعطت نفسها بدافع الكبرياء ملكاً لا يتفق ووظيفتها . وكيف يمكننا ان نقبل منها أوامر صادرة عنها بدون استشارتنا وبدون علمنا . واذا كان الحبر الروماني يريد ان يرشقنا بأوامره من عرشه المجيد العالي ويريد ان يقضي بيننا ويحكمنا تحكماً واستبداداً فأى اخوية تصبح كنيستنا واي ابوية تتصرف بشؤوننا . واذا كان هذا هو حالنا فاننا نصبح

1) *Pierre le Vénérable*, P. L., Vol. 189, Col. 260 - 262.
2) *Anselm, Dialogi*, Achery, *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, I, 161 ff.
3) « fermentum »; *Liber Pontificales*, (Duchesne), I, 74 - 75.

عبيد الكنيسة لا أبنائها وتصبح كنيسة رومة سيدة قاسية متجبرة متصلة على جماعة من الأرقاء لا أمّاً تقيّة لأولادها « (١) .

وأجاب أنسلموس بأنه يحقّ لرومة أن تكون المرجع القضائي الأعلى لأن أحكامها كانت دائماً صحيحة ولأنها لم تقع مرة واحدة في الهرطقة . ثم أردف مبيناً حقها في التقدم والسلطة لأنها وريثة بطرس الرسول . ولكن نيقيطاس أكد أن الروح القدس حلّ على جميع الرسل وأنه كان لهم جميعاً أن يربطوا وأن يحلوا على السواء ولم ير في الاختلافات الناشئة من ذلك لا يمكن حله في مجمع مسكوني . ولكنه رفض أن يتلقّى أوامر من رومة « لأن الخبر الروماني لم يكن أميراً على كهنة أو كاهناً أعظم وإنما كان اسقف الأبرشية المتقدمة » (٢) .

وذهب الخرتوفيلاكس نيقيطاس مارونية إلى أبعد من هذا فلم ير ما يمنع القول بالانثاق من الآب والابن ولكنه أنكر على رومة حريتها في التصرف وإضافة عبارة الفيلوكوي إلى الدستور . ولم يرض عن مطالبها الإدارية (٣) . ونيقيطاس هذا أصبح فيما بعد متروبوليت تسالونيكية .

الفيلسوف عمانوئيل : (١١٤٣ - ١١٨٠) ورأى عمانوئيل الأول رأي والده وجده فسعى للتفاهم مع رومة في الحقل السياسي وأحب الغربيين وقرّوسيتهم وعلى الرغم من تفاقم بغض بين الروم والشعوب اللاتينية من جراء تصرفات الصليبيين فإنه ظل يواصل الغرب ويقاوضه . وشجع تبادل الرأي في موضوع الخلاف بين الكنيستين اليونانية واللاتينية .

أنسلموس وباسيليوس : وفي السنة ١١٥٤ وفد الاسقف أنسلموس مرة ثانية على القسطنطينية . وعرج على تسالونيكية في طريقه إلى الغرب فباحث متروبوليتها باسيليوس في أمر الانثاق والفطير . فبين مرة أخرى أن سبب التباعد الأساسي كان إصرار رومة على السلطة المطلقة والطاعة العمياء (٤) . وفي السنة التالية كتب

1) Anselm, *Dialogi*, op. cit., I, 196.

2) Ibid., I, 197.

3) Nicetas Chantophylax, *Dialogi de Spiritu Sancto*, P. G., Vol. 139, Col. 224 ff.

4) Schmidt, *Das Basilius aus Achrida, Erzbischofs von Thessalonich*.

البابا اديانوس الرابع إلى باسيليوس نفسه يوصيه برسلة الذاهبين إلى القسطنطينية في مهمة سياسية . وقدّم لهذه التوصية بعبارات مأوّهة الادعاء بالسلطة كما عرفها غريغوريوس السابع والتنديد بضلال افترضته رومة افتراضاً (١) . فأجاب باسيليوس مؤكداً وجوب الصاق تهمة الضلال باليونانيين عند التثبت من إقدامهم على « تحوير دستور الايمان واستعمال الفطير » ! ثم أضاف أن الاختلاف بين الكنيستين صغير جداً وأن تلافيه ممكن بصدق الطوية وجميل النية وبتعاون الاساقفة غربيين وشرقيين . فأنجلى الاشكال الذي كان قد رافق التفاوض مدة طويلة وتبين أن سبب الخلاف إنما كان مطالبة رومة بالسلطة والطاعة والحاح القسطنطينية على المساواة والمشاورة (٢) وإن العودة إلى الاتحاد استوجبت تعديلاً هاماً في موقف كل من الكنيستين .

عمانوئيل والكسندروس : وظل البابا الكسندروس الثالث بحاجة إلى من يرفع عنه كابوس امبراطور الغرب ومن يدفع عنه شر الخطر النورمندي وظل الفيلسوف عمانوئيل يحلم بالسلطة على ايطالية والقضاء على فكرة الامبراطورية الغربية فجمعت بينهما أواصر المصلحة فتواصلت وتجاُملا وتبادلوا رسائل المودة (٣) وفي السنة ١١٦٦ كتب عمانوئيل إلى البابا الكسندروس الثالث يعرض اتحاد الكنيستين مقابل اتحاد الامبراطوريتين . وفي السنة ١١٦٩ كتب ثانية يقترح المناداة به امبراطوراً على الغرب لدى دخول جيوشه إلى رومة والمناداة بالكسندروس الثالث نفسه بطريركاً على القسطنطينية وذلك لمناسبة وفاة البطريرك لوقا وشغور الكرسي القسطنطيني . فأجاب الكسندروس بأن وصوله إلى عرش القسطنطينية ليس ضرورياً وأنه يكتفي بالاعتراف بتقدمه وبوجوب الترافع أمامه وبذكر اسمه في ذبيحة القسطنطينية (٤) . وكان بمقدور عمانوئيل أن يحقق اثنين من هذه المطالب : تقدم رومة وذكر حبرها في ذبيحة القسطنطينية

1) Mansi, *Sacrorum Conciliorum Collectio*, XXI, 795.

2) Ibid. 799 - 802.

3) Walterich, *Pontificum Romanorum Vitae*, II, 404, 410.

4) *Liber Pontificalis* (Duchesne), II, 419 - 420 ; Cinnamus, John, *Epitome Historiarum*, (Meineke), 262 ; Allatus, L., *Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensione*, II, 664 - 665.

ولكن أمر الترافع أمام البابا كان قد أصبح مستحيلاً .

ولم يتمكن عمانوئيل من تأجيل الانتخاب البطريركي الى أمد غير محدد فتبوأ السدة القسطنطينية ميخائيل الثالث (١١٦٩ - ١١٧٧) « مقدام الفلاسفة » . واطلع هذا البطريرك على رسالة الكسندروس الثالث فأعد رداً شديداً على محتوياتها وحصر البحث في حجة رومة التاريخية أي تقدم بطرس على غيره من الرسل ووجوب تقدم خلفائه على خلفاء غيره . فأشار الى علاقة بطرس بكنيسة انطاكية واسبقية هذه الكنيسة التاريخية . وذكر تقدم كنيسة اوروشليم على اخواتها في انها تشرفت بعناية السيد بها وانها شهدت عجائبه وتلقته تعاليمه . واكد ان تقدم كنيسة رومة على سائر الكنائس نتج عن وجودها في اهم مدن الامبراطورية الرومانية . و اضاف ان القسطنطينية اصبحت مركز العالم المسيحي بأسره وانها تفوق رومة في الاهمية . وخلص الى القول ان ظروف الحاضر تقضي بأن تكون القسطنطينية مركز ادارة الكنيسة الجامعة لا رومة . ومما جاء في رده هذا قوله . « ليكن المسلم لا اللاتيني مدبر اموري المادية . فالاول لا يكرهني على الدخول في دينه واما الثاني فانه يبعدني عن الله » . (١) اما القول : « اني اؤثر عمة السلطان على قبة الكردينال » فانه متأخر يعزى الى الغراندوق لوقا نوتاراس .

اغبرار الجو وانقسام القوى : وتوفي عمانوئيل في السنة ١١٨٠ ففقد اللاتين بوفاته مناصراً حكيماً وفقد الصليبيون بوفاته مسانداً كريماً بذل بسخاء في سبيل زعمائهم مزاراً وتكراراً . وكان عمانوئيل ، قد اعجب بفروسية الافرنج فقبلهم في جيشه واستند اليهم عدداً كبيراً من المناصب العالية فأثار بذلك حسد زملائهم الروم . وعطف على التجار الايطاليين فكثرت عددهم في العاصمة واستولوا على مرافقها فأثارت كبرياءهم غضب التجار الروم (٢) .

ولم يكن لعمانوئيل من امرأته الالمانية الاولى سوى بنت واحدة سماها حنة وازوجها في السنة ١١٧٨ من الامير الايطالي رينه موتي فرات

- 1) Michael Anchialos, Dalog. (Loparev, Unionism of Emperor Manuel Comnenus, Vizantiiskii Vremennik, 1917, 344 - 347 : Runciman, S., East. Schism, 121 - 122.
- 2) Hegd, W., Hist. du Commerce du Levant, 198 - 222.

Rainier de Monteferrat . وكان له ابن من زوجته الثانية مريم الانطاكية اللاتينية اسمه اليكسيوس . وكان هذا لا يزال قاصراً في الثانية عشرة من عمره . فلما توفي عمانوئيل نفذت مريم الانطاكية وصية زوجها فتردت بثوب الرهبنة وتولت الوصاية على ابنتها القاصر . وطلبت الى اليكسيوس ابن اخي زوجها المتوفي ان يساعدها في الحكم . ولم يرض جمهور من الاشراف ورجال القصر عن سياسة اليكسيوس المساعد لعطفه على اللاتين وتعاونهم معهم . واتهموا الفسياسة الجميلة بأشياء واشياء منها عطفها على بني جنسها اللاتين . فقاموا جميعاً واندلعت ثورة في ايار السنة ١١٨١ وتدخل البطريرك ثيودوسيوس وصالح الحزبين . وكان لعمانوئيل ابن عم اسمه اندرونيكوس . وكان قد تأمر على سلامة ابن عمه القسيفلس فاضطر ان يفر من وجهه . واذا رأى اندرونيكوس الامور على ما كانت عليه في القسطنطينية أعلن العصيان فالتف حوله جيش من المحاربين القدماء وقام بهم الى العاصمة . فطلب طرد مريم انطاكية وعشيقها وبقاء الملك في يد ابنتها اليكسيوس الصغير . فساعده الشعب على ذلك . فأيد الافرنج الساكنون في العاصمة مريم فأعلنها اندرونيكوس حرباً دينية قومية باسم الروم والارثوذكسية . فكانت مجزرة في العاصمة سقطت في اثنائها معظم الافرنج من سكانها (١) .

وجاش صدر اللاتين بالغل وباتوا يقاتلون . وقطع البابا علاقاته مع القسطنطينية ودفع ملك المجر ييجوشه الى ضفة الدانوب وشجع فريديريكوس بارباروسه اعداد حملة تقتص من الروم في عقر دارهم . وقام غيليموس الثاني الصقلي على رأس جيش الى البلقان وحاصر ثسالونيكية (١١٨٥) فدخلها وقتل ونهب وأحرق . ودخل رجاله الكنائس بسيفهم يشوشون ويطأون حيث لا يجوز ويكسرون ويسلبون . وفي اواسط ايلول زحفوا الى القسطنطينية . وكان اندرونيكوس في جزائر الامراء يتنعم ويتلذذ . فقام اسحق انجيلوس وضم الشعب اليه واستولى على القصر المقدس وهب يسعى في قتال النورمنديين فضر بهم ضربة قاضية عند ديمترتزة *Dimitritza* فأخلوا وتراجعوا ووقعوا الصلح (٢) .

- 1) Nicetas Choniates, Historia, 291 - 355 : William of Tyre, Historia, XXII, 10 - 11 ; Ostrogorsky, G., The Byz. State, 350 - 356.
- 2) Dolger, F., Reg., 1567, 2569.

اسحق وصلاح الدين: وعاد اسحق الى مواصلة الغرب فحالف البنادقة وعوض على الجنوبيين والبيزنتيين (١) وخطب ودّ رومة وفاتها الكلام في الائتلاف وجمع الشمل (٢). ولكن تطور الموقف في الشرق وعودة الاتراك السلاجقة الى التوسع والنهب والسلب اضطراره اضطراراً الى التحالف مع صلاح الدين عدو الصليبيين الالد. ولما سقطت اوروشليم في يد صلاح الدين سنة ١١٨٧ عاد اليها بطريرك ارثوذكسي هو اثناسيوس الثاني. فعرض اللاتين لاسحق بالنكير وقبّحوا فعله واعتبروه خائناً لا يرعى ميثاقاً.

موقف البطريرك الانطاكي: (١١٨٥-١١٩٩) وتسبب السدة البطريركية الانطاكية في هذه الفترة بلسمون الشهير (ثيودوروس الرابع). واضطر هذا الخبر ان يبقى في القسطنطينية لان السلطات اللاتينية الروحية والزمنية كانت قد اغتصبت عرش انطاكية اغتصاباً. وكان بلسمون عالماً فاضلاً وقانونياً كبيراً فساءه هذا الاغتصاب وأغضبه مطالب رومة. وصنف في الترموقانون كما سبق وأشرنا واجتهد في علاقة السلطات الزمنية بالروحية فقال بوجود تعاونها لخير الشعب والدولة ولكنه ميز القسطنطينية فاعتبره مسؤولاً عن الدنيا والدين وجعله فوق الشرائع والقوانين لا يخضع الا للعقيدة المقدسة كما أقرتها المجامع المسكونية السبعة. والقسطنطينية في نظر بلسمون أعلى من البابا ولا يجوز له اكراه الكنيسة اليونانية على الخضوع الى كنيسة رومة لانه بعمله هذا يسخر بقرارات المجامع السبعة ويهينها. وهذه المجامع أقامت سلطة بطريركية خمسة وأقرت دستوراً للامان عيشت به رومة فأضافت اليه (٣).

وكتب مرقس بطريرك الاسكندرية الى بلسمون يستشيريه ما اذا كان يجوز له ولكهنته ان ينالوا اللاتين. فأجابه بلسمون « بأن الكنيسة الغربية فصلت نفسها عن البطريركيات الأربع فأصبحت غربية عن الارثوذكسية وسقط اسم رئيسها من الذبتيخات. وهكذا فانه لا يجوز ان يناول اللاتيني الا

1) Heyd, W., op. cit., 225 - 230.

2) Dolger, F., Regesten, 1615.

3) Theodore Balsamon, Canonem XVI Concilii Carthaginensis, P. G., Vol. 138, Col. 93.

بعد امتناعه عما يفصله عنا واعترافه بالخضوع لقوانين الكنيسة متحداً مع الارثوذكسيين». ولم يطلب بلسمون اعادة معمودية اللاتين ولم يعتبرهم هراطقة كاليعاقبة والنساطرة ولكنه حكم عليهم بالانشقاق (١).

واشتهر بلسمون بعلمه وفضله فشاع رأيه وقال قوله عدد كبير من معاصريه فاعتبر الروم اللاتين منشقين منفصلين عنهم. ولكنهم لم يجمعوا على ذلك فان عدداً من رجال ذلك العصر خالفوا بلسمون في اجتهاده واعلنوا مخالفتهم. وأشهر هؤلاء ذيمتريو خوماتيانوس Chomateanos. فقد عارض هذا الباحث البطريرك الانطاكي ولم يرض عن مقاطعة اللاتين قبل النظر في امرهم في مجمع مسكوني (٢).

ويروى عن بلسمون انه سمح باستعمال السريانية في جميع كنائس انطاكية ليسهل بذلك عودة اليعاقبة الى حضن الكنيسة الام. وكان قد كثر رجوعهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأكثرتهم يجهل العربية واليونانية. وفعل البطريرك ذلك عملاً بوصية الرسول القاضية بجعل الصلاة بلغة يفهمها الشعب. واستمر دخول اليعاقبة في الارثوذكسية فيما بعد. ومن هنا هذه المخطوطات الكنسية الارثوذكسية بالسريانية وحدها او بالسريانية واليونانية او بالسريانية واليونانية والعربية. وقد رأينا واحدة من النوع الثالث في طرابلس تعود الى السنة ٧١٨٨ اي ١٦٨٠.

وقد يفيد من يدعي ان اللغة السريانية كانت لغة كنيسة انطاكية الغالبة دليل وجود مثل هذه المخطوطات ان يعلم ان الكتب الكنسية باللغة الكرجية كثيرة نسبياً في دير المصلبة ودير القديس سابا بفلسطين. فهل هذا يعني بأن الكرجية كانت اللغة الغالبة في كنيسة اوروشليم. وهل وجود المخطوطات السريانية في دير القديسة كاترينة في سيناء يعني ان اللغة السريانية كانت لغة هذا الدير.

الصليبيون وكنيسة قبرص: وكان اسحق ذو قاس كومنينوس قد استأثر

1) Ibid., Vol. 138, Col. 968.

2) P. G., Vol. 119, Col. 956 - 960.

بالسلطة في جزيرة قبرص ثم أعلن نفسه فيلسافاً مستقلاً وحالف الصقليين والارمن وصلاح الدين . وكانت الانواء قد هبت شديدة فقذفت بمراكب ريكاردوس قلب الاسد الى جزيرة كريت فجزيرة رودوس . وجنحت سفينتان عند سواحل قبرص فيها خطيبة ريكاردوس واخته (١١٩١) . ولم يحسن اسحق السياسة فأسرع ريكاردوس غاضباً الى قبرص وخرج اليها بعساكره وحبس فيلسافها واقرن بخطيبته فيها وصادر نصف املاك الجزيرة واقطعه الى رجال حملته (١) . واشترى غي ده لوزينيان جزيرة قبرص من ريكاردوس قبل رحيله لبلاده وانشأ ملكاً له فيها وادخل قوانين وعادات اقطاعية ظلت قائمة في الجزيرة حتى ملكها الاتراك العثمانيون .

وأدى احتلال قبرص الى اخضاع اكليروسها اساقفة و كهنة الى السلطات اللاتينية الروحية . وتقاسى هؤلاء وتصلفوا ولجأوا الى العنف احياناً الى اعدام الكهنة الارثوذكسين احياناً اخرى ! (٢) وشاعت اخبار القساوة والعنف والقتل في جميع الاوساط الارثوذكسين فأوغرت الصدور واستوقدت الغيظ وزادت الانشقاق اتساعاً .

اليكسيوس الثالث وانوشنتيوس الثالث : واعتبر اللاتين الروم منشقين ايضاً . وامتنعوا عن اعتبار القسطنطينية مدينة مقدسة كما فعلوا في بدء الحروب الصليبية . وسنسمعهم يتغنون بعد الاستيلاء على القسطنطينية (١٢٠٤) بالمقطع :

Constantinopolitana

Civita diu profana

القسطنطينية

المدينة الشريرة (٣)

وعلى الرغم من هذا ظل البابا والفيلسوف متواصلين تربطها مصلحة

الضمود في وجه العدو الالماني الامبراطوري المشترك . فاليكسيوس الثالث الذي رقي العرش احتجاجاً على سياسة العطف على اللاتين فاوض البابا كيليستينوس الثالث وتوصل الى تفاهم متبادل معه (١) . وتوفي هنريكوس السادس الامبراطور الالماني في السنة ١١٩٧ فخلفه أخوه فيليبوس السوابي فتشوف الى المطامع نفسها التي كان يطمح اليها أخوه . وكان قد تزوج من بنت اسحق انجلوس الفيلسوف الخلوغ فأضاف الى مطامع اسرته التقليدية حق الدفاع عن حق مسلوب . فلما تبوأ انوشنتيوس الثالث السدة الرومانية في السنة ١١٩٨ كتب اليكسيوس الفيلسوف اليه مهتماً مقترحاً عقد تحالف سياسي (٢) . فرحب البابا باقتراح الفيلسوف ولكنه استصعب التحالف مع امير لا تعترف كنيسته بسلطة رومة . ثم أشار الوفد الروماني على الفيلسوف بارجاع ابنة الكنيسة الى حضن الكنيسة الام وبالتعاون في حرب صليبية جديدة (٣) فأكد اليكسيوس استعداداً للتعاون في حملة صليبية جديدة ولكنه أسف لاعمال اللاتين في قبرص . ثم أضاف « ان اتحاد الكنائس سهل عندما ترضخ المشيئة البشرية لمشيئة الله أي عندما يلتزم مجمع مسكوني ليعمل بالهام الروح القدس » (٤) .

البطريرك يوحنا العاشر : (١١٩٩-١٢٠٦) وأعد البطريرك القسطنطيني يوحنا العاشر Kamateros رسالة وجهها الى البابا انوشنتيوس الثالث . ومما جاء في هذه الرسالة ان الكنيسة الام هي كنيسة اورشليم لا كنيسة رومة وانه اذا كان احد قد جروء على تمزيق قبض السيد المخلص فانما هو رومة نفسها . فهي التي غيرت دستور الايمان بعد ان وقعت وقعتها وقالت به زمناً طويلاً (٥) .

ورد انوشنتيوس على هذا الخطاب رداً لطيفاً فأبان ان كنيسة رومة هي ام الكنائس احتراماً لا عمراً وأكد للفيلسوف استعداداً للاشتراك في مجمع مسكوني بعد اعتراف كنيسة القسطنطينية بسلطة رومة (٦) . فأبعد بقوله هذا كل امكانية للاتحاد .

1) Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 130 - 133, Dolger, F., Reg. 1635.

2) Dolger, F. Reg. 1643.

3) Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 327.

4) Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 765 - 768.

5) Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 768 - 769.

6) Ibid.

1) Runciman, S., Crusades, II, 43 - 47, Sources, 46, n. I.

2) Hill, G., Hist. of Cyprus, II, 45 - 47, III, 1041 - 1104; Sathas, Meseionike Bibliothek, II, 20 - 39.

3) Sequentia Andegavensis, Riant, P., Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, II, 45.

الحملة الصليبية الرابعة : (١٢٠٣ - ١٢٠٤) واطلع انوشنتيوس الثالث على شروط معاهدة الرملة (١١٩٢) فأسف كل الأسف وهب يستنهض الهمم لتأليف حملة صليبية رابعة . وكان انوشنتيوس عالماً ذكياً حازماً قوياً ورأى ان من الواجب على كل نصراني ان يخف لنصرة الصليب فبث رسله في جميع أنحاء اوروبة لترويج دعوته . ولكن أحداً من كبار الملوك لم يلب النداء . ففيليب الثاني ملك فرنسا كان لا يزال تحت الحرم لهجره زوجته الثانية وتزوجه من ثالثة . وكان يوحنا الثاني ملك انكلترا لا يزال في خصام شديد مع أشرف بلاده وأعيانها . وكانت قد نشأت مشادة عنيفة في المانيا لتسليم العرش الامبراطوري بين فيليبوس السوابي واوثون الرابع . بيد ان هذا كله لم يمنع الفرسان الغربيين عن تقبل الدعوة .

وألح من حمل الصليب لهذه المناسبة شيخ البندقيسة هنريكومس دوندولو Dandolo الأعمى . وكان قد عرف القسطنطينية حق المعرفة وقد بصره فيها عندما حول بعض الروم نور الشمس الى عينيه بمراة مقعرة . فغضب وحقدت وأضر السوء . وكان سياسياً مخنكاً ومفاوضاً حاذقاً . فلبى نداء البابا ليقضي على دولة الروم ويستأثر بتجارها (١) . وكان بين اللامعين بونيفاتيوس موتتي فرات الذي تسلم قيادة الحملة في حزيران السنة ١٢٠١ . وطمع بونيفاتيوس في عرش القسطنطينية لانتسابه الى الاسرة المالكية بالمصاهرة ولشدة إعجابه بنفسه . وهو الذي تظاهر بالدعوة لتحويل الحملة على القسطنطينية يوم كان الرجال الصليبيون لا يزالون في كورفو (٢) . ومن رشح نفسه لعرش القسطنطينية قبل قيام الحملة الرابعة فيليبوس السوابي فانه أظهر رغبته في تحقيق حلم أسرته منذ السنة ١٢٠٢ (٣) . وقد اختلف رجال الاختصاص في اسباب تحول الصليبيين عن الاراضي المقدسة الى القسطنطينية . فقام في السنة ١٨٦١ ماسلاتري الافرنسي بتهم البندقية بالوصول الى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن اراضي

- 1) Diehl, C., Venise, 47 - 48; Frolov, A., Déviation de la IVe Croisade, 12 - 15, 15, n. 2.
- 2) Robert de Clari, XXXIII; Frolov, A., op. cit., 9 - 11.
- 3) Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 42 f.; Bréhier, L., l'Eglise et l'Orient au Moyen Age, 152 ff.

وممتلكاته (١) . وأيد قوله كارل هوبف الالماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة المرية وجعله في الثالث عشر من ايار سنة ١٢٠٢ (٢) . وفي السنة ١٨٧٥ قام الكونت دي ريان الافرنسي يلقي المسؤولية في هذا التحول على عاتق فيليبوس السوابي فيجعل التحول مظهراً من مظاهر النزاع بين الامبراطور الغربي والبابا (٣) . والواقع ان كلا من هؤلاء كان له مطعمه وان انوشنتيوس الثالث ارادها حرباً صليبية حقيقية ولكن ظروفاً نشأت في آخر ساعة شجعت الطامع على الجهر بمطعمه فالحملة تجمعت في البندقية في شهري تموز وآب من السنة ١٢٠٢ . والصليبيون عجزوا عن دفع نفقات السفر . فانتهز دندولو الفرصة واقترح تدويخ زارة عبر الادرياتيک لحساب دويلته . فقام الصليبيون الى زارة . وعيناً حاول اهلها اظهار شعائر النصرانية على الاسوار (٤) . والواقع ايضاً انه في اثناء السنة ١٢٠٢ افلت اليكسيوس انجلوس ابن اسحق الثاني من السجن الذي كان قد اودع فيه وجاء صفلية ثم رومة يستعطف السلطات الزمنية والروحية على قضيته . ثم اتجه شطر المانية يستعين بشقيقته ايرينة زوجة فيليب السوابي فأوفد فيليب وفداً الى زارة يوصي البنادقة والصليبيين باليكسيوس . ففتحت امام دندول وبونيفاتيوس آفاق جديدة وهب كل منهما يقنع الصليبيين بالقبول . ووعد اليكسيوس بدفع مبلغ كبير من المال مقابل معونته وأظهر استعداداه لادخال كنيسة الروم في طاعة البابا واشترائه اشتراكاً فعلياً في الحرب المقدسة (٥) .

واقبل الصليبيون الى القسطنطينية اولاً فظهر اسطولهم امام اسوارها في ٢٤ حزيران سنة ١٢٠٣ . وقطعوا السلاسل الحديدية التي حمت مدخل القرن الذهبي فدخلت مراكب البنادقة واحرقت مراكب الروم . ثم اقتحم الفرسان الصليبيون اسوار العاصمة فاستولوا على المدينة في تموز من السنة نفسها . وفر اليكسيوس

- 1) Mas - Latrie, L., Hist. de l'Ile de Chypre, I, 162 - 163.
- 2) Hopf, K., Geschichte Griechenlands, I, 188.
- 3) Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 321 - 374.
- 4) Luchaire, A., Innocent III : La Question d'Orient, 103 - 105.
- 5) Nicetas Chon., Hist., 712 ; Luchaire, A., op. cit., III ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 368 - 370.

الثالث بخزينة الدولة وجواهرها . وأطلق سراح اسحق الثاني وأعلن ابنه اليكسيوس الرابع شريكاً له في الحكم . وطالب الصليبيون بتنفيذ المعاهدة أي بدفع المال المتفق عليه وباعداد قوة تقوم معهم الى الاراضي المقدسة . فاستمهلهم اليكسيوس ورجاهم ان يقيموا خارج أسوار العاصمة . وامتنع الروم من اللاتين الفاتحين وأتهموا اسحق وابنه بالخيانة . وهب صهر اليكسيوس الثالث ، وهو اليكسيوس دوقاس ، الى السلاح فكانت ثورة أدت الى وفاة اسحق وخفق ابنه اليكسيوس الرابع . ونودي باليكسيوس دوقاس فيلسافاً فعرف باسم اليكسيوس الخامس .

وفي آذار السنة ١٢٠٤ وقع الصليبيون والبنادقة اتفاقاً فيما بينهم لاقسام الامبراطورية الشرقية بعد احتلال العاصمة . وقضت شروط هذا الاتفاق بأن تقام في العاصمة حكومة لاتينية وان تقسم الغنائم فيما بين الطرفين وان تتولى لجنة مؤلفة من ستة بنادقة وستة صليبيين امر انتخاب امبراطور « يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة ومجد الامبراطورية » . واتفق الطرفان على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها وعلى تقسيم ما بقي من العاصمة وازاضي الدولة مناصفة بين البنادقة وبين الصليبيين (١) .

ثم حاصر الصليبيون القسطنطينية وفر اليكسيوس الخامس فتدفقوا اليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ مقتلين فاتكين ناهبين . واشترك في القتل والنهب الرهبان والأساقفة ! ورموا الايقونات رمياً مهيناً ونثروا عظام القديسين المجاهدين . ودلقوا جسد الرب ودمه على الأرض وأخذوا الآنية المقدسة ليشربوا منها خمرهم . وفي كنيسة الحكمة الالهية كسروا المائدة المقدسة وحطموا الايقونوستاس والمنبر ليأخذوا الفضة التي كانت تغطيها . وأدخلوا بغالهم الى حشد أقباس الهيكل . وأجلسوا امرأة فاحشة على الكشيدة . واعتبر الأب مرتينوس رئيس دير باريس Pairis نفسه مترفعاً لأنه لم ينهب سوى الكنائس ! وأحرقوا عدداً كبيراً من المخطوطات اليونانية والكتب المقدسة (٢) ! وخاضوا في

1) Tafel und Thomas, Urkunden Zur Altern Handels und Staatsgeschichte, I, 446 - 452.
2) Nicetas Choniates, Historia, (Bonn) 757 - 763 ; Innocent III, Epist. P. L., Vol. 215, Col. 699 - 702 ; Frolow, A., op. cit., 53 ff.

الباطل وتنايعوا في الضلال فافرض صبر الاكليروس اليوناني فكتب هؤلاء الى انوشتيوس نفسه يصفون ما حل بالكنايس ويرجون رد الجلاح والقبص على المنكر (١) .

انوشتيوس وكنيسة القسطنطينية : والتأمت لجنة الانتخاب فأقامت بلديون قومس فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية . وتسلم اكليروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية واقاموا توما موروسيني بطريركاً على القسطنطينية وتوابعها . وفر البطريك الشرعي يوحنا العاشر الى مدينة ديزيمونيخوس واقام فيها . ثم استعفى وتوفي في السنة ١٢٠٦ .

ولم يرض انوشتيوس عن حصار زارة وغن اقتحام القسطنطينية لان الحملة أعدت للعمل في الاراضي المقدسة (٢) . ولم يرض ايضاً عن انتخاب توما موروسيني بدون موافقته (٣) . ولكنه سرّ بوصول بلديون الى عرش القسطنطينية وبدخول الامبراطورية الشرقية وكنيستها في حوزة رومة واعتبر ذلك عجباً بهية *Magnifica Miracula* (٤) . ثم تواردت اخبار الفظائع وتفصيلها فكتب يشجب ويستنكر (٥) . ولكن الروم اكليروساً وشعباً لم ينسوا ابتهاجه واعجوبته اليهية واتهموه بالتصنع والمداهنة واعتبروه مسؤولاً عن كل ما جرى (٦) .

وعلم انوشتيوس ان ليكنة شعب بكامله غير ممكنة فأوصى بملاطفة الاساقفة اليونانيين وبعدم التسرع في سيامة اساقفة لاتينيين . ولكنه أوجب على الاساقفة اليونانيين ان يقسموا بما يلي :

« اقسم بالطاعة والولاء لبطرس الرسول وللكنيسة الرومانية المقدسة وللكرسي الرسولي ولبيدي انوشتيوس وخلفائه الكاثوليكين . وادافع قدر المستطاع عن ممتلكات بابا رومة وشرفه وحرمة . والي الدعوة الى الجامع عندما يطلب ذلك مني . وازور البلاط البابوي *ad limina* اما بشخصي واما بمن ينوب عني . واستقبل باحترام القاصد البابوي . واعاونه في كل شي » (٧) .

1) Cotelierius, Ecclesiae Graecae Monumenta, III, 510 - 514.
2) Frolow, A., op. cit., 43 - 54.
3) Innocent III, Epist., P. L., Vol. 215, Col. 512 - 517.
4) Ibid. Col. 445 - 455.
5) Ibid., Col. 699 - 702.
6) Novgorod Chronicle, (Nasonov) Acad. of Sc., U. S. S. R., 245 - 246.
7) Innocent III, Epist., P. L., Vol. 215, Col. 1352.

وكتب انوشنتيوس الى بطريركه الجديد موريوس يوصيه بالاعتراف بالسيامة الأرثوذكسية القديمة ولكنه يوجب سيامة المستجدين بالطريقة اللاتينية ويؤكد وجوب ذكر اسمه واسم البطريرك اللاتيني في جميع الذبيائح (١).

وتجاهل انوشنتيوس اموراً أهمها ان الصليبيين لم يتمكنوا من احتلال جميع الامبراطورية الشرقية وانه قام على انقاضها دويلات ثلاث مستقلة كل الاستقلال وانه كان بإمكان الاساقفة اليونانيين ان يلجأوا الى هذه الدويلات ولا سيما دولة نيقية وان معظم الامراء الصليبيين كانوا بعيدين عن المسيح رعناء لا يرون الا قضاء حاجاتهم المادية.

والواقع ان عدداً كبيراً من الاساقفة الأرثوذكسين تركوا ابرشياتهم والتحقوا بالسلطات اليونانية المستقلة. وفي السادس من شباط سنة ١٢٠٦ اجتمع في نيقية كبار رجال الدين وأعيان الأمة ودعوا يوحنا العاشر البطريرك المسكوني للاجتماع معهم. فلما ارسل هذا استعفاه انتخب الاساقفة المجتمعون ميخائيل الرابع (بافتوريانوس) بطريركاً مسكونياً ونصبوه في العشرين من آذار. ثم أقاموا بعد وفاته (١٢١٢) ثيودوروس الثاني (ايرنيكوس) ثم مكسيموس الثاني في السنة ١٢١٥ ثم عمانوئيل الاول (١٢١٥) فجرمانوس الثاني (١٢٢٢).

وكان من بقي من رجال الاكليروس في داخل الدولة اللاتينية الجديدة قد رأى ان تبقي رومة على تقاليدهم وطقوسهم مقابل الاعتراف بسلطانها. فحرروا في السنة ١٢٠٦ رسالة الى انوشنتيوس أظهروا فيها استعدادهم للاعتراف به بابا وثالث عشر الرسل ولكنهم رجوه ان يكون لهم بطريرك من أبناء جنسهم يتكلم لغتهم ويعرف تقاليدهم وطقبائعهم. فامتنع انوشنتيوس فاضطروا ان يؤيدوا المتطرفين منهم وان ينزحوا الى نيقية وغيرها وان يشتركوا في انتخاب بافتوريانوس (٢) ولم ينعم انوشنتيوس بموهلة المحبة ولم يفسح المجال

1) Ibid., Col. 1353.

2) Gardner, A., *Lascaidas of Nicaea*, 97 - 98.

لعمل الروح القدس فكتب الى القسيفلس الجديد موجهاً مكدرأ فاضاع بقلة محبته فرصة سانحة لتوحيد الصفوف (١).

سمعان الثاني البطريرك الانطاكي : (١٢٠٦ - ١٢٤٠) وتوفي ولي العهد في انطاكية ريموند ابن بوهيموند الثالث في السنة ١١٩٧. فاختلفت كلمة الانطاكيين في ولاية العهد وتعارضت اهواؤهم واضطرب حبلهم. فان ريموند من زوجته الارمنية كان لا يزال طفلاً. وكان بوهيموند الثالث الامير الحاكم قد ناهز الستين. فخشي الا يطول أجله وان يتولى الارمن الوصاية على الوريث الطفل. فأرسل كتبه اليه الارمنية وابنها الطفل الى ارمينية وراح يدرس قضية الخلافة. وكان لبوهيموند الثالث امير انطاكية ابن آخر اسمه بوهيموند ايضاً. وكان اميراً على طرابلس. فلما علم بوفاة اخيه ولي العهد في انطاكية طمع في انطاكية ورغب في حكمها. وكان كثير المراغب واسع المطامع متضللاً في القانون يجيد الدفاع عن نفسه والافتاء بما يشاء. وكان قد طمع في اوقاف كنيسة طرابلس ودخل في نزاع حول ذلك مع اسقفها بطرس. وكان بطرس هذا قد اصبح بطريركاً على انطاكية Pierre d'Angoulême (١١٩٦ - ١٢٠٨). فلما شعر بما قد يؤول اليه عرش الامارة الانطاكية ثار ثأره وهب يعاكس بوهيموند امير طرابلس. وكان انوشنتيوس الثالث يتطلع الى ليتنة الشرق بكامله. وكان قسم من الارمن قد خضع لرومة كما سبق واشرنا فشمّل البابا انوشنتيوس الامير الطفل وامه اليه الارمنية بعطفه ودافع عن حقوقها في الحكم. فاستحكم الشقاق بين انوشنتيوس البابا وبطرس البطريرك وبين بوهيموند الطرابلسي وأمسوا لا تجمعهم جامعة. وكره اللاتين الانطاكيون الارمن ومالوا الى الروم في انطاكية ليستعينوا بهم.

وفي نيسان السنة ١٢٠١ توفي بوهيموند الثالث امير انطاكية فجاء ابنه بوهيموند الرابع واستولى على زمام الامور وصادق الظاهر ملك حلب ليستعين به على لاوون الارمني خصمه الجديد. وتدخل البابا انوشنتيوس الثالث في النزاع

1) Heisenberg, A., *Neue Quellen Zur Gescg. des Lateinischen Kaisertums. un der Kirchenunion*; Norden, W., op. cit., 215 - 233; Innocent III, *Epist.*, P. L., Vol. 215, Col. 1272.

الانطاكي وارسل الرسل للنظر في هذا النزاع وحله. فقبل الارمن وامتنع بوهيموند مدعياً ان لا علاقة للكنيسة بنزاع اقطاعي صرف. وفي السنة ١٢٠٣ طلب لاوون الارمني الى البابا ان يتولى شؤون الكنيسة الارمنية مباشرة.

وكان من حسن حظ بوهيموند الرابع ان تعارضت اهواء البطريرك بطرس في السنة ١٢٠٥ بأراء القاصد الرسولي وذلك حول سيامة ارشيدياكون انطاكية. فاستغل بوهيموند هذا النزاع وخلع بطرس خلعاً في السنة ١٢٠٦ ودعا سمعان الثاني البطريرك الارثوذكسي لادارة شؤون الكنيسة. فرأب انوشنتيوس بين البطريرك والقاصد وأوجب مقاومة سمعان البطريرك الانطاكي وصديقه بوهيموند. فحرم بطرس البطريرك اللاتيني بوهيموند ومن شدد ازره فغصت كنائس الروم باللاتين. فلجأ بطرس الى الدس والمؤامرة ودبت عقاربته بين القوم. ثم لجأ الى العنف فأدخل بعض الفرسان الموالين له وحاول قلب الحكم. فأمر بوهيموند به فحوكم وسجن وتوفي في السنة ١٢٠٨ (١).

وراع انوشنتيوس عودة الروم الى كرسي الرسولين فأوعز الى بطريرك اوروشليم اللاتيني ان يحرم بوهيموند ففعل في السنة ١٢٠٨. وفي أوائل السنة ١٢٠٩ عين البابا بطرس اسقف اغري بطريركاً على انطاكية. وأعلم بوهيموند بذلك وأوجب الاعتراف بالبطريرك الجديد بطرس الثاني وهدد بالحرم. فأبى بوهيموند الخضوع لبطريرك اللاتين وحرض الاكليروس اليوناني عليه. ثم رأى انوشنتيوس ان تعرض قضية الخلافة في انطاكية على محكمته العليا في رومة. فأجاب بوهيموند ان حق النظر في هذه القضية يعود الى البلاط البيزنطي (٢). وظل سمعان الثاني البطريرك الشرعي يدير دفعة الامور الكنسية في انطاكية حتى السنة ١٢١٣. وأطلق انوشنتيوس لنفسه عنان هواه فكتب الى الملك الظاهر في حلب يرجو الحماية لبطريرك اللاتين في انطاكية (٣)!

- 1) Korolewski, Antioche, Dict. Hist. Ecc. Cahen, C., op. Cit., 600 - 615; Runciman, S., Crusades, III, 99 - 101, 135 - 138; Grousset, R., Croisades, III, 255 - 259; Luchaire, A., Innocent III, 39 f.; Rey, E. G., Hist. des Princes d'Antioche, 389.
- 2) Luchaire, A., op. cit., 40 - 41.
- 3) Rey, E. G., Dignitaires de la Principauté d'Antioche, 139, Grousset, R., op. cit., III, 259.

وتبدلت الاوضاع السياسية وأصبح بطريرك اوروشليم البرنوس صديق الهيكليين اصدقاء بوهيموند فاعترف بوهيموند بالبطريرك اللاتيني الانطاكي الجديد. فابتعد مناظره الارمني لاوون عن رومة ففاوض فسيفس نيقية ورحب بسمعان الثاني ودعاه للاقامة في ربوعه في قيليقية واعاد الى الكنيسة الانطاكية الاراضي التي كانت قد سُلخت عنها ووضعت تحت تصرف اللاتين (١).

الهيرارخية الانطاكية : ولا يجوز البت في تسلسل السلطنة البطريركية الانطاكية في هذه الحقبة فالمراجع لا تزال متضاربة في نصوصها ولم يقم احد بعد لجمعها والنظر فيها بالطريقة العلمية الحديثة. فقسطنديوس القسطنطيني الذي اعتمد محفوظات البطريركية المسكونية يدكر يواكيم بعد ثيودوروس الرابع (باسمون) ويجعل مدة رئاسته تمتد من السنة ١١٩٩ حتى السنة ١٢١٩. ثم يذكر دوروثاوس (١٢١٩ - ١٢٤٥) فسمعان الثاني (١٢٤٥ - ١٢٦٠) فافيميوس الثاني (١٢٦٠ - ١٢٦٨) فثيودوسيوس الرابع (١٢٦٩ - ١٢٧٦) فارساناوس (١٢٨٥) (٢). واعتمد لوكيان الغربي نيقيفوروس كاليستوس فذكر داود بعد سمعان (الثالث) فافيميوس فثيودوسيوس الخامس فارساناوس.

مجمع نغية (١٢٣٤) وانطلق من الاسر في قونية في السنة ١٢٣٢ خمسة رهبان فرنسيسكانيين. فجاءوا نيقية وفاتحوا البطريرك المسكوني جرمانوس الثاني في اتحاد الكنيستين. فسر البطريرك بهم واطلع الفسيلفس يوحنا الثالث باطاجي Vatatze على ما اقترحوه فوافق الفسيلفس فكتب جرمانوس الى البابا اغريغوريوس التاسع فجاء نيقية في السنة ١٢٣٤ وفد بابوي لهذه الغاية مؤلف من راهبين فرنسيسكانيين وراهبين دومينيكانيين. وكان بين المفاوضين الارثوذكسين بالاضافة الى جرمانوس نيقيفوروس البلميذي. ولعل افيميوس الانطاكي اشترك ايضاً في اعمال هذا المجمع. وأظهرت رومة استعدادها للاعتراف بجرمانوس. واقترح الفسيلفس التسامح في امر الفطير شرط التمسك بنص دستور الايمان

- 1) Cahen, C., op. cit., 615 - 619; Runciman, S., Crusades, III, 137 - 138.
- 2) Neal, J. M., Hist. of church of Antioch, (Patriarchs of Antioch by Constantius), 176 - 177.

وحذف العبارة «والابن» عند الكلام عن الانبثاق. وارتأى نيقيفوروس البلميذي ان «يفسر» الدستور بالقول بالانبثاق من الآب بالابن. فرفض الوفد الروماني كل هذا واصرروا على الخضوع لرومة. فبدأ من الطرفين ما دعا الى التحذر. واكفهر الجوفانسحب الرهبان الغربيون غاضبين ساخطين فتعتهم الاساقفة الشرقيون بالهرطقة فردوا بمثل ما نعتوا به (١). فكتب عندئذ جرمانوس مصنفه الشهير في انبثاق الروح القدس (٢).

البطريك الانطاكي داود: (١٢٤٠ - ١٢٤٧) وتفيد المراجع الغربية انه لدى وفاة سمعان الثاني رقي السدة الرسولية الانطاكية داود وان داود هذا قبل اقتراح الموفد الروماني لورنزو اورطة بأن يستقل الروم بإدارة شؤونهم الكنسية وان يتمتعوا بامتيازات اللاتين شرط اعترافهم بسلطة رومة. وتضيف هذه المصادر ان هذا الترتيب الجديد لاقى نجاحاً كبيراً في انطاكية. وان بطريك الروم اصبح هو البطريك النافذ المطاع وان زميله اللاتيني أثر الإقامة في اوروبة تاركاً وراءه في انطاكية نائباً بطريكاً (٣).

مشروع انوشنتيوس الرابع: (١٢٥٣) ورغب انوشنتيوس الرابع (١٢٤٢ - ١٢٥٤) في قسم التحالف بين الروم والالمان واحب ان يتم اتحاد الكنيستين على يده ولمس ضعف اللاتين في القسطنطينية واحتضار دولتهم فيها فعزل موقف سلفائه ونهج نهجاً جديداً. وففاوض الروم على اساس الاعتراف برئاسته والقبول بكل ما يقره ما دام لا يخالف بذلك قرارات المجامع المسكونية ورفع القضايا التي تتعلق بكبار رجال الاكليروس اليه والغاء امبراطورية اللاتين وعودة بطريك الروم الى القسطنطينية وتلاوة قانون الايمان في الشرق بدون اضافة «والابن» اليه. وكاد التفاهم يتم بين الطرفين وأم رومة وفد يوناني

مفاوض مطلق الصلاحية ولكن البابا والفيلسوف توفيا في السنة ١٢٥٤ (١).
نيقية تفاوض رومة: وفي السنة ١٢٥٦ ارسل ثيودوروس الثاني لاسكاريس نبيلين من نبلاء الروم الى رومة ليعلم خبرها الكسندروس الرابع باستعداد سيدهما للمفاوضة في سبيل اتحاد الكنيستين. فأوفد الكسندروس اسقفاً اسمه قسطنطين الى نيقية لهذه الغاية وخوله حق الدعوة الى مجمع مسكوني واتخاذ الاجراءات التي يراها مناسبة. ويرى رجال الاختصاص ان الطرفين اتفقا على ان تتم المفاوضات على الاسس نفسها التي كان قد اقترحها يوحنا باطاجي في مجمع نيمفة سنة ١٢٣٤ (٢). ثم قام ثيودوروس على رأس جيش نيقاوي الى بلغارية واحرز فيها انتصارات هامة فلمس ضعف اللاتين وقرب اجلهم. وعلم في أثناء ذلك بوصول الاسقف قسطنطين الى مقدونية فامتنع عن مقابله وأمر بخروجه من اراضي الروم (٣).

وتوفي ثيودوروس الثاني في السنة ١٢٥٨ واغتصب العرش ميخائيل الثامن (بالولوغوس). وكتب هذا الى البابا في اثناء محنته في السنة ١٢٥٩ في موضوع الاتحاد. ولكن الكسندروس الرابع لم يستغل ظرف ميخائيل في الوقت المناسب. وتغيرت الظروف باستيلاء الروم على القسطنطينية (٤).

مجمع ليون: (١٢٧٤) وسالم ميخائيل الثامن المغول في آسية ليشن له فرض سلطته على ممتلكات الروم في البلقان. وبذل جهده لتدارك حملة صليبية جديدة على القسطنطينية فتودد لخير رومة وسعى لارضائه بتوحيد الكنيستين.

ووصل اوربانوس الرابع الى السدة البابوية في السنة ١٢٦١ وسعى لتنظيم حملة جديدة على القسطنطينية. ففاوضه ميخائيل في أمر الاتحاد فعزل اوربانوس عن مشروع الحملة. وكاد الاتفاق يتم لولا وفاة البابا (١٢٦٤). وخلف

1) Norden, W., *Das Papsttum und Byzanz*, 756 - 759, Append. XII; Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 544; Ostrogorsky, G., *Byz. State*, 392.
2) Schiltmann, F., *Zur Byzantinischen Politik Alexanders IV. Romische Quartalschrift*, 1908, 108 - 131, II, 14 - 15.
3) Georges Acropolita, *Annales*, Ch. 67, (Heisenberg), 139 - 140.
4) Norden, W., *op. cit.*, 382 - 383; Janin, R., *Les Sanctuaires de Byzance sous la Domination Latine, Etudes Byzantines*, 1945, 134 - 184

1) Hefelé - Leclercq, *Hist. des Conciles*, V, 1569 - 1572.
2) P. G., Vol. 140, Col. 621 - 757; Krumbacher, K., *Gesch. der Byz. Lit.*, 174; Lagopates, S., *Germanos*, (Tripolis, Greece, 1913); Golubovich, G., *Disputatio Latinorum et Graecorum*, Archivum Franciscanum Historicum, 1919, 418 - 424; Nicephorus Blemmydes, *Curriculum Vitae et Carmina*, (Heisenberg), 40 - 42, 63 - 71.
3) Reg. Honorii Papae III, 5567, 5570; Cahen, C., *op. cit.*, 684 - 685; Grousset, R., *Croisades*, III, 512 ff.; Runciman, S., *Crusades*, III, 231 - 232.

أوربانوس الرابع أقليمس الرابع فغدا أشد اندفاعاً من سلفيه في إعادة الإمبراطورية اللاتينية في الشرق . وصارح أقليمس ميخائيل مهدداً بأنه لا يضمن له شيئاً قبل خضوعه هو وكنيسته لسلطة رومة (١) . وشجع هذا البابا كارلوس أنجو ملك صقلية على العمل الحربي في الشرق وتنازل بلدوين الثاني عن حقوقه في عرش القسطنطينية اللاتيني إلى كارلوس أمام البابا في فيتيربو Viterbo . فخشي ميخائيل الثامن سوء العاقبة ففاوض في عقد الاتحاد . وازداد أقليمس تصلفاً ولم يرض بشروط سلفه ولكنه توفي في خريف السنة ١٢٦٨ . وانقسم الكرادلة على بعضهم فغدت السدة البابوية شاغرة سنتين وتسعة أشهر . فلجأ ميخائيل إلى لويس التاسع ملك فرنسا راجياً وضع حد لمطامع أخيه كارلوس أنجو في ممتلكات الروم (٢) . وتوفي لويس التاسع في السنة ١٢٧٠ وعاد أخوه كارلوس من تونس إلى صقلية وعادت مطامعه في الشرق .

واتفق الكرادلة فأجلسوا على الكرسي الروماني غريغوريوس العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦) . وكان غريغوريوس آنشد في فلسطين فراعته الخطر السياسي الدولي الذي هدد الإمارات اللاتينية بالانهيار . ففاوض التتر في محاربة المسلمين وحض الأمير إدوارد الانكليزي على تنظيم حملة صليبية جديدة . ومر بالقسطنطينية لدى عودته إلى أوروية فلاطف ميخائيل الثامن واطهر استعداداته للعمل الجدي في سبيل اتحاد الكنيستين . ولم يرض عن مطامع كارلوس أنجو (٣) وأرسل بعثة إلى القسطنطينية لتؤكد حماية البابا في حال وقوع الاتحاد (٤) .

وعمل ميخائيل للاتحاد بكل قواه . ودعا الاساقفة والأشراف والوجهاء إلى اجتماع عام . وأبان الخطر الذي أحدق بالدولة وضرورة الاستعانة بالغرب . ولكن هذه الدعاية قوبلت بمقاومة شديدة ومكابرة لا تقبل النقص (٥) ولا سيما من البطريرك والاساقفة وبعض أعضاء الاسرة المالكة . وجمال ما توصل إليه

1) Dolger, F., Reg. 1943, 1947.

2) Ibid., 1968, 1971.

3) Norden, W., Papsttum, 470 - 474.

4) Reg. Pont. Rom., 68.

5) Bréhier, L., Byzance, 398.

ميخائيل أنه استمال أحد علماء اللاهوت يوحنا فقس Veccos وعديداً قليلاً من الاساقفة .

ودعا غريغوريوس العاشر إلى مجمع في ليون في أيار السنة ١٢٧٤ لمساعدة فلسطين واتحاد الكنائس وإصلاح الكنيسة . فلبى الدعوة خمس مئة اسقف وسبعون رئيس دير وحوالي ألف كليمريكي آخرين . وترأس الجلسات غريغوريوس نفسه . وتألف الوفد الرومي الشرقي من البطريرك جرمانوس المستقبل واللوغوثيتوس المؤرخ جاورجيوس الكروبوليتة وثيوفانس متروبوليت نيقية . وكان على الفيلسوف توما الاكوييني أن يتولى الدفاع بنفسه عن موقف الكنيسة اللاتينية ولكنه توفي وهو في طريقه إلى ليون فحل محله الكردينال بوناافتورة Bonaventura . ووصل وفد الروم في الرابع والعشرين من حزيران فاستقبل استقبالاً حافلاً . وتم تبادل قبلة السلام مع البابا والكرادلة . وتليت رسالة الفيلسوف ورسالة ولي عهده اندرونيكوس وبيان كليمريكي مذيبل بامضاءات كليمريكية كثيرة . وقال الوفد بالانبثاق من الآب والابن ووافق على استعمال القبطير وخضع لسلطة رومة العليا . وأكد الفيلسوف استعداداته للاشتراك في حملة صليبية جديدة (١) .

واستقال يوسف الاول البطريرك المسكوني احتجاجاً على ما جرى فتولى الرئاسة بعده يوحنا فقس . وقرعت افلوجية أخاها ميخائيل الثامن وضج الامراء والتأم مجمع أرثوذكسي في ثسالية لتوبيخ الفيلسوف ولقطع فقس (٢) ولكن ميخائيل واظب على الاتحاد حتى وفاته . فانكر الآباء الارثوذكسيون عليه فعله وقلوا رأيه وفندوا قوله (٣) .

1) Vernet, F., Le IIe Concile Oecuménique de Lyon, Dict. Théol. Chrét., IX., Col. 1384 - 1368; Grumel, V., Concile de Lyon et la Réunion de l'Eglise Grecque, Ibid., Col. 1391 - 1410; Norden, W., Papsttum, 520 - 615; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 656 - 659.

2) Grumel, V., En Orient après le Concile de Lyon, Echos d'Orient, 1925, 321 - 322; Rouillard, G., Politique de Michel VIII, Etudes Byzantine, 1944, 73 - 84.

3) Nikolsky, V., The Union of Lyons, Pravoslavnoe Obozrenie, 1867, 5 - 23, 116 - 144, 352 - 378, 1867, 11 - 33.

الفصل الثالث والأربعون

هولاغو والكنيسة

الامبراطورية المغولية : وغمرت سلطة المغول آسية . وسيطر الخان الاعظم على آسية العليا والوسطى ونصف الصين وفارس . وانتشرت النصرانية بلونها النسطوري في آسية العليا . ووطدت الاسر النبيلة النسطورية علاقاتها مع جنكيزخان واولاده . ورغب الامراء المغول في النصرانيات فتزوجوا منهن وبالغوا في احترامهن واكرامهن . وكثر عدد النساطرة في حاشية الخان وجيشه .

الارمن والمغول : وقضى المغول في السنة ١٢٤٣ على جيش سلجوقي قضاء كاملا . فتوقع الارمن توسعاً موغولياً في العراق وآسية الصغرى . فخطر ببال هاتون ملك الارمن ان يقصد الخان ويستجديه في سبيل الارمن والنصرانية . فارسل في السنة ١٢٤٧ اخاه سمباد الى قرقروروم يقدم الخضوع وينتجع ويستمطر فرحب المغول به وأجابوا سؤله وادخلوا الارمن في حمايتهم (١) .

اللاتين والمغول : ولمع في سماء الاسلام نور الدين وصلاح الدين وتقلص ظل اللاتين . وتقاعست اوروبة وقل اندفاعها فأوفد انوشنتيوس الرابع بابا رومة بلان كاربان *Plan Carpin* الى الخان الاعظم غويوك في السنة ١٢٤٥ ليدعوه الى الدخول في النصرانية (٢) .

وفي السنة ١٢٥١ وصل الى عرش المغول مونغكة *Mongka* حفيد جنكيزخان . واستتب الامر له فولى اخاه كوبيلاي الشريك الاقصى واخاه هولاغو فارس وما تبعها . وكانت امهم نصرانية نسطورية . فأوفد لويس التاسع راهباً فرنسيسكانياً اسمه غليلموس روبروك *Guillaume Rubrouck* الى قرقروروم

رومة تفصم العري : (١٢٨١) ووفد على القسطنطينية بين السنة ١٢٧٤ والسنة ١٢٨٠ خمسة وفود رومانية لتثبيت الاتحاد (١) . وفي السنة ١٢٨٠ توفي البابا نقولاووس الثالث فأوصل كارلوس انجو الى السدة البابوية رجلاً يثق في اخلاصه ومحافظته على مصالحه الشخصية هو الكردينال سمعان دي بري الذي أصبح يدعى مرتينوس الرابع (١٢٨١ - ١٢٨٥) . وما كاد هذا الحبر يستوي على عرش الرسول حتى اقترى على ميخائيل فأنهمه بالغش والخداع ثم وضعه تحت الحرم (٢) . وقام بعدئذ يدبر خلفاً جديداً لاختضاع الروم وايصال صديقه كارلوس الى مطعمه !

وتوفي ميخائيل الثامن في السنة ١٢٨٢ وتبوأ العرش بعده ابنه اندرونيكوس (١٢٨٢ - ١٣٢٨) فقامت عمته افلوجية تحرضه على فسخ الاتفاق والاتحاد . وحذا حذوها مستشاره الجديد ثيودوروس موزالن . وكان هذا قد ذاق آلام الفلق في عهد ميخائيل لاعتراضه على الاتحاد . وزال خطر كارلوس انجو قلبى اندرونيكوس رغبات معظم الاكليروس والشعب وأمر بدفن والده خارج العاصمة دون ان يصل عن نفسه في الأديار وأبعد البطريك فقس وأعاد البطريك يوسف (٣) .

* * *

1) Sempad, Letter to Henry of Cyprus, (William of Nangis), Runciman, S., Crusades, III, 295.
2) Pelliot, Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient, 628.

1) Grumel, V., Les Ambassades Pontificales à Byzance, Echos d'Orient, 1924, 446 - 447.
2) Brehier, L., Byzance, 401.
3) Pachymeres, Hist., I, 1 - 2 ; Nicephorus Gregoras, Hist., VI, 1 - 2.

ليفاوض في تحالف وتعاون بين فرنسا والمغول . ووصل روبروك الى عاصمة المغول في ربيع السنة ١٢٥٤ فوجد فيها الرومي والعباسي والسلجوقي والهندي وغيرهم يفاوضون مثله . ومثل هو امام الخان الاعظم ونقل رجاء سيده فأجابه الخان مونغكة : « لا اله الا اله السموات ولا سيد على الارض الا ابنه جنكيزخان . وباسم مونغكة مثله على الارض قل للملك فرنسا ان اخضع ! (١) » .

هاتون يفوز بالمعونة : وعلم هاتون ملك الارمن بارتقاء مونغكة عرش المغول . فقام بنفسه الى قرقوروم في السنة ١٢٥٤ « وخضع وتوسل » فسر مونغكة به وجعله مستشاره في امور غرب آسية والناصرانية . وضمن سلامة حدوده وأمر برفع الضرائب عن الكنائس والاديار . واعتزم « تحطيم خلافة بغداد » على حد قوله وعقد نيته على تحرير اوروشليم . وأعلم أخاه هولاجو بما وطن النفس عليه وأمره ان يتجهز لذلك بالجهاز الكافي . وعساده هاتون مغتبطاً مسروراً وقصد هولاجو مؤتمراً ممثلاً فبني هولاجو بأمره واهتم بشأته (٢) .

ووصل هاتون الى مقره في ارمينية الصغرى (قيليقية) في تموز السنة ١٢٥٥ فأخذ يهيئ للتحالف اسبابه . وكانت رابطة الزواج قد جمعت بين الاسرة الارمنية المالكة في قيليقية وبين اسرة انطاكية وطرابلس اللاتينية . وكانت العائلة المالكة في اوروشليم فرنجية ارمنية ايضاً . وكان نظام الفرسان الفرنسي قد دخل البلاط الارمني . وكانت اللغة الفرنسية قد اصبحت لغة قومية ثانية عند سادة الارمن . وكانت الكنيسة الارمنية في قيليقية قد اعترفت برئاسة رومة كما سبق واشرنا .

سقوط بغداد : (١٢٥٨) وقضى هولاجو في أثناء السنة ١٢٥٦ - ١٢٥٧ على الحشاشين في فارس واذريجان وأمر بهم في كل مكان فذبجوا ذبحاً . ونظر عطا الملك في مكتبته في ألمات فأبقى على مصاحفها ومصنفاتها التاريخية والعلمية وأحرق الباقي (٣) .

1) Grousset, R., L'Empire des Steppes, 248.

2) Kirakos of Gantzag, Hist. (Brosset), 279 ff.; Barhebraeus, 418 - 419; Breitschneider, E., Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources, I, 164 - 172.

3) Browne, Literary Hist. of Persia, II, 458 - 460.

وفي الثامن عشر من كانون الثاني سنة ١٢٥٨ وصلت طلائع المغول الى بغداد . فأحاطوا بها من كل جانب ثم قصفوها بالجنات فتهدمت أسوارها . وفي العاشر من شباط تسربوا اليها فقتلوا ثمانين ألفاً من سكانها واستولوا على كنوزها . وعفوا عن النصارى ثم أشركوهم في النصر فاستولى جاثليقهم على قصر الدوادار ورممت كنائسهم (١) ويؤكد الراهب ورطان الارمني المعاصر ان الفضل في هذا كله يعود الى الاميرة دوقوز خاتون النصارانية فانها لم تكتفي بعطفها الوراثي على النصارانية بل أحبت ان تزيد الدين المسيحي مجداً على مجد (٢) .

حلب والجزيرة : وكان الكامل محمد صاحب ميافارقين قد أتى ان يدخل في طاعة المغول فسلم الكاهن اليعقوبي الذي حمل اليه أوامر هولاجو . فزحف المغول على امارته وحاصروا ميافارقين ثم أخذوها عنوة في أوائل السنة ١٢٦٠ واكروهوا الكامل على أكل لحم جسمه بيسده (٣) وانضم الكرج المسيحيون والارمن الى صفوف هولاجو في سبيل رفع راية الصليب وتحرير الكنيسة . واستشهد منهم في حصار ميافارقين سواته الخاتشاني الامير الارمني فرأى في ذلك الراهب ورطان اوراق الدم لاجل السيد المخلص (٤) .

وكانت السيادة في سورية قد آلت الى الملك الناصر يوسف ابن العزيز ابن الظاهر ابن صلاح الدين . وكان الملك الناصر قد أوفد ابنه العزيز الى معسكر هولاجو ليؤكد خضوعه بعد سقوط بغداد . ولكن هولاجو واجه العزيز باللوم الشديد لأن والده لم يمثل بنفسه ليعفر رأسه أمامه . فاضطر الملك الناصر ان يتودد الى مماليك مصر ويرجو معونتهم .

وتقدم هولاجو يعاونه كل من القادة كتبوغا النسطوري النصراني وبيجو وصنقر وكانت دوقوز خاتون المسيحية ترافق زوجها هولاجو وتشارك في الرأي . فاحتل هولاجو نصيبين وحران والرها . ثم استولى على سروج ومنبج وزحف على

1) Hayton, Hist. des Croisades, Doc. Arm., II, 169 - 170 ; Grousset, R., Croisades, III, 575 - 574.

2) Vartan, (Dulaurier), Journ. Asiatique 1860, 300 - 301.

3) Kirakos, 177 - 179 ; Rashid - al - Din, (Quatremère), 330 - 331.

4) Vartan, Journ. Asiat., 1860, 294.

حلب. وكان الناصر قد آثر الصمود في دمشق فشاعت حامية حلب ان تقابل المغول في السهول الشرقية قبل وصولهم الى المدينة ففتكوا بها فتكاً ذريعاً. ووصل المغول الى عزاز فخرج ابن العبري اسقف حلب اليعقوبي الى لقائهم ليقدم احترامه الى هولاغو. وأرسل هولاغو الى تورانشاه نائب السلطنة في حلب يطلب التسليم. فأجابته النائب ليس لكم عندنا الا السيف. فقصف هولاغو المدينة بالخانق وبذل السيف في مسلميها. واشترك في قتال حلب كل من هاتون الارمني وبوهيموند السادس امير انطاكية. وابي اهل حارم التسليم فأمر هولاغو بهم فقتلوا عن بكرة ابيهم.

افتيموس البطريك الانطاكي : (١٢٦٠ - ١٢٦٨) واحترم المغول سلطة بوهيموند السادس في اماره انطاكية فلم يخترقوا حدودها. ولكنهم طلبوا الى بوهيموند ان يسمح لافتموس البطريك الانطاكي ان يقيم في انطاكية ويمارس سلطته فيها بين ابناء كنيسه الارثوذكسية. فدخلها واقام فيها حتى السنة ١٢٦٥ (١). ولعل السبب في ذلك انه تودد اليهم ورحب بقدمهم وسهل زواج مارية ابنة ميخائيل الثامن من اباغا ابن هولاغو (٢). والواقع ان المغول كانوا ارحب صدرآ من غيرهم في السياسة الدينية فاحترموا جميع الاديان (٣).

دمشق : وخاف اهل حماة وحصص فاستسلموا الى المغول في حلب وفر الملك الناصر وبعض انبائه من دمشق واتجهوا شطر فلسطين فحدود مصر فأوفد اعيان دمشق من قدّم خضوعهم الى هولاغو في حلب. ورضي الخان عنهم وأنفذ كت بوغا وهاتون وبوهيموند على رأس جيش الى دمشق للتثبت من خضوعها. وعين عليها حاكماً مغولياً وقاضياً. ووصل المغول اليها في اول آذار سنة ١٢٦٠ فاستسلمت المدينة وامتنعت حاميتها. فقصف كت بوغا القلعة والابرار بالخانق فسقطت في السادس من نيسان. فأمر كت بوغا بدك القلعة فهدمت تهديماً.

1) Rev. Or. Lat. 1894, II, 213.

2) Barhebraeus, in Assemani, Bibl. Orient. III, 110 ; Rey, Dignitaires d'Antioche, R. O. L., 1900 - 1901, 148 - 149.

3) Chabot, Mar-Jaballaha, Rev. Or. Lat., 1894, I, 125.

وسير كت بوغا قشلق خان على رأس قوة الى فلسطين فامتنعت حامية نابلس فغلبت على أمرها ثم استسلمت فذبحت بحد السيف كلها. وسار قشلق خان من نابلس الى غزة فلم يلق معارضة. وكان الملك الناصر قد خشي غدر المماليك به فقام من حدود مصر الى ما وراء الاردن. وكان كت بوغا قد قام الى عجلون ليخضعها. فلما وصل الناصر الى اللقاء خانه حرسه الكردي وسلموه الى طلائع جيش كت بوغا. فأرسله هذا الى سيده هولاغو. فأكرمه هولاغو ووعدته خيراً بعد الاستيلاء على مصر. ثم استسلمت حاميات بعلبك وبانياس والصبيبة.

وشاع بين النصارى في دمشق ان كت بوغا نصراني مثلهم وان عدداً كبيراً من ضباطه وجنوده نصارى ايضاً فهرعوا الى الشوارع تتقدمهم الصليبان وساروا متظاهرين موجبين احترام الصليب حيثما وصلوا. وقرعوا الاجراس وشربوا الخمر وأقاموا الصلاة المسيحية في بعض المساجد وحولوا مسجداً واحداً الى كنيسة. وشكى المسلمون أمرهم الى كت بوغا فلم يصغ ولم ينصف (١). « وشيخ النصارى بسبب دولة التتار وتردد ايلسبان وغيره من كبارهم الى كنائسهم. وذهب بعضهم الى الملك هولاغو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقهم ودخلوا به البلد من باب توما وصليبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الاسلام ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد فركب المسلمين من ذلك هم عظيم » (٢).

ما لم يكن بالحسبان : ومات مونغكة الخان الاعظم في الحادي عشر من اب سنة ١٢٥٩ فتخالف الامراء المغول وتشاقوا فاضطر هولاغو ان يعود الى فارس (١٢٦٠) وان يبقى عند حدودها الشرقية مستعداً متهيئاً للتدخل في النزاع عند الحاجة. ووكل الحكم في سورية والدفاع عنها الى قائده كت بوغا وأبقى تحت تصرفه قوة من الجند لم تتجاوز العشرين او الثلاثين ألفاً.

عين جالوت : (١٢٦٠) وأرسل هولاغو قبل قيامه الى فارس رسولا الى قطز سلطان مصر يدعوه الى الطاعة. فأبى قطز وأمر بالرسول فقتل. ثم

1) Gestes des Chyprois, II, 751, Grousset, R., Croisades, III, 589 - 590.

(٢) الدليل على الروضتين لابي شامة ص ٢٢٨.

تجهز وتحزم . وفي السادس والعشرين من تموز دخل قائد بيبس فلسطين على رأس قوة كبيرة من المماليك والخوازميين . وانضم الى هؤلاء من بقي من قوات الايوبيين في كرك الشوبك . وأيد الامراء اللاتينيون في فلسطين قطز وقائده بيبس .

وبلغ كتبوغا قدوم المصريين وهو في بعلبك . فجمع من كان في سورية من جنود المغول وانضم اليه فريق من امراء اللاتين والارمن ولكنه اضطر ان يقوم الى دمشق اولاً ليؤمن النصارى فيها . فالمسلمون من أبناء دمشق كانوا قد خربوا الكنائس فيها وأحرقوا مساكن النصارى . « فلما هرب التاتار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها . وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها . وقتل منهم جماعة واختفى الباقون . وجرى عليهم أمر عظيم فاشتفى بعض الاشتقاء صدور المسلمين » (١) .

وتقدم المصريون في ساحل فلسطين فبلغوا عكة في أواخر آب واستراحوا في ضواحيها . ودخل بعضهم اليها زائراً متفرجاً . وكان بين هؤلاء بيبس نفسه . ثم علم المصريون ان كتبوغا عبر الاردن عند بيسان . فقاموا من عكة الى عين جالوت في جنوب بيسان ووصلوا اليها في الثاني من ايلول . وفي اليوم التالي هجم كتبوغا على مقر المصريين ولم يدر بكثرتهم فتراجعوا ثم أحاطوا به فحطموا جيشه تحطيماً وأسروه وجاؤوا به الى قطز فتوعد وتهدد . فأمر به قطز فضرب عنقه .

* * *

الفصل الرابع والاربعون

عهد المماليك

المماليك : وأدى توسع المغول واتجاههم نحو الغرب الى فرار عدد من القبائل التركية من وجههم . والتجأ بعض هؤلاء الى آسية الصغرى واستقروا فيها ودخل البعض الآخر الشرق العربي . وأهم هؤلاء الخوارزميون . ولما جلس الملك الصالح ايوب سابع الملوك الايوبيين على عرش السلطنة في مصر رأى ان يختار لنفسه جنوداً خاصة يثق بهم فابتاع من هؤلاء المتشردين ومن غيرهم عدداً كبيراً جعلهم جيشه الخصوصي . وبني لهم ثكنة في جزيرة الروضة في مياه النيل فعرفوا بالمماليك البحرية نسبة الى « بحر النيل » وكانوا يسمون الحلقة ايضاً لأنهم أحاطوا بسلطانهم وحموه من كل اعتداء . ورتب الصالح لبعض هؤلاء دروساً في الادارة والحرب فتحققت آماله وظهر من بينهم رجال فاقوا ساداتهم . وفي السنة ١٢٥٠ قام ايوبك أحد هؤلاء وقضى على سيده الايوبي واتخذ لنفسه لقب الملك المعز ايوبك وأسس دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨١) .

المماليك البحريون

١٣٠٩ - ١٣٤٠	الناصر محمد	١٢٥٠	شجر الدر أرملة الصالح ايوب
١٣٤١ - ١٣٤٠	المنصور أبو بكر	١٢٥٧ - ١٢٥٠	المعز ايوبك
١٣٤١ - ١٣٤٢	الاشرف كجك	١٢٥٧ - ١٢٥٩	المنصور علي
١٣٤٢	الناصر احمد	١٢٥٩ - ١٢٦٠	الظاهر قطز
١٣٤٢ - ١٣٤٥	الصالح اسماعيل	١٢٦٠ - ١٢٧٧	الظاهر بيبس
١٣٤٥ - ١٣٤٦	الكامل شعبان	١٢٧٧ - ١٢٧٩	السعيد بركة خان
١٣٤٦ - ١٣٤٧	المظفر حاجي	١٢٧٩	العادل سلامش
١٣٤٧ - ١٣٥١	الناصر حسن	١٢٧٩ - ١٢٩٠	المنصور قلاوون
١٣٥١ - ١٣٥٦	الصالح صلاح الدين	١٢٩٠ - ١٢٩٣	الاشرف خليل
١٣٥٦ - ١٣٦١	الناصر حسن	١٢٩٣ - ١٢٩٤	الناصر محمد
١٣٦١ - ١٣٦٣	المنصور محمد	١٢٩٤ - ١٢٩٦	العادل كتيبا
١٣٦٣ - ١٣٧٦	الاشرف شعبان	١٢٩٦ - ١٢٩٨	المنصور لاجين
١٣٧٦ - ١٣٨١	المنصور علي	١٢٩٨ - ١٣٠٨	الناصر محمد
١٣٨١	الصالح حاجي	١٣٠٨ - ١٣٠٩	المظفر بيبس

الملك الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ - ١٢٧٧) وانقسم الصليبيون بعضهم على بعض . وتحارب البنادقة مع اهل جنوا (١٢٥٧) . وقضى آل باليولوغوس على الامبراطورية الصليبية في القسطنطينية (١٢٦١) .

وعاد الظاهر قطز بعد عين جالوت الى مصر . وفيها هو في طريقه اليها اتفق بيبرس البندقداري مع فريق من المماليك على اغتياله . وقامت ارنب بين يديه فساق عليها فتبعه المماليك المتآمرون . فلما بعدوا تقدم منه مملوك اسمه انص وشفع في شخص فأجابه قطز فأهوى لتقبيل يده فحمل بيبرس على قطز وضربه بالسيف . ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم الملك الظاهر بيبرس . ودخل القاهرة (١٢٦٠) فخضع له الامراء والشعب .

وكان بيبرس طويل القامة مفتول العضل اسمر اللون ازرق العينين قوي الادارة شديد الجراءة عالي الهمة . وكان تركي الاصل ينتمي الى قبيلة القبيجاك Kiptchak . وقد عرض للبيع في سوق حماة فهالت خشونته اميرها فلم يرغب فيه . فابتاعه الامير بندقدار لسلطان مصر . فعرف بيبرس بالبندقداري (١) .

ولم ترض دمشق عن عمل بيبرس واعترفت بسنجر الحلبي اميراً عليها . فقام بيبرس في السنة ١٢٦١ الى دمشق وقضى على سنجر واعوانه فاستتب له الملك في جميع الاراضي السورية خارج الامارات اللاتينية . وفي السنة ١٢٦٢ شهد جماعة من البدو ان شخصاً اسود اللون اسمه احمد هو ابن الظاهر بالله محمد بن الامام الناصر العباسي عم المستعصم اخر الخلفاء العباسيين في بغداد . فعقد بيبرس مجلساً حضره العلماء واثبت فيه القاضي نسب احمد هذا فبايعه الملك وسائر الامراء بالخلافة وسمي المستنصر بالله . فأضحت القاهرة مقر الخلافة العباسية واكسب بيبرس حكمه صبغة شرعية .

بيبرس والروم : وحالف بيبرس بركة خسان امير مغول القبيجاك ضد هولاغو صاحب فارس وتودد الى ميخائيل الثامن فسيفس الروم وقاهر اللاتين في القسطنطينية ورجاه ان يتي مضيقين مفتوحين له وللقبايجة بني جنسه لتتم الصلة

1) Sobernheim, Article «Baibars», Encyc. of Islam.

بين مصر وجنوب روسية عن طريق البحر . وكان خسان القبايجة في روسية قد سبق له ان تدخل في شؤون البلقان . فوافق ميخائيل على اقتراح بيبرس وأزوج خسان القبايجة من بنت له غير شرعية . وفتح المضائق للمماليك مقابل اقامة بطريرك ارثوذكسي في الاسكندرية (١٢٦٢) . ثم حالف الفسيلفس السلطان المصري للصمود في وجه كارلوس أنجو (١) .

بيبرس والصليبيون : وتهاى الجو لمحاربة الصليبيين . فقام بيبرس في السنة ١٢٦٣ على رأس جيش قوي وهاجم الناصرة . فاستولى عليها وخرّب كنيسة « وشاهد خرابها وقد سوي بها الى الارض » . واغار على عكة فغنم في ضواحيها وركب عنها (٢) .

وفي السنة ١٢٦٤ دعا هولاغو جميع امرائه الى اجتماع عام عقده في معسكره بالقرب من تبريز . واشترك في هذا الاجتماع كل من داود ملك الكرج وهاتون ملك ارمينية وبوهيموند امير انطاكية . فأشاد هولاغو بالصدقة المغولية البيزنطية ولام هاتون وبوهيموند على موقفهما من افيثيموس البطريك الانطاكي . واغلظ وشدد لانها اكرها هذا البطريك على الخروج من انطاكية (٣) .

ومات هولاغو في الثامن من شباط سنة ١٢٦٥ وتوفيت زوجته المسيحية في صيف السنة نفسها . فجال بيبرس جولة ثانية واستولى على قيصرية فلسطين في السابع والعشرين من شباط سنة ١٢٦٥ فدك ابراجها وخرّب حصونها وابنيتها . وفي السادس والعشرين من نيسان سقطت ارسوف في يده . ودخل حيفا منتصراً فبطش فيها بطشاً (٤) .

وأنفذ بيبرس في صيف السنة ١٢٦٦ جيشين كاملين احدهما الى عكة وصفد والثاني الى قيليقية وارمينية الصغرى . ولم يقو على عكة فحاصر صفد ودس بين صفوف المحاربين الوطنيين وبوق ان عفوه يشمل الجميع عند الاستسلام .

1) Dolger, F., Reg., 1902 - 1904, 1919, 1933, 1952, 1964, 1975, 1987, 2018, 2028, 2052.

(٢) المختصر لابي الفدا ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

3) Rashid al-Din (Quatrmère), 417 - 423; Vartan, 205 - 206; Barhebraeus. 444 - 445.

4) Gestes de Chypreis, 171; Estoire d'Eracle, II, 460.

فاستسلم المحاربون ولكن يبيرس حثت بوعده . وترامى اليه ان سكان قارة بسين دمشق وحصن يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الافرنج فأمر ببعض كبارهم ورهبانهم واخذ صغارهم ممالكك وحول كنيستهم الى جامع . ونزع اليه وفد من نصارى عكة يرجون السراح بدفن من سقط منهم خارج اسوارهم فأجابهم : « اذا كنتم تطلبون جثث شهداء فانكم ستجدونهم بين ظهرانيكم » . ثم اندفع الى ساحل البحر وخرَّب وقتل وسبى (١) . وقاد الجيش الثاني قلاوون الشهير . وارتركز بادىء ذي بدء الى حصن . وشن منها هجوماً خاطفياً على القليعات وحلبا وعرة فاستولى عليها وعاد الى حصن . ثم انتقل الى حماه حيث انضم اليها ملكها المنصور . وقاما منها الى حلب فقلبيقية . وكان هاتون قد توقع هذا الهجوم فأسرع الى تبريز يطلب معونة ابن هولاجو . وصمد ابنا هاتون لاوون وطوروس في مضايق الامانوس . فتحاشى قلاوون هذه المضايق وانحدر الى قليقية بطريق سرونديكار . وسقط طوروس في ميدان القتال ووقع لاوون في يد قلاوون اسيراً .

سقوط انطاكية : (١٢٦٨) وبعد ان شل يبيرس نشاط ارمينية الصغرى أنفذ جيشاً الى انطاكية وذلك في خريف السنة ١٢٦٦ . ولكن الانطاكيين رشوا القادة فعاد الجيش عن انطاكية بدون قتال . فثار ثائر يبيرس وأنزل العقاب بالمسؤولين فأمر باعدامهم (٢) .

وعاد يبيرس الى عكة في ايار السنة ١٢٦٧ ولجأ الى الخدعة فأمر جنوده برفع الأعلام الصليبية التي أخذت من الهيكليين والاستبارية فتمكنوا من ملاصقة الأسوار ولكنهم اضطروا الى التراجع واكتفوا بتخريب الضواحي (٣) . وفي أوائل السنة ١٢٦٨ عاد يبيرس الى القتال فاستولى على يافا وخرب أبنيتها ونقل رخام قلعتها وأخشابها الى مصر لبناء جامعها فيها (٤) . ثم حاصر قلعة الشقيف وقصفها بالحنانيق فاستسلمت في منتصف

1) *Gestes de Chyprois*, 180 - 181; *Estoire d'Eracle*, II, 484 - 485.

2) *Ibn Abd-al-Rahim*, Ms., Paris, 1702, 435; *Cahen*, G., op. cit., 716, n. 13.

3) *Gestes des Chyprois*, 181 - 183.

4) *Gestes des Chyprois*, 190; *Magrissi*, *Sultans*, I, 50 - 51.

نيسان . فسمح للنساء والاطفال بالتزوج الى صور واسترق الرجال (١) . ووصل الى طرابلس في اول ايار فقاتل صاحبها بوهيموند السادس وعاث في ضواحيها مخرباً . ثم انتقل منها الى وادي العاصي .

واستغل يبيرس بقاء بوهيموند في طرابلس فأنفذ جيشه الى انطاكية . وكانت حاميتها بضعة الاف مقاتل فلم تقوَ على حماية جميع أبراجها وأسوارها . وحاول محافظها سمعان مانسل *Simon Mansel* الاغارة على جيش يبيرس فأسر . وكان يبيرس قد احتل السويدية ومضائق بيلان فعزل خصمه عن البحر وعن ارمينية الصغرى . وفي الثامن عشر من ايار ثغر المماليك السور بالقرب من القلعة وتدفعوا منه الى داخل المدينة . وأمر يبيرس بحراسة الأبواب وبالقتل والنهب فلم يسلم سوى بضعة الاف التجأوا الى القلعة . ولدى استسلام هؤلاء جرى بيعهم بأبخس الاثمان نظراً لكثرتهم فبلغ ثمن الصبي اثني عشر درهماً وثمن البنت خمسة فقط . وكومت الحلى الفضية والذهبية أكواماً ووزعت الدراهم على الفاتحين بالكيل لكثرتها (٢) .

ودمرت انطاكية تدميراً والتهمت النيران بعض أحيائها . وخربت كنيسة القديس بولس وكنيسة القديسين قوزمة ودميانوس . وكان العراق وتوابعه قد أصبح مغولياً فتحولت بضائع الشرق عن انطاكية الى اياس في قليقية . فتضاءلت تجارة انطاكية وقل الاعتناء بها والاهتمام بأمرها وأمست قرية قائمة في وسط خراب كبير . فهجرها رؤساء الدين واتجهوا نحو دمشق مركز السلطة في البلاد .

ثيودوسيوس الرابع : (١٢٦٨ - ١٢٧٦) وتوفي افيتمبوس الثاني بطريرك الانطاكي في السنة ١٢٦٨ فانتخب الاكليروس الانطاكي ثيودوسيوس الرابع بطريركاً على انطاكية . وفاوض الفيلسوف ميخائيل الرابع يبيرس سلطان

1) *Gestes des Chyprois*, loc. cit.; *Estoire d'Eracles*, II, 456.

2) *Gestes des Chyprois*, 190 - 191; *Estoire d'Eracles*, II, 456 - 457; *Bathebraeus*, 448; *Magrissi*, *Sultans*, I, 52 - 53; *Aini*, *Perles d'Histoire* (Rec. Hist. Crois. Vol. II), 229 - 234.

المالليك في أمر بطاركة الكرسي الانطاكي . فاعترف السلطان برئاستهم وسمع بانتقالهم من انطاكية الى دمشق (١) . ولم يشترك ثيودوسيوس الرابع في اعمال مجمع ليون ولم يعترف بقراراته (٢) .

ثيودوسيوس الخامس : (١٢٧٦ - ١٢٨٥) ثم تولى السدة الانطاكية ثيودوسيوس الخامس احد افراد اسرة فيلهاردون اللاتينية الحاكمة في آخية . وكان قد تقبل الارثوذكسية وانتمى الى دير الاوديغس الانطاكي في القسطنطينية ثم زاحم فقس في الوصول الى الكرسي البطريركي القسطنطيني . وكان قد تم الاتحاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في ليون فأبى ثيودوسيوس وجاء الى كرسيه يبشر به . ولدى وصول اندرونيكوس الثاني الى عرش القسالة في السنة ١٢٨٢ وعودة الارثوذكسية الى البلاط الامبراطوري فرّ ثيودوسيوس والتجأ الى صيدا وكانت هذه لا تزال بيد اللاتين (٣) .

ارسانيوس الاول : (١٢٨٢ - ١٢٨٣) وأقام الاكليروس الانطاكي ارسانيوس متروبوليت طرابلس بطريركاً على انطاكية . قتمادى في التقرب من الارمن فأسقط اسمه من ذبيحة القسطنطينية وأعتبر خارجاً على الكنيسة الجامعة .

ديونيسيوس الاول : (١٢٨٣ - ١٣٠٨) واجتمع الاساقفة الانطاكيون لانتخاب بطريرك جديد فأبى بعضهم ديونيسيوس اسقف بومبيوبوليس القيليقي واعترف آخرون برئاسة كيرلس متروبوليت صور (٤) .

عودة المغول : (١٢٩٩ - ١٣٠٣) وحقق خلفاء هولاغو على المالليك والمسلمين وجاشت صدورهم بالغل بعد عين جالوت وحص . فعاهد قازان ابن ارغون الكرج والارمن وعاقد الصليبيين في قبرص وعبر الفرات بجمع عظيمة ثلثهم من النصارى ووصل الى حلب فحاجة . وتزل على وادي مجمع المروج . وسارت العساكر الاسلامية بقيادة الملك الناصر الى حص ثم الى مجمع المروج والتقوا في عصر الثالث والعشرين من كانون الاول بجيش قازان فولت ميمنة

1) *Ecclesia Ierosolomon, Anon., 42.*

2) *Musset, H., op. cit., I, 549.*

3) *Pachymères, De Andronico Paleologo, I, 19; Echos d'Orient, 1927, 137.*

4) *Le Quien, O. C., Col. 765.*

المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحتاطت به التتر وتأخر السلطان الى جهة حص « فولت العساكر الاسلامية تبندر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر » . واستولى قازان على دمشق وساق في أثر المالليك الى غزة والقدس وبلاد الكرك . وعصت قلعة دمشق فأحرق المغول الدور والمدارس وغيرها من الأماكن الجليلة حولها (١) . ثم نشبت ثورة في فارس فعاد قازان لاحتادها وأبقى في سورية قوة صغيرة . وتخلّى قبعقق والي دمشق عن قازان والمغول فسهل عودة المالليك الى البلاد . وفي السنة ١٣٠٣ أطل المغول بقيادة قطلوشاه نائب قازان والتقوا بالمالليك في مرج الصفر في العشرين من نيسان . واشتد القتال فهزم المغول وقتل منهم خلق كثير (٢) .

الشيعة والدروز والنصارى : (١٢٨٣ - ١٣٠٥) وبات الصليبيون تعانى وظهرت عليهم دلائل الجهد فخشي سكان التلال اللبنانية بين بيروت وطرابلس من الدروز في المتن وأهل الشيعة في كسروان والنصارى والنصيرية في جرود طرابلس استئثار المالليك بالقوة والسلطة فهبوا لمعونة الصليبيين بشق الوسائل فأبوا القداء يقول انهم كانوا « يقطعون الطرق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار » (٣) . وجاء للبطريرك الدوبيي عن حاشية في كتاب صلاة قديم تعود الى السنة ١٢٨٣ ان العساكر الاسلامية سارت في شهر ايار من هذه السنة في وادي حيرونا فحاصرت اهدن وملكتها بعد اربعين يوماً وخربت القلعة في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل ثم افتتحت بقوفا وقبضت على أكابرها وأحرقتهم في بيوتهم وأعملت السيوف بأهل حضرون وكفرسارون . وزحفت في الثاني والعشرين من آب الى الحدث فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فقتلت العساكر من ادركته منهم وخربت الحدث تخريباً (٤) .

وروى الاهلني تحت تاريخ السنة ١٢٨٧ ان الكسروانيين (الشيعة)

(١) المختصر لابي القدا ج ٤ ص ٤٢ - ٤٣

(٢) المرجع نفسه ج ٤ ص ٤٨ - ٤٩

(٣) كتاب المختصر ج ٤ ص ٥٢

(٤) تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٥

والجرديين (الدروز) نزلوا من الجبال لنجدة الافرنج في اثناء حصار طرابلس فقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً . فأمر نائب دمشق بجمع العساكر لاستئصال هؤلاء . وكتب الى امراء غرب بيزوت ان يتوجهوا بعساكرهم الى كسروان والجرد « وان من نهب امرأة كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار » . وفي السنة ١٢٩٢ قصد الامير بيدرا قائد السلطنة في مصر جبال كسروان . وبعد ان وصل اليها « اثنتي عزمه وانكسر حزمه فتمكن الكسروانيون في بعض العسكر في الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم » فاضطر الامير بيدرا ان يطيب القلوب ويخلق الخلع . فاشتط الكسروانيون في الطلب فأجابهم الى ما التمسوه وافرج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا في دمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم (١) .

وفي السنة ١٣٠٢ نزل الافرنج عند نهر الدامور فقتل الامير فخر الدين التنوخي وأسر اخوه شمس الدين فاقتداه ناصر الدين الحسين بثلاثة الاف دينار . فرفعت الشكاوي الى نائب دمشق الافرم من الجرديين واهل كسروان . فحشد النواب الجيوش لمقاتلة الجرديين والكسروانيين . فنزل ثلاثون مقدماً من كسروان بثلاثين ألفاً وكنوا عند نهر الفيدار ونهر المدفون فهزموا الجيش السلطاني واهلكوا اكثره . وغنموا امتعة واسلحة واستولوا على اربعة الاف رأس من الخيل . وغزا الجرديون التنوحيين فاحرقوا عين صوفر وغيرها من بلاد الغرب (٢) .

ونقل صالح ابن يحيى عن الحريري والصلاح الكتبي ان اهل كسروان كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتناولوا الى اذى العسكر واغضى السلطان عنهم فزاد طغيانهم وظهروا الخروج من الطاعة . ففاوضهم نائب دمشق جمال الدين الافرم في الرجوع الى الطاعة فأبوا . فاقتى العلماء بنهب بلادهم . فجرد النواب خمسين ألفاً . فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة امراء بعشرة الاف مقاتل . والتقت الجموع عند عين صوفر فجرى قتال شديد ودارت الدائرة على الدروز . فهرب الامراء والتجأوا الى كهف ناييه ودافعوا عن انفسهم . فبذل لهم الامان فلم

(١) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) الاهوتي كما نقله الدبس : ج ٣ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

يخرجوا . فأمر نائب دمشق بسد الكهف ! وصعد اسندمر نائب طرابلس الى كسروان فقطع وخرب وقتل وتفرق الباقون من الشيعة في البلاد (١) .

الغيوريون والمعتدلون : وكان قد قام في الكنيسة منذ عهد ثيودوروس الاستوديقي في القرن التاسع من قاوم تدخل الفسيفس والحكومة في شؤون الكنيسة بل من قال بوجوب تقيد الفسيفس بالانظمة الاكليريكية . وكانت غيرة هؤلاء على الكنيسة قد اشتدت الى درجة أدت بهم الى اللجوء الى العنف في سبيل الدفاع عن حرية الكنيسة واستقلالها . ولم يتطلب هؤلاء الغيوريون *Zelotai* من الاكليروس علماء وافراً او ذكاء مفراطاً ولكنهم أوجبوا عليهم سيرة طاهرة وتقشفاً صارماً . فنالوا إعجاب الرهبان وتأيدهم في غالب الأحيان . وكان من الطبيعي جداً ان يقول غيرهم من أبناء الكنيسة بالتعاون بين الدولة والكنيسة . وهؤلاء هم المعتدلون *Politikoi* وأصر هؤلاء على وجوب تضلع الاكليروس العالي من العلوم الدينية والزمنية ليحسنوا الدفاع عن الكنيسة جمعاء ويحفظوا حريتها (٢) .

ووقف الغيوريون الى جانب البطريرك ارسانيوس في نزاعه مع الفسيفس ميخائيل الثامن فعرفوا بالارسانيوسيين . وقضت ظروف ميخائيل السياسية باتحاد الكنيستين كما مر بنا فضج الغيوريون وأعلنوا سحقهم ومقاومتهم . وجاء اندروننيكوس الثاني الفسيفس فألغى الاتحاد . وسيطر الغيوريون على الاكليروس وهيمنوا على البطريركية المسكونية .

الصامتون : وشاع في القرن الرابع عشر في بعض الأديار انعزال عن عالم المادة وانعكاف على التأمل واتصال بالخالق عن طريق الصلاة عرف بالزهد الصامت *Hesychia* . وأشهر من قال بالصمت التام والتأمل الكامل غريغوريوس بالاماس *Palamas* متروبوليت ثسالونيكية . وكان قد اشتهر بتقشفه عندما قدم النذر في آثوس . وكاد ينسحب من ثسالونيكية لينفذ ما قال به عندما فوجيء

(١) بيروت لصالح ابن يحيى ص ٣١ - ٣٤ .

(٢) *Nicephorus Gregoras, Historia, VI, 1, 7; Pachymeres, De Andronico, IV, 12; Lebedev. A., Historical. Essays; 296 - 297.*

بشغب أحدثه الراهب بلام في جبل آتوس (١). وبرلام هذا راهب يوناني إيطالي أمّ نسالونيكية وأقام فيها. فاستمع لأقوال بالاماس رئيس أساقفتها وجادله فيها وملاً المدينة ضجيجاً (١٣٣٣ - ١٣٣٩). ثم قام إلى أفينيون ليفاوض بنديكتوس الثاني عشر باسم اندرونيكوس الثالث الفسيلفس في امر حملة صليبية ضد الأتراك. ولدى عودته من أفينيون أطلع على رسالة النور الإلهي التي كان بالاماس قد أعدها في غيابه فكتب في دحضها (٢). ثم قام إلى القسطنطينية يشكو بالاماس إلى البطريك المسكوني يوحنا كاليكاس *Calecas*. وأثار ضجة في العاصمة فاضطر البطريك أن يدعو بالاماس إلى المثل أمام الجميع. وترأس اندرونيكوس الثالث المجمع القسطنطيني في العاشر من حزيران سنة ١٣٤١. وما أن افتتحت الجلسة حتى أعلن الفسيلفس أن أمر البت في العقيدة منوط بالأساقفة وحدهم وأنه ليس على بلام إلا أن يعتذر للربان عما صدر عنه (٣). فعاد بلام إلى الغرب فاذكي نار الشقاق فاستمرت طويلاً (٤).

وظلت المشادة قائمة حول موقف بالاماس من النور الإلهي فدعا البطريك يوحنا الرابع عشر (كاليكاس) إلى مجمع جديد في السنة ١٣٤٥ فقصى بالحكم على بالاماس وجبسه (٥). ولما استولى يوحنا السادس على عرش القسطنطينية (١٣٤٧-١٣٥٥) أزل البطريك يوحنا الرابع عشر عن عرشه لتأمره وأحل محله ايسيدوروس مرشح الصامتين. فدعا البطريك الجديد إلى مجمع ثالث في السابع والعشرين من أيار سنة ١٣٥١ فخرج بالاماس ظافراً وانتصر الصامتون (٦).

اغناطيوس الثاني: (١٣٤٢ - ١٣٥٣) وتولى السدة الانطاكية بعد ديونيسيوس البطريك مرقس. وطالت رئاسته أربعاً وثلاثين سنة (١٣٠٨-١٣٤٢).

- 1) Jugie, M., *Palamas, Dict. Théol. Chrét.*, XI, Col. 1735 - 1818.
- 2) Krumbacher, K., *Gesch. Byz. Litt.*, 103 - 105.
- 3) Tafrali, O., *Thessalonique au XIV, Siècle*, 188 - 191 ; *Uspensky, Th., Byz. Civ.*, 336 ; *Miklosich et Muller, Acta*, I, 201 - 202.
- 4) Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 665 - 670 ; *Brehier, L., Byzance*, 433 - 434.
- 5) Tafrali, O., *op. cit.*, 194 ; *Guilland, R., Essai sur Nicéphore Gregoras* (1926), 28 - 29.
- 6) P. G., Vol. 151, Col. 718 - 719 ; *Vasiliev, A. A., Byz. Emp.* 669 - 670 ; *Gelzer, A., Abriss der Byz. Kaisergesch.*, 1059 - 1060.

وجاء بعده اغناطيوس الثاني. ولم يرض عن بالاماس وقوله في النور الإلهي فاشترك في أعمال مجمع القسطنطينية في السنة ١٣٤٤ ووافق على شجب بالاماس وسجنه وأصدر طوموساً بطريركياً ضده. لكن باخوميوس متروبوليت دمشق خاصمه فاضطر أن يلجأ إلى قبرص فترة من الزمن وتوفي فيها سنة ١٣٦٦. وأوفد في السنة ١٣٥١ ارسانيوس متروبوليت صور ليمثله في مجمع القسطنطينية فكان ارسانيوس من المعارضين لبلاماس واحتج على تدخل الفسيلفس في شؤون الكنيسة وأحدث ضجة في المجمع (١).

باخوميوس الاول: وأيسد باخوميوس الصامتين فانتصر بانتصار بالاماس وتولى الرئاسة مدة نجلها. ولعله ظل جالساً حتى السنة ١٣٦٨ أو ١٣٧٠ كما جاء في مصنف لوكيان (٢). وفي السنة ١٣٧٠ أيد بعض المطارنة الانطاكيين ارسانيوس متروبوليت صور في موقفه من بالاماس وانتخبوه بطريكاً على انطاكية وأجلسوه على السدة ولكنه خلع بعد فترة قصيرة وإذا ما قدمنا باخوميوس الاول على ميخائيل الثاني وخالفنا بذلك ترتيب البطريك قسطنديوس سهل علينا التوفيق بين ترتيبه وبين ترتيب لوكيان وتقاربت تواريخ الرئاسة.

ميخائيل الثاني: (١٣٧٠ - ١٣٨٦) ويرى البطريك قسطنديوس أن ميخائيل الثاني تولى الرئاسة ست عشرة سنة وأن باخوميوس عاد إلى الكرسي بعد وفاة ميخائيل في السنة ١٣٨٦ وبقي فيه حتى السنة ١٣٩٣. ثم يذكر قسطنديوس البطريك نيلوس ويحدد سنوات رئاسته فيجعلها مبتدي في السنة ١٣٩٣ وتنتهي حوالي السنة ١٤٠٠. وجاء للبطريك ميخائيل الثالث أن باخوميوس تولى الرئاسة ثلاث مرات (١٣٥٩ و ١٣٧٥ و ١٣٧٨) وأن نيلوس أو نيقون ابتداء في السنة ١٣٨٧ وانتهى في السنة ١٣٩٥ (٣).

- 1) *Meyendorff, J., Introduction à l'Etude de Grégoire Palamas, (1959), 145 - 146.*
- 2) *Le Quien, O. C.*, Col. 767.
- 3) *Patrologie Orientale*, XXII, 29 f.

المالِك البرجيون

١٤٦٠ - ١٤٥٣	الاشرف اينال	١٣٨٢ - ١٣٩٢	الظاهر برقون
١٤٦٠	المؤيد احمد	١٤٠٥ - ١٣٩٢	الناصر فرج
١٤٦٧ - ١٤٦١	الظاهر خشقدم	١٤٠٥ - ١٤٠٦	المنصور عبد العزيز
١٤٦٧	الظاهر يلباي	١٤١٢ - ١٤٠٦	الناصر فرج
١٤٦٨	الظاهر تمرغا	١٤١٢	العادل المستعين
١٤٦٨ - ١٤٩٦	الاشرف قايتباي	١٤١٢ - ١٤٢١	المؤيد شيخ الحمودي
١٤٩٦ - ١٤٩٨	الناصر محمد	١٤٢١	المظفر احمد
١٤٩٨ - ١٥٠٠	الظاهر قانصوه	١٤٢١	الظاهر طاهر
١٥٠٠	الاشرف جنبلط	١٤٢١ - ١٤٢٢	الصالح محمد
١٥٠١	العادل طومان	١٤٢٢ - ١٤٣٨	الاشرف برسباي
١٥٠١ - ١٥١٦	الاشرف قانصوه	١٤٣٨	العزير يوسف
١٥١٦	الاشرف طومان باي	١٤٣٨ - ١٤٥٣	الظاهر جقمق
		١٤٥٣	المنصور عثمان

تيمورلنك : (١٤٠٠ - ١٤٠١) وأعلن تيمورلنك نفسه خائناً في السنة ١٣٧٠ وأخضع لسلطته خراسان واصفهان واجتاحت بلاد فارس والعراقين والجزيرة . وقصد الهند سنة ١٣٩٧ وأزّل بها الوبال . واتجه في السنة ١٤٠٠ نحو سورية . فأمر الملك الناصر فرج النواب والحكام ان يتوجهوا الى حلب ويجهتدوا في دفع تيمورلنك . واستولى تيمورلنك على عين تاب وأرسل مرسوماً الى النواب في حلب ان يطيعوا أوامره ويخطبوا باسمه . فقتل سودون نائب الشام هذا الرسول . واستولى تيمورلنك على حلب وقطع عنق سودون وقتل جمّاً غفيراً ونهب وأحرق . ثم بلغ المعرة « فجفل أهل دمشق وتشتتوا » وقصد بعضهم قلعة ارضون وقلعة الشقيف . ورحب أهل حماة بتيمور ثم وثبوا على نائبه فرجع اليها وقتل ونهب وأحرق . ولما بلغ الى حصن استجلب خاطره عمر ابن الرواس فعف عن أهلها . ونزل على بعلبك فأرسل فيهم جوارح النهب والاستئصال .

وبلغت عساكر الملك الناصر الى دمشق وبلغ تيمور اليها ففر الملك الناصر والتجأ الى لبنان واختبأ في قلعة نبحا . فأحاط تيمور بدمشق وقتل أعيانها وسبى نساءها . وأحرق الجامع الأموي وكان فيه جم غفير من النساء والاطفال . وأخرب المساجد والمدارس ودك القلعة . وأسر كثيرين من أصحاب الحرف والصناعات وأبعدهم الى سمرقند (١) .

(١) عجائب المقدور في اخبار تيمور لشهاب الدين الانصاري المعروف بابن عرب شاه

الجواد والبدو : ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجراد . فغطى وجه السماء وارتعى الأخضر وباض في أرضها وفقس . فاشتد الغلاء وخفت الناس من الجوع وانكسر طرفهم . وشره البدو الى المكاسب الدنيئة وأقبلوا ناشرين الاذن ومادين الاعناق فانزلوا بالناس « ما لا يستحله عباد النار والاوثنان » (١) . وجاء الوباء ثالثة الاثافي وثقلت وطأته حتى بقي الموتى بدون دفن .

ميخائيل الثالث : (١٣٩٥ - ١٤١٢) وفي السادس من شباط سنة ١٣٩٥ تسلم ميخائيل الثالث عكاز الرعاية . وأرسل رسالة الجلوس الى زملائه فاذا به يوافق بالاماس والصامتين . وجاء تيمورلنك في السنة ١٤٠٠ فاضطر ميخائيل ان يغادر دمشق الى قبرص . ونهبت « بدلاته وعدته الكنسية وماله » ودون في قبرص صفحات قليلة في تاريخ بطاركة انطاكية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وقد حفظها للتاريخ بولس ابن الزعيم (٢) .

وروى قسطنديوس القسطنطيني ان باخوميوس الثاني خلف ميخائيل الثالث وان مدة رئاسته كانت سنة واحدة وان يواكيم الثاني جاء بعده فرعى المؤمنين خمسة عشرة سنة اي حتى السنة ١٤٢٦ . ويذكر البطريك القسطنطيني مرقس الثالث بعد يواكيم فيجعل مدة رئاسته عشر سنوات (١٤٢٦-١٤٣٦) (٣) .

دوروثيوس الثاني : (١٤٣٦ - ١٤٥١) وهو اسقف ذينه (صيدنايا) رقي العرش الانطاكي في السنة ١٤٣٦ وجاهد في سبيل الأرثوذكسية فراقب مجمع فراري بمثليه مرقس متروبوليت افسس واسيدوروس متروبوليت كيف . واشترك في أعمال مجمع اوروشليم في السنة ١٤٤٤ ومجمع القسطنطينية في السنة ١٤٥٠ . وسنذكر ذلك بالتفصيل عند الكلام عن مجمع فراري .

وخلف دوروثيوس الثاني بموجب رواية قسطنديوس القسطنطيني ميخائيل الرابع (١٤٥٤ - ١٤٦٢) فرقس الرابع (١٤٦٢ - ١٤٧٦) فيواكيم الثالث

(١) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى ص ٢٠١ وابن اياس ج ١ ص ٣٣٥

(٢) Radu, B., Patrologie Orientale, XXII, 29 - 30.

(٣) Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, op. cit., 178.

(١٤٧٦ - ١٤٩٣) فغريغوريوس الثالث (١٤٩٣ - ١٥١١).

ميخائيل الرابع : (١٤٥١ - ١٤٩٧) ولا نعلم المراجع التي أخذ عنها البطريك قسطنطينوس. ولكنه جاء لمكارىوس ابن الزعيم ويولس ابن الزعيم أنه لدى وفاة دوروثيوس اجتمع أعيان دمشق وناذوا بمرقس اسقف صيدنايا بطريكاً وأن يواكيم متروبوليت بصرى وكيرلس متروبوليت بيروت ومرقس متروبوليت الحصن ويوحنا متروبوليت افخيته وافرأيم متروبوليت حماة وميخائيل اسقف الزبداني ويواكيم اسقف يبرود ومكارىوس اسقف قارة وارسانيوس اسقف عكة اشتركوا في تنصيبه وان بطريكته دامت ستاً واربعين سنة وانه توفي في السنة ٧٠٠٦ للخلقة (١٤٩٧) وان دوروثيوس الصابوني خلفه وان رئاسته هذا دامت ستاً وعشرين سنة (١).

الشماس موسى الجبيلي : ويغفل بعض الآباء الغربيين في الشرق البحث والتنقيب ويهملون مراقبته فيتعنون بخدمات الشماس موسى الجبيلي ويقولون « انه عمل على اتحاد الكنائس فصادفت أقواله قبولاً لدى مرقس البطريك الاسكندري والبطاركة الانطاكيين ميخائيل الرابع ومرقس الرابع ويواكيم الثالث وان مرقس الرابع أعاد اسم البابا الى الديانة الانطاكية وان يواكيم الثالث ذهب الى القدس وعمل مع مرقس الاسكندري على اقناع زميلها البطريك الاوروشيمني بالرجوع الى الاتحاد سنة ١٤٥٧ وان هؤلاء البطاركة الثلاثة فوضوا موسى الجبيلي ابصال وثائق اتحادهم الى الحبر الاعظم وان موسى وقع صلح الاتحاد بالنيابة عنهم في ٢١ نيسان سنة ١٤٦٠ وان بيوس الثاني امر بتدوين ذلك في كتاب احمر الجلدة لا يزال محفوظاً في المكتبة الفاتيكانية ». ويضيفون ان هذا الاتحاد استمر حتى السنة ١٥١٦ سنة الفتح العثماني وان العلاقات مع الغرب أصبحت ممتنعة عملياً فأخذ نفوذ القسطنطينية يتزايد والاتحاد يتناقص (٢).

١) Vat. Arab. 689, Fol. 127 ; Pat. Or., XXII, 33 ; Nasrallah, J., Chronologie des Patriarches d'Antioche, Proche - Orient, 1957, 26.

٢) الكنيسة الملكية للاب يوسف الشاس الخليفي (١٩٤٩) ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ ومختصر طائفة الروم الملكيين لمجهول (بيروت ١٨٨٤) ص ١٧.

ويعنى علماء الكنيسة اللاتينية بتاريخ الكنيسة ويصدرون بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥٦ سبعة عشر مجلداً باشراف فليش ومارتان . ويتولى روجه اوبيناس Aobenas الاستاذ في كلية الحقوق في ايكس بروفانس كتابة الفصل عن بيوس الثاني فيهمل ذكر موسى الجبيلي وعمله العظيم ويكتفي بالقول انه لمناسبة سقوط القسطنطينية واهتمام بيوس الثاني بصليبية جديدة ام رومة من الشرق عدد من السفراء الكاذبين الذين ادعوا انهم يمثلون بلدانهم فأضاعوا المصلحة العامة بعجز فتنهم وغموضهم (١) ولعله يرى موسى أحد هؤلاء .

وكان الاب موسى قد طرق الموضوع نفسه في السنة ١٩٤٨ في كتابه تاريخ النصرانية فدون أخبار موسى الجبيلي ولكنه احتاط فأشار الى موقف العالم الالماني فون باستور من هذه الرواية (٢) . اما فون باستور فانه يرى ان بيوس الثاني نفسه شك في صدق موسى وفي صحة الوثائق التي قدمها فامتنع عن أية اشارة الى هذا الحادث الذي لو صحح لكان جليلاً (٣) .

المالك والكنيسة : وعمل المالك ببعض النصوص الشرعية القديمة وباجتهادات بعض الفقهاء فضيقوا على النصارى وواجبوا الحد من نفوذهم . ففي السنة ١٢٧٧ « هدم شيخ الملك الظاهر كنيسة النصارى بالقدس وقتل قسيسها بيده وعملها زاوية وهدم كنيسة الروم بالارسكندرية وهي كرسي كنائسهم يعقدون بها البتركة ويزعمون ان رأس يحيى ابن زكريا عليها السلام فيها وجعلها مسجداً وسماها المدرسة الخضراء » (٤) . وفي السنة ١٣٦٤ « ورد الخبر بمنازلة الفرنج مدينة الاسكندرية فتبعت النصارى وأحضر البطريق والنصارى والزموا بحمل اموالهم لفكك اسرى المسلمين . وكتب بذلك الى البلاد الشامية » (٥) . وفي السنة ١٤٤٢ « ختم على كنائس النصارى الملكيين في مصر لانه وجد داخلها اعمدة كدان من الحجارة المنحوتة واكتاف جدد وحصل على جميع اهل الطوائف من اهل الذمة من الاهانة

١) Aubenas, R., Pie II, Fliche et Martin, XV, 61.

٢) Musset, H., Hist. du Christ., II, 26, 55.

٣) Pastor, L., Gesch. der Papste, III, 234 - 236.

(٤) نهاية الارب للنوري باريس رقم ١٥٧٨ ج ٢٩ ص ٩٨

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي باريس رقم ١٧٢٧ ص ٤٦ - ٤٧

والتغريم ما لا مزيد عليه» (١). وفي السنة ١٤٤٧ «أمر السلطان بهدم كنيسة النصارى الملكيين التي بقصر الشمع في مصر وأمر ببيع انقاضها وأن يعمر بتمنيتها المسجد القديم الذي كان بجانبها. وجعل كرسي البطريرك منبراً. وأخذت جميع عدها من زجاج ونحاس وجعلت في الجامع» (٢). وفي السنة ١٤٤٨ «توفي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بالنعماني. وكان نقمة على أهل الذمة في ما يجددونه في كنائسهم. وقال لي صاحبنا الشيخ برهان الدين النعماني أنه أسلم على يده ثمانون كافراً وأنه لم يبق في قصر الشمع ولا في الجزيرة ولا في المدينة كنيسة لليهود ولا للنصارى إلا وقد شملها من السيد أما هدم وأما بعض هدم وأما إزالة منبر أو قنونة وهي الأخشاب التي تصنع فيها التماثيل أو إزالة حجاب وهي المقاصير التي تجعل على الهياكل» (٣). وفي أيام السلطان الملك الظاهر جقمق «جهز خاصكياً اسمه اينال باي فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وهدم ما استجد بدير صهيون وغيره وانتزع قبر داود عليه السلام من النصارى. فهدم البناء المستجد بصهيون وأخرج قبر داود من أيدي النصارى ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبر الذي به قبر داود. وأخرج المسجد من دير السريان وسلم للشيخ محمد المشر وصار زاوية. وهدم البناء المستجد ببیت لحم وبالقمامة (القيامة) وقلع الدرابزين الخشب المستجد بالقمامة وأخذ إلى المسجد الأقصى بالتكبير والتهليل. وكشفت جميع الديارات وهدم ما استجد بها. وكان ذلك في أواخر عمر السلطان فحتم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات» (٤).

إيمان النصارى: والإيمان جمع اليمين أي القسم. وكانت تطلب من النصارى في أوقات الهدى والمصالحات ويختلف بها بعض قواد البحر والرسل الواردين للمواعدة والمواقفة (٥). ونقل القلقشندي في كتابه صبح الأعشى عن

(١) انباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني باريس رقم ١٦٠٢ ص ٢٦١

(٢) التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ص ١٨٠ - ١٨٢

(٣) التبر المسبوك أيضاً ص ٢٢٧ - ٢٢٨

(٤) الانس الجليل لجير الدين الحنبلي ص ٤٤٣ - ٤٤٤

(٥) الروم الملكيون في الإسلام لحبيب الزيات ج ١ ص ٤٥

محمد ابن عمر المدائني أن أصل ترتيب إيمان النصارى كان في زمان الفضل ابن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد وحكى عن بعض كتاب العراق فقال:

«أراد الفضل ابن الربيع أن يستحلف عوناً كاتبه النصراني فلم يدر كيف يستحلفه فقلت ولني استخلافه قال دونك فقلت له: أحلف بالله الذي لا تعبد غيره ولا تدين إلا له. والا فخلعت النصرانية وبرئت من المعمودية. وطرحت على المذبح خرقة حيضة يهودية وقلت في المسيح ما يقوله المسلمون: «أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب». والا فلعلك البطريرك الأكبر والمطارنة والشمامسة والقمامسة والديرايون وأصحاب الجامع عند مجتمع الجنائز وتقريب القربان وبما استغاثت به النصارى ليسوع. والا فلعلك حرم الثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً الذين خرجوا من نيقية حتى أقاموا عمود النصرانية. والا فشقت الناقوس وطبخت به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم ورميت الشاهد بعشرين حجراً جاحداً بها وهدمت كنيسة لدّ وبنيت بها كنيسة اليهود وخرقت غفارة مريم وكهنونة داود. وانت حنيف مسلم. وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك» (١).

تواقيع البطارقة: والتوقيع في عهد الماليك هو البراءة. وأقدم البراءات براءة البطريرك داود الخوري الانطاكي. وقد سبقت الإشارة إليه وإلى تقربه من رومة وخضوعه لجرها. واليك نصها كما حفظه القلقشندي:

الطوة

توقيع كريم بأن يستقر البطريرك المحتشم المبجل داود الخوري

المشكور بعقله لدى الملوك والслаطين

وفقه الله تعالى بطريرك الملكية بالملكة الشريفة الشامية المحروسة

حسباً اختاره أهل ملته المقيمون بالشام

المحروس ورغبوا فيه وكتبوا خطوطهم به وسألونا تقريره دون غيره

حسباً رسم به على ما شرح فيه

رسم بالامر لا زال يعز بالالتجاء إلى حرمة من يأوي إليه ويقصد عدله من أهل الملل ويعتمد

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٧ - ٢٨٨. راجع أيضاً رسالة الزيات المشار إليها ص ٤٦ - ٥٢.

عليه ان يستقر فلان وفقه الله بطريك الملكية الشامية المحروسة حسب اختياره اهل ملته المقيمون بالشام المحروس ورغبوا فيه وكتبوا خطوطهم به وسألوا تقريره في ذلك دون غيره . انه هو كبير ملته . والحاكم عليهم ما امتد في مدته . واليه مرجعهم في التحريم والتحليل . وفي الحكم بينهم بما انزل الله تعالى في التوراة ولم ينسخ في الانجيل . وشريعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الاذي وعدم الاكثار به والاحتفال . فخذ نفسك بالاول هذه الآداب . واعلم بانك في المدخل الى شريعتك طريق الى الياب . فتخلق من الاخلاق بكل جميل . ولا تستكثر من متاع الدنيا فانه قليل . وقدم المصالحة بين المتحاكين اليك قبل الفصل البيت فان الصلح كسا قيل سيد الاحكام . وهو قاعدة دينك المسيحي ولم يخالف فيه المحمدية الغراء دين الاسلام . ونظف صدور اخوانك من الفل ولا تقتنع بما ينظف ماء المعمودية من الاجسام .

واليك الامر في البيع وانت رأس جماعتك والكل لك تبع . فإياك ان تتخذها لك تجارة مريحة او تقتطع بها مال نصراني يقربه . فانه ما يكون قد قربه الى المذبح وانما ذبحه . وكذلك الديارات والقلالي . يتعين عليه ان يتفقد فيها كل أمر في الايام والليالي . وليجتهد في اجراء امورها على ما فيه دفع الشبهات . ويعلم انهم انما اعتزلوا فيها للتعب فلا يدعها تتخذ متزهات . فهم انما احدثوا هذه الرهبانية للثقل في هذه الدنيا والتعفف عن الفروج . وحبسوا فيها انفسهم حتى ان اكثرهم اذا دخل اليها ما يعود يبقى له خروج . فليحذرهم من عملها مصيدة للبال او خلوة له ولكن بالنساء حراماً ويكون انما تنزه عن الحلال . وإياه ثم إياه ان يقوي اليه من الغرياء القادمين عليه من ريب . او يكتم عن الانتهاء اليها مشكل امر ورد عليه من بعيد او قريب . ثم الحذر الحذر من اخفاء كتاب يرد اليه من احد من الملوك . ثم الحذر الحذر من الكتابة اليهم او المشي على هذا السلوك . وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فانه يفرق او تلقى ما يلقيه اليه جناح غراب منه فانه بالبين يتعق . والتقوى مأمور بها اهل كل ملة وكل موافق ومخالف في القبلة . فليكن عمله بها . وفي الكتابة ما يفني عن التصريح . وفيها رضي الله تعالى وبها أمر المسيح (١) .

ونقل القلقشندي (٢) توقيعاً سلطانياً ثانياً وجهه السلطان الى البطريرك الانطاكي ميخائيل اما الثاني او الثالث لأنه بين وفاة العمري ناسخ وصية البطارقة التي تضمنها التوقيع السابق (١٣٤٨) وسنة فراغ القلقشندي من كتابة صبح الاعشى (١٤١٢) قام على الكرسي الانطاكي بطريركان تسمى كل منهما باسم ميخائيل (٣) . وأهم ما يلفت النظر في هذا التوقيع السلطاني خلوه من الإشارة الى الباب أي البابا . ولا غرو فداود انقرد بخضوعه لزومة ولم يرد اسمه في لوائح البطارقة الارثوذكسين . وهذا هو نص التوقيع الثاني :

(١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) المؤلف نفسه ج ١٢ ص ٤٢٤ - ٤٢٦

(٣) الروم الملكيون في الاسلام لحبيب الزيات ص ٥٨

اما بعد حمد الله الذي جعلنا نكمل كل طائفة بمزيد الاحسان ونفيض من دولتنا الشريفة على كل بلد اطمئناناً لكل بلد وإيمان . ونقر عليهم من اختاروه ونراعيهم بمزيد الفضل والامتنان . والشهادة بأن الله الذي لا اله الا هو الواحد الذي ليس في وحدانيته قولان . والفرد المستزهد عن الجوهر والاقنوم والوالد والولد والحلول والحدثان . شهادة اظهر اقرارها اللسان وعنت بها الجوارح والاركان . والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث الى كافة الملل والاناس والجان . الذي بشر به عيسى وآمن به موسى وأنزل عموم رسالته في التوراة والانجيل والزبور والفرقان . فصح النقل بنبوته وآدم في الماء والطين وأوضح بذلك البرهان . وعلى آله وصحبه الذين ساروا باخلاص الوحدانية وشادوا اركان الملة المحمدية واعزوا الايمان وازالوا الطغيان . صلاة ينفع طيبتها ويفصح خطيبتها ويفرح بها الرحمن .

فان اول من اقناه بطريركاً على طائفة النصارى الملكية على ما يقتضيه دين النصرانية والمسلة العيسوية حاكماً في امورهم مفصلاً عما كن في صدورهم . من هو اهل هذه البطريركية وعازف بالملة المسيحية . اختاره لها اهل طائفته لما يعلمون من خبرته ومعرفته وكفايته ودربته . ونذب الى ولاية يستحقها على أبناء جنسه ورغب في سلوكها له مع اطابة نفسه . مع ما له من معرفة سرت أخبارها وظهرت بين النصارى آثارها . وكان البطريرك ميخائيل آدام الله بهجته هو من النصارى الملكية بالمعرفة المذكور وسيره بينهم مشهور . القائم فيها بالسيرة الحسنة والسالك في مذهبهم سيراً تشكره عليها الالسة .

فلذلك رسم بالامر الشريف لا زال احسانه العميم لكل طائفة شاملة وبره الجسيم لسائر الملل بالفضل متواصلاً ان يستقر بطريركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله على عادة من تقدمه بذلك . وتقوية يده على اهل ملته من تقادم السنين بحكم رضاهم . ومنع من يعارضه في ذلك حلاً على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه الى آخر وقت .

فليباشر هذه البطريركية مباشرة محمودة العواقب مشكورة لما تجلت به من جميل المناقب . وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه . وليسر فيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غاية قصده ومأربه . ولينظر في أحوالهم بالرحمة . وليعمل بتعلقاتهم يصدق القصد والهمة . وليسلك الطرق الواضحة الجلية ، وليتخلق بالاخلاق المرضية . وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريتهم وانكحتهم . وليعتمد الزهد في أموالهم وامتنعتهم . حتى يكون كل كبير منهم وصغير يمثل لأمره واقفاً عندما يتقدم به اليه في سره وجهه . منتصبين لاقامة حرمة وتنفيذ أمره وكلمته . وليحسن النظر في من عنده من الرهبان ويرفق بذوي الحاجات والضعفاء من النساء والصبيان . والاساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للاحسان احساناً جارياً في المساء والصباح والغد والرواح .

فليمثلوا أمره بالطاعة والاذعان . وليجيبوا نيه من غير خلاف ولا توان . ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس (١) . ورفع أصواتهم بالضجيج ولا سباً عند أوقات

(١) « اذا ارادوا الصلاة ضربوا بالناقوس . وهو خشبة مستطيلة يضرب عليها خشبة لطيفة

فيجتمعون » - صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٤ .

الاذان لاقامة الناموس . ولتقدم الى جميع النصارى بأن كلا منهم يلزم زيه وما جاءت به الشروط العمرية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لتكون احراهم في جميع البلاد مرفوعة . وليخش عالم الخفيات . ويستعمل الأناة والصبر في جميع الحالات . والوصايا كثيرة وهو بها عارف . والله يلهمه الرشد والمعارف .

ومما تجدر الاشارة اليه هذه المناسبة التنبيه السلطاني بوجوب التقيد بشروط عهدة عمر ابن الخطاب واعتبارها واجبة شرعاً .

قضية الباب : والباب في « المصطلح الشريف » عند المالمليك هو البابا . وقد ورد هذا اللفظ غير مرة في كتابات الديوان السلطاني وفي بعض التواريخ . ففي التوقيع السلطاني الذي وجه الى بطريرك داود الخوري العبارة : « واعلم بأنك في المدخل الى شريعتك طريق الى الباب » . وقد جاء في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ ، وهو من نوع كتابي التعريف للعمري وصبح الاعشى للقلقشندي ، كلام عن بطاركة النصارى ووصف لبعض تقاليدهم . وجاء ايضاً ان اول البطاركة هو الباب بتفخيم البائين وانه بترك الملكية وان الثاني بطرك الملكية بكرسي انطاكية وان ولاية هذا من الابواب الشريفة وانه « بعد كتابة محضر من النصارى الملكية باستحقاقه يكتب محضر ثاني ويجهزونه النصارى الى الباب برومية فيقف عليه ويجهز لهم استمرار الولاية الى انطاكية » .

وكان في أمل صديقنا المرحوم حبيب الزيات ان يكون أمر رومنة في العصور الغابرة مطاعاً في جميع فروع الكنيسة الجامعة وان يكون لها القول الفصل في الامور الهامة . فما ان اطلع على هذه العبارات في القلقشندي وفي مخطوط باريس حتى ظن انه بلغ ما في نفسه . فصنفت رسالة اسمها « الملكانيون يدينون بطاعة الباب » . خلص فيها الى القول ان الملكيين الانطاكيين اصبحوا بعد قدوم الصليبيين فرعين مستقلين الاول منها كان باقياً على حالته السابقة خارج الامارات الصليبية له اساقفة ورؤساء متفردون وهم الذين اشار اليهم كاتب مخطوط باريس اي اولئك الذين « يجهز البابا لبطاركتهم استمرار الولاية » . والفرع الثاني في نظر الزيات كان داخل حدود الامارات الصليبية . وكانت تتجاذبه اطماع فئتين فئة الروم البيزنطيين حينما كان يشتد نفوذهم في انطاكية وفئة الصليبيين الذين كانوا يترصدون

الفرص للتغلب على الكنائس والاديار . ثم يخلص صديقنا الزيات الى القول : « وكان يتفق احياناً ان يختار بطريرك انطاكية من بين صنائع القسطنطينية فيلبث في مكانه لتعذر السفر عليه الى انطاكية او لمانع آخر فيلبس لكل حالة لبوسها وينحاز بالطبع او بالضرورة الى اهواء بطاركة القسطنطينية وبحارهم في سياستهم ونفورهم من اللاتين فيظن من لا معرفة له بالحقيقة ان الكرسي الانطاكي بأسره الذي يمثله بشخصه كان مشايخاً لشقاق كيرولاوريوس في حين ان البطريرك انما كان يتكلم باسمه الخاص دون موافقة اساقفته وشعبه في ديار الاسلام . واذا صح قط ان احد احبار الكرسي المقيمين في الديار الرومية او انطاكية جاهر بشيء في ذلك فيكون قد نطق باسائه وعبر عن جنانه . وهو بعيد عن كرسيه غريب عن شعبه المستقر في الديار الاسلامية . وشتان بين قوم من البيزنطيين كان الحقد السياسي او الجنسي المتأثل في صدورهم ولا سيما بعد انتزاع الصليبيين القسطنطينية يملئ عليهم عبارات الخصام والخلاف لكرسي رومة وبين اقوام من العائشين في ذمة الاسلام تنزهوا عن هذه الاغراض وبرثوا من هذه الامراض وجاروا الصليبيين وانقادوا للاساقفة اللاتين منذ القرن الحادي عشر (١) .

وكلنا يقول بدستور واحد وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . وكلنا ايضاً يصلي « من اجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل » . ولكن القضية قضية تاريخية علمية يجب ان تعالج معالجة علمية للتوصل الى الحقيقة وتشخيص الداء الذي منه نشكو منذ تسع مئة سنة لنوفق بعون الله الى وصف الدواء . ونحن لا نترك خضوع البطريرك داود لرومة وقد ابنا ذلك في محله . ولكننا لا نرى في العبارة التي وردت في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ التي تفيد ان النصارى كانوا يكتبون محضراً باستحقاق بطريركهم ويجهزونه الى الباب في رومة فيقف عليه ويجهز لهم استمرار الولاية الى انطاكية نقول لا نرى في هذا القول دليلاً علمياً كافياً يحول الزيات استنتاجه الذي ورد اعلاه . فالزيات يعترف في رسالته هذه نفسها ان المخطوط الباريسي « غفل من اسم المؤلف ومن تاريخ التأليف

والنسخ» (١). وبالتالي فنحن امام رواية مجهول راويها . وقواعسد المصطلح تقضي بالثبوت من هوية الراوي والتعرف الى شخصيته وسر غوره ودرس المحيط الذي عاش فيه لضبط امياله ونزعاته ودرجة علمه وذكائه واتصاله بالحوادث التي يروي اخبارها . والروايات التاريخية هي صلتنا الوحيدة بحوادث الماضي . فان اخبرتنا الخبر على حقه توصلنا الى الحقيقة وان ارجفت او قمتنا في مهاوي الضلال والتضليل . فن قال ان نصارى انطاكية كانوا يجهزون المحاضر الى بابا رومة فيجهز لبطاركتهم استمرار الولاية ؟ واين عاش هذا الراوي ومتي . وماذا كانت مكانته ؟ وجواب الزيات عن هذه الاسئلة الاساسية هو لا ادري ! وردنا نحن ان رواية الراوي المجهول تبقى ضعيفة واهية ما دام راويها مجهولاً .

وقال الزيات رحمه الله في الصفحة ٦٩ من رسالته ان حب التحقيق دعاه الى السفر الى رومة للبحث في خزائن القاتيكان عن احد هذه المحاضر التي كان الملكيون «يجهزونها ويلتمسون بها من البابا اقرار انتخاب بطاركتهم» فغم حين علم ان كل ما كان محفوظاً في حاضرة الكتلثة من هذه المحاضر ضاع وتلف لما دخل رومة شارل الثامن ملك فرنسا سنة ١٤٩٣ واطلق ايدي جنوده في السلب والنهب والحريق . وازداد الزيات ان كل ما هو في خزائن مجمع نشر الايمان من الكتابات والاخبار الملكية لا يتجاوز اليوم اوائل القرن السابع عشر . فيترب علينا والحالة هذه ان نقول ان مخطوط باريس غفل من اسم المؤلف ومن تاريخ التأليف والنسخ وانه ليس هناك في رومة ما يثبت قول هذا المؤلف ان نصارى انطاكية كانوا يجهزون رومة بالمحاضر لتجهز بطاركتهم باستمرار الولاية . ولا يجوز لنا «افتراض» وجود هذه المحاضر في رومة قبل السنة ١٤٩٣ سنة السلب والنهب والحريق لانه ليس لدينا ما يحولنا هذا «الافتراض» . وبالتالي فنقول الزيات «ان ما كان محفوظاً من هذه المحاضر ضاع وتلف» هو قول فطير صادر عن غير روية .

ولم يجد الزيات في براءة البطريرك ميخائيل التي نقلها القلقشندي العبارة «واعلم بأنك في المدخل الى شريعتك طريق الى الباب» تلك التي وردت في براءة

البطريرك داود فضل وجهة أمره ونعت كاتب براءة البطريرك ميخائيل «بجمععة الالفاظ دون غناء غلب عليها التكرار لغير طائل» ونحن نخشى ان يكون صديقنا قد تغاضى وتغابى . ونرى في اسقاط الاشارة الى «الباب» في براءة البطريرك ميخائيل واثباتها في براءة البطريرك داود مجالاً للقول ان السلطان علم بخضوع الواحد الى البابا وامتناع الاخر ودليلاً على تيقظ الديوان السلطاني لا على جمععة كتابه .

وقد يكون كلام مؤلفنا المجهول صاحب مخطوط باريس وصفاً لتقاليد الجاليات اللاتينية في الامارات الصليبية . فاللاتين ملكيون في عرفه الارثوذكسيون المقيمون في هذه الامارات اكرهوا على الخضوع لاساقفة اللاتين . وهذه الجاليات كانت تجهز المحاضر باستحقاق بطاركتها فترسلها الى رومة والبابا كان يجهز بدوره استمرار الولاية لهؤلاء البطاركة (١) .

وكبح جماح الامارات واصلاح ما افسدته الفتن. وخلفه مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) فعمل على مواصلة الفتوح. وكان عمانوئيل الثاني فسيفس الروم قد طلب الى السلطان الجديد ان يبتغي ابنه رهينة في القسطنطينية فأبى. وفي السنة ١٤٢١ اعلن يوحنا الثامن فسيفساً وشريكاً لوالده في الحكم فأطلق سراح مصطفى بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني كما جرر جنيداً الوزير السابق «الثائر» فاضطر مراد الثاني الى ان يحارب مصطفى. ثم قام بخمسين الف جندي الى القسطنطينية وضرب الحصار عليها. ثم اضطر الى ان يرفع هذا الحصار لخجاجة ثورة هامة اذ كاهها عمانوئيل في بروسه ونيقية والقرمان.

يوحنا الثامن ومراد الثاني: وكانت دولة الروم قد تضاعفت فلم تعد تشمل سوى القسطنطينية وضواحيها حتى سلمبرية ثم بعض الاراضي الضيقة في ساحل البحر فجل اثوس فثسالونيكية فيسترة وميزميرية وانخيلوس. وكانت الموارد قد نضبت وقل الخير وكاد ينقطع. وكانت النقود الذهبية قد اصبحت نادرة في ايام عمانوئيل الثاني (١٣٩١ - ١٤٢٥) فلما تسلم يوحنا الثامن دقة الحكم اكتفى بالفضي منها (١).

واستغل مراد الثاني ضعف الروم فاستولى على مودونة في السنة ١٤٢٥ وخرج منها بالف اسير. وفي السنة ١٤٣٠ زحف على ثسالونيكية وضرب الحصار عليها. وكان اندرونيكوس باليولوغوس قد باعها من البنادقة منذ السنة ١٤٢٣ لقاء خمسين الف زكينة. ولم تتمكن البنادقية من اقامة حامية قوية فاستولى عليها السلطان بنفسه في ٢٩ ايار سنة ١٤٣٠. واباح نهبها وذبح من قاومه من اهلها وكانوا كثيراً. وحول جميع كنائسها الى جوامع ما عدا كنيسة القديس ديمتريوس (٢).

وعظم على يوحنا الثامن سقوط ثسالونيكية في يد الاتراك وأفرغه تقدم مراد وانتصاره. فهرع يرم حصون العاصمة. ولا تزال بعض النقوش الباقية

الفصل الخامس والأربعون

المجمع الفراري الفلورنسي

١٤٣٨ - ١٤٣٩

الاتراك العثمانيون: وفي الوقت نفسه الذي كانت تتناثر فيه امارات الصليبيين تناثر اوراق الخريف كانت قبيلة «كاي كان كلي» التركية الخراسانية قد تقبلت الاسلام ووطدت اقدامها عند حدود الروم في شمال آسية الصغرى الغربي وحذا حذوها الصروخان والقرمان وآيدى وغيرها. وتولى عثمان زعامة الكاي كان كلي فعرفت القبيلة باسمه. وفي السنة ١٣٠١ تمكنت هذه القبيلة بحيوها المصفحة من اختراق صفوف الروم امام نيقوميذية. وضغظت القبائل الاخرى على ساحل الارخبيل وعلى مدن الروم في الداخل. وواصل اورخان ابن عثمان الحرب على الروم فاستولى على نيقوميذية ونيقية. ثم جنح الى السلم فقضى نحو عشرين عاماً يثبت دعائم ملكه وينظم الجيش. وفي السنة ١٣٥٧ قطع الدردنيل واغار على الشاطئ الاوروبي فاحتل غاليلولي. واخضع مراد الاول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) الروملي وبلغارية والصرب. وخلفه ابنه بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) فلم يقل عن ابيه مهارة واقداماً فاخضع الامارات التركية في آسية ووطد اركان دولته في اوروبة. وعم الهول والفرع معظم الاوروبيين. وقامت رومة تدعو الى مقابلة الاتراك. وخرج لذلك جيش عظيم بقيادة سيجيسموند ملك المجر ضم بين كتابه كثيراً من فرسان فرنسا والمانيّة. وفاز الاوروبيون في بادىء الامر واستردوا من الترك كثيراً من المدن ثم شرعوا في حصار نيكوبوليس عند نهر الدانوب. فأسرع بايزيد للقائهم فهزمهم (١٣٩٦). ثم أطل تيمورلنك فخرج بايزيد لصدده وتقابل الجيشان في انقره (١٤٠٢) فكانت الهزيمة على العثمانيين واخذ بايزيد اسيراً ومات كدأ. وهلك تيمورلنك فاقتتل اولاد بايزيد من اجل العرش عشرين سنة. ثم انتهى الامر بتغلب محمد الاول (١٤١٣-١٤٢١) فصاقد الروم ولم شعت الدولة

1) Blanchet, A., Les Dernières Monnaies d'Or des Empereurs Byzantins, Rev. Numis., 1910, 78 ff.

2) Anagnostes, J., Extremo, 481 - 538.

تنطق باهتمامه هذا . وهاله تخاصم الجنويين والبنادقة في هذا الظرف الحرج (١) : وحز في صدره ان اخويه ثيودوروس وقسطنطين تنازعا الخلافة بعده واستعدا لحرب اهلية مرة وتسابقا لخطب ود مراد الثاني (٢) .

قوب الثرى وبعد النبط : وكان من الطبيعي جداً ان يعمد الروم الى نصارى الغرب للصمود في وجه المسلمين . ولكن التراب الندي كان قريباً والماء بعيداً . فرومة تطلب خضوع الاكليروس اليوناني ولم ترض عن هذا الخضوع بديلاً والفيلسوف كان ينتظر المدد الحربي والمالي مقابل الخضوع . وكل وعد بما لم يملك . وكل اتعد بما لا امل في الوصول اليه (٣) . وجاء في بعض المراجع الاولى ان عمانوئيل الثاني اوصى قبيل وفاته الا ينظر الى الاتحاد الا كوسيلة لصد الاترك وان يصار الى المطالبة بعقد مجمع مسكوني وان يماطل في ذلك بقصد كسب الوقت وانه لا يمكن التوفيق بين عجرفة اللاتين وعناد الروم (٤) .

مجمع بازل : (١٤٣١ - ١٤٤٨) وطالب الغرب باصلاح الكنيسة اصلاحاً عاماً « يشمل الرأس والاعضاء » ويضم شتات الكنيسة ويدفع عنها خطر الاترك . فدعا البابا مرتينوس الخامس الى مجمع في بازل يبحث هذه الامور جميعها ويحقق الاصلاح المنشود . وتوفي مرتينوس قبل افتتاح المجمع . وخلفه افجانيوس الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) . قم افتتاح المجمع في تموز السنة ١٤٣١ . ولم يرخص البابا عن البحث في اصلاح رأس الكنيسة فلم يحضر اجتماعات بازل . وفاوض الالباء المجتمعون يوحنا الثامن في كيفية التعاون بين النصارى للصمود المثمر في وجه الاترك المسلمين . وتبادل الطرفان الوفود . فقسام وفد ارثوذكسي الى بازل . وكان الايغومينس اسيدورس المع اعضاء هذا الوفد وهو الذي اصبح فيما بعد رئيس اساقفة كييف . فألقى خطاباً حماسياً أكد فيه ان اتمام الاتحاد المنشود يتحف العالم بأثر تذكاري يفوق صنم رودوس في سموه نحو العلى ويصل رأسه الى السماء فيضيء الشرق والغرب بلمعانه (٥) . ثم بات الوفد الارثوذكسي ينتظر

البحث التفاهم والاتحاد . ولكن اساقفة الغرب تشاحنوا كثيراً في امر المكان الذي يلتئم فيه مجمع مسكوني ثم اتفقوا على ارجاء البحث في الاتحاد بين الكيستين الى ان يكونوا قد حلوا مشكلة يوحنا هوس واتباعه . فغضب الارثوذكسيون لكرامتهم وظنوا ان اخوانهم الغربيين انما ساووا بقرارهم هذا بين المؤمنين الارثوذكسيين وبين هواطقة بوهيمية . وعلمت الاوساط الاكليريكية والشعبية في الشرق بما جرى فهبت عاصفة هوجاء من الاستياء في القسطنطينية (١) .

مجمع فراري : (١٤٣٨) وكان يوحنا الثامن قد ارسل وفداً في مطلع السنة ١٤٣١ ليفاوض مرتينوس الخامس في امر الاتحاد والمساعدة . وعلم هذا الوفد وهو لازال في المورة في طريقه الى رومة بوفاة مرتينوس فعاد الى القسطنطينية (٢) . فأرسل يوحنا وفداً ثانياً يفاوض البابا الجديد افجانيوس الرابع . وكان الشقاق قد ذر قرنه بين الكرادلة وكان مجمع بازل قد بدأ يناوئ رومه فلم يرخص افجانيوس عما رضي عنه سلفه وأصر على وجوب عقد مجمع الاتحاد في فراري لا في القسطنطينية . وعلم الآباء المجتمعون في بازل بما جرى بين افجانيوس والوفد البيزنطي ولم يرضوا عن انتقال المجمع من بازل الى فراري فارسلوا بدورهم وفداً الى القسطنطينية (اوائل سنة ١٤٣٣) يؤكد ان سلطة المجمع المسكوني اعلى من سلطة البابا وان امراء اوروبة يؤيدون الآباء في بازل وانه من مصلحة الروم ان يبطلوا الانشقاق (٣) . فأرسل يوحنا الثامن اخاه ديمتريوس والايجومينس اسيدورس ويوحنا ديسيباتوس الى بازل للمفاوضة كما سبق واشرنا (٤) . وفي مطلع السنة ١٤٣٤ عاد الوفد المفاوض من رومة وجاء معه الكردينال غراتوني لمتابعة البحث . وقبل افجانيوس بعقد المجمع المسكوني في القسطنطينية ولكن الآباء المجتمعين في بازل اصرروا على الاجتماع في افينيون فأصر افجانيوس بدوره على عقد المجمع في بلدة ايطالية . وتجددت البعثات الى القسطنطينية فأم عاصمة الروم الاب الدومينيكاني يوحنا الراغوزي على رأس وفد يمثل مجمع

1) Ibid. I, 12, 15.

2) Vast, H., Le Cardinal Bessarion, 42 - 43 ; Phrantzes, J., Chron., II 3.

3) Chalkondyles, L., Hist., VI, (P. G., Vol. 159).

4) Vast, H., Cardinal Bessarion, 43.

1) Brehier, L., Byzance, 489.

2) Phrantzes, J., Chron., II, 12.

3) Ostrogorsky, G., Byzantine State, 499.

4) Phrantzes, J., Chron., II, 13.

5) Pierling, L. P., La Russie et le Saint Siège, I 11.

بازل في السنة ١٤٣٥ - ١٤٣٦ (١). وفي ايلول السنة ١٤٣٧ وصل الى القسطنطينية وفد بابوي جديد ينقل رأي افجانيوس في الموضوع (٢). وتبعه وفد مجمي اخر فوصل في الثالث من تشرين الاول (٣). واضطر افجانيوس ان يأمر المجمع المنعقد في بازل بالانتقال الى فراري (٤). فأظهر الآباء المجتمعون في بازل العصيان بأغلبية الاصوات وقرروا خلعهم وانتخبوا فيليكس الخامس محله (٥).

تساور الروم : ودعا الفسيلفس يوحنا الثامن بطاركة الشرق للاشتراك في اعمال المجمع المسكوني الجديد وطلب الى امراء الروس وحكام رومانية وديسبوت الصرب وامبراطور طرابزون ان يعينوا من يمثلهم في هذا المجمع. وتساور زعماء القسطنطينية في أمر المجمع المسكوني فشايح الفسيلفس على رغبته في الاتحاد عدد من كبار رجال السياسة. وكان ديميتريوس كيدونيس *Cydonès* قد نقل الى اليونانية شيئاً من اجاث الآباء الغربيين في اللاهوت فتسنى للآباء الارثوذكسيين الاطلاع على آراء اخوانهم الغربيين اكثر من ذي قبل (٦). ونشأ في الاوساط الاكاديمية الارثوذكسية استعداد للتفاهم مع الغرب والاتحاد. واشهر هؤلاء بساريون الطرابزوني متروبوليت نيقية واسيدورس ايغومنس دير القديس ديميتريوس في القسطنطينية ورئيس اساقفة كييف بعد السنة ١٤٣٦. ولمع في صفوف المدافعين عن العقيدة الارثوذكسية والتقليد الرسولي كل من مرقس (افجينيكوس) متروبوليت افسس وجورج سكولاريوس الذي اصبحت فيما بعد البطريرك جنادبوس (٧). وشاور يوحنا الثامن مراداً الثاني في أمر التفاوض مع الغرب فلم يرض (٨).

- 1) Iorga, N., *Notes et Extraits pour Servir à l'Hist. des Croisades au XVe Siècle*, 17 (25).
- 2) Chalkondyles, L., *Hist.*, VI ; Vast, H., *op. cit.*, 45 - 46.
- 3) Ebersolt, J., *Orient et Occident*, II, 58.
- 4) *Doctoris gentium*, 18 Sept., 1437 ; Hefele - Leclercq, *Hist. Conc.*, VII, 942 - 943.
- 5) Hofmann, G., « Roderigo, Dekan von Braga », *Orientalia Christiana Periodica*, 1943, 171 ff.
- 6) *Cydonès, Correspondance*, (Cammelli), XV. f. ; Jugie, M., *Schisme Byzantin*, 263.
- 7) Vast, H., *op. cit.*, 41, 48 - 50.
- 8) Phrantzes, *Chron.*, II, 13.

الوفد الارثوذكسي : وترأس يوحنا الثامن الوفد الارثوذكسي بشخصه وضم اليه الامير الملكي عمانوئيل يغارس والبطريرك المسكوني يوسف الثاني وعدد من المطارنة والوجهاء. ومثل بطريرك الاسكندرية انطونيوس متروبوليت هرقلية وغريغوريوس (مماس) بروتوسنكلوس القسطنطينية. وناب عن بطريرك انطاكية كل من مرقس (افجانيكوس) متروبوليت افسس وايسيدوروس متروبوليت كييف. وناب عن بطريرك اوروشليم ديونيسيوس متروبوليت سرده وبعد وفاته بالطاعون دوسيثايوس متروبوليت مونبازية ومثل الكنيسة الروسية اسيدورس متروبوليت كييف.

وركب الوفد الارثوذكسي السفن البايوية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٧ فوصل الى البندقية في الثامن من شباط سنة ١٤٣٨ فاستقبل فيها استقبالاً حافلاً (١). وقام يوحنا الثامن منها الى فراري فوصلها في الرابع من آذار. ووصل البطريرك وحاشيته في التاسع من الشهر نفسه.

جلسات فراوي : وافتتح المجمع في التاسع من نيسان فتغيب عن الحضور معظم أعضاء مجمع بازل ومعظم امراء اوروية. ولم يشترك من هؤلاء سوى فيليب الطيب دوق بورغنديه. وكان يهتم لمسائل الشرق فأرسل وفداً يمثله في المجمع. فخاب أمل يوحنا الثامن وخاب سعيه لتنظيم حملة صليبية فور الانتهاء من أعمال المجمع (٢). ومنع شارل السابع أساقفة فرنسة عن الاشتراك في أعمال المجمع فزاد في الطين بلة (٣). وتقرر تأجيل العمل أربعة أشهر كاملة لانتظار الذين تأخروا عن الحضور.

وعين كل فريق لجنة من عشرة أعضاء تعد الأبحاث لعرضها على الهيئة العامة. فتألفت لجنة الروم من مرقس متروبوليت افسس وممثل الكرسي الانطاكي ومن يساريون متروبوليت نيقية وثلاثة مطارنة آخرين وبلسامون الخرتوفلاكس

- 1) Vast, H., *op. cit.*, 57 - 58.
- 2) Ibid. 63.
- 3) Lavissee, *Hist., de France*, IV, 2 265.

وسيليفستروس (سيروبولوس) الاكليسيارخوس ورئيسين من رؤساء الأديرة وراهب . وأضاف يوحنا الثامن الى هؤلاء الامير عمانوئيل يغارس وتألفت لجنة اللاتين من الكردينال شيزاريني والكردينال البرغاتي واسقف والراهب الدومينيكي الاسباني توركويمادا وستة آخرين .

وبحث الأعضاء أمر التصويت فطالب الروم باعتبار مجموع أصوات الروم موازياً لمجموع أصوات اللاتين في مسائل العقيدة فلم يقبل اللاتين بذلك . وكان للاتين مئتان وثمانية أصوات مقابل خمسة وعشرين للروم (١) . وحرر مرقس افسس رسالة الى البابا شديدة اللهجة فأوقفها الفسيفلس نفسه (٢) . ولكن الفسيفلس لم يتمكن من منع مرقس عن توجيه السؤال التالي في جلسة الثامن من تشرين الاول : « تجوز الاضافة الى دستور الايمان ؟ » فنهض بيساريون ورجا الحضور ان يبحثوا القضية نفسها بالشكل : « يجوز القول بالانتيان من الآب والابن » ثم خطب بوجوب الاتحاد (٣) وعاد مرقس الى الموضوع نفسه في جلسة الرابع عشر من تشرين الأول ولكن بدون جدوى (٤) . فتنبط الاعضاء وتعوقوا . (٥) وكان الطاعون قد ظهر في احياء فراري منذ شهر تموز فانتشر وتلوثت المدينة بكاملها فأمر البابا بالانتقال الى فلورنسة . فقام الاعضاء الى عاصمة توسكانة في اول السنة ١٤٣٩ .

جلسات فلورنسة : وفي الرابع عشر من شباط سنة ١٤٣٩ تابع المجمع اعماله في جلسة افتتاحية في مقره الجديد في فلورنسة . واستمر النقاش في أمر الانتيان في جلسات ثمان من الثاني من اذار حتى الرابع والعشرين وادى الى صراع عنيف بين مرقس افسس ويوحنا راغوزة . فتدخل الفسيفلس ومنع مرقس عن متابعة البحث (٦) . واتضح للفسيفلس والبابا ان لا فائدة ترتجي من متابعة المناقشة العلنية فانفقوا على ايقافها وتعيين لجنة جديدة من العناصر الراغبة في الاتحاد لوضع

صك بالاتحاد يوقعه الراغبون فيه من اعضاء المجمع افراداً . وفي الثلاثين من اذار أعلن هذا الاتفاق في قاعة المجمع فضج مرقس ورد بيساريون وايسيدورس فتدخل يوحنا الثامن وكم افواه المعارضين (١) وتولى بيساريون اعداد النص المطلوب فاستقضى نقاط الاتفاق في قضية الانتيان من اقوال الآباء الشرقيين والغربيين (٢) . ووقع الآباء اليونانيون هذا الصك في الرابع من حزيران ووافق البابا عليه في الثامن من الشهر نفسه . ورحل عن فلورنسة قبل التوقيع كل من الديسبوت ديمتريوس والفيلسوف بليثون والعالم سكولاريوس (جنادايوس فيما بعد) كي لا يساء فهم موقفهم من هذا الصك (٣) . وكان البطريرك المسكوني يوسف الثاني قد عارض الاتحاد قبل خروجه من القسطنطينية فتوفي قبل اعلاانه وذلك في التاسع من حزيران (٤) . ويلاحظ هنا ان صحة الوثيقة التي تتضمن موافقة هذا البطريرك على ما جرى في فراري وفلورنسة لم تثبت بعد وان سبب وفاته لا يزال مبهماً غامضاً . اما مرقس متروبوليت افسس وأحد ممثلي الكرسي الانطاكي فانه امتنع عن التوقيع واحتج على محتويات الصك .

وتم التفاهم بسهولة حول قضية المطهر واستعمال الفطير ومسألة الايكلسيس وهي الابتهاال الى الروح القدس الذي يتلى بعد كلام التقديس وذلك بين الثاني عشر من حزيران والخامس من تموز . واشتد النقاش بين الثالث والعشرين والسادس والعشرين من حزيران حول سلطة البابا على البطارقة وصلاحيته في الدعوة الى المجمع المسكونية . وهدد الفسيفلس بالانسحاب . ثم وفق بيساريون الى صيغة أبانت سلطة البابا وحفظت « حقوق الكنيسة الشرقية وامتيازاتها » (٥) .

اعلان الاتحاد : واستخرج طلاب الاتحاد من مختلف الاقترحات نصاً واحداً للاتحاد وافقوا عليه في جلسة السبت في الرابع من تموز سنة ١٤٣٩ . وأعلن

1) Hofmann, G., Die Konzilsarbeit in Florenz, Or. Christ. Period., 1938, 157 - 188, 372 - 422.

2) P. G., Vol. 161, Col. 543 - 612 ; Vast, H., op. cit., 90 - 96.

3) Hefele - Leclercq, Hist. des Conciles, VII, 1009.

4) Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 673.

5) P. G., Vol. 160, Col. 52 ff.

1) Lambros, Paleologia I, 276 - 277 (Jean Eugenikos Logos Eucharistiraos).

2) Lambros, Paleologia, I, 265 - 270.

3) Vast, H., op. cit. 65 ; P. G. Vol. 161, Col. 532 f.

4) Vast, H., op. cit., 69 - 74.

5) Lambros, op. cit., I, 276.

6) Ibid., 79 - 85.

هذا النص رسمياً يوم الاثنين في السادس من تموز في قداس جبري اقامه البابا افجانيوس الرابع . فتلاه باللاتينية الكردينال سيزاريني بين البابا وباليونانية بيساريون متروبوليت نيقية ثم تعانقا . واليك تعريب النص كما جاء في منشور البطريرك كيرلس التاسع لمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لمجمع فلورنسة (١) .

افجانيوس الاسقف خادم خدام الله

« اكتب هذا للذكر المؤبد »

« برضى ولدنا الاعز يسوع المسيح يوحنا باليولوغوس امپراطور الروم ورضى مثلي اخواننا البطارقة الشرقيين وبقية اخواننا الاساقفة الحاضرين هنا بالاصالة عن نفوسهم وبالنسبة عن الكنيسة الشرقية جمعا لتفرح السموات وتبهج الارض ! فقد انهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية واقم السلام والاتفاق ثانية على حجر الزاوية يسوع المسيح الذي ضم الشعبين الى واحد جامعا كلا الحائطين برباط السلام والمحبة الذي لا ينحل . وقد اضمحلت غيوم الحزن المديد وتبدد ظلام الخصومة المزمع وأضاء لنا كوكب الاتحاد البهي الشهي . فلتفرح الكنيسة انما فان أبناءها الذين كانت تشاهدهم متخاصمين تراهم اليوم راجعين الى الوحدة والسلام . وتلك التي كانت تذرِف دموعاً سقيمة على انفصالهم لتشكر الآن بفرح لا يوصف الاله القدير على اتفاقهم العجيب . ليفرح به المؤمنون في العالم اجمع وليهنئ المسيحيون امهم الكنيسة الجامعة . فها ان آباء الغرب والشرق بعد مرور حقبة طويلة من الاختلاف والشقاق قد ركبوا أخطار البر والبحر وتغلبوا على المتاعب وبادروا بسرور الى هذا المجمع المسكوني المقدس راغبين في تجديد الاتحاد المقدس والمحبة القديمة . ولم تحب آمالهم لانهم بعد الابحاث الطويلة الشاقة بلغوا برأفة الروح القدس الى الاتحاد المقدس المرغوب فيه . فمن يستطيع ان يرفع القدير الشكر الوفي على هذا الاحسان ومن لا يتعجب من كل قلبه من غنى مراحم الله . هل من قلب صخري لا تليته مشاهدة رأفة الله هذه غير المتناهية . حقاً انها لأفعال الهية لا اختراعات الضعف البشري . اذن يجب علينا قبولها بالاحترام العظيم والاعتراف بها بالترانيم المقدسة . لك المديح لك الحمد لك الشكر يا يسوع المسيح يا ينبوع المراحم الذي اوليت عروسك الكنيسة الجامعة هذا الخير العظيم وأظهرت في جيلنا عجائب حنوك حتى يتحدث الجميع بمعجزاتك . فقد رأينا يعيونا ما طالما تاق السلف اليه فلم يروه . فان اللاتين واليونان التأموا في هذا المجمع المسكوني المقدس وبخشوا بمنتهى الجهد والتدقيق قضية انبثاق الروح القدس موردين آيات الكتب الالهية ونصوصاً كثيرة لملافة الغرب والشرق الآباء القديسين الذين منهم من يقول ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن ومنهم من يقول انه ينبثق من الآب بالابن انما كلهم يرمون الى مقصد واحد بالفاظ مختلفة . وبالواقع أكد الروم انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب

لا ينبثقون انبثاقه من الابن . ولكن بما انهم كانوا يظنون ان اللاتين يقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن يسلمون بمبدأين ونفختين امتنعوا عن القول بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن . على ان اللاتين أكدوا انهم بقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن لا ينبثقون كون الآب ينبوع كل اللاهوت ومبدأ لابن والروح القدس ولا ينكرون ان الابن يأخذ من الآب ببق الروح القدس . ولا يعملون بمبدأين او نفختين بل يمتقدون بمبدأ واحد فقط وبنفخة واحدة باثقة للروح القدس كما اعتقدوا على الدوام . وبما ان مرجع هذه التعابير كلها الى معنى واحد فقد اتفقوا اخيراً وأقرروا برضى شامل الاتحاد التالي المقدس المحبوب من الله :

« باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس ويتصدق هذا المجمع المسكوني المقدس المتمعن في فلورنسة نوجب على المسيحيين بأجمعهم ان يقبلوا حقيقة ايماننا هذه ويؤمنوا بها معترفين كلهم ان الروح القدس هو منذ الأزل من الآب والابن وانه يأخذ جوهره وكيانه الخاص من الآب والابن معاً منبثقاً انبثاقاً ازلياً من كليهما كن مبدأ واحد ونفخة واحدة . ونصرح بأن الآباء القديسين الذين يقولون عن الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن لا يقصدون سوى هذا المعنى أي ان الابن مثل الآب علة اقنوم الروح القدس كما يقول الروم او مبدأه كما يقول اللاتين كما ان الآب هو علة الابن ومبدأه . وبما ان الآب عند ولادته لابنه الوحيد منحه كل ما يملك ما عدا الابوة هكذا أخذ الابن ازلياً من الآب ان ينبثق الروح القدس . ونحدد ان زيادة لفظة والابن في قانون الايمان هي حسنة وشرعية وصوابية لأنها توضح حقيقة من حقائق الايمان وقد اقتضتها الضرورة . » ونحدد ان جسد يسوع المسيح يقدس حقاً في خبز الخنطة سواء اكان فطيراً او خيراً وعلى الكهنة ان يستعملوا هذا او ذاك بحسب طقس كنيستهم غربية كانت او شرقية .

« ونحدد ان نفوس الذين تابوا توبة حقيقية وماتوا في خال محبة الله قبل ان يكفروا عما اجترؤوه او اهلوه بأفعال توبة لا ثقة تطهر بعد الموت بعذابات المظهر وتخلص منها باسماقات المؤمنين الاحياء كنبيحة القداس والصلوات والصدقات وغير هذه من افعال المحبة التي اعتاد المؤمنون ممارستها لاجل المؤمنين حسب اصول الكنيسة . وان نفوس الذين بعد قبولهم سر المعمودية لم يتدنسوا قط بادناس الخطيئة او نفوس المؤمنين الذين بعد ارتكابهم الخطيئة قد تطهروا منها اذا كانوا في الجسد او بعد الموت على النحو المتقدم اعلاه تذاخل حالاً الساء لتشاهد بوضوح الاله الواحد المثلث الاقانيم كما هو . وانما تتفاوت درجة هذه المشاهدة بحسب اختلاف درجات الاستحقاق وان نفوس الذين يموتون في حال الخطيئة المميته مفعولة كانت او اصلية فقط تهبط حالاً الى الجحيم لتعذب بعذابات مختلفة متفاوتة .

« ونحدد ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والخبر الروماني له اولية التقدم في المسكونة كلها وهو خليفة الطوباوي بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وابو المسيحيين بأجمعهم ومعلمهم . وقد اعطاء سيدنا يسوع المسيح بشخص الطوباوي بطرس مله السلطان ليرعى ويدير ويسوس الكنيسة الجامعة كما تتضمن ذلك أعمال المجمع المسكوني والقوانين المقدسة . ثم نجد النظام الذي رسمته القوانين لبقية البطارقة المكرمين وهو ان الثاني بعد الخبر الروماني الاقدس

بطريرك القسطنطينية والثالث بطريرك الاسكندرية والرابع بطريرك انطاكية والخامس بطريرك اوروشليم . على ان تحفظ كل امتيازاتهم وحقوقهم » (١) .

ويلاحظ هنا ان صك الاتحاد لا يشير الى الابيكليرس والسبب في ذلك ان الآباء اليونانيين الذين وافقوا على الاتحاد ادعوا ان القديس يوحنا الذهبي الفم يقول ان التقديس يتم بمجرد تلاوة كلمات السيد المسيح دون سواها . ويلاحظ ايضاً ان الآباء اليونانيين اصرروا عند اعترافهم بسلطة البابا على أمرين هامين اولهما ان المجامع المسكونية لا تصبح مسكونية الا بحضور بطريرك القسطنطينية وامبراطورها بالاضافة الى البابا وانه لا تجوز محاكمة بطريرك الا في داخل ابرشيته لمقابلة المدعي بالمدعى عليه (٢) .

ويلاحظ ايضاً ان يوحنا الثامن قصد فراري مستنجداً مستمطراً فوعده رومة فاتعد فتدخل في المجمع تدخلاً فعلياً . وألح وضغط ولم يسمح بالمخالفة ولا المعاندة فأخرج موقف العضو العادي واضطر الاقلية الباقية الى التطرف اما سلباً واما ايجاباً .

القسطنطينية والاتحاد : وأنهى المجمع أعماله في جلسة عمومية في السادس والعشرين من آب وغادر الوفد اليوناني البندقيّة في الحادي عشر من تشرين الاول (٣) ولم يصلوا الى القسطنطينية قبل اليوم الاول من شباط سنة ١٤٤٠ (٤) . فصودموا فيها بمعارضة شديدة من الاكليروس والشعب ونعتوا بالفتيريين والخونة والمراطقة . وأيد الشعب في هذه المعارضة جمهور الوجهاء ورجال البلاط (٥) . وجل ما سمح به المعتدلون من هؤلاء ذكر اسم البابا في الذبيخة ولم يوافقوا على اذاعة نص كتاب الاتحاد *Tomus Unionis* (٦) .

وترغم مرقس متروبوليت افسس المعارضة وسانده فيها كل من أخيه

- 1) Hofmann, G., *Epistolae Pontificiae ad Concilium Florentinum Spectantes* II, Nr. 176, pp. 68 - 79.
- 2) Mollat, G., *Concile de Florence, Catholicisme, Encyc.* (1956), IV, 1353.
- 3) Syropoulos, *Hist.*, III, 9 - 12.
- 4) Phrantzes, *Chron.*, II, 17.
- 5) *Ibid.*, II, 13.
- 6) Léonard de Chio, P. G., Vol. 159, Col. 929.

يوحنا افجانيكوس وجاورجيوس سكولاريوس فالتف حولهم الشعب وجمهور الاكليروس . وتراجع عن الاتحاد واحد وعشرون من تسعة وعشرين ممن وقعوا صك فلورنسة ! واشتد الجدل وضجت الأوساط بالاحتجاج وعدم الرضى فأمر القسيفلس مرقس بالالتحاق بأبرشيته فامثل ولكنه اتجه شطر جبل آثوس فأمر القسيفلس بسجنه (١) . ونصح البابا بالجوء الى الجسد العلي وأرسل الى القسطنطينية قاصداً رسولياً وعدداً من رجال اللاهوت . فناظر مرقس اسقفين لاتينيين وماتنها وتمادي فأدعى النصر كل من الطرفين (٢) . وخطب سكولاريوس في حضرة الشيوخ وارتقى غير المنابر فطعنوا في الاتحاد وأتهموا مؤيديه بالخيانة (٣) . وكان يوحنا الثامن قد أقام متروفانس أحد أعضاء الوفد المفاوض بطريركاً على القسطنطينية فكثرت عثاره فاستعفى . فجاء القسيفلس بأحد خصوم مرقس بغريغوريوس ماماس وأجلسه على السدة المسكونية (١٤٤٥) . فتهجم سكولاريوس عليه وأهانته علناً في كنيسة الحكمة الالهية (٤) . واسترسل يوحنا الثامن في تأييد الاتحاد فركب المعارضون متن غرورهم . واختلف الامراء في أمر الولاية بعد يوحنا فأيد بعضهم المعارضة تأييداً فاشتد الكره واضطرب الناس . وقلت ثقة الاكليروس بالحكومة ومال بعضهم الى الأتراك (٥) .

وتوفي يوحنا الثامن في السنة ١٤٤٨ . ولم يرزق ولداً يخلفه في الحكم . فتدخل مراد الثاني السلطان العثماني في أمر الخلافة فتوَّج قسطنطين باليولوغوس فسيفلساً باسم قسطنطين الحادي عشر في السادس من كانون الثاني سنة ١٤٤٩ . فعاهد مراداً على الولاء واستقبله الشعب بابتهاج عظيم ولم يتصل برومة ليثبت لها ان اتحاد الكنيستين كان لا يزال قائماً في نظره .

الاتحاد في روسية : وعاد اسيدورس الى روسية وأعلن صك الاتحاد في موسكو سنة ١٤٤١ فخلعه باسيلوس الثاني الغراندوق وأمر بحبسه ولقبه بالذئب

- 1) Lambros, *Paleologia*, I, 27 - 30 ; Vast, H., *op. cit.*, 118 - 119.
- 2) Syropoulos, *Hist.*, XII, 11 ; Gepoire III, P. G., Vol. 160, Col. 693 ; Muralte *Chron.*, 6951, 6953.
- 3) Lambros, *Paleologia*, II, 94.
- 4) Syropoulos, *Hist.*, II, 11 ; Vast, H., *op. cit.*, 121 - 122, 132 - 133.
- 5) Bréhier, L., *Byzance*, 498.

بدلاً من الراعي . ثم أوعز بانتقاء روسي يخلفه في رئاسة الأساقفة . واعتبر الروس يوحنا الثامن وبطريركه جاحدين . فافلتت كنيسة روسية من يد بطريركية القسطنطينية (١) . وفر أسيدورس من سجنه والتجأ إلى رومة وبقي فيها . وكان ببساريون شريكه في الاتحاد قد عاد إلى رومة أيضاً ليستقر فيها !

جمع اوروشليم : (١٤٤٣) ونقل ارسانيوس متروبوليت قيصرية قبدوقية إلى دوروثيوس الثاني البطريرك الانطاكي وإلى يواكيم البطريرك الاوروشليمي وفيلوثيوس البطريرك الاسكندري موقف الشعب والاكليروس والوجهاء في عاصمة الارثوذكسية من الاتحاد الذي تم في فلورنسة فاجتمعوا في اوروشليم في السنة ١٤٤٣ وبحوثا الموقف فشجّبوا أعمال الوفد المفاوض في فلورنسة واعتبروا قراراتهم غير شرعية ووصموها بالدنس *miara* وخلعوا متروفانس البطريرك الاتحادي القسطنطيني وكل من رسم من رجال الاكليروس (٢) .

جمع كنيسة الحكمة : (١٤٥٠) ويختلف العلماء في صحة قرارات نسبت إلى مجمع عقد في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٤٥٠ وضم أقطاب الكنائس الارثوذكسية البطاركة الثلاثة وغيرهم . فلاوون الاتيوس العالم الايطالي الذي نشر هذه القرارات في القرن السابع عشر اعتبرها كاذبة مزورة . ولكن بعض علماء اليونان أيد صحتها . ومنذ ذلك الحين والعلماء على اختلاف في أمرها . فالعلامة الباحثة لويس برييه يقول بصحتها . وكان دراسيكة العلامة الالماني قد قال هذا القول نفسه في السنة ١٨٩٦ (٣) . وبابايانو اليوناني ولبديف الروسي وغيرهما ينكران الصحة (٤) . ويرى العلامة المعاصر فازيلايف الروسي انه ليس هنالك دليل كاف يؤيد رجوع قسطنطين الحادي عشر عن الاتحاد .

1) Ostrogorsky, G., Byz. State, 501.

2) Allatius De Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensione III, (4), 939 ; Constantius, Patriarchs of Antioch, op. cit., 178 - 179 ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 674 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 268.

3) Draseke, J., Zum Kircheneinigungsversuch des Jahres 1439, Byz. Zeit., 1896, 580 ; Brehier, L., Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches, Cam. Med. Hist., IV, 624 - 625.

4) Papaioannu, K., Aols of the Socalled Council of Sophia, Vizantiysky Vremennik, 1895, 394, 413 ; Lebedev, Essays on the Byz. East. Church, 294.

وخلاصة ما يقال عن أعمال هذا الجمع ان بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم دعوا إلى مجمع في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٤٥٠ فخلعوا غريغوريوس مماس بطريرك القسطنطينية « الملتين » وأقاموا اثناسيوس « الارثوذكسي » محله وشجّبوا أعمال مجمع فلورنسة واعتبروا قراراته رجسة خبيثة مخالفة لقرارات المجمع المسكونية . ثم قبلوا عودة الثائين من الأساقفة والكهنة والدموع ملء أعينهم .

ويفيد سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جناديوس ان خمسة مطارنة وعشرة اكليريكيين غيرهم رفعوا في تشرين الثاني سنة ١٤٥٢ بياناً إلى القسيفلس قسطنطين الحادي عشر رفضوا فيه الاعتراف بالاتحاد (١) .

المرسوم الصادر إلى الارمن : وعمل البابا افجانيوس لمناسبة مجمع فلورنسة على الاتحاد مع جميع الطوائف المسيحية . وأرسل قسطنطين جاثليق الارمن في قيليقية وفدأ إلى فلورنسة لاعادة السلام والحب . فبحث المجمع أمر الارمن وأعلن البابا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٩ صك الاتحاد معهم . وجاء هذا الصك حاوياً أكمل عرض لتعليم كنيسة رومة بشأن الأمرار . وجاء فيه قول صريح بشأن الانبثاق والطبيعتين والمشيئتين . وفي الخامس عشر من كانون الأول منع البابا اعادة تعميد الأرمن .

الاقباط والاحباش : ووجه افجانيوس رسالة إلى يوحنا بطريرك الأقباط وإلى نجاشي الحبشة يدعوها إلى الاتحاد . فأم فلورنسة في شهري آب وايلول سنة ١٤٤١ من فاض مجمعهما في الاتحاد . وفي الرابع من شباط سنة ١٤٤٢ أعلن البابا صكاً آخر ضمنه الاتحاد مع هؤلاء وفصل فيه موقف الكنيسة من سر الثالوث الاقدس وخلق العالم وأسفار العهدين وطبيعتي السيد المخلص وحقيقة سر الفداء وأهمية قرارات المجمع المسكونية . وتلى هذا الصك باللغتين اللاتينية والعربية .

المانويون البشناق : وفي السنة ١٤٤٣ وصل إلى فلورنسة سفير ثوما

1) Scholarios, G., Oeuvres Complètes, III, 188 - 163.

ملك البشناق . فاستنكر تعاليم ماني والقول بمبدأين ازيلين وصرح برغبة الملك في الانضمام الى الكنيسة .

السريان : ووصل الى رومة عبدالله مطران الرها . ففاوض المجمع الفلورنسي فيها . وأعلن البابا في الثلاثين من ايلول سنة ١٤٤٤ الاتحاد مع السريان وبين ما يجب الاعتقاد به ولا سيما فيما يتعلق بالطيبعتين والمشيئتين .

نسا طرة قبرص وموارنتها : وكان لا يزال في قبرص نسا طرة يقولون بأن السيدة العذراء ام يسوع لا والدة الاله وما ينطوي عليه هذا الكلام ويجهرون بطبيعة واحدة لا طبيعتين . وكانوا خاضعين لاسقف اسمه تيموثاوس الطرسوسي وكان في الجزيرة ايضاً موارنة خاضعون لاسقف اسمه الياس . فأرسل افجانيوس بابا رومة اسقفاً يدعو هؤلاء الى الاتحاد . وبعد مفاوضات طويلة رضي الاسقفان بالاتحاد وأقاما لذلك حفلة خصوصية في كنيسة الحكمة الالهية القبرصية . وأرسلا مندوبين الى رومة للبحث في تفاصيل هذا الاتحاد . وفي السابع من آب سنة ١٤٤٥ أعلن البابا اتحاد هؤلاء موجياً القول بالطيبعتين والمشيئتين وغير ذلك مانعاً النسا طرة من اضافة الزيت الى مادة سر الافخارستية (١) . واليك ما جاء في هذا الموضوع للمطران يوسف الدبس :

« لا ننكر ان البابا افجانيوس الرابع كتب في برامته المفتحة تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح المؤرخة في سنة ١٤٤٥ من كلامه في اندراوس رئيس اساقفة رودوس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموثاوس مطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذراء لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة . الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة وانه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهاراً . ثم انه ارسل تيموثاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجهد تيموثاوس ضلال نسطور واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة . ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس واقرب بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرص وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة .

« لكننا نقول ان اندراوس مطران رودوس عند بلوغه الى قبرص ومخاطبته تيموثاوس والياس الاسقفين ورؤيته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لما دستور الايمان الذي يلزم كلا

1) Hofmann, G., *Epist., Pont. de ultimis Actis Conc. Florent. 1440 - 1445, Roma, 1946.*

منها ان يقرأ به جهاراً وباحتفال . ولما كان يعلم ان تيموثاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعده له جمود بدعة نسطور ولعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون بالمشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني وجود بدعة مكاريوس الذي كان مغوياً بدعة المشيئة الواحدة فتلا كل منها في الكنيسة الدستور الذي اعده له اسقف رودوس وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداها الى الايمان القويم . فاغتر البابا بما كتبه في برامته المذكورة . على ان اقرار المطران الياس لم يكن احدائاً لوجوده بل تقريراً او تجديداً له « (١) .

المجمع والادب الكنسي : وقضت ظروف الروم في الدور الاخير من تاريخهم بأن يلجأوا الى الغرب في طلب المعونة ضد الطامعين من الغرب والشرق . ورأوا ان لا مفر من استرضاء رومة واستعطافها لكثرة تدخل ابحارها في السياسة وانغاسهم فيها . فكانت محاولات لتوحيد الكنيستين فصلنا أخبارها في تضاعيف هذا الفصل وغيره . وأثار موضوع الاتحاد قرائح رجال الكنيسة فصنفوا واختلفوا فيما بينهم .

وكان أكثر رجال الدين استعداداً لارضاء ابحار رومة يوحنا فقس او بكوس . بدأ ارثوذكسياً متمسكاً بقرارات المجمع المسكونية فاضطهده ميخائيل الثامن وحبسه . ثم قال بالاتحاد فرقي السدة البطريركية المسكونية وظل يدير شؤونها حتى ايام اندرونيكوس الثاني . وكان من أقدر أهل زمانه علماً وثقافة وحجة وفصاحة . وأشهر ما صنف كتابه الاتحاد والسلم بين الكنيستين . وقد حاول فيه ان يظهر وحدة العقيدة بين الكنيستين حتى ايام فوطيوس (٢) .

وحذا حذو فقس ديمتريوس فيلنونس الذي عمر طويلاً (١٣١٠-١٤١٠) فتعلم اللاتينية في ميلانو وقضى حياته بين ثسالونيكية والقسطنطينية وكريت . وتضلّع في الادب اللاتيني وتعلّق بفلسفة توما الاكوييني ونقله الى اليونانية . وقد دعاه العلامة غريغوار « ذيوسستينس الاتحاد » (٣) .

(١) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ج ٤ ص ٥٩٩-٦٠٠ . اما فيما يتعلق بغوليلموس السوروي وقيمة شهادته فقد سبق لنا الكلام في ذلك في الفصل الحادي والاربعين فراجع في محله .

2) Zotos, Al. D., Ioannes Beccos, Munich, 1620 ; Gramel, V., *Un Ouvre Recent su Jean Bekkos, Echos d'Orient*, 1925, 26 - 32 ; Bréhier, L., *Beccos, Dict. Hist. Géog. Ecc.*

3) Grégoire, H., *L'Opinion Byzantine et la Bataille de Kossovo, Byzantion*, 1931, 247 ; Cammelli, G., *Démétrius Correspondance, Paris*, 1930 ; Jugie, M., *Démétrius Cydones et la Théol. Lat., Echos d'Orient*, 1928, 385 - 402 ; Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 694 - 695.

واشتهر في الدفاع عن الاتحاد الانسي بيساريون . ولد في طرابزون حوالي السنة ١٣٩٥ وأم القسطنطينية لمتابعة دروسه ثم أنهاها في ميسرة في المورة على يد بليثون الفيلسوف . وأصبح رئيس أساقفة نيقية فرافق يوحنا الثامن الى مجمع فراري فلورنسة فقال بالاتحاد وأمسى منذ الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٤٣٩ مع زميله أسيدورس رئيس أساقفة كيف كردينالا في الكنيسة اللاتينية . وأشهر ما كتب في الاتحاد دفاعه عن فقس ضد هجرات بلاماس ورده على مرقس رئيس أساقفة افسس . وتوفي في رابينة في السنة ١٤٧٢ (١) .

وتولى السدة البطريركية المسكونية غريغوريوس القبرصي في السنة ١٤٨٩ فجادل فقس وصنف في « الإيمان » وفي « الانشقاق » . وكان خطيباً مفوهاً و كاتباً كبيراً فألف في اللغة والأدب وخلف رسائل كثيرة هي من أكثر المراجع فائدة (٢) .

وأشد الأرثوذكسين تمسكاً بالجماع المسكونية وأقواهم شكيمه مرقس افجانيكوس رئيس أساقفة افسس وممثل الكرسي الانطاكي . حضر مجمع فراري فلورنسة فعارض وأبى ان يوقع قراراته . وعاد الى القسطنطينية بنادي بالحفاظة على العقيدة الرسولية وعلى تنظيم الكنيسة كما أقرتها الجماع المسكونية . وأشهر ما صنف سبعة وخمسين فصلا في نقد العقيدة اللاتينية وكتب عدداً من الرسائل في الرد على بيساريون وخلف بعض مراسلات له (٣) .

واشتهر في حقل اللاهوت والفلسفة جاورجيوس سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جنادبوس اول بطريرك مسكوني في عهد الاتراك العثمانيين . واشترك سكولاريوس في أعمال مجمع فراري فلورنسة ولكنه لم يوقع قراراته وعاد الى القسطنطينية يدافع عن التقليد الأرثوذكسي بخطبه

- 1) Vast, H., *Le Cardinal Bessarion*, Paris, 1878 ; Mohler, L., *Kardinal Bessarion als Theologe, Humanist und Staatsmann, Funde und Forschungen I. Darstellungen*, Paderborn, 1923 ; Brehier, L., *Bessarion, Dict. Hist. Geog. Ecc.*, 1935, Col. 1181 - 1199.
- 2) Lameere, W., *Tradition Manuscrite de la Corresp. de Grégoire de Chypre Bruxelles - Rome*, 1937 ; Cayré, F., *Georges de Chypre, Dict. Théol. Cath.*, VI, Col. 1231 - 1235.
- 3) Petit, L., *Marc Eugenicos, Dict. Theol. Cath.*, IX, 1968 - 1986 ; Grumel, V., *Marc d'Ephèse, Etudes Franciscanes*, 1925, 425 - 448.

ورسائله ومصنفاته . وجادل بليثون الفيلسوف في موضوع ارسطو وافلاطون فأيد الاول تأييداً كبيراً وخلف بما خلف كتاباً أسماه « المراثي » ضمنه معلومات مفيدة لتاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في أول عهد الاتراك العثمانيين في القسطنطينية (١) .

مجمع القسطنطينية : (١٤٨٤) ودالت دولة الروم واستولى الاتراك العثمانيون على جميع ابرشيات البطريركية المسكونية . وخشي الاتراك مطامع الدول الغربية واستفزات رومة وتحريضها فأيدوا الانفصال بين الكنيستين الكبيرين وعارضوا التفاهم والاتحاد . وظلت رومة متشبثة بموقفها من نقاط الاختلاف بينها وبين كنائس الشرق مطالبة بالخضوع لها في العقيدة والادارة فاشند النفور وزاد الشقاق .

وفي السنة ١٤٨٤ دعا سميان الطرابزوني البطريرك المسكوني الى مجمع في القسطنطينية للبحث في موقف الكنائس الارثوذكسية من كنيسة رومة ومن أبنائها الذين يطلبون العودة الى حضن الكنائس الارثوذكسية . فلبى الدعوة كل من بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكية وبطريرك اوروشليم . واعتبر المجمع قرارات فراري فلورنسة ملغاة لا قيمة لها . ثم اتخذ قراراً بشأن عودة اللاتين الى حضن الكنيسة الارثوذكسية فأوجب على هؤلاء نبذ قرارات مجمع فلورنسة وتغليب كنيسة رومة في تقديم بطرس على سائر الرسل وفي تقديم خلفائه اساقفة رومة وفي امر العصمة . وأوجب المجمع ايضاً اعادة تثبيت هؤلاء بسر الميرون (٢) .

* * *

- 1) Petit, L., *Oeuvres Complètes de Gennade Scholarios*, 8 Vols., Paris, 1928 - 1936 ; Jugie, M., *Georges Scholarios, Studi Byzantini*, 1939, 482 - 494.
- 2) Rhallis et Politis, *Suntagma*, V, 143 - 147 ; Petit, L., *Entrée des Catholiques dans l'Eglise Orthodoxe, Echos d'Orient*, 1896, 129 - 131.

الفهارس

الفهارس هي قوائم من المعلومات التي تُستخدم لتسهيل البحث عن المعلومات في الكتب والمجلات والوثائق الأخرى. وتُعدّ الفهارس أداة أساسية في المكتبات والمراكز البحثية، حيث تساعد الباحثين والمستخدمين على العثور على المعلومات التي يحتاجونها بسرعة وسهولة. وتُصنّف الفهارس إلى أنواع مختلفة، مثل الفهارس الموضوعية والفهارس الشخصية والفهارس الجغرافية، وكل نوع من هذه الفهارس يُستخدم في مجال معين من المجالات البحثية أو التعليمية.

الفهرست

سلسلة البطارقة (٦٣٤-١٥١١)
الفهرست الهجائي

سلسلة البطاركة

٦٣٤ - ١٥١١

٦٣ : مقدونيوس ٦٢٨ - ٦٣١	٨٩ : خريستوفوروس الاول ٩٦٠ - ٩٦٦
٦٤ : اثناسيوس الجبال ٦٣١	٩٠ : ثيودوروس الثاني ٩٦٦ - ٩٧٧
٦٥ : مقدونيوس ٦٣٢ - ٦٤٠	٩١ : اغابيوس الاول ٩٧٧ - ٩٩٥
٦٦ : جاورجيوس الاول ٦٤٠ - ٦٥٥	٩٢ : يوحنا الخامس ٩٩٥ - ١٠٠٠
٦٧ : مكاريس ٦٥٦ - ٦٨١	٩٣ : نقولاوس الثالث ١٠٠٠ - ١٠٠٣
٦٨ : ثيوفانس الاول ٦٨١ - ٦٨٧	٩٤ : الياس الثاني ١٠٠٣ - ١٠١٠
٦٩ : سباستيانوس او اسطفانوس الثالث ٦٨٧ - ٦٩٠	٩٥ : جاورجيوس الرابع (لاسكارس) ١٠١٠ - ١٠١٥
٧٠ : جاورجيوس الثاني ٦٩٠ - ٦٩٥	٩٦ : مكاريس الاول الفاضل ١٠١٥ - ١٠٢٣
٧١ : الكسندروس الثاني ٦٩٥ - ٧٠٢ ؟	٩٧ : الفثيريوس الثاني ١٠٢٣ - ١٠٢٨
٧٢ : اسطفانوس الرابع ٧٤٢ - ٧٤٨	٩٨ : ثيودوروس الثالث (جرجس) ١٠٣٤ - ١٠٤٢
٧٣ : ثيوفيلكتوس (ابن قنبره) ٧٤٨ - ؟	٩٩ : باسيليس الثاني ؟
٧٤ : ثيودوروس الاول ٧٦٧ - ٧٨٧	١٠٠ : بطرس الثالث ؟ ١٠٥٦ -
٧٥ : يوحنا الرابع ٧٩٨ - ٨١١	١٠١ : يوحنا السادس ١٠٥٧ - ١٠٦٢
٧٦ : ايوب الاول ٨١١ - ٨٢٦	١٠٢ : اميليانوس ١٠٦٢ - ١٠٧٥
٧٧ : نقولاوس الاول ٨٢٦ - ٨٣٤	١٠٣ : ثيودوسيوس الثاني ١٠٧٥ - ١٠٨٤
٧٨ : سمعان الاول ٨٣٤ - ٨٤٠	١٠٤ : نيقيفوروس الاول ١٠٨٤ - ١٠٨٨
٧٩ : الياس الاول ٨٤٠ - ٨٥٢	١٠٥ : يوحنا السابع ١٠٨٨ - ١١٠٦
٨٠ : ثيودوسيوس الاول ٨٥٢ - ٨٦٠	١٠٦ : يوحنا الثامن ١١٠٦ - ١١٣٧
٨١ : نقولاوس الثاني ٨٦٠ - ٨٧١	١٠٧ : لوقا الاول ١١٣٧ - ١١٥٥
٨٢ : اسطفانوس ؟ ٨٧١	١٠٨ : يوحنا التاسع ١١٥٥ - ١١٥٩
٨٣ : نقولاوس الثاني ٨٧١ - ٨٧٩	١٠٩ : افثيميوس الاول ١١٥٩ - ١١٦٤
٨٤ : ميخائيل الاول ٨٧٩ - ٨٩٠	١١٠ : مكاريس الثاني ١١٦٤ - ١١٦٦
٨٥ : زخريا ٨٩٠ - ؟	١١١ : اثناسيوس الاول او الثاني ١١٦٦ - ١١٨٠
٨٦ : جاورجيوس الثالث ٩٠٢ - ٩١٧	
٨٧ : ايوب الثاني ٩١٧ - ٩٣٩	
٨٨ : افستراتيوس ٩٣٩ - ٩٦٠	

سلسلة البطاركة (٦٣٤ - ١٥١١)

٣٧٩

١١٢ : ثيودوسيوس الثالث ١١٨٠ - ١١٨٢	١٢٦ : ميخائيل الثاني ١٣٥٣ - ١٣٨٦
١١٣ : الياس الثالث ١١٨٢ - ١١٨٤	١٢٧ : باخوميوس الاول ١٣٨٦ - ١٣٩٣
١١٤ : خريستوفوروس الثاني ١١٨٤ - ١١٨٥	١٢٨ : نيلوس الاول ١٣٩٣ - ١٤٠١
١١٥ : ثيودوروس الرابع (بلسامون) ١١٨٥ - ١١٩٩	١٢٩ : ميخائيل الثالث ١٤٠١ - ١٤١٠
١١٦ : يواكيم الاول ١١٩٩ - ١٢١٩	١٣٠ : باخوميوس الثاني ١٤١٠ - ١٤١١
١١٧ : دوروثيوس الاول ١٢١٩ - ١٢٤٥	١٣١ : يواكيم الثاني ١٤١١ - ١٤٢٦
١١٨ : سمعان الثاني ١٢٤٥ - ١٢٦٠	١٣٢ : مرقس الثاني ١٤٢٦ - ١٤٣٦
١١٩ : افثيميوس الثاني ١٢٦٠ - ١٢٦٩	١٣٣ : دوروثيوس الثاني (ابن الصابوني) ١٤٣٦ - ١٤٥٤
١٢٠ : ثيودوسيوس الرابع ١٢٦٩ - ١٢٧٦	١٣٤ : ميخائيل الرابع (ابن الماوردي) ١٤٥٤ - ١٤٦٢
١٢١ : ثيودوسيوس الخامس ١٢٧٦ - ١٢٨٥	١٣٥ : مرقس الثالث ١٤٦٢ - ١٤٧٦
١٢٢ : ارسانيوس الاول ١٢٨٥ - ١٢٩٣	١٣٦ : يواكيم الثالث ١٤٧٦ - ١٤٨٣
١٢٣ : ذيونيسيوس الاول ١٢٩٣ - ١٣٠٨	١٣٧ : غريغوريوس الثالث ١٤٨٣ - ١٤٩٧
١٢٤ : مرقس الاول ١٣٠٨ - ١٣٤٢	١٣٨ : دوروثيوس الثالث ١٤٩٧ - ١٥١١
١٢٥ : اغناطيوس الثاني ١٣٤٢ - ١٣٥٣	

الفهرست الهجائي

أدنه: أبرشيتها ١٢٦

أديمار: الأسقف والحروب الصليبية ٢٦٩، ٢٧٤

أرجيوس: والانشقاق ٢٢٦ - ٢٣٨

أرسانيوس: البطريك الأنطاكي ٣٢٣، ٣٤٠، الثاني

الأورشليمي ٢٨٨

أرواد: وصول المسلمين إليها ٤٠

إزمير: مطرانها وفوطيوس ١٥٦

أساقفة: نظامهم وامتيازاتهم ١٩١ - ١٩٤

أسامة: ابن زيد التنوخي والإيقونات ٨٣

إستقامة الرأي: يوم ١٣١

أستودي: اطلب ثيودوروس

أسرار: والجمع الخامس السادس ١٠٥ - ١٠٦

إسطفانوس: الثالث الأنطاكي ٦٣، السيتي ودير

القديس سابا ٦٨، الرابع الأنطاكي ٩٨

الإسكندرية: والإيقونات ٩٤، والجمع القسطنطيني

التاسع ١٤٩، وفوطيوس ١٥٢، والبطريك

الأنطاكي ١٧٥ - ١٧٦، والانشقاق ٢٥٠،

والجمع فلورنسة ٣٦٣، ٣٧٠، والجمع القسطنطينية

٣٧٥

إسلام: تعاليم ٢٥

إسماعيلية: والفاطميون ٢٠٢

أشوت: الأرمني حليف الروم ١٧١

أغابوس: البطريك الأنطاكي ١٧٢ - ١٧٦،

إستعفاؤه ١٧٧، بطريك أورشليم ٢٨٨

أغاثياس: والإيقونات ٨١

إغناطيوس: البطريك وبرداس ١٣٣ - ١٣٥، والجمع

الأول الثاني ١٤٠ - ١٤١، الثاني الأنطاكي ٣٤٤

٣٤٥ -

أفيميس: الثاني الأنطاكي ٢٨٩، ٣٢٣، والمغول

٣٣٢

إفجانيوس: الرابع بابا رومة ٣٦١ - ٣٧٥

أ -

أبامية: أبرشيتها ١٢٦

أبجر: والمسيح ٢١٨ - ٢٢٠

أبرشية: أبرشيات أنطاكية ١٢٦ - ١٢٧

أبرينكاس: يوسف وكريت ١٦٧

ابن اسحق: المترجم ١١٧

ابن بجيشوع: الطبيب ١١٥

ابن ثابت: ابو العلاء صاعد ١١٤

ابن عمار: ابو الحسن والصليبيون ٢٧٤ - ٢٧٥، فخر

الملك ٢٨٠

ابن الفضل: الشماس عبدالله ٢٢٢ - ٢٢٣

ابن قنبر: اطلب ثيوفيلاكوس

ابن مارك: والبطريك الأنطاكي ١٦٩

ابن مروان: احمد وحصار أنطاكية ٢٧٣ - ٢٧٤

أبو عبيدة: والقيادة ٢٩

أبو فراس: وحرب الروم ١٦٦

أبو قرة: اطلب ثيودوروس

أبوليناريوس: البطريك الاسكندري ٩٤

إيفانيوس: القبرصي والإيقونات ٨١

إتحاد: كتاب ١٨٨، إعلانه في فلورنسة ٣٦٦ - ٣٦٨،

والجمع القسطنطينية ٣٧٥

أتراك: خطرهم ٢٦١ - ٢٦٢، والجمع فلورنسة ٣٥٨

٣٥٩ -

أثناسيوس: الجلال ٤٠، الرهاوي ٦٤، الثاني بطريك

أورشليم ٢٨٨، الثاني الأنطاكي ٢٨٩ - ٢٩٢

أجنادين: الموقعة ٢٧ - ٢٨

أحزاب: والكنيسة ١٣٢ - ١٣٣

أخريدة: مطرانها ٢٣٣ - ٢٣٤، والانشقاق ٢٥٢

الأخطل: والأمويون ٦٤

أديانوس: الأول بابا رومة ٩٤ - ٩٦

أنصار: الرسل ٤

أنطاكية: والمسلمون ٣٢، ومقدونيوس ٣٩ - ٤٠،

وثيوفانس وجاورجيوس الثاني ٥١، وأواخر القرن

السابع ٦٣، والإيقونات ٨٧ - ٨٨، ٩٤،

١٢٣، والكرج ٩١، وأبرشياتها ١٢٦ - ١٢٧،

والروم ١٦٩، والامبراطور باسيليوس ١٧٧ -

١٧٨، والقسطنطينية ورومة ٢١١ - ٢١٢،

والانشقاق ٢٤٤ - ٢٤٦، والقرن الحادي عشر

٢٤٩، والصليبيون ٢٦٨ - ٢٧٨، وبطاركة

اللاتين ٢٨٧ - ٢٨٨، وبين الروم والصليبيين ٢٨٩

- ٢٩١، والزلازل ٢٩١، وبطريركها سمعان الثاني

٣٢١ - ٣٢٣، وسقوطها بيد المالك ٣٣٨،

والجمع فلورنسة ٣٦٣ - ٣٧٠، والجمع

القسطنطينية ٣٧٥

إنوشتيوس: الثالث والموارنة ٢٩٧ - ٢٩٨،

والقسطنطينية ٣١٤ - ٣١٥، ٣١٩ - ٣٢٠،

الرابع والاتحاد ٣٢٤ - ٣٢٥

أوثون: الإمبراطور ورومة ٢٢٥

أوربانوس: الثاني والانشقاق ٢٥٩ - ٢٦٠، والحرب

الصليبية ٢٦٢ - ٢٦٦، الرابع والاتحاد ٣٢٥ -

٣٢٦

أورستيس: البطريك الأورشليمي ١٧٧

أورشليم: والفتح الإسلامي ٣٣ - ٣٤، والجمع

السادس الخامس ٤٧ - ٥٢، وبطاركتها

الدمشقيون ٦٨، والإيقونات ٩٤، والمأمون

١١٧، والجمع القسطنطيني التاسع ١٤٩،

وفوطيوس ١٥٢، ورومة ١٧١، وأورستيس

١٧٧، وهدم القيامة ٢٠٨، والانشقاق ٢٥٠،

والسلاجقة والفاطميون ٢٦٢ - ٢٦٤،

والصليبيون ٢٧٥، ٢٧٨ - ٢٧٩، وبودوان

٢٨١، وبطاركة اللاتين ٢٨٥ - ٢٨٦،

والهيراخية الأرثوذكسية ٢٨٨ - ٢٨٩، وفلورنسة

٣٦٣ و ٣٧٠، والجمع القسطنطينية ٣٧٥

أوغوستينوس: القديس والجهاد ٢١٣

إفخارستية: والحاكم ٢١٧

إفخيروس: الأول الأورشليمي ٢٨٨

إفستاثيوس: البطريك المسكوني ٢٢٨ - ٢٢٩

إفستاثيوس: مطران نيقية ورومة ٣٠٥

أفسس: أسقفها والإيقونات ٩٢

أكاثيستون: القانون ١١٠

إكثيسيس: والبطريك بيروس ٤٠ - ٤١

أكلوغة: ولاون الثالث ٧٩

إكليروس: زواجهم ١٠٢ - ١٠٤

إكيدر: النصراني ومحمد ٢٣ - ٢٤

ألب أرسلان: والروم ٢٦١

ألكسندروس: الثاني الأنطاكي ٦٣، الثالث بابا رومة

٣٠٩ - ٣١٠

ألمان: نفوذهم في رومة ٢٢٥

الياس: البطريك الأورشليمي ٩٤، الثاني الأنطاكي

٢٢٠، الثالث الأنطاكي ٢٨٩، الماروني مطران

قبرص ٣٧٢

أليكسيوس: الإمبراطور ورومة ٢٥٨ - ٢٦٠، ٣٠٣ -

٣٠٥، والصليبيون ٢٦٦ - ٢٧٣

أمويون: والنصارى ٦٣ - ٦٦، ويوحنا الدمشقي ٧٠

٧١ -

أميليانوس: البطريك الأنطاكي ٢٤٩

أمين: والنصارى ١١٧

أنباط: والفتح الإسلامي ٣٣

إنثاق: وكنيسة الغرب ١٤٥، المشكلة ٢٢٦ - ٢٢٨

الإنجيل: والإسلام ٢٥، دستور الدولة ١٨٣ - ١٨٤

أندراوس: المرقل ١١٠

أنسطاسيوس: البطريك الأورشليمي ٥١، المسكوني

٨٧ -

أنسلموس: ونيقيطاس ٣٠٧ - ٣٠٨

إنشقاق: وإمبراطور الغرب ٩٦ - ٩٧، أخباره ٢٢٥ -

٢٤٨، والبيموية ٢٤١ و ٢٤٦، وسائر البطاركة

٢٤٣ - ٢٤٤، وأنطاكية ٢٤٤ - ٢٤٥، صده

٢٤٩ - ٢٦٠، والحروب الصليبية ٣٠٢ - ٣٢٨

بطاركة: والخلفاء ١٢٢ - ١٢٤، وتوابعهم ٣٥١ -

٣٥٢

بطرس: البطريرك الإسكندري ٥١، متروبوليت دمشق

والجلد ٩٠، الكردينال والجمع القسطنطيني

العاشر ١٥٤ - ١٥٥، الثالث البطريرك الأنطاكي

٢٢١ - ٢٢٢، رئيس أساقفة أمانفيس ٢٣٦،

البطريرك الأنطاكي والانشقاق ٢٤٤ - ٢٤٦،

الناسك والحروب الصليبية ٢٦٥ - ٢٦٦، المحترم

٣٠٦

بطريرك: المسكوني والكنيسة ١٠١ - ١٠٢، والقانون

١٨٤ - ١٨٥، تنصيبه ١٨٦، صلاحياته ١٨٧،

والفيلسوف ١٨٨

بطريركية: نظامها ١٨٨ - ١٨٩

بعلبك: وصول المسلمين إليها ٣٠

بغداد: أبرشيته ١٢٧، سقوطها ٣٣٠

بلدة: أبرشيته ١٢٦

بلسامون: البطريرك الأنطاكي ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣،

٢١٢ - ٢١٣

بلغاريا: كنيسها ١٤٩

بلمند: الدير ٢٩٩ - ٣٠١

بلمندي: اطلب نيقفوروس

بشيكي: الجمع السادس الخامس ٥١ - ٥٢

بودوان: وتاج أورشليم ٢٨٠ - ٢٨١

بورجس: ميخائيل البطريق ١٦٩، وحلب ١٧٦،

دوق أنطاكية ١٧٧

بولس: البطريرك المسكوني ٥١

بولسيون: وباسيليوس الاول ١٦١

بوليخرونيوس: الراهب والجمع السادس ٥٩ - ٦٠

بوهيموند: وكنيسة أنطاكية ٢٧٦ - ٢٧٨، وفاته ٣٠٤

بياتشرا: مجمعها ٢٦٢

بيبرس: الملك الظاهر والروم والصليبيون ٣٣٦ - ٣٣٩

بيروت: وصول المسلمين إليها ٣٠، مرتلها رومانوس

١١٠، أبرشيته ١٢٦، ويوحنا جيمسكي ١٧١،

والصليبيون ٢٧٥، ٢٨١، - كنندرائيها ٢٩٩

أنور يوس: قطعه ٥٠

إيرينة: الوصية والإيقونات ٩٤

إيزنوبوليس: مدينة السلام بغداد ١٢٧

إيسيدوروس: كيف والاتحاد ٣٦٠

إيقونات: ٧٩ - ٩٧، ولاوون الخامس ١٢٨

إيكونوموس: صلاحياته ١٩٠

إيلة: ومحمد ٢٣ - ٢٤

إيليا: الثالث الأورشليمي ٦٨، كاتم السر

الأورشليمي ١٤٩، الإسكندري ١٧٥

أيوب: البطريرك الأنطاكي ١٢٣ - ١٢٤

ب -

«الباب» (البابا): البابا والقلقيشندي ٣٥٤ - ٣٥٥

باخوميوس: الأول الأنطاكي ٣٤٥

بارة: والصليبيون ٢٧٧

بازل: مجمعها ٣٦٠ - ٣٦١

باسكال: الثاني بابا رومة ٣٠٣ - ٣٠٥

باسيليوس: الإمبراطور وفوطيوس ١٤٧ - ١٦٠،

وتفوحاته ١٦١ - ١٦٢، والكرج ١٧٧،

والحاكم ١٧٧ - ١٧٨، الثاني البطريرك الأنطاكي

٢٢١

بالاماس: اطلب غريغوريوس

بالس: وصول المسلمين إليها ٣٣

بانس: والجند في اليرموق ٣٢

بانياس: أبرشيته ١٢٦، والروم ١٧١

بترون: أبرشيته ١٢٦

بحيرة: الراهب ٦

بختيشوع: جرجس الطيب ١١٥، ابن جبرائيل ١١٧

برلام: وبواصف ١١٢

بستاريون: وجمع فلورنسة ٣٦٢ - ٣٧٥

بستر: السوري والإيقونات ٨٤

بستان: الموقعة ١٦٦

بصري: وخالد ابن الوليد ٢٧

ثيوفيلاكوس: الأول الأنطاكي ٩١، المسكوني

والذييتيخة ١٢٣، مطران اخريدة ٢٥٢

ثيوفيلوس: الأول ١٣٠، القائد ١٦٣

بيسان: صمود الروم فيها ٢٨

- ت -

تبوك: القتال فيها ٢٣

تدمر: وخالد ابن الوليد ٢٧

ترتيل: ١١٠

تغلب: وخالد ابن الوليد ٢٧

تفريقية: عاصمة البولسيين ١٦١

تنوخ: وأبو عبيدة والجزية ٣٢، وحلب ودخولهم في

الإسلام ١١٦

توما: البطريرك المسكوني ٤٦، اسقف كفرطاب ٦٠،

البطريرك الأورشليمي ١١٧، متروبوليت صور

١٤٩

تيوس: محل الاكسيس ٤١

تيموثاوس: الأسقف والهادي ١١٥

تيمورلنك: والكنيسة ٣٤٦ - ٣٤٧

تسالونيكية: ولاوون الطرابلسي ١٦٢

تسالية: مجمعها واتحاد ليون ٣٢٧

- ث -

ثيودوروس: القائد وخبطه ٢٧، واليرموق ٣٢، الأول

بابا رومة ٤١، البطريرك المسكوني ٤٦، أبو قرة

أسقف حران ٩١، مطران أفسس ٩٢، البطريرك

الأنطاكي ٩٤ و١٢٣ و١٧٠، الاستودي ١٨٧ -

٢٠٠، الثاني البطريرك الأنطاكي ٢٢٠ - ٢٢١،

الرابع الأنطاكي ٢٨٩، إزمير ورومة ٣٠٥،

الشاعر ٣٠٥، الثاني الامبراطور ٣٢٥

ثيودوسيوس: الأول الأنطاكي ١٥٢، الأورشليمي

١٥٢، الثاني الأنطاكي ٢٤٩، الثالث الأنطاكي

٢٨٩، الرابع الأنطاكي ٣٢٣ و٣٣٩ - ٣٤٠،

الخامس الأنطاكي ٣٤٤

ثيوفانس: الأول الأنطاكي ٦٣

ثيوفانو: الفيلسوف ١٧٠

- ج -

جاييه: يومها وعمر ٣٤ - ٣٥

جاورجيوس: الثاني الأنطاكي ٦٣، القبرصي

والإيقونات ٩٢

جبر: النصراني ٨ - ٩

جبله: ابن الأهم ٣٨

جبله: أبرشيته ١٢٦

جبل: أبرشيته ١٢٦، ويوحنا جيمسكي ١٧١،

والروم ١٧٧، كنندرائيها ٢٨٩

جبيلي: الشماس موسى ورومة ٣٤٨

جراجمة: والفتح الإسلامي ٣٣

جرمانوس: البطريرك المسكوني ٨٣ و٨٥ و٩٢،

القديس والطقوس ١٠٧ - ١١٠

جزية: ومحمد ٢٤، والخلفاء الراشدون ٣٥ - ٣٧

جلق: المراقبة فيها ٢٨

جالي: الفضل ابن بدر والصليبيون ٢٧٥

جنادوس: البطريرك المسكوني ٣٧٤ - ٣٧٥

جهاد: والكنيسة ٢٦٣ - ٢٦٤

جوزات: الدرب ١٦٦

جومة: وصول المسلمين إليها ٣٣

جوهر: القائد الفاطمي ٢٠٣ - ٢٠٤

- ح -

حارث: ابن عمير مقلته ٢٠، الحميري ومحمد ٢٠،

الغساني ومحمد ٢٠

حاكم: الخليفة الفاطمي ٢٠٧ - ٢٠٩، وسر

الإفخارستية ٢١٧

حسين: أبو عبدالله الداعي ٢٠٣

حلب: وصول المسلمين إليها ٣٢، والمهدي والنصارى

١١٦، وأبرشيتها ١٢٦، وزوج الروم ١٦٧،
والمقول ٣٣١
حياة: وصول المسلمين ٣١، أبرشيتها ١٢٦
حمدانيون: والروم ١٥٣ - ١٦٦، سعد الدولة ١٧٦
حمزة: ابن علي والنصارى ٣٠٨ - ٣٠٩
حمص: ودحية وهرقل ٢٠، وصول المسلمين ٣٠،
وهرقل ٥٣، أبرشيتها ١٢٦، والروم ١٦٩ و١٧٧
حنة: كومننوس ورومة ٣٠٦
حواريون: الرسل ٤

- خ -

خارتوفلاكس: صلاحياته ١٩٠
خالد: ابن الوليد ٢١ و٢٣ و٢٧
خالكة: إيقونتها ٨٥
خرشنة: الموقعة ١٦٦
خريستوفوروس: البطريك الأنطاكي ١٢٤ و١٥٣،
الثاني الأنطاكي ٢٨٩
خيناثياس: أسقف منبج والإيقونات ٨١

- د -

دائن: القتال فيها ٢٧
داود: ملك الكرج ١٧٧، البطريك الأنطاكي ٣٢٤
دارية: الرهبان الصليبيون ٢٨٤
دحية: وهرقل وحمص ٢٠
دفة: قصرها الامبراطوري ٨٦
دلاسانوس: دوق أنطاكية ١٧٧
دمشق: وصول المسلمين ٢٧ و٢٨ - ٣٠، كاتدرائيتها
والأمويون ٦٤، ويوحنا الدمشقي ٦٦ - ٧٢،
أسقفها بطرس والجلد ٩٠، وسيادة الروم ١٧٠،
هدم المريمية ٢٠٨، والمقول ٣٢٢ - ٣٣٣
دمشقي: اطلب يوحنا
دنانيرة: والنصارية ٦٥

دوروثيوس: البطريك الأنطاكي ٢٨٩ و٣٢٣، الثاني
الأنطاكي ٣٤٧ و٣٧٠
دومة الجندل: ومحمد ٢٣ - ٢٤
ديونيسيوس: الأول الأنطاكي ٣٤٠

- ر -

راس جالوت: لقب عند اليهود ١٢٢
رقة: حروبها ٢٥
رسل: قوانينهم والجمع المسكوني ٩٩ - ١٠٠،
وصاياهم ١٠٠
الرها: والروم ١٦٩
رهبان: التضييق عليهم ٩٢ - ٩٣، نظامهم ١٩٥ -
٢٠٠

رومية: والانشقاق ٢٥١، وفلورنسة ٣٦٩ - ٣٧٠
روم: عصرهم الذهبي ١٦١ - ٢٠٠، عودتهم الى
سورية ١٧٠ - ١٧١، والصليبيون ٢٦٦ - ٢٦٨،

ورومة ٣٠٢ - ٣٢٨
روما غريس: نيسابور ١٢٧
رومانوس: المقل البيروتي ١١٠، الأول الإمبراطور
١٦٣، والأتراك ٢٦١

رومة: والإيقونات ٨١ و٩٣، والألمان ٢٢٥، وتدعيم
السلطة ٢٢٥ - ٢٢٦، تتحدى القسطنطينية ٢٣٠
- ٢٣١، والسلطة في الكنيسة ٢٥٥ - ٢٥٨،
والقسطنطينية والحروب الصليبية ٣٠٢ - ٣٢٨

- ز -

زبلي: اطلب قسطنطين
زخريا: بابا رومة ٩٣، مطران خلقيدونية ١٥٤
زواج: والكنيسة ١٠٣ - ١٠٥
زونوراس: يوحنا والجلد مع رومة ٣٠٥
زيات: حبيب والدخول في طاعة رومة ٣٥٥ - ٣٥٧
زيغايينوس: اقيموس والجلد مع رومة ٣٠٥ - ٣٠٦

- س -

سابا: البطريك الأورشليمي ٢٨٨
سرجيوس: بطريق قيصرية والمسلمون ٢٦، ابن
منصور الدمشقي ٦٧، البطريك الأورشليمي ٦٨
سرجون: طبيب عبد الملك ٦٤
سرمساريم: لقب يهودي ١٢٣
سعد الدولة: الحمداني والروم ١٧٦
سفيان: ابن مجيب وطرابلس ٣٤
سكولاريوس: جورج وجمع فلورنسة ٣٦٢ - ٣٧٥
سكيلاريوس: صلاحياته ١٩٠
سلفكية: أبرشيتها ١٢٦
سلان: الفارسي ١٤ - ١٦
سلاجقة: وأورشليم ٢٦٢
سمعان: الثاني الأورشليمي ٢٧٦ - ٢٧٧، الثاني
الأنطاكي ٢١٩ و٣٢١ - ٣٢٣
سمساط: حصارها ١٦٦
ستورنية: بركانها والإيقونات ٨٤
ستكلوس: صلاحياته ١٨٩
سورية: عودة الروم ١٧٠ - ١٧١
سيرينوس: أسقف مرسيلية ٨١
سيف الدولة: والروم ١٦٣ - ١٦٦
سيلتيون: والإيقونات ٨٦ - ٨٧
سيمبومة: والانشقاق ٢٤١ - ٢٤٦
سينادة: أسقفها والإيقونات ٨٣
سيلايون: اطلب قسطنطين

- ش -

شرطية: والكنيسة ١٨٥ - ١٨٦
شرع: والنصارى ١١٨ - ١٢١
شمشيق: اطلب يوحنا جيمسكي
شيرز: وصول المسلمين ٣١، والصليبيون ٢٧٤
شيعية: والفاطميون ٢٠١

- ص -

صامتون: وبالاماس ٣٤٣
صفرونيوس: بطريك أورشليم ٣٣ - ٣٤،
الأورشليمي والتتريل ١١٠
صليب: وحرب الإيقونات ٨٩ - ٩٠
صليبيون: حروبهم ٢٦١ - ٣٢١، والقبر ٢٧٤ -
٢٧٥، وكنيسة أنطاكية ٢٧٥ - ٢٧٨، وكنيسة
أورشليم ٢٧٨ - ٢٧٩، وتنظيم الفتح ٢٧٩ -
٢٨٥، والبطاركة اللاتين ٢٨٥ - ٢٨٨،
والكنائس الشرقية ٢٩٣ - ٢٩٥، والموارنة ٢٩٥
- ٢٩٩، والحملة على القسطنطينية ٣١٦ - ٣٢١
صهيون: حصنها في يد الروم ١٧١
صور: أبرشيتها ١٢٦، مطرانها يمثل الكرسي الأنطاكي
١٤٩، والصليبيون ٢٨٢ - ٢٨٣، كاتدرائيتها
٢٩٩
صوم: والجمع السادس الخامس ١٠٦
صيда: أبرشيتها ١٢٦، والصليبيون ٢٧٥ و٢٨٢

- ض -

ضفاطر: الأسقف البدوي ومحمد ٢٢

- ط -

طبرية: والروم ١٧١
طرابلس: وصول المسلمين ٣٤، أبرشيتها ١٢٦، بيع
أرقاء الروم فيها ١٦٢، ويوحنا جيمسكي ١٧١،
حصارها ١٧٧، والصليبيون ٢٧٤ - ٢٧٥ و٢٨٤
طراسيوس: البطريك المسكوني ٩٤
طرشوس: أبرشيتها ١٢٦
طرشوس: أبرشيتها ١٢٦، والصليبيون ٢٨١،
كاتدرائيتها ٢٩٩
طقس: البيزنطي في أنطاكية ٢١٣
طوامير: حربها ٦٥

- ع -

فريدريكوس: الشماس والانشقاق ٢٣٦
فسيلفس: نائب المسيح ١٧٩ - ١٨٠، والكنيسة ١٨١
- ١٨٢ و ١٩٢ - ١٩٣
فقس: قطعه ٣٢٧
فلورنسة: مجمعها الاتحادي ٣٥٨ - ٣٧٥
فورنس: يوحنا والجدل مع رومة ٣٠٥
فوطيوس: البطريك المسكوني ١٢٨ - ١٦٠
فوقاس: بطرس ومقتل البطريك الأنطاكي ١٦٩ - ١٧٠
فيتاليانوس: بابا رومة ٤٣
فيرة: مجمعها والايقونات ٨١
فيليكوي: الانشقاق ١٤٥

- ق -

قبرص: والإمبراطور قسطنطين الرابع ٤٦، والصليبيون
٣١٣ - ٣١٤، والاتحاد الفلورنسي ٣٧١
قرآن: والايقونات ٨١
قراطة: والفاطميون ٢٠٢
قريتين: وخالد ابن الوليد ٢٧
قريظة: والرها ١٦٩
قسطنطين: الثالث الامبراطور ٤١، الرابع ٤٦،
البطريك المسكوني ٤٦، أسقف نيقوليه ٨٣،
الزبلي ٨٩ - ٩٣، سيلايون البطريك المسكوني
٩٢، السادس الامبراطور ٩٤، السابع ١٦٣
و ١٨٥، التاسع ٢٣١ و ٢٤٠ - ٢٤٢

القسطنطينية: والمجمع المسكوني السادس ٤٦ - ٥٠،
مجمعها التاسع ١٤٨ - ١٥٠، مجمعها العاشر ١٥١
- ١٦٠، كنائسها اللاتينية ٢٣٣، المدينة الشريفة
٣١٤، احتلال اللاتين ٣١٦ - ٣٢١، والاتحاد
٣٦٨ - ٣٦٩، مجمعها وميرون اللاتين ٣٧٥
قضاء: بين النصارى ١٢١ - ١٢٢
قلقشندي: والتواقيع السلطانية البطركية ٣٥٢ - ٣٥٤
قنسرين: وصول المسلمين اليها ٣٢

قوانين: الرسل ٩٩ - ١٠٠

قوروش: وصول المسلمين اليها ٣٣
قوزما: الراهب ويوحنا الدمشقي ٦٩، أسقف ميومة
والتزيتل ١١٠
قيامة: الكنيسة هدمها ٢٠٨
قيصرية: فلسطين والمسلمون ٣٤

- ك -

كانوليكيوس: اللقب ١٢٧
كارلوس: الكبير إمبراطور ٩٧
الكتاب: المقدس والمجمع الخامس السادس ١٠٠
كرج: وكنيسة انطاكية ٩١، ملكهم داود ١٧٧
كريت: مرتلها أندراوس الدمشقي ١١٠، الحملة عليها
١٦٢، عودتها الى الروم ١٦٧
كسرى: ومحمد ٢٠
كفرطاب: أسقفها والمقاتلات العشر ٦٠ - ٦١،
والصليبيون ٢٧٤
كلوني: الرهبان والبابا ٢٢٥ و ٢٢٨ - ٢٢٩،
والانشقاق ٣٠٦
كليرمون: مجمعها ٢٦٤ - ٢٦٦
كنيسة: والنظم والقوانين ٩٨ - ١١٢، والأباطرة
١٠١، والعباسيون ١١٣ - ١٢٧، اسمها ٢٠٩ -
٢١٠، لغتها ٢١٢، طقوسها ٢١٣

كهنة: واجباتهم ١٩٤ - ١٩٥
كيدونس: ديمتريوس واللاهوت الغربي ٣٦٢
كيولاريوس: أطلب ميخائيل
كييف: مطرانها والانشقاق ٢٥١

- ل -

لاتران: المجمع ٤٠ - ٤٢
اللاذقية: وصول المسلمين ٣١، أبرشيته ١٢٦
لاون: الثالث والايقونات ٧٩ و ٨٢، بابا رومة ٩٦،
الخامس والايقونات ١٢٨، السادس والمسلمون

١٦٢، الطرابلسي وهجومه ١٦٢ و ١٦٣، التاسع
بابا رومة والقسطنطينية ٢٣٠ - ٢٣١، متروبوليت
اخريدة ٢٣٣ - ٢٣٤
لمنوس: تحطيم سفن لاون الطرابلسي ١٦٣
لؤلؤ: الوصي وحلب ١٧٦
لوقا: البطريك الأنطاكي ٢٨٩
ليتورجية: والمجمع الخامس السادس ١٠٦ - ١١٠
ليكابينوس: رومانوس القائد ١٦٣
ليموناريون: ويوحنا موسكوس ١١١
ليون: مجمعها ٣٢٥ - ٣٢٦

- م -

مأمون: والنصارى ١١٧
ماريا: القبطية زوجة النبي ٢١
مانويون: والايقونات ٨١
متروفانس: مطران إزمير وفوطيوس ١٥٦
المتيني: وحرب الروم ١٦٦
المتوكل: والنصارى ١١٧
مجمع: اطلب اسم المكان الذي عقد فيه
محمد: النبي والإسلام والنصارى ٣ - ٢٤
المدينة: يهودها ١٠ - ١٣ و ١٦ - ١٨
مرتنيوس: الأول بابا رومة ٤١ - ٤٢
مرج: راهط وخالد ابن الوليد ٢٧
مرسيلية: أسقفها والايقونات ٨١
مرعش: والصليبيون ٢٦٩
مرقس: البطريك الإسكندري واللاتين ٣١٢ -
٣١٣، البطريك الأنطاكي ٣٤٩، إفجينيكوس
مطران أفسس وفلورنسة ٣٦٢ - ٣٧٥
مريمية: كنيسة دمشق هدمها ٣٠٨
المسيح: الملك ١٧٨ - ١٧٩
مشية: واحدة والمجمع المسكوني ٤٦ - ٥٠، والموارنة
٥٦ - ٦٢
مصيبة: الموقعة ١٦٦

- ن -

- الناصرة: دخول الروم إليها ١٧١
نجاشي: لا يُظلم عنده أحد ٨، النبي محمد ٢٠
نجران: والنبي والإسلام ١٣
نسطور: الراهب ٦ - ٧
النصارى: مؤتة ٢١، خروجهم من الشام ٣٨،
والأمويون ٦٣ - ٦٦، تحاسدهم ١١٧، والشرع
١١٨ - ١٣١، والقضاء ١٢١ - ١٢٢
نقولاوس: الأول بابا رومة ١٣٩ - ١٤٠ و ١٤٥ -
١٤٧، وفوطيوس ١٤٢ - ١٤٤، الثالث
الأنطاكي ٢١٨
نقية: مجملها والانشقاق ٣٢٣ - ٣٢٤
نهر الكلب: ويودوان والقتال ٢٨١
نيقيفوروس: فوقاس القائد ١٦٣ و ١٦٨ - ١٧٠،
البطيريك الأنطاكي ٢١٧ - ٢١٨ و ٢٤٩، الثاني
الأورشليمي ٢٨٨، البلمندي والانشقاق ٣٢٣ -
٣٢٤
نيقيطاس: القائد ١٦٣، مطران نيقية والجدل مع رومة
٣٠٥، وأنسلموس ٣٠٧ - ٣٠٨
نيسابور: أبرشيته ١٢٧
نيقولية: أسقفها والإيقونات ٨٣
نيقية: والجمع المسكوني السابع ٩٥ - ٩٦
- ه -
- هادي: وتيموثاوس الأسقف ١١٥
هارون: الرشيد والنصارى ١١٦
هدي: كتاب ٥٧ - ٦٠
هرقل: ومحمد النبي ٢٠، ودحية في حمص ٢٠،
ونزوح النصارى ٣٨، والموارنة ٥٣ - ٥٤
هولاغو: والكنيسة ٣٢٩ - ٣٣٤
هوميرتو: الكردينال والانشقاق ٢٣٦ - ٢٤٠
هيراخية: أنطاكية ١٢٤ - ١٢٦
هيبيرية: مجملها والإيقونات ٩١ - ٩٢ و ٩٦

- و -

- وصايا: الرسل ١٠٠
اليرموق: يومها ٣١ ٣٢
يزيد: ابن أبي سفيان والساحل ٣٠، وفلسطين ٣٤،
الأموي والإيقونات ٨٢ - ٨٣
يعاقبة: والمسلمون ٣٩
يعقوب: الثاني البطيريك الأورشليمي ٢٨٨
يمين: القيم المطلوب من النصارى ٣٥٠ - ٣٥١
يهود: في المدينة ١٠ - ١٣ و ١٦ - ١٨، ومعاوية
وطرابلس ٣٤، والإيقونات ٨١، وألقاب
رؤسائهم ١٢٢ - ١٢٣
يواكيم: البطيريك الأنطاكي ٢٨٩ و ٣٢٣ و ٣٤٧
يوحنا: صاحب ابلة ٢٣ - ٢٤، البطيريك المسكوني
٤٦، مارون ٥٦، الدمشقي ٦٣ و ٧٨ و ٨٧ - ٨٨
- ٩٢ و ١١٠ و ٢٢٧، موسكوس والليموناريون
١١١، الرحيم الإسكندري ١١١، الثامن بابا رومة
١٥٢ - ١٥٣ و ١٥٨ - ١٥٩ و ١٦٢، جيمسكي
الإمبراطور ١٧٠، الخامس الأنطاكي ١٧٧
و ٢١٦، البطيريك يعقوبي ٢١٨، التاسع عشر بابا
رومة ٢٢٩، أسقف تراني والانشقاق ٢٣٥،
السادس الأنطاكي ٢٤٩، السابع الأنطاكي ٢٤٩
و ٢٦٩ و ٢٧٦ - ٢٧٨، التاسع الأنطاكي ٢٨٨
و ٢٨٩، الثاني الإمبراطور وأنطاكية ٢٩٠ - ٢٩١،
العاشر المسكوني ورومة ٣١٥ - ٣١٦، الثامن
الإمبراطور ومراد ٣٥٩ - ٣٦٠
يوستينيانوس: والكنيسة ٥١ - ٥٣، والاكلوغة ٧٩،
والشرطة ١٨٥، والرهبان ١٨٦ - ١٨٧
يوسف: الأرشدياكون الإسكندري ١٤٩، الأول
البطيريك المسكوني ٣٢٧ - ٣٣٠، الثاني المسكوني
وفلورنسة ٣٦٥

المطبعة البولسية

شارع القديس بولس - جونيه
ص.ب: ١٢٥ - جونيه (لبنان)
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢ - ٩٣١٦٩٩

ASAD
RUSTUM
21.

THE CHURCH OF
THE CITY OF GOD
GREAT ANTIOCH

BY

ASAD J. RUSTUM, M.A., PH. D.

Historian to the Apostolic Thronos of Antioch

« Εἰς μίαν, ἁγίαν, καθολικὴν καὶ ἀποστολικὴν Ἐκκλησίαν »

VOL. II

634 — 1453 A.D.

EDITIONS ST. PAUL
BEYROUTH & JOUNIEH
(LIBAN)

EDITION
1988

*

Tous Droits Réservés
pour Tous Pays
Editions de la LIBRAIRIE St. PAUL

* Beyrouth - Rue du Liban
B.P. 11 - 4459
Tél.: 444973 - 448806 - 449801

* Jounieh - Rue St. Paul
B.P. 125 (LIBAN)
Tél.: 911.561 - 933.052